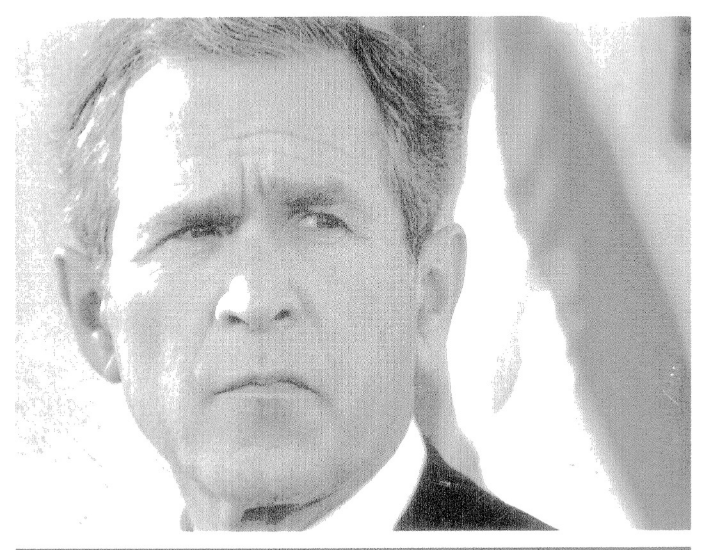
بوش مُحارباً



بوب وُدورد

تعريب: د. سمر القاضي

مكتبة العبيكان

يُخبرنا بوب وُدورد، بما يتمتع به من مهارات البحث والاستقصاء، كيف قاد الرئيس جورج دبليو بوش مع كبراء مستشاريه للأمن القومي الأمَّة إلى الحرب بعد الصدمة الأولية لهجوم ١١ أيلول/ سبتمبر.

إن الأسئلة المستقصية للمشاورات التي اجراها مجلس الأمن القومي والإيحاءات المباشرة التي جالت في خاطر الرئيس وأعضاء وزارة الحرب جعلت من هذا الكتاب عرضاً تاريخياً غير مسبوق للرئاسة المعاصرة في أيام الأزمات الحالكة.

يعتمد هذا الكتاب في تبيين القوة الجامحة المبالغة لإعادة تشكيل العالم على أكثر من مئات من مقابلات مع مصادر هامة، ومقابلة خاصة دامت أربع ساعات مع الرئيس.

كان نائب الرئيس دِك تشيني الصامت قليل الكلام، يمثل قوة الضغط للتعجيل بحرب في أفغانستان والعراق.

اما وزير الخارجية كولِن پاول، الدبلوماسي الحَذِر والجندي الوفي، فقد حُمِّل عبء بناء تحالف دولي في إدارة نَزّاعةٍ للانفراد بالسيطرة على العالم.

ووزير الدفاع دونالد رامسفِلد المُحَرِّض الذكي ونجم الإعلام الذي قاد الحملة العسكرية إلى أفغانستان ويأمل في متابعتها إلى العراق.

ومستشارة الأمن القومي كُنداليزا رايس، قناصة المشكلات الحاضرة دائماً، التي فاجأنا بُزوغُها كأهم مستشاري الرئيس.

ويحوي الكتاب صورة حيَّة لمدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تِنِت، الحاضر التَّوّاق لعمل خفي ضدَّ الإرهاب في أفغانستان وفي كل العالم. والعمل يتبع خطة ينفذها فريق يقوم بمهمة داخل أفغانستان لتقديم المال لشراء أصدقاء بملايين الدولارات الأمريكية محمولة في حقائب ضخمة.

بـوش مُحـارباً

بـوب وُدورد

تعريب: د. سَمَر القاضي

Original title:
BUSH AT WAR

طريق الملك فهد، ص.ب. 6672، الرياض 11452 المملكة العربية السعودية
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O.Box 6672, Riyadh 11452, Saudi Arabia
الطبعة العربية الأولى 1424 هـ - 2003م
ISBN 9960-40-380-7

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

وودوُرد، بوب
بوش محارباً   تعريب: د. سمر القاضي
464 ص، 17 × 24 سم
ردمك: ISBN 9960-40-380-7
1 - بوش، جورج (الإبن) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية
2 - الولايات المتحدة الأمريكية - السياسة الخارجية
أ - القاضي، سمر (تعريب)   ب - العنوان
ديوي 327,73   2945 - 24   رقم الإيداع: 2945 - 24

ردمك: ISBN 9960-40-380-7

الطبعة الأولى 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

كلمة المؤلف

قام مارك ماسليد ـ وهو خريج فاي بيتا كابا في الهندسة المعمارية من جامعة ليهاي سنة 1997 ـ بمساعدتي بشكل مستغرق كامل ساعات الدوام في نقل هذا الكتاب وكتابته وتحريره وبحثه ـ والتفكير فيه. وهو من أنبه الشباب الذين قابلتهم أو عملتُ معهم وأهدأهم وأروعهم. ولقد بدأ العمل كمساعدٍ لي في مايو/ أيار سنة 2002، وفي خلال ستة أشهر فقط أتقنَ موضوعات بوش ووزارته للحرب ومناظراتهم واستراتيجياتهم. وبما أنه واسع الاطلاع شديد التدقيق، فقد كان لديه أفكار ممتازة لتحسين بنية هذه القصة ومادتها وتعبيرها. وإن لديه حسّاً طبيعياً بالتنظيم، فاستطاع من ثَمّ أن يتلاعب بستة واجبات ويثابر بكياسةٍ على العمل لمدة 12 ساعة في اليوم. وهو واقعي التفكير إلاّ أنه منصف. وقد وجدتُ أنني أستطيع أن أثق به دون جدال. ولقد كان العمل مع مارك كل يوم مدعاة للابتهاج، وأنني لأعتزّ بصداقتنا. وأن هذا الكتاب ثمرة تعاون ـ فهو كتابه بقدر ما هو كتابي.

الى دونالد إ. غراهام، الذي يواصل
بشكل متألق حمل تراث والدته، كاثرين غراهام،
ارفع يديك، وأعمل عقلك - روح تساؤل متحررة
مستقلة ورغبة في الاستماع

ملحوظة إلى القرّاء

هذا الكتاب سرد لوضع الرئيس جورج و. بوش محارباً خلال الأيام المئة الأولى التي تلت الهجمات الإرهابية يوم 11 سبتمبر/ أيلول سنة 2001.

والمعلومات التي حصلت عليها لهذا الكتاب تتضمّن ملاحظات متزامنة أُخذتْ خلال أكثر من 50 اجتماعاً لمجلس الأمن القومي وغيره، حيث نُوقشتْ واتخذتْ أهمُّ القرارات. والكثير من الاقتباسات المنقولة مباشرة عن الرئيس وأعضاء وزارة الحرب مصدرها تلك الملاحظات. وكان غير ذلك من الملاحظات الشخصية والمذكرات والتقاويم والكرونولوجيات الداخلية المكتوبة ونسخ طبق الأصل وغيرها من الوثائق أساساً أيضاً للاقتباسات المباشرة ولأقسام أخرى من هذه القصة.

بالإضافة إلى ذلك، قمتُ بإجراء مقابلات مع أكثر من مئة شخص لهم علاقة بصنع قرار الحرب وتنفيذها، بما في ذلك الرئيس بوش وكبار أعضاء الوزارة وموظفو البيت الأبيض وموظفون يعملون حالياً في مختلف مراتب وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية. وقد أجريت المقابلات مع معظم مصادري غير مرة، وقابلتُ عدداً: منهم ستّ مرات أو أكثر. وأُجريتْ معظمُ المقابلات في الظل ـ بمعنى أنني كنت أستطيع أن أستخدم المعلومات، ولكن المصادر لن تحدَّد بالاسم في هذا الكتاب. وقد سمح لي جميع

الأشخاص تقريباً أن أسجّل مقابلاتنا على آلة التسجيل حتى تُرْوَى القصة بشكل أكثر اكتمالاً وباللغة الدقيقة التي يستعملونها.

ولقد نسبتُ الأفكار والاستنتاجات والمشاعر إلى المشاركين. ومصدر هذه الأشياء إمّا الأشخاص أنفسهم، أو زملاء يعرفونهم بشكل مباشر، أو السجلات المكتوبة ـ سواء أكانت محظورة أو غير محظورة.

وقد أجريت مقابلتين رسميتين للنشر مع الرئيس بوش. واستمرّتْ المقابلة الأولى مدة 90 دقيقة، وأجريتها مع دان بالز، وهو زميلٌ في جريدة الواشنطن بوست، لأجل سلسلة مطوّلة من المقالات مؤلفة من ثمانية أقسام، عنوانها «عشرة أيام في سبتمبر/ أيلول»، وقد نُشِرَتْ في الواشنطن بوست في أوائل سنة 2002. وقد اعتمدتُ على تلك المقابلة وعلى السلسلة في جزء من هذا الكتاب. وأجريت مقابلة ثانية مع الرئيس بوش في 20 أغسطس/ آب سنة 2002 في مزرعته في كروفورد في ولاية تكساس، واستمرت المقابلة ساعتين و25 دقيقة. وتُبَيِّنُ نسخةُ طبق الأصل أنني سألتُ أسئلةً أو عملتُ تعليقات قصيرة 300 مرة. وأعطى الرئيسُ إجاباتٍ محددة، كثيراً ما كانت مفصّلة، على ردود فعله وطريقةَ تفكيره التي أدّتْ إلى قراراتٍ رئيسية ونقاط تحوّله في الحرب.

إن التخطيط للحرب وشنّ الحرب يشتملان ضمناً على معلومات سرّيّة. وقد استعملت قدراً كبيراً منها، محاولاً توفير تفاصيل جديدة محددة دون الإضرار بالعمليات الحساسة أو بالعلاقات مع الحكومات الأجنبية. لكن هذه ليست رواية «منظّفة»، وإن الرُقَبَاء ـ لو كان لدينا رقباء في الولايات المتحدة، والحمد لله أنْ ليس لدينا رقباء ـ كانوا سيرسمون خطّاً عند مكان مختلف أكثر انحصاراً عن المكان الذي رسمته.

ويحتوي هذا الكتاب على كمية ضخمة من المعلومات الجديدة الموثّقة التي استطعتُ الحصول عليها وذاكرةُ الناس بعدُ حيّة والملاحظاتُ يمكن فَكُّ مَغَالقها. والكتاب سردٌ داخلي مطّلع، وهو إلى حد كبير القصةُ كما رآها

الداخليون المطلعون على بواطن الأمور، وكما سمعوها وعاشوها. وحيث إنها تغطي الأحداث والمداولات السرية التي بدأت قبل ما يزيد قليلاً عن سنة واحدة، فإنها رواية مبكرة. لكنني تمكنتُ من فحص المعلومات التي كانت لديّ لجهة الدقة والقرينة مع مصادر موثوقة كنت أعرفها منذ سنوات وفي بعض الأحوال منذ عقود. وقد يُغيّر النقدُ وأحكامُ التاريخ وغيرُ ذلك من المعلومات، خلال الشهور والسنوات القادمة، الفهمَ التاريخيَّ لهذه الفترة. ولكن الكتاب يمثّل جهدي للحصول على أفضل رواية للحقيقة يمكن الحصول عليها.

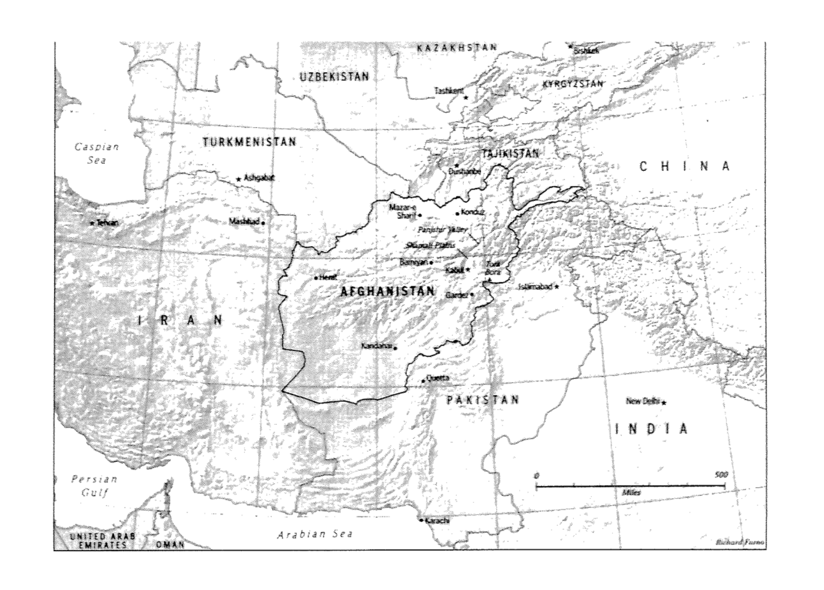
لقد نشرت سنة 1991 كتاباً عنوانه «القادة»، وكان موضوعه غزو باناما سنة 1989 والأحداث التي أدّت إلى حرب الخليج خلال رئاسة والد بوش، الرئيس جورج هـ. بوش. وكتبتُ في مطلع ذلك الكتاب: «إن القرار بالذهاب إلى الحرب قرارٌ يحدّد أمةً ما، بالنسبة للعالم وبالنسبة ـ وهذا أهمّ ـ لنفسها. وليس هناك عمل أكثر جدية لحكومة قومية، ولا مقياس أكثر دقة لقيادة قومية».

وهذا أَصْدَقُ اليومَ ربما من أيّ وقت مضى.

بوب وودوارد

11 أكتوبر/تشرين الثاني 2002

واشنطن دي سي


KAZAKHSTAN
Bishkek
UZBEKISTAN
KYRGYZSTAN
Tashkent
TURKMENISTAN
Caspian Sea
TAJIKISTAN
Dushanbe
CHINA
Ashgabat
Mazar-e Sharif
Konduz
Tehran
Mashhad
Panjshir Valley
Shamali Plains
Bamiyan
Kabul
Tora Bora
Herat
AFGHANISTAN
Gardez
Islamabad
IRAN
Kandahar
Quetta
PAKISTAN
New Delhi
INDIA
0
500
Miles
Persian Gulf
Karachi
UNITED ARAB EMIRATES
OMAN
Arabian Sea
Richard Furno

الشخصيـــات

رئيس الولايات المتحدة
جورج و. بوش

الرؤســـاء
نائب رئيس الولايات المتحدة
ديك تشيني

وزير الخارجية
كولين ل. باول

وزير الدفاع
دونالد هـ. رامسفيلد

مساعدة الرئيس لشؤون الأمن القومي
كوندوليزا رايس

مدير وكالة المخابرات المركزية
جورج ج. تينيت

رئيس هيئة الأركان المشتركة
الجنرال ريتشارد ب. مايرز، سلاح الجو الأمريكي

رئيس موظفي البيت الأبيض
آندرو هـ. كارد جونيور

نوّاب الرؤساء

رئيس موظفي نائب الرئيس
إ. لويس «سكوتر» ليبي

نائب وزير الخارجية
ريتشارد ل. آرميتاج

نائب وزير الدفاع
بول د. وولفوويتز

نائب مساعدة الرئيس لشؤون الأمن القومي
ستيفن ج. هادلي

نائب مدير وكالة المخابرات المركزية
جون إ. ماكلوخلين

نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة
الجنرال بيتر بايس، فيلق المارينز الأمريكي

مستشارون رئيسيون آخرون

القائد العام للقوات المسلحة، القيادة المركزية الأمريكية
الجنرال طومي فرانكس، الجيش الأمريكي

المدّعي العام للولايات المتحدة
جون أ. آشكروفت

مدير مكتب التحقيق الفيدرالي
روبرت س. موللر الثالث

مستشارة الرئيس القانونية
كارين ب. هيوز

المستشار الأعلى للرئيس
كارل روف

السكرتير الصحافي للبيت الأبيض
أري فلايشر

وكالة المخابرات المركزية

نائب المدير للعمليات
جيمس ل. بافيت

مدير مركز مكافحة الإرهاب
كوفر بلاك

رئيس العمليات الخاصة لمكافحة الإرهاب
هانك

قائد فريق كاسر الفكّ
غاري

الحلف الشمالي

القائد الرئيسي
محمد فهيم

قائد القوات في شمال افغانستان
عبد الرشيد روستم

قائد القوات في شمال أفغانستان
عطا محمد

قائد القوات في وسط أفغانستان
كريم خليلي

قائد القوات في غرب أفغانستان
إسماعيل خان

وزير الخارجية
عبد الله عبد الله

رئيس الأمن
المهندس محمد عارف سواري

قائد أفغانستان المؤقت
حامد كرزي



بوش محارباً

1

بدأ يوم الثلاثاء الواقع في 11 سبتمبر/أيلول من سنة 2001 كأي يوم رائع آخر من أيام ما قبل الخريف على الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية: الشمس ساطعة ودرجة الحرارة في أوائل العشرينيات والرياح خفيفة والسماء مشرقة بلونها الأزرق فاتح. وبما أن الرئيس جورج و. بوش كان يتنقل في ولاية فلوريدا ذلك الصباح لتعزيز برنامجه التربوي، لم يجد رئيس مخابراته، مدير وكالة المخابرات المركزية جورج ج. تينيت، ضرورة المحافظة على اجتماعه الروتيني مع الرئيس بوش الساعة الثامنة صباحاً. إن هذا الاجتماع يعقد عادة يومياً بشكل طَقسي، حيث يُطلع تينيت بذاته الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض على آخر وأهمّ المعلومات البالغة السرية التي تتدفق إلى إمبراطورية أمريكا الشاسعة للتجسس.

وبدلاً من هذا الاجتماع اليومي، كان تينيت ـ الضخم والودّي والبالغ من العمر 48 سنة وابن مهاجرين يونانيين ـ يتناول الفطور متمهلاً في فندق سانت ريجس، الذي يقع على مقربة من وإلى شمال البيت الأبيض، مع الرجل الذي كان المسؤول الأكبر عن تقدمه في عالم المخابرات السرية. هذا الرجل هو عضو مجلس الشيوخ الديموقراطي السابق من ولاية أوكلاهوما: دافيد ل. بورن. وقد عقد الرجلان صداقة غير عادية الوثوق، بدأت قبل 13 سنة عندما

كان تينيت موظفاً متوسط الأهمية في لجنة مجلس الشيوخ للمخابرات والتي كان يترأسها بورن. وقد وجد بورن أن تينيت مخبر موهوب، ففضله على غيره مع أنهم أكثر أقدمية وجعله مدير الموظفين. وهكذا، وبفعل هذا المنصب، أصبح لتينيت مدخل فعليّ لكل المخابرات السرية للدولة الأمريكية.

بعد ذلك الوقت، سنة 1992، تقدم بورن بتوصية تينيت إلى الرئيس المنتخب بيل كلينتون، وحضّه على تعيين تينيت لرئاسة المخابرات في فريق الإدارة الانتقالية. وفي السنة التالية، عُيِّن تينيت مدير موظفي المخابرات في هيئة مجلس الأمن القومي، وبهذه الصفة أصبح مسؤولاً عن تنسيق كل أمور المخابرات للبيت الأبيض، بما في ذلك النشاط السري. وفي سنة 1995، عيّن كلينتون تينيت نائبَ مدير وكالة المخابرات المركزية، وبعد سنتين عيّنه مديرَ المخابرات المركزية، وبذلك أصبح يرأس كل من وكالة المخابرات المركزية والمجتمع الواسع لمخابرات الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأنّ تينيت عصبيّ المزاج ومدمن على العمل، أُصيب بنوبة قلبية عندما كان مدير موظفي المخابرات في مجلس الأمن القومي. وبإمكان تينيت أن يكون متقلباً. فخلال رئاسة كلينتون الثانية وعندما كان مدير وكالة المخابرات المركزية، ترك تينيت غاضباً بصورة مفاجئة اجتماع لجنة للرؤساء كانت تضم وزيري الخارجية والدفاع، ولكن الرئيس لم يكن في هذا الاجتماع. كان في اعتقاده أن الاجتماع، الذي أخّره عن حضور مسرحية عيد الميلاد في مدرسة ابنه، امتدّ بشكل رتيب وأطول من اللزوم. «اذهبوا إلى الجحيم. أنا تارك» كانت ملاحظته وهو خارج. ولكن تينيت تعلم منذ ذلك الوقت كيفية ضبط أعصابه.

وفي أوائل سنة 2001، اتصل بورن بالرئيس المنتخب بوش، مادحاً تينيت لأنه لا ينتمي إلى أي حزب، وملحّاً عليه أن يبقيه مديراً لوكالة المخابرات المركزية. اقترح بورن على بوش أن يسأل والده عنه. ولما فعل بوش الأصغر

ذلك، قال الرئيس السابق جورج هـ. و. بوش: «مما أسمعه، هو رجل جيد»، وهذا أعطى مديحاً في لغة عائلة بوش. وكان تينيت، الذي يتمتع بحاسة حادة لتشجيع التحالفات السياسية، قد ساعد بوش الأكبر في دعم الترشيح المثير للجدل لروبرت جايتس كمدير لوكالة المخابرات المركزية سنة 1991، كما كان قد قاد لاحقاً المجهود لإعادة تسمية المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية باسم بوش، الذي كان نفسه مديراً سابقاً للمخابرات المركزية.

وقال الرئيس السابق لابنه أيضاً إن أهمّ شيء يفعله كرئيس كل يوم هو الاطلاع على موجز للمخابرات.

ابتداء من الوقت الذي كان فيه تينيت رئيساً لموظفي لجنة مجلس الشيوخ للمخابرات، كان قد طوّر فهمه لأهمية المخابرات الإنسانية. وفي فترة من الزمن مليئة بالتقدم المفاجئ في المخابرات الإشارية ـ الهاتف والرسالات الموجهة بآلات مبرقة كاتبة واعتراض الاتصالات وحلّ النظام الشفري ـ إضافة إلى التصوير الفوقي من خلال الأقمار الاصطناعية والتصوير بالرادار، كانت وكالة المخابرات المركزية قد قلّلت من أهمية المخابرات الإنسانية. ولكن تينيت خصص أموالاً إضافية للمخابرات الإنسانية ولتدريب الضباط المختصين، وهؤلاء هم عمّال الشرطة السرية الذين يشتغلون في توظيف الجواسيس والوكلاء في الحكومات الأجنبية ـ ويلقبون بـ «المصادر» أو «المصادر الثمينة» ـ والدفع لهم.

وقد كان تينيت يعلم، أن بدون هؤلاء الضباط لن تكون هناك مصادر إنسانية للتزويد بالمخابرات ولا مدخل إلى الحكومات وجماعات للمعارضة أو أية مؤسسة خارج الولايات المتحدة، ولا معلومات داخلية ولا فرصة للعمل السري إلاّ القليل. والعمل السري ضروري لإنجاز التغييرات في البلاد الأجنبية. وهو جزء من دستور الوكالة، مهما كان ممكناً أن يكون جدلياً أو مضللاً أو غير متقن عبر السنين.

ولقد كان هؤلاء الضباط يمثلون الخطوة الأولى الحاسمة. وفي وقت معين من التسعينيات، كان عدد الضباط الذين كانوا يتدربون للمستقبل لا يتعدى اثني عشر شخصاً. وكان هذا التدريب الكثيف يستغرق سنة كاملة ويتمّ في مركز لوكالة المخابرات المركزية يلقب بـ «المزرعة» في ريف ولاية ڤيرجينيا. وفي سنة 2001، زاد تينيت عدد المتدربين عشرة أضعاف، وهذا يعتبر قفزة لا تصدق. وكان الهدف من هذه القفزة زيادة المخابرات الإنسانية وجعل العمل السري ممكناً، إذا وافق عليه الرئيس. وكل هذا العمل قد طُبق خلال سنوات كلينتون في الرئاسة.

«ماذا يشغل بالك هذه الأيام؟» بورن سأل تينيت صباح ذلك اليوم. «بن لادن»، أجاب تينيت، مشيراً إلى القائد الإرهابي أسامة بن لادن، وهو سعودي منفي يسكن في أفغانستان وكان قد طور الشبكة العالمية «القاعدة». وكان تينيت مقتنعاً أن بن لادن على وشك أن يقوم بشيء كبير.

«جورج!» قال بورن. لقد قضى مدة سنتين وهو يستمع إلى قلق صديقه عن بن لادن. كيف يمكن لشخص منفرد بدون موارد حكومة أجنبية أن يشكّل كل هذا التهديد؟ سأل بورن.

«أنت لا تفهم قدرات ومواصيل ما يدبّرون»، قال تينيت.

وكان بورن قلقاً بأن صديقه قد أصبح لديه وسواس غير صحي عن بن لادن. قبل حوالى السنتين، قُبَيْل احتفالات سنة الألفين، كان تينيت قد قام شخصياً بخطوة شديدة الغرابة والخطورة وتلك هي تحذير بورن بعدم السفر أو حضور أية حفلات كبيرة وعمومية ليلة رأس السنة أو أول يوم في السنة الجديدة لأنه كان ينتظر هجوماً كبيراً.

وبعد ذلك، كان تينيت قلقاً بأنه سيحدث هجوم خلال احتفالات 4 يوليو/تموز سنة 2001. ومع أنه لم يقم بإخبار بورن. كان هناك 34 اعتراضاً محدداً للاتصالات بين عدد من أعوان بن لادن ذلك الصيف، تحمل تصريحات

مثل «ساعة الصفر غداً» أو «شيء مذهل سيحدث». وكان هناك عدد كبير من هذه الاعتراضات ـ وتُسمى غالباً الثرثرة ـ التي التقطت في نظام المخابرات. كذلك كانت هناك عدة تقارير عن تهديدات لدرجة أن تينيت اتخذ أشد حالات الحذر. وبدا أن هجوماً من نوع ما قريب الحدوث ضد السفارات الأمريكية في الخارج أو في مناطق تعج بالسياح الأمريكيين، ولكن المخابرات لم تقم أبداً بتحديد متى أو أين أو بأية وسيلة سيكون ذلك.

ولم يكن شيء قد حدث، ولكن تينيت قال إن هذا الموضوع يسرق منه النوم. وفجأة، تقدم عدد من حرس أمن تينيت؛ لم يكونوا يمشون رويداً، بل كانوا يندفعون باتجاه الطاولة.

آه، فَكَّرَ بورن.

«السيّد المدير»، قال أحدهم، «هناك مشكلة جدِّيَّة».

«ما هي؟» سأل تينيت، مشيراً إلى السماح بالتكلم بحرية.

«إن برج التجارة العالمية قد هوجم».

أعطى أحد الحرس تينيت هاتفاً خلوياً، فاتصل بالمركز الرئيسي.

«فوضعوا الطائرة في المبنى نفسه؟» سأل تينيت وكأنه غير مصدِّق.

أمر تينيت رجاله الرئيسيين بالتجمع في غرفة مؤتمراته في المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية، وأخبرهم أنه سيكون هناك بعد حوالى 15 ـ 20 دقيقة.

تينيت أخبر بورن «هناك طابع بن لادن في كل هذا»، «يجب أن أذهب». وكانت عنده ردة فعل أخرى وهي التي تؤكد الاحتمال الحقيقي بأن وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي قد أخفقا في عمل كل ما كان بالإمكان عمله لمنع الهجوم الإرهابي. «إنني أتساءل»، قال تينيت، «عمّا إذا كان لهذا الهجوم علاقة بهذا الشخص الذي يتدرب على الطيران. كان يشير إلى

زكريا موسوي. وهو مواطن فرنسي من أصل مغربي كان مكتب التحقيق الفيدرالي قد احتجزه في ولاية مينيسوتا في الشهر السابق بعد أن تصرف بصورة مشكوك بها في مدرسة محلية للتدريب على الطيران.

كانت قضية موسوي تشغل بال تينيت كثيراً. في شهر أغسطس/آب، كان مكتب التحقيق الفيدرالي قد طلب من وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي أن تتبعا أية مخابرات هاتفية قام بها موسوي إلى الخارج. وكان موسوي موضوع ملفّ سمكه حوالى 12 سنتيمتراً لدى المكتب. وبينما كان تينيت يقفز إلى سيارته ليذهب إلى المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في لانغلي، بولاية ڤيرجينيا، والتي تقوم على 258 فداناً، كانت جهوده الماضية والحاضرة والمستقبلية لمحاربة الإرهاب تجول بسرعة في رأسه.

وقد كانت وكالة المخابرات المركزية تسعى للقبض على بن لادن لمدة تزيد على خمس سنوات، وقد زاد هذا السعي بعد الحادثة التدميرية التي ضربت فيها السفارتان الأمريكيتان في كلٍّ من كينيا وتانزانيا سنة 1999، حين قتل أكثر من مئتي شخص على أيدي إرهابيين برعاية بن لادن. وفي ذلك الوقت، أمر الرئيس كلينتون القوات المسلحة الأمريكية بإطلاق 66 صاروخ كروز على مخيمات التدريب للإرهابيين في أفغانستان، حيث كان من المعتقد أن بن لادن كان في اجتماع مع أهم مساعديه. ولكن يبدو أن بن لادن كان قد ترك الاجتماع قبل بضع ساعات من وصول الصواريخ.

وفي سنة 1999، بدأت وكالة المخابرات المركزية عملية سرية لتدريب 60 من المغاوير من وكالة المخابرات الباكستانية لدخول أفغانستان والقبض على بن لادن. ولكن هذه العملية أُلغيت بسبب حدوث انقلاب عسكري في باكستان. وقد نوقشت خيارات أكثر طموحاً وخطراً في اجتماعات بدت وكأنها لا نهاية لها مع كبار الرسميين المسؤولين عن الأمن القومي في عهد كلينتون.

وكان أحد الخيارات التي بُحثت هي هجوم ليلي سرّي على بن لادن

بالطائرات المروحية التي تحمل عدداً صغيراً من أفضل العسكريين من فرقة القوات الخاصة التي تتألف من حوالى 40 رجلاً. وكانت هذه العملية تتطلب التزويد بالوقود جواً بما أنه كان على الطائرات أن تقطع حوالى 1500 كيلومتراً. ولكن المسؤولين تخوّفوا من هذه العملية بعد عملية الصحراء الأولى سنة 1980 التي أمر بها الرئيس كارتر لإنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران، وعندما سقطت عدة طائرات في الصحراء. كما زاد من الخوف إسقاط طائرتي بلاكهوك مروحيتين في الصومال خلال عملية في سنة 1993 مما أدّى إلى قتل 18 أمريكي. وقال العسكريون إن غارة على بن لادن قد تخفق وقد تؤدي إلى عدد كبير من القتلى الأمريكان. وبيّنت تقارير المخابرات أن بن لادن وكبار ضباطه يبقون عائلاتهم معهم، وكان الرئيس كلينتون معارضاً لأية عملية يمكن أن تقتل النساء والأطفال.

وقد وضعت في حالة التأهب، فرقة أمريكية من القوات الخاصة وغواصات أمريكية بإمكانها إطلاق قذائف بحرية، ولكن كان يلزمهم 6 ـ 10 ساعات من التحذير المسبق عن موقع بن لادن المستقبلي.

وكان أحد أكثر الأسرار حفظاً وجود 30 عميلاً مجنداً أفغانياً ـ لُقّبوا بـ «الشيوخ» ـ كان يُدفع لهم لتعقب بن لادن في أفغانستان خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وبإمكان هذه المجموعة، التي كانت تقبض عشرة آلاف دولار في الشهر، أن تتحرك معاً أو تنقسم إلى مجموعات تعقُّب أصغر تتألف من 5 رجال.

وكانت وكالة المخابرات الأمريكية تتصل يومياً وبشكل مأمون مع «الشيوخ»، واشترت لهم سيارات ودراجات نارية. ولكن صعوبة تعقُّب بن لادن كانت تتزايد، إذ كان ينتقل في أوقات غير منتظمة، وكثيراً ما كان يغادر فجأة خلال الليل.

وبصورة غير مصدقة، بدا أنه كان بإمكان الشيوخ أن يعرفوا مكان بن

لادن في أكثر الأحيان، ولكن لم يتمكنوا قط من تقديم معلومات مخابراتية يمكن العمل على أساسها ـ أي أن يقولوا بأي قدر من الثقة أنه سيبقى في مكان معين للمدة اللازمة لإطلاق صواريخ كروز هناك. وقد أخفقت وكالة المخابرات المركزية في أن تجد جاسوساً موثوقاً به من دائرة بن لادن يمكن أن يخبرهم عن مخططاته.

وكان البعض في عهد كلينتون وفي البيت الأبيض وجهاز الأمن القومي يشكّون في الشيوخ لأنه كانت هناك أحياناً مخابرات متضاربة عن موقع بن لادن. وفي أفغانستان، وخصوصاً فيما بين رجال المخابرات، كان العملاء يُشْتَرَوْنَ بصورة منتظمة.

ولم يعط كلينتون، وأيضاً بوش حتى ذلك الوقت، وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الصلاحية لإرسال الشيوخ أو أي من العملاء المدفوع لهم من وكالة المخابرات الأمريكية لقتل بن لادن أو اغتياله. إن الحظر الرئاسي للاغتيال، الذي وقّعه لأول مرة الرئيس جيرالد فورد، كان له قوة القانون.

وخلال فترة واحدة، اجتمع قائد الشيوخ برئيس محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في إسلام أباد في باكستان، وهو الذي كان يضبط الشيوخ ويدفع لهم. وقد زعم قائد الشيوخ بأنهم قد أطلقوا النار مرتين على قافلة بن لادن دفاعاً عن النفس ـ وهذا مسموح به ـ ولكنه يريد أن يلاحق قافلته بشكل متفق عليه، واقترح نصب كمين يتم فيه إطلاق النار على كل شيء وقتل الجميع ومن ثمّ الهرب.

وقد تصور تينيت أن الحال المتوفر وثروات العمل السري والجو أدت إلى أن تقوم وكالة المخابرات المركزية بكل ما بإمكانها القيام به وكما تعرف أن تعمل. ولكنه لم يطلب قط أن تُغير القوانين، ولم يطلب من كلينتون قط أن يعطي أمراً للمخابرات بالسماح للشيوخ بنصب كمين لبن لادن.

واعتقد تينيت بأن المحامين في وزارة العدل أو في البيت الأبيض قد

يرفضون فكرة الكمين لأن هذا يعتبر خرقاً لحظر الاغتيال. وأحس أنه مقيد بموقف كلينتون الليّن وموقف مستشاريه. كان يقول «كل شيء حسب القانون لدرجة الموت». ولكنه هو أيضاً كان قد ساهم في هذا الجو خلال الخمس سنين ونصف السنة التي كان فيها مديراً لوكالة المخابرات المركزية خلال عهد كلينتون.

وما كانت تسمح به القوانين هو القبض على بن لادن وتحويله على المحاكمة، وهذه عملية تعرف قانونياً بـ «التسليم». ولكن هذه العملية أيضاً أُحبطت لأن تينيت كان متأكداً بأن بن لادن لن يسمح لنفسه قط أن يؤخذ حياً. إذن هذه العملية، لو نجحت، ستقود إلى موته.

وقد كان باعتقاد كل الخبراء في مديرية العمليات في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأن هذه الخطة لن تنجح وأنها ستؤدي إلى قتل عدد كبير من الناس ولكن ليس بالضرورة بن لادن نفسه. وكان تينيت موافقاً على ذلك. وهكذا، لم تر هذه الخطة النور. وقد اقترح السعوديون بأن تضع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية جهازاً زاجلاً في أمتعة والدة بن لادن التي كانت تسافر من السعودية لزيارة ابنها في أفغانستان. ولكن هذا المخطط أيضاً رفض على أساس أنه خطرٌ ولن ينجح على الأرجح.

في الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين من ذلك الصباح، كان تينيت في مكتبه في الطابق السابع. كانت طائرتان تجاريتان قد ضربتا برجي مركز التجارة الدولي كليهما، وضربت ثالثة البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية). وكانت طائرة رابعة مخطوفة تحلق فوق ولاية بنسلفانيا، ويبدو أنها متجهة إلى منطقة واشنطن.

وكانت التقارير تغرق الشبكة وتقول إن أهدافاً مستقبلية تتضمن البيت الأبيض والكابيتول (مبنى مجلس الشيوخ والنواب) ووزارة الخارجية. وكان المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وهو معلم شديد البروز

قرب نهر بوتوماك، هدفاً ممكناً. وكان المحققون يعلمون أن رمزي يوسف، وهو إرهابي من القاعدة كان مسؤولاً عن أول هجوم على مركز التجارة الدولي سنة 1993، كانت قد لديه مخططات لقيادة طائرة مليئة بالمتفجرات إلى مباني وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

«يجب علينا إنقاذ موظفينا»، قال تينيت لقيادته العليا. «يجب أن نخلي المبنى». كان يريد أن يخرج الجميع، بما في ذلك مئات الموظفين الأساسيين من مركز مكافحة الإرهاب الذين كانوا في أسفل المبنى الخالي من الشبابيك.

وقد شكّ كوفر بلاك، رئيس مركز مكافحة الإرهاب، تقريباً بهذا الأمر وهزّ رأسه. وكان بلاك، وعمره 52 سنة، عميلاً سرياً ومحنكاً وأحد أساطير الوكالة. وكان قد ساعد في القبض على كارلوس الجاكال سنة 1994، الذي كان أشهر الإرهابيين الدوليين قبل بن لادن. وبلاك شبه أصلع ويلبس نظارتين بارزتين ويشبه كارل روف، الاستراتيجي السياسي الأهم للرئيس بوش بشكل لافت للنظر. وينتمي بلاك إلى الفترة السابقة عندما كانت الوكالة مليئة بالأشخاص الحيويين وغير العاديين. ورغم أن معظم موظفي الوكالة كانوا ينادون تينيت باسمه الأول، واظب بلاك على بروتوكول المدرسة القديمة منادياً تينيت بـ «السيد المدير» أو مجرد «سيدي».

«سيدي»، قال بلاك، «يجب علينا أن نستثني مركز مكافحة الإرهاب من هذا الأمر لأننا بحاجة إلى رجالنا ليعملوا على الكومبيوتر».

قال تينيت، «مركز الإجابة العالمي. . .»، وكان يشير إلى ثمانية أشخاص مسؤولين عن الرقابة في الطابق السادس، قرب أعلى المبنى، يلتقطون آخر المخابرات عن الإرهاب في كل العالم. «سيكونون تحت الخطر».

«هذا عامل - يجب علينا أن نبقيهم في أماكنهم».

«يجب أن نخرج هؤلاء الأشخاص»، أصرّ تينيت.

«لا سيدي، يجب علينا أن نتركهم هناك لأن لديهم مهمة رئيسية في أزمة كهذه. إنه تماماً لمثل هذه الأزمات لدينا مركز الإجابة العالمي».

«إنهم قد يموتون».

«سيدي، إذن عليهم أن يموتوا».

وصمت تينيت.

إن مدير وكالة المخابرات المركزية بمثابة الأب الذي يحمي آلاف الموظفين الذين يعملون هناك. وأن وكالة المخابرات في الثقافة الشعبية وبالنسبة للكثيرين في واشنطن مؤسسة مكسورة وحتى غير ضرورية: هي في أحسن الأحوال صنف منقرض. والمدير يحمي.

«أنت على حق». أخيراً قال تينيت لبلاك، إن القوانين، وربما جميعها، تغيرت ذلك الصباح. في ذلك الوقت، كان هناك الآلاف من القتلى في مدينة نيويورك وفي وزارة الدفاع.

وأحسّ بلاك بتغيّر هام. إن الناس، ومن بينهم المدير، بدأوا ينضجون أمام عينيه وفي مدة قصيرة جداً من الوقت. وباتوا يبتعدون عن الطريقة البيروقراطية إلى قبول الخطر وحتى الموت. إن بلاك لم يفاجأ بالهجمات على الإطلاق، ولكن حتى هو كان مصدوماً بمستوى المذبحة.

وفي سنواته الثلاث كرئيس لمكافحة الإرهاب، استنتج بلاك أن شخصاً في مركزه يجب أن يكون أكثر مغامرةً من رؤسائه، وإلاً فإنه الشخص الخطأ لعمله. وكان قد عمل ضد القاعدة عندما كان رئيساً لمحطة في الخرطوم في السودان، حيث كان هدفاً لمحاولة فاشلة لاغتياله سنة 1994. كان قد قدَّم بضعة اقتراحات عدوانية ومميتة تحت غطاء السرية للحصول على بن لادن، ولكنها رفضت. وكان يرى أن ذلك كان محتوماً ضمن الظروف السائدة. والآن تغير كل شيء.

أمر تينيت بإخلاء المبنى باستثناء العاملين في مركز الاستجابة العالمية.

وفي مدينة ليما في البيرو ذلك الصباح، كان وزير الخارجية الأمريكي كولين پاول يتناول الفطور مع الرئيس الجديد النيدرو توليدو. وكان پاول يحضر اجتماعاً لمنظمة الدول الأمريكية. وكان يتوقع عدداً من الحوادث اللطيفة مع وزراء خارجية أو قادة 34 من الـ 35 بلداً في المنطقة. ولم تكن كوبا مدعوّة.

وأخذ توليدو بالحديث مطوّلاً عن موضوع الحصص المفروضة في أمريكا على المنسوجات. وكان يريد إعفاء القطن ذي النوعية الجيدة لأن هذا القطن في رأيه لا ينافس القطن أي النوعية المتدنّية الذي ينتج في بعض المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة، تلك الولايات التي كانت قد أصرّت على فرض الحصص بطبيعة الحال.

وفجأة، فُتح الباب، ودخل بسرعة كرايج كيلي، مساعد پاول التنفيذي، وهو يحمل رسالة موجزة كتبت على ورقة قد نُزعت من دفتر: ارتطمت طائرتان بمركز التجارة الدولي.

وجود طائرتين ليس حادثاً عارضاً، فكر پاول وقال لنفسه: يجب أن أعود إلى الولايات المتحدة. مهما يكن ذلك الأمر، فهو أكبر من أن يجلس في مؤتمر لوزراء الخارجية في البيرو. الطائرة، أحضِروا الطائرة، قال پاول لكيلي، اذهب وقل لهم إننا ذاهبون.

وكان الوقت اللازم لتحضير الطائرة يستغرق ساعة، فتوقف پاول في المؤتمر. وقدم وزراء الخارجية الآخرين خطابات تعزية. وتكلم پاول باختصار، شاكراً المجتمعين على تعازيهم وأقسم أن الولايات المتحدة سترد وستنتصر في النهاية. «إن مأساة رهيبة قد حلّت ببلدي»، قال پاول. «ولكن تأكدوا أن أمريكا ستتعامل مع هذه المأساة بطريقة تقدم فيها المسؤولين إلى العدالة. تأكدوا أنه رغم أن هذا النهار رهيب بالنسبة لنا، فإننا سنتجاوزه وإننا بلد قوي - بلد يؤمن بنفسه.

ووقف الآخرون وصفقوا. وسارع پاول بعد ذلك إلى المطار لرحلة تستغرق 7 ساعات. وحالما أقلعت الطائرة، وجد پاول أن ليس بإمكانه التكلم مع أي شخص لأن اتصالاته كانت متعلقة بالنظام في الولايات المتحدة، وكان هذا النظام عريقاً في المخابرات. وبدون هاتفه أو بريده الإلكتروني، كان مثل رجل بدون وطن.

وبعد بضع دقائق، ذهب پاول إلى مقدمة الطائرة ليتصل عن طريق اللاسلكي. وكان هذا يعني استعمال وسائل اتصالات غير مأمونة. ونجح بالاتصال بريتشارد أرميتاج، نائب وزير الخارجية وأعزّ أصدقائه. وتكلما عدة مرات، ولكن الحديث الحقيقي كان ميؤوساً منه. وكان أرميتاج ـ خريج الأكاديمية البحرية سنة 1967 ـ قد خدم أربع دورات في ڤيتنام ثم عمل كمساعد لوزير الدفاع في إدارة ريغان.

وكان أرميتاج رجلاً صريحاً نامي العضلات ضخم الصدر يستهجن الكلام الديبلوماسي الذي يتفوه به أصحاب السراويل الفاخرة والبدلات المقلمة. وحتى قبل أن يتسلم الرجلان وزارة الخارجية، كانا يتكلمان عدة مرات كل يوم. كان پاول يقول عن أرميتاج «إنني أؤمن له على حياتي وأولادي وسمعتي وكل ما أملك».

ومن بين كل الأشياء التي كان يكرهها پاول كونه خارج الأحداث على رأس القائمة. وإدارة الأزمات جزء أساسي من تخطيط سياسة الأمن القومي. ومهما كانت البنية التي قد يحاول أن يفرضها رئيس أو بيت أبيض أو فريق أمن قومي على عملية تخطيط السياسة، كانت هناك صفة عشوائية لبعض اللحظات الكبيرة. أن الأزمة تعطي أكبر خطر وأكبر فرصة.

في عمر الـ 64، كان پاول قد جلس على ثلاثة مقاعد في غرفة العمليات في البيت الأبيض ـ مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان لمدة سنة، ثم رئيس الأركان المشتركة للرئيس بوش الأول خلال حرب الخليج، والآن هو وزير خارجية بوش الثاني في الأشهر التاسعة الأخيرة.

ووصل تقرير بأن طائرة أخرى قد ضربت البنتاغون، وكانت هناك تقارير مبهمة وإشاعات تروج عن أنواع أخرى من الطائرات في كل مكان.

وبدأ باول تدوين الملاحظات لنفسه. وكعسكري أبداً، كتب: ما هي مسؤوليات موظفيّ؟ كيف سيرد العالم والولايات المتحدة على هذا؟ وماذا عن الأمم المتحدة؟ وماذا عن حلف شمال الأطلسي؟ كيف أبدأ بتجميع الناس؟

وبدت السبع ساعات من العزلة أبد الدهر للرجل الذي كان بإمكانه أن يكون القائد الأعلى للقوات المسلحة.

في سنة 1995، فكر باول، الذي كان قد مضى على تقاعده من الجيش مدة سنتين، بالترشيح للرئاسة. وكتب سيرة ذاتية بعنوان «رحلتي الأمريكية»، التي أصبحت الرقم الأول على لائحة أحسن المبيعات الوطنية. وكان متزناً رابط الجأش في قلب السياسة الأمريكية ويحتل المركز الأعلى في تخمين أصوات المقترعين. وهكذا كان ترشيح الجمهوريين تقريباً له إذا طلب ذلك، والرئاسة في متناوله.

وكان أرميتاج ضد ذلك بشدة. «إنها لا تستحق ذلك العناء. لا تعملها»، نصح صديقه، وأخيراً قال له: «لا أظن أنك مستعد لهذا المنصب». إن عملية الحملة الانتخابية ستكون كل ما يكرهه باول، «كل شيء سيء يمكن أن تفكر به». إن باول يحب الخطط المبينة بوضوح والنظام والتنبؤ بما سيأتي ودرجة من اليقين ليست جزءاً من هرج ومرج السياسة الأمريكية.

وكان من المعلوم أن زوجة باول، ألما، كانت ضد ترشحه للرئاسة. ولكن ما كان سرياً، أن ألما قالت له إنه إذا ترشح فستتركه. قالت له «إذا ترشحت، أنا ذاهبة»، كانت تخاف من أن يهاجم أو يقتل بالرصاص. ولم تكن تريد لحياتها أن يترشح باول للرئاسة وأن يصير رئيساً وتصير هي السيدة الأولى. قالت: «هذا أمر عليك أن تقوم به وحدك».

وفي سنة 2000، وبعد أن فاز بوش بترشيح الحزب الجمهوري للرئاسة، أعطى پاول وعده بالمساعدة، ولكن كارل روڤ وجد أن على الحملة أن تحرك الأرض والسماء لجعل پاول يحضر نفس المناسبة مع بوش. وقد فعل ذلك تقريباً كل جمهوري هام، ولكن ليس پاول. وكان رجاله دائماً يريدون أن يعرفوا من سيكون في الاحتفال وماذا سيقال فيه ومن هم الحضور وما هي الغاية السياسية منه. وبدا كل هذا مخصصاً لتحديد السقوط السياسي ـ على پاول وليس على بوش. ولاحظ روڤ أنه كان لدى پاول ميل دقيق ومدمر، كأن پاول كان يحمي أوراق اعتماده الوسطية ومستقبله السياسي الشخصي على حساب بوش.

ومع ذلك، كان پاول أداةً متوفرة لدفع بوش إلى الوسط، وأصبح الخيار شبه المؤكد لأن يصبح وزير الخارجية في حال فوز بوش. وجعل پاول من المعلوم أنه سيقبل بهذا المنصب. وفي دائرته الداخلية، كان هناك شعور قوي بأن المنتخبين يعلمون أنهم سيختارون فريقاً ـ وليس مجرد بوش ونائب رئيسه المرشح، وزير الدفاع السابق ديك تشيني، ولكن أيضاً پاول.

ولما أعلنت المحكمة العليا أن بوش هو الفائز بفرق 537 صوتاً في قصة ولاية فلوريدا، كان مستشارو پاول مقتنعين أن رئيسهم هو المسؤول بوضوح عن توسيع دائرة هذا الفرق في الأصوات مرةً بعد مرة.

في الأشهر الأولى له كوزير للخارجية، لم يكن پاول بالحقيقة على علاقة شخصية قريبة من بوش، ولم يكن قد وطد درجة ما من الارتياح مع بوش ـ علاقة طبيعية مرتاحة من التقارب التي كانت بين كل من الاثنين والآخرين. كانت هنالك مسافة بين هذين الرجلين الدمثين ـ علاقة حذر ـ وكأنهما يطاردان بعضهما خلسة من بعيد ولا يجلسان قط معاً لحل المشكلة القائمة بينهما، مهما كانت طبيعتها. كان الرجلان يمزحان بحرية، مثلما يعمل الجنود الذين يعملون في نفس الثكنة، مع الآخرين، ولكن نادراً ما يمزحان مع بعضهما البعض.

وكان هذا الأمر يزعج روف ويجعله يشعر أن پاول فوق الانضباط السياسي، وأنه يعمل بنوع من التخويل. «باستمرار يقول إنه القائد، وكل هذا سياسة، وأنه سيربح اللعبة السياسية المميتة»، كان روف يقول بصورة شخصية.

وكلما كان پاول يتقدم زيادةً عن اللزوم على الرئاسة في قضية ما أو يصبح الوجه العام للإدارة، كانت العمليات السياسية والإتصالات في البيت الأبيض تضبطه وتبقيه خارج الضوء المسلط. وكان روف وكارن هيوز، وهي مديرة اتصالات بوش لفترة طويلة ومستشارة في البيت الأبيض الآن، يقرران مَن من الإدارة سيظهر على التلفاز في برامج المحادثة يوم الأحد وفي أخبار المساء الرئيسية وفي برامج الصباح. وإذا لم يتصل البيت الأبيض بپاول مقترحاً أن يقبل الدعوات الكثيرة للظهور على الشاشة الصغيرة، كان پاول يعرف القوانين. كان يقول للبرامج كلا.

وفي أبريل/ نيسان 2001، عندما اعتُرِضت طائرة تجسس حربية أمريكية من نوع أي پ - 3 إي فوق ساحل الصين وأُجبرت على الهبوط وأُخذت مع طاقمها الـ 24 رهينةً من قِبل الحكومة الصينية، كان البيت الأبيض عازماً على إبعاد بوش عن هذه القضية حتى لا يبدو الرئيس متورطاً عاطفياً أو بصورة المساوم. كان من الهام التصرف وكأن لم تكن هناك أزمة رهائن باعتبار أن أزمة الرهائن الإيرانية كانت قد شلّت الرئيس كارتر وأن وضع الرهائن في لبنان كان قد أصبحت وسواساً للرئيس ريغان في منتصف الثمانينيات.

وحُوِّلت القضية على پاول الذي نجح في إطلاق سراح الرهائن بعد 11 يوماً. وكان هذا انتصاراً كبيراً، ولكن حتى في ذلك الوقت لم يُرِدْ البيت الأبيض أن يظهر پاول على التلفاز ليعزى الفضل إليه.

وكان پاول وأرميتاج يمزحان بقولهم إن پاول قد وضع في «الثلاجة» أو «البراد» - للاستعمال عند الحاجة فقط.

وقبل أسبوع من 11 سبتمبر/ أيلول، كانت مجلة تايم قد حضّرت قصة للغلاف عن پاول عنوانها «إلى أين ذهبت يا كولونيل پاول؟» وقالت القصة إنه كان يترك «بصمات سطحية» على السياسة ويخسر أمام المتصلّبين في الإدارة. كانت هذه ضربة فعالة جداً من قِبل البيت الأبيض، حيث كان بعض المسؤولين قد تعاونوا مع كتّاب القصة لإثبات أن پاول يعمل يائساً في بعض الأحيان ومنعزلاً في كثير من الأحيان على هوامش الإدارة الجديدة.

وكان روڤ يقول بصورة شخصية أنه يعتقد بأن پاول قد خسر خطوةً بطريقةٍ ما وأنه كان غريباً أن يراه غير مرتاح في حضرة الرئيس.

وقد أمضى پاول وغيره في دائرته عدة ساعات مع صحفيي مجلة تايم، يحاولون أن يخففوا من خط القصة، دون جدوى. ولكن پاول وأرميتاج كانا يعرفان مدى القوة الهائلة للرؤيا المتصوَّرة في واشنطن، حيث الصعود والهبوط أكثر من مجرد لعبة في غرفة الجلوس. والمشكلة كانت أن خط القصة الحيوي سيعتبر كالواقع، حتى إذا لم يكن كذلك. والمشكلة الأكبر أنه كان صحيحاً جزئياً. لم يكن پاول يصيغ سياسة أجنبية. كان يتلقى مهمات ويستجيب لأزمة صغيرة واحدة إثر أخرى. ولكنه كان قد قال مرة بصورة شخصية: «البقاء على قيد الحياة في المقام الأعلى مسألة استشراف عملي».

وعندما كان پاول رئيساً للأركان المشتركة، كان قد سجل بعضاً من أقواله المفضلة ووضعها تحت زجاج مكتبه في البنتاغون. وجاء في إحداها: «لا تسمح لهم قط أن يروك وأنت تعرق».

2

كان الرئيس بوش يقرأ لتلاميذ الصف الثاني الابتدائي بمدرسة إيما إي بوكر في ساراسوتا في فلوريدا عندما أخبره روف أن طائرة قد ضربت البرج الشمالي من مركز التجارة الدولي. وبدت الأمور أولاً أنها قد تكون حادثاً عارضاً أو غلطة طيار أو ربما، فكّر بوش، أن الطيار قد أُصيب بسكتة قلبية.

كان في صف وهو يجلس على كرسي يرتدي طقماً غامق اللون وقميصاً أزرق وربطة عنق لونها أحمر ضارب. وكان مكتوباً على السبورة الصغيرة خلفه: «القراءة تجعل أي وطن عظيماً!».

وبعد قليل، قاطع الرئيس أنورو هـ. كارد الأصغر، وعمره 55 سنة، وهو رئيس أركان بوش ومساعد سابق في البيت الأبيض لريغان وبوش الأكبر، وهمس مباشرة في أذنه اليمنى، «إن طائرة ثانية ضربت البرج الثاني. إن أمريكا تتعرض للهجوم».

إن صورة فوتوغرافية لتلك اللحظة محفورة للتاريخ. يدا الرئيس مكتفة بصورة رسمية على حضنه ورأسه ملوي ليسمع كلمات كارد. على وجهه نظرة بعيدة ورزينة، كأنها متجمّدة، تقارب الذهول. ويتذكر بوش تماماً ما كان يفكّر فيه: «لقد أعلنوا علينا الحرب، وأنا قرّرت في تلك اللحظة أننا سنعلن الحرب».

وقرر بوش أنه بحاجة لأن يقول شيئاً للشعب. وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، ظهر أمام كاميرات التلفزة في غرفة الإعلام في مدرسة بوكر ليعلن تصريحاً يتألف من أربع فقرات. ووصف بحذر ما قد حدث بأنه «هجوم إرهابي فيما يبدو». ووعد وهو يبدو مرتعشاً ولغته غير رسمية على غير العادة أن جميع طاقات الحكومة الفيدرالية ستوظف للتحقيق في «هؤلاء الناس الذين ارتكبوا هذا العمل وإيجادهم».

تابع قائلاً «لن نقبل بالإرهاب ضد شعبنا»، وقوله «لن نقبل بهذا» بدا كالجملة الشهيرة التي كان قد استعملها والده منذ 11 سنةً عندما واجه أكبر تحدٍّ له بعد أن غزت العراق الكويت في أغسطس/آب سنة 1990.

وكان بوش يعتبر إعلان عزم والده من على مرجة البيت الأبيض عدة أيام بعد الغزو من أحسن لحظات والده كرئيس. «لماذا استعملتُ تلك الكلمات المعينة، ربما كانت صدى للماضي»، قال الرئيس الحالي فيما بعد «لا أدري لماذا... سأقول لكم هذا، إننا لم نتلكأ وندلّك الكلمات. مجرَّد أنني نهضت وتكلمت».

«ما رأيتم كانت ردة فعلي الباطنية تخرج مني».

وأسرع موكب الرئيس إلى مطار ساراسونا برادنتون الدولي. وصعد الرئيس سلّم الطائرة مسرعاً ودخل كابينه الأمامي الخاص، وهو مكتبه على طائرة سلاح الجو رقم 1.

«تأكدوا من حماية السيدة الأولى وابنتي»، كان أمره الأول لعملاء الخدمة السرية.

«سيدي الرئيس»، قال أحد العملاء بعصبية، «يجب أن تجلس بأسرع ما يمكن».

وتزنّر بوش، وأسرعت الطائرة على المدرج وهي تقريباً تقف على ذيلها صاعدةً بسرعة.

وكانت السيدة الأولى لورا بوش، وهي ترتدي طقماً أحمر ضارباً مع حبلين من اللؤلؤ حول عنقها في غرفة الكوكس في مبنى مكتب راصل من مباني مجلس الشيوخ في واشنطن، على وشك أن تشهد عن التعليم المبكر للأطفال أمام لجنة السناتور ادوارد م. كينيدي، وصلتها أنباء عن «حادث» ما، فترك المبنى كل من السيدة بوش وكينيدي والآخرون من باب جانبي، ولما علمت بالتفاصيل، عملت السيدة بوش على ربط جأشها. وبعد قليل، أصبح وجهها رمادي اللون ودمعت عيناها ورجفت شفتاها.

ثم ضُرب البنتاغون، وتجمّع البوليس ورجال الخدمة السرية حولها، وأعربوا عن الحاجة لأخذها إلى مكان أمين. وبعد قليل، سارعت المجموعة خطاها. وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين، كانت السيدة بوش تنتظر موكباً مرافقاً. وبسبب عرقلة السير من الكابيتول، استغرقت رحلتها إلى المركز الرئيسي للخدمة السرية 45 دقيقة، وهناك أُخذت إلى الدور السفلي من الوود كونفرنس روم.

ولم يتمكن رجال الخدمة السرية حتى العاشرة والدقيقة الحادية والخمسين صباحاً من تعيين موقع توركويز، وهو الإسم الشفري لباربارا بوش، وعمرها 19 سنة وفي السنة الأولى في جامعة تنل، ونُقلت إلى مكتب الخدمة السرية في نيوهايڤين. وأُخذت توينكل، وهو الإسم الشفري للتوأم الآخر، دجينا، وهي في السنة الأولى في جامعة تكساس في أوستن، إلى فندق دريكسل بعد 6 دقائق.

كانت الساعة التاسعة و39 دقيقة صباحاً عندما ضربت البنتاغون بعنف الرحلة رقم 77 من الخطوط الجوية الأمريكية، بوينغ 757.

وبعد 5 دقائق، حصل بوش على نائبه ديك تشيني الذي كان قد أُخذ بسرعة من مكتبه في الجناح الغربي من قِبل رجال الخدمة السرية إلى مركز عمليات الطوارئ للرئيس، وهي غرفة محصنة تحت أرض البيت الأبيض.

قال بوش «نحن في حالة حرب»، وطلب من تشيني أن يعطي موجزاً لقيادة الكونغرس. وعندما أغلق بوش سماعة الهاتف، قال لبعض موظفيه على طائرة سلاح الجو رقم 1، وكانوا قد سمعوا ملاحظته لتشيني: «هذا ما نقبض لأجله المال يا أولاد. سنعالج هذا الموضوع. وعندما نعرف مَن قام بهذا العمل، لن أعجبهم كرئيس. إن أحداً ما سيدفع الثمن».

وبعد قليل تكلّم تشيني مع بوش على الهاتف، وحثه أن يعطي الصلاحية للطيران العسكري الأمريكي بإطلاق النار على أية طائرة تجارية إضافية يتحكم فيها خاطفون. إن طائرة مخطوفة هي سلاح. سيكون هذا قراراً هاماً خطيراً، ولكن تشيني، وهو حذر عادةً، أصرّ على إعطاء الصلاحية لقوات الطيران العسكرية الأمريكية بإطلاق النار على الطائرات التجارية، حتى ولو كانت مليئة بالمدنيين، هو الجواب العملي الوحيد.

قال بوش «في استطاعتك أن تفعل هذا»، وأعطى الصلاحية.

وحوالي الساعة العاشرة والنصف من ذلك الصباح، اتصل تشيني ببوش مرة أخرى على طائرة سلاح الجو رقم 1 التي كانت ما زالت في طريقها إلى واشنطن. كان البيت الأبيض قد تسلّم تهديداً يقول: «بعد ذلك مباشرةً الملاك». وبما أن «الملاك» هو الاسم الشيفري لطائرة سلاح الجو رقم 1، فقد كان من الممكن أن يعني هذا أن لدى الإرهابيين معلومات داخلية.

قال بوش لتشيني، «سنجد المسؤولين عن هذا العمل»، «وسنرفسهم في مؤخراتهم».

ونقل كارد أن السيدة الأولى لورا بوش في مكان أمين مع رجال الخدمة السرية وأن ابنتيه قد نقلتا إلى أماكن آمنة.

وبعد دقائق قليلة، كان تشيني على الهاتف مرة أخرى يحث الرئيس ألاّ يعود إلى واشنطن «ما زال هناك تهديد».

وكانت تقارير المخابرات الإشارية وغيرها من جميع الأنواع تتدفق كالفيضان. وبما أنه كانت قد حدثت أربعة اختطافات للطائرات، لم يكن من الحكمة أن يرجع الرئيس إلى واشنطن. وفكّر تشيني فوراً بإمكانية أن الإرهابيين قد يحاولون قطع رأس الحكومة، أن يقتلوا قيادتها. قال إن هناك مسؤولية للحفاظ على الحكومة واستمرارية قيادتها. ويتذكر بوش: «لقد كان الرجل الذي قال لي على الهاتف ألاّ أعود إلى واشنطن» بقصد تشيني.

ووافق الرئيس على تحويل مساره إلى قاعدة باركسدايل لسلاح الطيران في ولاية لويزيانا. وبعد قليل، أحس الذين كانوا على طائرة الرئيس بانحدارها الحاد المفاجئ إلى الشمال في طريقها نحو الغرب.

وفي الساعة 10 و52 دقيقة صباحاً، تكلم بوش مع زوجته.

كان ذلك وقت ارتباك وفوضى، كما دلّت على ذلك الوثائق الرسمية لذلك اليوم ـ البعض منها علني والبعض الآخر سري ـ إذ سجلت مختلف الوثائق وقت وصول بوش إلى لويزيانا بالساعة 11 و48 دقيقة صباحاً أو 11 و57 دقيقة صباحاً أو 12 و5 دقائق أو 12 و16 دقيقة ظهراً ـ إي بمجال يمتد 28 دقيقة. وحوالي الساعة 12 ظهراً، وصلت طائرة سلاح الجو رقم 1 إلى باركسدايل تحت حماية شديدة جداً. وفي الساعة 12 والدقيقة 36 ـ وهذا الوقت دقيق ـ أصدر بوش تصريحاً آخر أمام كاميرات التلفزة.

كانت قد مرّت أكثر من ثلاث ساعات منذ أن تكلّم الرئيس أو أي مسؤول كبير في الإدارة علناً. وكانت الدائرة حول عيني الرئيس حمراء عندما دخل إلى المؤتمر الصحفي. كما كان أداؤه غير موحٍ بالثقة. تكلّم بتردُّد ولفظ عدة كلمات بطريقة خاطئة وهو ينظر إلى ملاحظاته. ولكنه بدا أشد قوة في أواخر تصريحه المؤلف من 219 كلمة، إذ وعد بالعزم. قال: «لا تخطئوا، سنبرهن للعالم أننا سننجح في هذا الامتحان».

قال الرئيس لكارد: «أريد أن أعود إلى واشنطن بأسرع ما يمكن. لا أريد أن يمنعني من قام بهذا العمل وأن يحتجزني خارج واشنطن».

ولكن رجال سلاح الخدمة السرية قالوا إن الأمور ما زالت غير مستقرة في واشنطن، كما قال تشيني إن الأمور ليست أمينة بعد.

وقال كارد: «الأمر السليم هو أن ننتظر حتى تهدأ الأمور».

وافق بوش على مضض وصعد مرة أخرى إل طائرة سلاح الجو رقم 1 التي صعدت بسرعة قبيل الساعة الواحدة والنصف إلى سماء الغرب متجهةً هذه المرة إلى قاعدة أُفت الجوية في ولاية نبراسكا، وهي مركز القيادة الاستراتيجية التي تتحكم بالأسلحة النووية للولايات المتحدة، وفيها تسهيلات لحماية الرئيس. كما أن بإمكان الرئيس الإتصال من هناك بمجلس الأمن القومي بطريقة مأمونة بواسطة الفيديو.

ومن الطائرة، اتصل بوش بوزير دفاعه، دونالد هـ. رامسفيلد.

وقال الرئيس بتعجب: «واو، الطائرة التي ضربت البنتاغون أمريكية، إنه يوم مأساة قومية. سننظم الفوضى، وبعد ذلك تكون الكرة في ملعبك وملعب ديك مايرز».

وريتشارد ب. مايرز ـ هو رجل طويل مهذب ـ هو جنرال في السلاح الجوي ونائب رئيس الأركان المشتركة، وكان من المفروض أن يصبح رئيساً لهذه الأركان بعد ثلاثة أسابيع، وهو المركز الأعلى في النظام العسكري الأمريكي.

وكان رامسفيلد ـ وهو صغير البنية، تقريباً صبياني المطلع، وطيار حربي سابق في البحرية ولا تبدو عليه سنواته الـ 69 ـ أنه يتوقع بل حتى يعتمد على قرار الرئيس أن يضع الكرة مباشرة في ملعبه.

وقت سابق من تلك السنة، عندما كان رامسفيلد في محادثات لجعله

وكانت تقارير المخابرات الإشارية وغيرها من جميع الأنواع تتدفق كالفيضان. وبما أنه كانت قد حدثت أربعة اختطافات للطائرات، لم يكن من الحكمة أن يرجع الرئيس إلى واشنطن. وفكّر تشيني فوراً بإمكانية أن الإرهابيين قد يحاولون قطع رأس الحكومة، أن يقتلوا قيادتها. قال إن هناك مسؤولية للحفاظ على الحكومة واستمرارية قيادتها. ويتذكر بوش: «لقد كان الرجل الذي قال لي على الهاتف ألاّ أعود إلى واشنطن» يقصد تشيني.

ووافق الرئيس على تحويل مساره إلى قاعدة باركسدايل لسلاح الطيران في ولاية لويزيانا. وبعد قليل، أحس الذين كانوا على طائرة الرئيس بانحدارها الحاد المفاجئ إلى الشمال في طريقها نحو الغرب.

وفي الساعة 10 و52 دقيقة صباحاً، تكلم بوش مع زوجته.

كان ذلك وقت ارتباك وفوضى، كما دلّت على ذلك الوثائق الرسمية لذلك اليوم - البعض منها علني والبعض الآخر سري - إذ سجلت مختلف الوثائق وقت وصول بوش إلى لويزيانا بالساعة 11 و48 دقيقة صباحاً أو 11 و57 دقيقة صباحاً أو 12 و5 دقائق أو 12 و16 دقيقة ظهراً - إي بمجال يمتد 28 دقيقة. وحوالي الساعة 12 ظهراً، وصلت طائرة سلاح الجو رقم 1 إلى باركسدايل تحت حماية شديدة جداً. وفي الساعة 12 والدقيقة 36 - وهذا الوقت دقيق - أصدر بوش تصريحاً آخر أمام كاميرات التلفزة.

كانت قد مرّت أكثر من ثلاث ساعات منذ أن تكلّم الرئيس أو أي مسؤول كبير في الإدارة علناً. وكانت الدائرة حول عيني الرئيس حمراء عندما دخل إلى المؤتمر الصحفي. كما كان أداؤه غير موحٍ بالثقة. تكلّم بتردُّد ولفظ عدة كلمات بطريقة خاطئة وهو ينظر إلى ملاحظاته. ولكنه بدا أشد قوة في أواخر تصريحه المؤلف من 219 كلمة، إذ وعد بالعزم. قال: «لا تخطئوا، سنبرهن للعالم أننا سننجح في هذا الامتحان».

حلف شمال الأطلسي، وكان آنذاك يحاول أن يبتعد عن فضائح واترغيت. وحسب مذكرات نيكسون، في يوليو/ تموز 1974، «خابرني دون رامسفيلد من بروكسيل، عارضاً أن يستقيل كسفير لدى حلف شمال الأطلسي وأن يعود من أجل المساعدة في العمل ضد عزلي عن الحكم مع زملائي السابقين». وقد استقال نيكسون في الشهر التالي، وطلب من رامسفيلد أن يرأس فريق الرئاسة الانتقالي لزميله السابق في مجلس النواب جيرالد فورد.

وطلب فورد من رامسفيلد أن يصبح رئيساً لأركان البيت الأبيض، ولكن رامسفيلد أراد البقاء لدى حلف شمال الأطلسي. ولكن رامسفيلد عاد فوافق عندما وعده فورد بأن يغير الموظفين بحيث يصبحون أكثر فعالية ويعطي رامسفيلد السلطة الكاملة.

وبعد سنة في البيت الأبيض، أخبر فورد رامسفيلد أنه يريد طرد وزير الدفاع جايمر شليسينغر وأن يعينه محله. وكان مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ويليام كولبي سيفصل ويحل محله جورج بوش الأكبر، وكان في ذلك الوقت ممثل الولايات المتحدة في الصين. وقد سمّى رامسفيلد سرياً المركز في الصين «وظيفة قميئة ودون جدوى». وكان ضد التعينين الجديدين لبوش ولنفسه. وأخبر فورد أن تغيير مركز الاثنين سيجمِّدهما بالنسبة لحملة فورد الانتخابية عما قريب، إذ أنهما، كما قال، الوحيدان اللذان بإمكانهما إعطاء خطابات سياسية مؤثرة في السنة الإنتخابية القادمة 1976. ولكن رامسفيلد سلّم أمره وأخذ وزارة الدفاع.

وكان بوش الأكبر مقتنعاً بأن رامسفيلد كان يدفعه في السر إلى خارج وكالة المخابرات المركزية ليقضي على حياته السياسية. وكان من غير المتصوَّر في ذلك الوقت أن يصبح رئيس التجسس والحيل القذرة في الخارج رئيساً لأمريكا.

وبعد ذلك رقّى الرئيس فورد نائب رامسفيلد، ديك تشيني، وجعله رئيس

أركان البيت الأبيض. وفي ذلك الوقت، وبسبب التخوف من تسييس وكالة المخابرات المركزية، كان مجلس الشيوخ معارضاً لدعم تعيين بوش مديراً للوكالة إلاّ إذا وعد فورد ألاّ يختاره نائباً للرئيس في الانتخابات المقبلة. ولكن رامسفيلد أخبر فورد وتشيني أن الرئيس لا يجب عليه الرضوخ لمجلس الشيوخ. وعندما وعد فورد وبوش مجلس النواب لاحقاً بما يريد، لام رامسفيلد جزئياً تشيني وقال له بما معناه: لقد فشلت في أولى مهماتك.

وخلال السنة التالية 1976، برزت منافسة خفية بين وزير الدفاع رامسفيلد ومدير وكالة المخابرات المركزية بوش.

ففي سنيهما في مجلس النواب، وجد رامسفيلد بوش خفيف الوزن، مهتماً بالصداقات والعلاقات العامة وإحصاءات الرأي العام أكثر من اهتمامه بالسياسة الواقعية. وكان يرى بوش الأكبر يتفادى النزاعات والعَرَق إلاّ في الملعب الرياضي في مجلس النواب، حتى إنه قال للبعض إن بوش يعاني مما سمّاه «مجموعة أعراض روكفلر». إنه موجود ويريد أن يخدم، ولكن ليست عنده أهداف واضحة. وفي عالم رامسفيلد، عدم وجود هدف كبير هو جريمة كبيرة.

وكان رامسفيلد يعتقد أن بوش مدير ضعيف لوكالة المخابرات المركزية، يبخس بشكل خطير تقدير التقدم العسكري السوفياتي، وأنه كان لعبة في يد وزير الخارجية هنري كيسينجر.

واستمر رامسفيلد بالحصول على مراكز في الحكومة في إدارة ريغان كمبعوث إلى الشرق الأوسط، وفي إدارة كلينتون كرئيس لجنة لتقييم تهديد الصاروخ البالستي على الولايات المتحدة، ولكنه لم يحصل على أي منصب في إدارة بوش الأكبر.

وبدلاً من أن يكون في طريقه إلى الرئاسة، أصبح رامسفيلد في الوقت الحالي وزيراً للدفاع مرة ثانية، يخدم ابن منافسه القديم. ومن بعض النواحي،

كان رامسفيلد يجسّد ما دعاه والاس ستجنر «مثابرة تحت ضغط خيبة الأمل» ـ الاندفاع المتواصل إلى الأمام والعمل المستمر وحتى العناد عندما لا تتحقق الطموحات.

وفي الأشهر الثمانية الأولى له في البنتاغون، ضرب رامسفيلد على موضوعين. الأول هو أن القوات العسكرية انعزالية قد سبقها الزمن الماضي ـ معداتها وتدريبها وتنظيمها موجهةً لمحاربة الأعداء القدامى ـ خاصة الاتحاد السوفياتي. فقام رامسفيلد بما دعاه «البامويل»، لإعادة تشكيل القوات، وكأنه تنبأ بذلك عندما قال في جلسات تثبيته: «التطوير القدرات للحماية ضد الصواريخ والإرهاب والتهديدات الجديدة ضد ما نملكه في الفضاء وضد أنظمة المعلومات».

والموضوع الثاني هو عامل المفاجأة. وكان رامسفيلد يوزع روتينياً نسخاً من كتاب بيرل هاربور: تحذير وقرار للمؤلفة روبرتا ولستيتر. وكان رامسفيلد ينصح بالأخص قراءة المقدمة التي كتبها توماس شيلينغ ويقول فيها إن بيرل هاربور خطأ عادي، ومن النوع الذي تختص فيه الحكومة». هناك نزعة في مخططاتنا أن نخلط بين غير المألوف وغير المحتمل. . . إن الخطر يقع في فقر توقعاتنا، الوسواس الروتيني بأخطار قليلة قد تصبح مألوفة بدلاً من أن تكون محتملة».

وقوبلت مخططات رامسفيلد التحويلية بالتحدي الذي يقع على حدود التمرد من جانب عدد كبير من كبار الضباط الذين يرتدون الزي العسكري. وقال أحد الضباط بأربع نجوم العاملين معه إن رامسفيلد «مغرور ومجنون بذاته ومتقنّع ببراعة. . . يطلق النار بغير رحمة ولكن يعطي انطباعاً أنه لا يفعل ذلك». وقال ضابط آخر إنه إذا لم يوافق شخص ما مع رامسفيلد، فإن هذا أمر خطير لأن النتيجة قد تكون أن «مؤخرته ستمضغ». وقال الضابط: «كنت أصعد إلى مكتبه في الطابق الثالث، وعندما لا أوافق معه كنت أقول له إنني غير موافق. فأحياناً يكون ودياً، وأحياناً لا يكون ودياً».

وفي بعض الأحيان كان رامسفيلد يخرج الجنرالات الكبار من مكتبه بصورة غاضبة قائلاً لأحدهم: «ارجع واعطني موجز المعلومات عندما تعرف ما تتكلّم عنه». والويل لمن يعطي حلاً مقترحاً فقط. كان يقول رامسفيلد في كثير من الأحيان «انتظر، يجب أن نرجع إلى الوراء»، إنني أقدر أن أقرأ الجواب. ولكن ما أريد أن أعلمه هو كيف توصلت إلى تلك الفَرَضية والمنطلق والتعليل.

وكان هذا يربك العسكريين. وأحياناً كان يؤدي إلى الإذلال والإحباط.

وكان رامسفيلد يواجه موظفيه بأسئلة صعبة تبدو مفرطة. ماذا تعرف عن هذا الموضوع؟ ماذا لا تعرفه؟ ما رأيك فيه؟ ماذا يجب أن أسألك عنه باعتقادك؟ وكان يفسر موقفه قائلاً: هذه هي الطريقة الوحيدة التي سأتعلّم فيها شيئاً، ثم يضيف: ومن المؤكد أنها الطريقة الوحيدة التي ستتعلم منها أنت شيئاً.

وكان رامسفيلد يبدو واثقاً من نفسه أكثر من اللزوم وشكاكاً في موظفيه من العسكريين أكثر من اللزوم. وكان يعمل مع مجموعة صغيرة متراصّة أكثرها من المدنيين، ولذلك بدا لغزاً للكثيرين في المبنى وأعضاء رؤساء الأركان المشتركة والرؤساء العسكريين للجيش والبحرية وسلاح الطيران والمارينز.

ولم يكن رامسفيلد يحب التشويش الذهني أو عدم الدقة. وكان يعيد كتابة معظم بريده الداخلي أو يعطي اقتراحات عليه. وكان يكره اللغة غير المحكمة أو الأخطاء الطباعية.

وقد جاء مرة في أحد التقارير خطأ طباعي واضح حلّت فيه كلمة «طن» بدل كلمة «ما»، فسأل: ماذا يعني هذا «الطن»؟ لماذا هناك «طن» في هذه الجملة؟ ماذا يعني ذلك؟

وكانت كلمة «كومونا» مألوفة ومتكررة. عندما كان رامسفيلد يريد معلومات أو عملاً ما. وكان ستيف كومون البالغ طوله متراً و87 سنتمتراً، عالماً بالدفاع، كما كان قد عمل في لجان الدفاع في مجالي الفضاء والصواريخ التي

رأسها رامسفيلد. وهو يمثل الجانب القاتم المظلم وغير المتفائل من رامسفيلد ويشعر أن شيئاً سيئاً سيحدث. وكان المساعد المدني الخاص للوزير ويحدد إلى حد بعيد العلاقات بين رامسفيلد وسائر البنتاغون. وكان كومون الوسيلة التي أحكم رامسفيلد بواسطتها، في بادئ الأمر على الأقل، قبضته على أعناق العسكريين.

وأصبح الجنرال في الجيش هنري ب. «هيو» شلتون، رئيس الأركان المشتركة منذ أكتوبر/ تشرين الثاني 1997، مكتئباً أحياناً تحت القيادة المدنية الجديدة، وكان يقول لزملائه إن هناك انقطاعاً حقيقياً مع رامسفيلد. ولدى نقطة معيَّنة، اقترح رامسفيلد أنه يجب على شلتون أن يعطي الرئيس النصائح العسكرية من خلاله. ولكن شلتون اضطر للإشارة إلى أن القانون يخوّله أن يكون هو «المستشار العسكري الأول» للرئيس، وأنه يعتقد أن نصيحته يجب أن تُوجَّه إلى الرئيس مباشرة.

ومع أن رامسفيلد كان يضايق رؤساء الأركان والموظفين العسكريين أحياناً، كان لعدد كبير منهم احترام لذكائه. وقال جنرال كبير المقام: «إنني معجب بالرجل كثيراً مع أنني لا أحبه بالضرورة، إن عنده ضعفاً وهو أنه يريد أن يضع يديه حول كل شيء».

كان رامسفيلد عارفاً بالهجومين على مركز التجارة الدولي. ولكنه استمر في سلّم تقريره اليومي من المخابرات في مكتبه عندما ضربت الطائرة المخطوفة الوجه الغربي للبنتاغون. أحس بالمبنى يهتز وأسرع إلى الشباك، ولكن لم يكن واضحاً ما حدث من موقعه. ذهب إلى الخارج وتتبَّع غيمة الدخان الصاعدة إلى مكان الصدمة، وراح يساعد في مهمات الإنقاذ قبل أن يحثه عميل أمن على ترك تلك المنطقة.

«سأذهب إلى الداخل»، قال رامسفيلد، وأسرع إلى مركز القيادة العسكرية القومية، وهي الغرفة الكبيرة المليئة بموظفي البنتاغون، وكانت الغرفة مليئة

بالدخان، فصعد مع فريقه إلى غرفة منعزلة فيها شبكة للاتصالات، وتدعى «كايلز»، حيث كان الهواء أفضل.

وحث الجنرال مايرز رامسفيلد بأن يترك. «لقد أصبح الدخان سيئاً، ولدينا الكثير من الناس يساعدوننا. إنه من الأسوأ لهم هناك في الحقيقة مما هو هنا». والآخرون لن يرضوا بأن يتركوا طالما رامسفيلد باقٍ هناك. «يجب أن نفكِّر في التحرُّك».

فوافق رامسفيلد، ولكنه استمر بالعمل.

القوات العسكرية، التي يبدو أن كان لها مخططات للطوارئ، حتى المستبعدة جداً منها، لم يكن لديها خطط لأفغانستان، وهي ملجأ بن لادن وشبكته. لم يكن هناك شيء على الرف يمكن أن يُتناول ويوفر خطة للعمل على الأقل بشكل هيكلي. ولكن وزير الدفاع لم يستغرب هذا، واستدار إلى مايرز موصلاً إليه الرسالة التالية: عندما طلبت أن أرى المخططات المختلفة، لم أكن مسروراً بما رأيت، وأن المخططات ليس فيها خيال ولا إبداع، ومن الواضح أنها قديمة وأنها قد بقيت على الرف مدة أطول من اللزوم. وأنا غير راضٍ. علينا الكثير من العمل. يجب أن تعلم ذلك.

وأجاب مايرز: «أتفهم الأمر يا سيدي».

وأخيراً ترك رامسفيلد غرفة الحرب وذهب إلى خارج مكتبه وبدأ العمل على المشكلة.

وهذه هي الدقيقة الحاسمة، «قال رامسفيلد لكبار مساعديه ـ كامنون ومساعده العسكري ومستشاره القانوني والناطق باسمه. قال إن الرئيس سيعود إلى المدينة. يجب أن أكون حاضراً للتكلم معه عندما يصل. ما هي الأشياء التي يجب أن يفكِّر فيها الرئيس، سأل رامسفيلد ماذا يجب على الرئيس أن يركز عليه؟

وبدأ كتابة الأفكار. وأراد أفكاراً من الجميع. أحضر تلك الورقة القديمة، هذا التقرير، هذه المذكرة، قال رامسفيلد، تكلّموا. ماذا وجدوا أمامهم؟

بالنسبة لكامنون، كان معنى هذا. استخلِصْ، استخلِصْ، استخلِصْ ـ واستوعِبْ، استوعِبْ، استوعِبْ.

وفكّرت ڤيكتوريا أ. «توري» كلارك، وهي مساعدة وزير الخارجية للأمور العامة، أن رامسفيلد كان مثل موزع الورق في لعبة القمار في لاس فيغاس، يجلس في مكتبه الضخم ويفرز الأوراق. تقريباً بالقطرة، ويضعها في ثلاث مجموعات: الأولى، هذا ما نعرفه، الثانية: هذا ما نعالجه، الثالثة: هذا ما يجب أن نعالجه فيما بعد ـ غداً وفي المستقبل البعيد.

كيف نبلور هذه المشكلة للرئيس؟ سأل رامسفيلد. ورأى أن جزءاً من مسؤوليته أن يفكّر عن الرئيس. يجب أن تكون لدينا الأفكار الصحيحة، الأفكار الكاملة، قال، لأن الاجتماع الأول الكامل لمجلس الأمن القومي سيكون بالغ الأهمية في الطريقة التي ستتصرفون فيها في المستقبل. استمرت الأوراق تتطاير من مجموعة إلى أخرى، وكلاً منها يصبح أصغر فأصغر. ورمى رامسفيلد بعض الملاحظات والأوراق في كيس الحرق للمهملات السرية. وقامت كلارك باصطياد بعضها لإعادة توزيعها.

وبعد بضع ساعات، كان رامسفيلد قد نجح في كتابة جميع الأفكار على ورقة واحدة ـ وثيقة مرتّبة ودون أخطاء في تهجئته ودون لغة غير محكمة لأخذها تلك الليلة للاجتماع مع الرئيس في البيت الأبيض.

وكان لرامسفيلد سؤال أخير للجنرال مايرز: «أين تلك المخططات»؟

في القاعدة الجوية أوفات في ولاية نبراسكا، كان الرئيس بوش يعقد الاجتماع الأول لمجلس الأمن القومي عن موضوع الأزمة الإرهابية الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.

وأعلن تينيت بشبه اليقين أن بن لادن وراء الهجمات. وقد بيّنت لوائح المسافرين أن ثلاثة عملاء للقاعدة معروفين كانوا على متن طائرة الخطوط الجوية الأمريكية الرحلة رقم 77 التي اصطدمت بالبنتاغون، وأحدهم، وهو خالد المزار، قد كان لفت انتباه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في ماليزيا في السنة السابقة. وكان جاسوس للوكالة مدفوعاً له قد عاينه في اجتماع للقاعدة. كانت الوكالة قد أخبرت مكتب التحقيق الفيديرالي عنه، فوضعه المكتب على اللائحة المحلية للمشتبه بهم، ولكنه تسلّل إلى الولايات المتحدة خلال الصيف متجنباً اكتشاف المكتب.

وقال تينيت إن القاعدة هي المنظمة الإرهابية الوحيدة التي بإمكانها أن تقوم بهذه الهجمات الكثيرة. وكان مراقبو المخابرات استرقوا السمع إلى عدد من عملاء بن لادن يهنئ بعضهم بعضاً بعد الهجمات. ودلت معلومات كانت قد جُمعت قبل أيام ولكن لم تترجم إلاَّ الآن أن عدة عملاء معروفين في العالم كانوا بانتظار حادث كبير، ولكن أحداً منها لم يحدِّد اليوم والوقت والمكان أو طريقة الهجوم.

وكان من الواضح تماماً أن هناك نوعاً من التقصير، وبدا للرئيس أن وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي لم يكونا على اتصال، وقال الرئيس لتينيت «جورج، ارفع أذنيك»، يعني أنه يجب أن تستمع جيداً إلى كل شيء.

وقال تينيت: بما أن كل الهجمات وقعت قبل الساعة العاشرة صباحاً، فإن من المرجح أن لا يحدث المزيد منها ذلك اليوم. ولكن لم يكن هناك طريقة للتأكد من ذلك.

وقال مدير مكتب التحقيق الفيدرالي، روبرت مولر الثالث، وقد كان في ذلك المنصب لمدة أسبوع واحد فقط، إنهم لا يعرفون كيف استولى الخاطفون على الطائرات، وكإجراء وقائي، فقد توقفت كل حركة الطيران فوق الولايات المتحدة لأجل غير مسمّى.

وقال الرئيس إنه يريد أن تعود حركة الطيران مجدداً.

ولكن تينيت حذّر: «علينا أن نفهم كيفية خرق أمن الطائرات قبل أن تقلع الطائرات». وكان هذا اقتراح معقول، ولكنه بدا أنه يحوّل المشكلة إلى أمن المطارات، مبعداً إياها زلات المخابرات التي سمحت للخاطفين أن يدخلوا الولايات المتحدة ويسكنوا فيها لعدة أشهر قبل القيام بمهماتهم.

وقال الرئيس: «سأعلن المزيد من الاحتياطات الأمنية، ولكننا لن نُحتجز كرهائن». وتابع بصورة فورية: «سنطير غداً ظهراً».

وقال رامسفيلد بتحدٍّ: «يمكن للإرهابيين أن يهاجموا في أي وقت، ولكن البنتاغون سيستأنف العمل غداً».

وخاطب مدير الخدمات السرية برايان ل. ستافورد الرئيس قائلاً: «إن موقفنا هو أن تبقى حيث أنت. الأمور ليست آمنة. وكان ستافورد يظن أنه يقرر أمراً جلياً. وكان بوش يعلم أن الخدمات السرية ليس باستطاعتها أن تضمن السلامة الكاملة - لم يكن هناك 100٪ - ولكنه إذا اتبع توصياتهم فإن بإمكانهم أن يزودوه بأفضل أمن ممكن. وإذا لم يتبع توصياتهم، فإن كل الرهانات واردة.

وقال بوش: «سأعود إلى واشنطن».

وتفاجأ ستافورد.

وحوالي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، اتصل بوش بزوجته على الهاتف.

«أنا راجع إلى البيت، سأراك في البيت الأبيض. أحبك، وعودي إلى البيت».

3

في مقر وكالة المخابرات المركزية، أراد جيمس ل. پاڤيت، نائب مدير العمليات الذي كان يترأس خدمة العمليات السرية في الوكالة، أن يرسل مذكرة شخصية إلى جنوده. وكان پاڤيت، وعمره 55 سنة، قصيراً وممتلئ الجسم اجتماعياً وجاسوساً بالمهنة، فلم يكن يظهر عليه أنه رئيس لأكثر الشبكات المخرَّمة في العالم سريةً وتخفياً، بموظفيها المتخفين المسؤولين عن القضايا المعينة، وعملائها المدفوع لهم سارقي الأسرار.

وقد عُنونت مذكرة پاڤيت بأنها مذكرة سرية إلى كل محطات وقواعد مديرية العمليات.

«إن الولايات المتحدة قد هوجمت مرة أخرى من قِبل أعداء ذوي تصميم والتزام يرضون عن طيب نفس أن يقبلوا بتدمير أنفسهم من أجل تحقيق مهمتهم الإرهابية».

«وانتظر من كل محطة وكل موظف أن يضاعف الجهود بجمع المخابرات عن هذه المأساة، وأن مركز مكافحة الإرهاب هو بؤرة كل المعلومات عن هذا الموضوع، ونحن نتوقع أن نسبة كبيرة من أثمن المعلومات عن الهجمات ومرتكبيها ستصلنا خلال الساعات الـ 48 القادمة». فيجب عليهم أن يحصلوا

على المعلومات قبل أن تمحي آثار الأقدام. فقال پاڤيت أيضاً إن على الموظفين أن يأخذوا الحذر ويحموا عائلاتهم». وأطلب منكم جميعاً أيضاً أن تشاركوني في صلاة صامتة للآلاف الذين قتلوا اليوم ولمحبيهم الذين يشعرون بالوحدة الموحشة الآن».

كان بوش يريد أن يوجه خطاباً تلك الليلة للأمة على التلفاز؛ وكان مايكل جيرسون، كاتب حساباته الرئيسي، قد عمل مسودة احتوت على الجملتين: «إن هذا ليس مجرّد عمل إرهابي. إنها حرب». وكان هذا يعكس ما كان بوش يقوله طوال ذلك اليوم لمجلس الأمن القومي ولموظفيه.

احذفهما، قال بوش لكارين هيوز. «إن مهمتنا هي التطمين. كان يريد أن يهدئ الأعصاب المتوترة. «لم أكن أريد أن أضيف إلى قلق الأمريكيين في ذلك الوقت»، قال بوش لاحقاً، وكان يريد أن يظهر على التلفاز ويكون صارماً، مبدياً بعض العزم ولكن أيضاً ضارباً ببعض التوازن ـ أن يكون مواسياً ومظهراً أن الحكومة تعمل، ومظهراً للأمة أيضاً أن رئيسها قد تجاوز الأزمة بسلامة، إذ كان هناك بعض الشك في ذلك بعد أن أمضى معظم اليوم قافزاً من قاعدة للقوات الجوية إلى أخرى.

وحوالي الساعة السادسة والنصف مساءً، وكان الرئيس قد عاد أخيراً إلى البيت الأبيض وبدأ العمل على مسودة خطابه في المكتب الصغير المجاور للمكتب البيضوي. وكان مايكل جيرسون قد كتب، بناءً على ما جاء في خطابٍ خلال الحملة الانتخابية الرئاسية سنة 1999 في الأكاديمية الحربية أنه سيتناول بالنسبة للاستجابة إلى الإرهاب، لن تفرق الولايات المتحدة بين الذين يخططون للأعمال الإرهابية والذين يتسامحون مع الإرهابيين أو يشجعونهم.

«هذا كثير الغموض»، اعترض بوش، مقترحاً كلمة «يأوون» الإرهابيين. وفي النص الأخير، وهو ما سُمي لاحقاً بـ «عقيدة بوش»، قال بوش، «لن نميِّز بين الذين خططوا هذه الأعمال والذين آووهم». وكانت هذه الجملة تشكِّل

التزاماً واسعاً بشكل لا يصدّق بملاحقة الإرهابيين والذين يكفلونهم ويحمونهم بدلاً من أن تكون مجرد اقتراح لضربة انتقامية محددة الهدف وقد اتُخذ ذلك القرار بدون استشارة تشيني أو پاول أو رامسفيلد.

ولكن الرئيس استشار كوندوليزا رايس، مستشارته للأمن القومي. وقد تساءلت رايس عما إذا كان ذلك النوع من الإعلان والتصريح السياسي البعيد المدى يصلح أن يرد في خطاب يرمي إلى مؤاساة الأمة المصدومة. نصحت رايس بوش بإمكانك أن تقول ذلك الآن، لقد كان أسلوبها ألاّ تُلزم نفسها بأمر إلاّ إذا حثّها الرئيس علىٰ ذلك. ولكنها في النهاية فضّلت أن يقول بوش تلك الجملة في تلك الليلة لأنها كانت تعتقد أن للكلمات الأولى تأثير أكثر من أي شيء آخر تقريباً.

قال بوش «يجب أن نخرجها للعلن الآن»، وكانت هذه هي السياسة التي يسير باتجاهها ببطء، إذن فليقلها.

وفي الجناح الغربي من البيت الأبيض، كانت تجري مناقشة حول ما إذا كان الرئيس يحتاج للإدلاء بتصريح حازم عن أمر واضح ـ إن هذه حالة حرب. وقد أُرسل مدير الاتصالات في البيت الأبيض دان بارتليت، البالغ من العمر 30 سنة، لاقتراح ذلك على الرئيس. ولكن الرئيس صاح، «ماذا؟ لا تغييرات أخرى. وقد أراده بارتليت اقتراحاً بالتغيير عن كون الولايات المتحدة في حالة حرب. وأجاب الرئيس، «لقد قلت كلا لذلك الاقتراح من قبل».

وعاد بارتليت إلى زملائه في الجناح الغربي وقال: «شكراً، خذوا أنتم المذكرة للرئيس في المرة القادمة».

وخاطب الرئيس بوش الأمة لمدة سبع دقائق من المكتب البيضوي. أعلن سياسته ـ السعي وراء الإرهابيين والذين يأوونهم.

قال بوش «لن ينسى أحدنا هذا اليوم». «ولكننا سنتابع خطانا إلى الأمام لحماية الحرية وكل ما هو خيِّر وعادل في العالم».

وبعد إلقاء خطابه، ترأس اجتماعاً موسعاً لمجلس الأمن القومي الذي ما لبث أن أصبح صعب المأخذ. ولذلك، وفي الساعة التاسعة والنصف مساءً، جمع بوش أكبر مستشاريه الرئيسيين للأمن القومي في غرفة مخصّصة تحت الأرض في البيت الأبيض. وكان هذا الاجتماع في نهاية يوم من أطول أيام حياة كل منهم وأكثرها تشويشاً.

وقال الرئيس: «هذا وقت الدفاع عن النفس»، معبّراً عن قضية واضحة نوعاً ما. وكان هنالك شعور بأن الهجمات لم تنتهِ بعد، وأنهم يجتمعون في غرفة محصنة تحت الأرض ليس لأنها كانت مريحة ـ لم تكن كذلك ـ ولكن لأن الأمور كانت ما زالت خطرة. ولم يكن لديهم ممسك عما حدث أو عما قد يحدث بعد ذلك أو على كيفية الرد». قال لهم الرئيس: لقد اتخذنا قراراً بمعاقبة كل من يأوي الإرهابيين، وليس فقط مرتكبي الأعمال الإرهابية.

وقد اتخذ الرئيس ورايس وهيوز وكاتبو الخطابات قراراً من أكثر القرارات أهميةً بالنسبة للسياسة الخارجية منذ سنوات، وذلك من دون مشاركة وزير الخارجية. وكان پاول قد عاد لتوه من البيرو. وقال في ذلك الوقت، «يجب أن نوضّح للباكستان وأفغانستان أن هذا وقت الحساب».

وكان نظام حكم الطالبان في أفغانستان ـ وهم جماعة من الميليشيات الإسلامية المتعصبة المتطرفة التي وصلت إلى الحكم سنة 1966 ـ يأوي إرهابيي القاعدة لقاء تمويل مصرفي كبير من قِبل بن لادن. وكان لوكالة المخابرات القومية في باكستان المجاورة دور كبير في تكوين الطالبان وإبقائهم في السلطة. وكان هذا الحكم المتشدِّد يتميَّز بتفسير الشريعة الإسلامية تفسيراً ضيقاً في الحكم بقسوة شديدة، مما أدّى إلى ظلم جائر للنساء وجوع جماعي وهرب حوالي مليون لاجئ. وقد حاز هذا الظلم على إدانة دولية لتدميره تماثيل بوذا العملاقة والبالغ عمرها عدة قرون في باحيان.

«إن هذه فرصة عظيمة»، قال بوش، وكأنه قد وجد فرساً في كومةٍ من

السّماد. إنها فرصة لتحسين هذه العلاقات، خاصةً مع القوى الكبيرة مثل روسيا والصين. «يجب أن نفكّر بما حدث كفرصة».

وكان لدى أعضاء وزارة الحرب أسئلة جديدة، ولا سيما رامسفيلد. وعلى ورقته الوحيدة، كانت هناك أسئلة ظنّ أن الرئيس وسائر الحاضرين سيحتاجون إلى مواجهتها وبالنهاية الإجابة عليها: مَن هم المستهدفون؟ كم من البراهين نحتاج قبل أن نبدأ بملاحقة القاعدة؟ ما هو أقرب وقت نستطيع فيه البدء بالعمل؟

وقال رامسفيلد إنه كلما أسرعنا بالعمل، كلما كسبنا التأييد العام، إذا لم يكن هناك ضرر إضافي. وكان مقاله حذراً. وبما أنه لم يكن لدى القوات العسكرية مخطط أو قوات في المنطقة نفسها، فقد أراد رامسفيلد أن يبقي التوقعات منخفضة. لقد رمى بقنبلة عندما قال للمجتمعين إن بعض الضربات الكبرى قد تستغرق ستين يوماً من التحضير.

وكانت فكرة الانتظار لمدة ستين يوماً لعملية كبرى ـ أي من الممكن حتى 11 نوفمبر/تشرين الثاني على وجه التقريب ـ بقيت معلقة فوق رؤوس المجتمعين في الغرفة.

وكانت لدى رامسفيلد أسئلة أخرى. وقد ظن پاول أن هذه الأسئلة قناع ماهر. وطريقة بلاغية المناقشة بأسلوب منمق وتفادي اتخاذ موقف. وكان رامسفيلد يريد من الآخرين أن يجيبوا على تساؤلاته. وكان هذا أسلوب رائع في نظر پاول.

ومع ذلك، فإن الرسالة كانت جيّدة. واستمر رامسفيلد. هل هناك أهداف يجب ألاّ تُضرب؟ هل تشمل حلفاء أمريكا في أية ضربة عسكرية؟ وأخيراً، قال وزير الدفاع، يجب أن نحدد سياسة تصريحية نعلن فيها للعالم عمّا نقوم به.

ولاحظ تشيني أن أفغانستان ستكون تحدياً كبيراً. إنها بلد غير متحضّر يبعد عشرة آلاف كيلومتر عن الولايات المتحدة ويبلغ عدد سكانها 26 مليون

نسمة، فهي بحجم ولاية بوش، تكساس، ولكن فيها القليل من الطرق والبنية التحتية. وإيجاد أي شيء لضربه سيكون صعباً.

وعاد الرئيس إلى مشكلة إرهابيي القاعدة وملجأهم في أفغانستان. منذ أن انتقل بن لادن إليها من السودان في مايو/أيار 1996، سمح الطالبان للقاعدة بإقامة مقرها ومخيماتها التدريبية في أفغانستان.

وقال تينيت إن علينا أن نحرم القاعدة من أي ملجأ. يجب أن نقول لطالبان إننا قد انتهينا منهم، وأنه لا فرق بين الطالبان والقاعدة.

وقال رامسفيلد إنه عليهم أن يستخدموا كل أدوات الطاقة القومية، وليس فقط القوة العسكرية، بل القوى القانونية والمالية والديبلوماسية ووكالة المخابرات المركزية.

وقال تينيت إنه رغم أن مقر القاعدة هو في أفغانستان، فإنها تعمل في كل العالم، في كل القارات. إن لدينا مشكلة تتألف من 60 بلداً.

وقال الرئيس: «سنلتقطهم واحداً واحداً».

وقال رامسفيلد، الذي لم يُرِد أن يتفوق عليه أحد في تعيين الصعوبات، بأن المشكلة لا تكمن في بن لادن والقاعدة وحدهما ولكن في البلدان الأخرى التي تساند الإرهاب.

وقال بوش: «يجب أن نُجبر البلدان على الاختيار».

وانفض الاجتماع. وكان الرئيس، الذي لم يكن قد امتُحن في الأمن القومي وتدرَّب عليه قد أوشك على البدء في طريق معقَّد متطاول للحرب دونهما أي خريطة تُذكر.

بعد الاجتماع، ذهبت كوندوليزا رايس إلى مكتب مستشار الأمن القومي في زاوية من الجناح الغربي. وكانت رايس من قبل أستاذة للعلوم السياسية في جامعة ستانفورد ولاحقاً ناطقة إدارية كبيرة ثم عملت خبيرة في الشؤون الروسية

في مجلس الأمن القومي خلال رئاسة بوش الأكبر. ولعل رايس، البالغة من العمر 46 سنة، كانت الشخص الأكثر وحدةً ضمن كبار أعضاء فريق مركز الأمن القومي لبوش. كانت والدتها متوفاة، كما توفي والدها في السنة السابقة. وبعد هجمات ذلك الصباح، اتصلت هاتفياً بأفراد الأسرة الباقية لديها، عمتها وعمها في بيرمينغهام في ولاية ألاباما، لتخبرهما أنها بخير، ثم عادت إلى العمل.

ومنذ الحملة الانتخابية الرئاسية، عندما كانت رايس مستشارة بوش الرئيسية للسياسة الأجنبية، كانت قد طوّرت علاقة دقيقة جداً مع بوش. وهي طويلة القامة ذات وقفة تكاد تبلغ حد الكمال وذات مشية رشيقة وابتسامة برّاقة. وقد أصبحت عنصراً ثابتاً في دائرة الرئيس الداخلية، وكان الرئيس وزوجته قد أصبحا أسرتها.

وتلك الليلة، اعترفت لنفسها بأنها في الضباب، وحاولت أن تركّز على ما يجب عمله لليوم التالي.

وإذا كان المسؤول بن لادن والقاعدة ـ وكان من شبه المؤكّد أن الأمر كذلك ـ كان هناك تعقيد آخر: سوف تبرز الأسئلة عاجلاً أو آجلاً عمّا إذا كانت إدارة بوش تعلم عن تهديد بن لادن، متى عرفوا به، ماذا فعلوا بشأنه.

حوالي أسبوع قبل تولي بوش الرئاسة، حضرت رايس اجتماعاً في بلاير هاوس، وهو مقابل للبيت الأبيض، مع الرئيس المنتخب بوش ونائبه المنتخب تشيني. وكان هدف هذا الاجتماع هو تزويد المجتمعين بالتقارير عن الأسرار من قِبل تينيت وپافيت.

وعلى مدى ساعتين ونصف الساعة، أخبر تينيت وپافيت بوش المفتون بما سمع عن الأمور الحسنة والسيئة والقبيحة فيما يتعلق بوكالة المخابرات المركزية وأخبراه أن بن لادن وشبكته يشكلون خطراً هائلاً وفورياً. وقالا للرئيس إنه ليس هناك شك في أن بن لادن سيهاجم الولايات المتحدة مجدداً،

ولكنهما لم يعلما متى وأين وكيف يكون ذلك. إن بن لادن وشبكته يشكّلون هدفاً صعباً ومراوغاً. وكان الرئيس كلينتون قد أقرّ خمسة أوامر منفصلة للمخابرات، تسمّى مذكرات التبليغ أعطى فيها الصلاحية للعمل السري لمحاولة القضاء على بن لادن وشبكته ولتعطيل عملياتهم الإرهابية وإيقافها قبل انطلاقها. ولكن لم تُعطَ الصلاحية المباشرة لقتل بن لادن أو اغتياله.

وقد عرض تينيت وبافيت أمر بن لادن على أنه أحد ثلاثة تهديدات كبرى تواجه الولايات المتحدة. وكان التهديدان الآخران الازدياد في توفر أسلحة الدمار الشامل الكيميائية والبيولوجية والنووية، بما في ذلك أسلحة التكاثر ـ وبروز الصين كقوة عسكرية وغير عسكرية.

وفي أبريل/ نيسان، أوصت لجنة مؤلفة من نوّاب مجلس الأمن القومي، ويمثل كل منهم الشخص الثاني أهمية في كل دائرة ووكالة رئيسية، إن على الرئيس بوش أن يتبنّى سياسة من شأنها أن تشمل على مجهود جدي لتسليح الاتحاد الشمالي، وهو اتحاد مفكك يتألف من عدة قادة عسكريين وقبائل في أفغانستان يعارضون حكم الطالبان الذي آوى بن لادن.

وقد قدّرت وكالة المخابرات المركزية أن قوات الاتحاد الشمالي كانت بنسبة حوالى 1 إلى 2 مقارنةً بقوات الطالبان: حوالى عشرون ألف مقاتل في الاتحاد مقابل حوالى 45 ألفاً من الجنود المتطوعين لدى الطالبان.

وكان قد خصص من قبل مبلغ قدره عدة ملايين من الدولارات سنوياً لإعالة القوات المتمردة تحت غطاء برنامج سري لوكالة المخابرات المركزية. ولكن الهموم المقلقة عن الاتحاد الشمالي كانت كثيرة. أولاً، أنه لم يكن بالفعل اتحاداً لأنه كان بإمكان مختلف قادته العسكريين على الأرجح أن يُشتروا بدرجة كافية من السهولة من قِبل الطالبان. وقد ازدهر هؤلاء القادة العسكريون في جو من الصراع من أجل العيش ـ مما يعني أنهم يعملون أي شيء ضروري. وكان عدد منهم مجرّد سفّاحين ومخترقين لحقوق الإنسان على نحو مسلسل،

وتجار مخدرات. بالإضافة إلى ذلك، كان للروس والإيرانيين ـ وكلاهما كانا يساندان الاتحاد بكميات كبيرة من المال ـ تأثير قوي على بعض هؤلاء القادة.

وخلال إدارة كلينتون، كانت وزارة الخارجية قد عارضت بقوة تسليح الاتحاد لأن الاعتراضات السابقة كانت موضع قلق حقيقي. وكان ريتشارد آرميتاج، نائب پاول، هو الذي وافق على نزع اعتراضات وزارة الخارجية في ذلك الربيع. وكان آرميتاج قد راجع پاول في هذا الأمر، فوافق پاول على أن بن لادن يشكل خطراً كافياً لتسويغ تسليح الاتحاد الشمالي على نطاق واسع.

وفي يوليو/ تموز، تقدمت لجنة النواب بتوصية مخطط شامل ليس للحدّ من قوة القاعدة وحسب بل لإزالتها. وكانت هذه خطة هجومية لزعزعة الطالبان. وخلال أغسطس/ آب، كان عدد من كبار المسؤولين في عطلة، ولهذا لم يأت الرابع من سبتمبر/ أيلول حتى وافقوا على خطة وأوصوا بأن تُعطي وكالة المخابرات المركزية مبلغاً قدره 125 إلى 200 مليون دولار سنوياً لتسليح الاتحاد.

وكانت رايس قد حضّرت توجيهاً للرئيس بشأن الأمن القومي، وكان جاهزاً ليرسل إلى الرئيس في 10 سبتمبر/ أيلول. كان الباب قد فُتح، وكانوا جاهزين للسير من خلاله. وكان رقم هذا التوجيه 9، وكان ذلك يعني أن ثمانية أمور أخرى كانت قد قيّمت وفُحصت وتمت الموافقة عليها وأُقرّت رسمياً كسياسة من جانب الرئيس بشأن القاعدة.

والسؤال الذي بقي مطروحاً حينها هو ما إذا كانوا قد تحركوا بسرعة كافية مقابل تهديد اعتبرته وكالة المخابرات المركزية كأحد ثلاثة تهديدات رئيسية تواجه الولايات المتحدة. وما إذا كانت حادثة 11 سبتمبر/ أيلول تشكل إخفاقاً في السياسة كما هي في المخابرات.

في الساعة الحادية عشرة وثماني دقائق مساءً، أيقظ رجال الخدمة السرية الرئيس وزوجته ورافقوهما بسرعة إلى غرفة محصّنة تحت الأرض، إذ بدا أن هناك طائرة غير محددة الهوية تتجهُ نحو البيت الأبيض. وكان الرئيس يرتدي

بنطلوناً قصيراً للرياضة وقميصاً قطنياً. وكانت زوجته تلبس ثوباً فوق قميص النوم ومن دون العدسات اللاصقة لعيونها. وسارع معهما كلباهما سپوت وبارني. وفي النفق الطويل المؤدي إلى الغرفة المحصّنة، قابلا رايس وكارد وستيفن ج. هادلي، وهو نائب مستشار الأمن القومي، وكان هؤلاء أيضاً يسيرون بسرعة فائقة.

وبعد قليل، حُدِّدت هوية الطائرة المخطئة، ولكن الخدمة السرية رغبت أن يقضي الرئيس ليلته في الغرفة المحصنة. ونظر بوش إلى السرير الصغير وأعلن أنه عائد إلى المنزل.

وكان هناك ضابط من الخدمة السرية مخصص لرايس، وقال لها عميل إنهم يرغبون ألاّ تذهب إلى شقتها في واتر جايت تلك الليلة. ربّما يجب أن تبقي هنا. قال لها العميل، فوافقت رايس على النوم في الغرفة المحصنة.

«كلاّ»، قال الرئيس: «تعالي وابقي في المنزل».

وكان الرئيس، مثل والده خلال سنواته في البيت الأبيض، يحاول أن يكتب يومياته، يسجِّل فيها أفكاره وملاحظاته. وقد أعلن تلك الليلة:

«بيرل هاربور القرن الحادي والعشرين حدثت اليوم».

ويتذكّر بوش أنه كانت لديه فكرتان: «هذه حرب يموت فيها الناس. ثانياً، أنا لست مخططاً عسكرياً. أعلم ذلك. يجب عليّ أن أعتمد على نصائح رامسفيلد وشلتون وميرز وتينيت ومشورتهم.

لقد أصبح بوش رئيساً زمن حرب. سوف يشعر الجنود والمواطنون والعالم كله فوراً بمستوى تعهّده ونشاطه وإيمانه، وأن الرأي الشائع بأنه شخص خفيف الوزن لا تهمه التفاصيل بعيد عن الأمور، متعالٍ أو بل ربما جاهل، يجب أن يتبدَّد. كان لديه الكثير من العمل.

كان نائب الرئيس ديك تشيني الشخص الفعّال والصلب كالصخر خلف

الرئيس بوش أو إلى جانبه في الأشهر التسعة الأولى من الإدارة، وكان يتوقع أن يكون له دور رئيسي في الأزمة، وكان رجلاً ممتلئ الجسم أصلع، يميل رأسه ويبتسم ابتسامة الماكر العالم بشكل مميز معترف به. كان يبلغ من العمر 61 سنة، وهو محافظ متشدِّد، وكان يتمرَّن طول حياته لحربٍ كهذه. وكانت مؤهلاته ممتازة. في الرابعة والثلاثين، كان رئيس أركان البيت الأبيض للرئيس فورد، ثم كان نائباً عن ولاية وايومنغ لمدة عشر سنوات، صعد خلالها حتى احتلَّ المرتبة الثانية في قيادة الجمهوريين بمجلس النواب؛ ثم أصبح وزير الدفاع للرئيس بوش الأول أثناء حرب الخليج.

وكان تشيني قد فكَّر بأن يرشح نفسه للرئاسة سنة 1991، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن تفحَّص المعطيات ـ الكثير من جمع الأموال والكثير من التدقيق من جانب الإعلام. وفي صيف سنة 2000، طلب بوش من تشيني أن يصبح نائبه في الانتخابات الرئاسية القادمة قائلاً له، «إذا كانت الأيام حسنة، سأحتاج إلى نصيحتك، ولكنني سأحتاجها أكثر إذا كانت الأيام سيئة، إن تدبير الأزمات جزء ضروري من هذه الوظيفة».

وصباح الأربعاء الواقع في 12 سبتمبر/أيلول، اجتمع تشيني على حدة لمدة قصيرة مع بوش. هل يجب أن يترأس أحد المسؤولين الرئيسيين نوعاً من وزارة الحرب تلك؟ سنحضر الخيارات ونقدِّمها لك. هذا من شأنه أن يسهل عمل القرارات ويجعله أكثر سلاسة.

قال بوش لا، أنا سأقوم بهذا وسأدير الاجتماعات. كانت لك وظيفة القائد الأعلى للقوات المسلَّحة ـ ولا يمكن أن تُفوض. وكان بوش يريد أيضاً أن يبعث إشارة إلى أنه هو صاحب القرار وأنه هو الذي يمسك زمام فريقه. إنه سيترأس اجتماعات مجلس الأمن القومي بكامله، وستستمر رايس برئاسة الاجتماعات المختلفة للمسؤولين الرئيسيين عندما لا يكون حاضراً. أما تشيني، فإنه سيكون الأعلى منزلةً بين المستشارين. وبما أنه جيِّد ويقرأ بنهمٍ تقارير

المخابرات كلها، فسيكون كما كان في السابق، الرجل الذي يتمكّن من طرح الأسئلة الهامة حقيقةً، ويُبقي الجميع على الطريق السليم.

وهكذا، أصبح تشيني، دون أن تكون له وزارة، أو وكالة مثل وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع أو وكالة المخابرات المركزية، وزيراً بدون حقيبة. ولعل هذا كان دوراً أقل شأناً عما كان يتوقع. ولكنه، مثل كلٍّ من الآخرين، كان يعرف شروط خدمة الرئاسة. أدِّ التحية واتبع الأوامر.

وكان الرئيس بوش يعتقد، مثل الكثيرين من أعضاء فريقه المسؤول عن الأمن القومي، أن ردّ فعل إدارة كلينتون على أسامة بن لادن والإرهاب الدولي ـ خاصةً منذ ضرب السفارتين بالقنابل سنة 1998 ـ كان من الضعف بمكان حيث أنه لم يكن استفزازياً، بل كان عملياً كإغراء بضرب الولايات المتحدة مرّة أخرى.

«إن الفكرة المطهَّرة القائلة بضرب خيمة شخص بصاروخ كروز من البحر هي في الحقيقة نكتة»، قال بوش في مقابلة في وقت لاحق. «أعني أن الناس اعتبروا ذلك ممثلاً لأمريكا العقيمة... مترهّلة وهي ذات كفاية تكنولوجياً ولكنها ليست بلداً صلب العود؛ إنها مستعدّة لإطلاق صاروخ كروز من غواصة، وهذا كل ما في الأمر».

«وأعتقد أن هناك صورة لأمريكا في الخارج أننا مادّيون جداً، وأنه ليس لدينا قيم، وأننا عندما نُهاجم، لن نهاجم بالقنابل. وإنه من الواضح أن بن لادن تشجّعَ ولم يشعر بأنه مهدّد من قِبل الولايات المتحدة».

ولكن قبل 11 سبتمبر/أيلول، لم يكن بوش قد وضع هذا التفكير موضع الممارسة، كما أنه لم يلح على موضوع بن لادن. ورغم أن رايس والآخرين كانوا يطورون خطة للقضاء على القاعدة، لم تُقدم أية توصيات رسمية قط إلى الرئيس.

«أعلم أنه كانت هناك خطة تُحضّر، ولكن لا أعلم مدى نضوج تلك الخطة»، تذكر بوش. وقال إن الفكرة بأن خطةً ستكون على مكتبه يوم العاشر من سبتمبر/أيلول ربما كانت «تاريخاً مناسباً. ومن الغريب أن هذه الخطة ستصل في 10 سبتمبر/أيلول لأنني كنت في فلوريدا في هذا التاريخ، ولا أظن أنهم كانوا سيعطونني تقريراً عنها وأنا في فلوريدا».

واعترف بوش بأن بن لادن لم يكن مركز تفكيره أو تفكير فريقه للأمن القومي. «حدث تغيير كبير في موقفي بعد 11 سبتمبر/أيلول. لم أكن مركّزاً على الموضوع. ولكنني كنت أعلم أن بن لادن يشكّل خَطَراً، كما كنت أعلم بأنه مشكلة. كنت أعلم أنه المسؤول أو أننا شعرنا بأنه المسؤول في السابق عن إلقاء القنابل التي قُتل فيها أمريكيون. وكنت مستعداً للنظر في خطة تكون جيدة وتحيله إلى العدالة، وكنت سأعطي الأمر لذلك. ليس عندي أي تردّد في ملاحقته. ولكن لم يكن لديّ ذلك الشعور بالإلحاح، ولم يكن دمّي يغلي كما هو الآن».

في الساعة الثامنة صباحاً من يوم 12 سبتمبر/أيلول، وصل تينيت إلى المكتب البيضوي لإعطاء الرئيس التقرير اليومي عن الأمور الأكثر سرية، وهو موجز لأهم المخابرات وأشدها حساسيةً. وتضمّن هذا التقرير مراجعة للمخابرات المتوفرة وهي تعزو الهجمات لابن لادن وكبار زملائه في القاعدة. وأظهر تقرير صادر من قندهار في أفغانستان، وهي المقام الروحي للطالبان، بأن الهجمات «نتيجة سنتين من التخطيط». وجاء في تقرير آخر أن الهجمات هي «بداية الغضب» ـ ملاحظة تنذر بالشر. وحدّدت عدة تقارير كالكابيتول والبيت الأبيض بالأخص كهدفين يوم 11 سبتمبر/أيلول. وقال أحد التقارير بأن أحد زملاء بن لادن ـ خطى ـ قد قدّم «الشكر للانفجار في مبنى الكونغرس».

وقد ادّعى شخص رئيسي في منظمة بن لادن المالية اسمه وفا أول الأمر أن «البيت الأبيض قد دُمِّرَ»، قبل أن يضطر لتصحيح مقولته. وأظهر تقرير آخر

أن أعضاء القاعدة في أفغانستان قالوا في الساعة التاسعة و53 دقيقة صباحاً يوم 11 سبتمبر/أيلول، بعد قليل من ضرب البنتاغون، أن المهاجمين ينفّذون برنامج «الطبيب». وكان العضو الثاني أهميةً في مؤسسة بن لادن وهو أيمن الظواهري، وهو طبيب مصري كثيراً ما يُشار إليه بـ «الطبيب».

وأبدى دليل جوهري تورط أبو زبيدة، وهذا كان قد عُرِّف سابقاً بأنه القائد الميداني الرئيسي لهجوم أكتوبر/تشرين الأول سنة 2000 على مدمّرة البحرية يو إس إس كول، وهو الهجوم الذي تسبب في قتل 17 بحاراً أمريكياً في ميناء عدن باليمن. وكان أبو زبيدة، وهو أحد أكثر أعضاء دائرة بن لادن الداخلية قسوةً، قد أشار إلى يوم الهجمات «بساعة الصفر» حسب تقرير موثوق به وصل بعد 11 سبتمبر/أيلول.

بالإضافة إلى ذلك، كان لدى وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي دليل على أن هناك علاقة بين ثلاثة من الخاطفين الجويين الـ 19 على الأقل وبن لادن ومخيماته التدريبية في أفغانستان. وكان هذا الدليل متناسقاً مع تقارير المخابرات طوال الصيف، وهي تدل على أن بن لادن كان يخطط «لهجمات مذهلة» ضد أهداف في الولايات المتحدة وبالنسبة لتينيت، فإن البرهان على أن بن لادن وراء الهجمات كان حاسماً. وانتقل إلى قدرات الوكالة على الأرض في أفغانستان.

وكما كان الرئيس يعلم، كانت لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية علاقات سرية في أفغانستان أعطيت الصلاحية للمرة الأولى في سنة 1998 من قِبل كلينتون، وعاد كلينتون فصدّق عليها مرّة أخرى من بَعْد. وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تدفع عدة ملايين من الدولارات في السنة لإعانة الحلف الشمالي. وكانت لدى وكالة المخابرات المركزية أيضاً اتصالات مع رؤساء القبائل في جنوب أفغانستان، كما أنه كان لديها بعض الفرق السرية شبه العسكرية التي كانت تدخل وتخرج من أفغانستان دون أن تُكتشف على مدى سنوات للاجتماع بالمعارضة.

ومع أن خطة عمل سرية موسّعة كانت تُحضّر منذ عدة أشهر، قال تينيت لبوش بأن خطة أكثر توسعاً ستُقدم إليه للموافقة، وستكون باهظة التكاليف جداً. ومع أن تينيت لم يعط رقماً، فإن هذا الرقم كان سيقارب المليار دولار.

وقال الرئيس، «مهما سيكلّف».

وبعد استماعه إلى تقارير المخابرات، اجتمع بوش بهيوز. قال لها إنه يريد اجتماعاً يومياً لصياغة رسالة الإدارة إلى الأمريكيين حول مكافحة الإرهاب. واقترحت هيوز، وكانت تركّز على تفاصيل اليوم التالي، أن يعلن الرئيس تصريحاً علنياً مبكراً، كما ذكّرته بأنه سيحتاج إلى ملاحظات لزيارته المقرّرة إلى البنتاغون بعد ظهر ذلك اليوم.

وقاطعها الرئيس قائلاً، «لنركّز على الصورة الكبيرة. إن عدواً دون وجه قد أعلن الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، ونحن إذن في حالة حرب».

وتابع الرئيس إنهم يحتاجون إلى مخطط واستراتيجية وحتى إلى رؤية لتثقيف الأمريكيين وتحضيرهم لهجوم آخر. يجب أن يعلم الأمريكيون أن محاربة الإرهاب ستكون المحور الرئيسي للإدارة ـ والحكومة ـ من هذه اللحظة فصاعداً.

وعادت هيوز إلى مكتبها في زاوية الطابق الثاني للجناح الغربي لتبدأ بكتابة مسودة التصريح. وقبل أن تتمكّن من فتح ملف جديد على الكومبيوتر، استدعاها الرئيس.

قال لها لدى وصولها إلى المكتب البيضوي: «دعيني أخبرك كيف تقومين بعملك اليوم». وناولها ورقتين من أوراق البيت الأبيض وقد كتُب عليها ثلاث ملاحظات بخطه:

«هذا عدو يركض ويختبئ، ولكنه لن يقدر أن يختبئ إلى الأبد.

هذا عدو يظن أن ملاذاته أمينة، ولكنه لن يكون آمناً إلى الأبد.

إن هذا ليس نوعاً من العدو نحن معتادون عليه، ولكن أمريكا ستتكيّف».

وعادت هيوز إلى العمل.

4

اجتمع بوش مع مجلس الأمن القومي في غرفة الوزارة وأعلن أن الوقت لتطمين الأمة قد مضى. وقال إنه واثق من أنه، إذا وضعت الإدارة خطة منطقية ومتماسكة، فإن بقية العالم «سيقف إلى جانبنا». وفي الوقت نفسه، كان الرئيس مصمماً على ألاّ يسمح لتهديد الإرهاب بأن يغيّر الطريقة التي يعيش فيها الأمريكيون. «يجب أن نحضّر الجمهور من دون أن نخوفه».

وبدأ موللر، مدير مكتب التحقيق الفيديرالي، بوصف التحقيق الجاري لتحديد هوية خاطفي الطائرات. وقال إنه من الضروري ألاّ نلوّث أي برهان، حتى إذا اعتقل المشاركون في الجريمة، كان بالإمكان إدانتهم.

ولكن النائب العام جون د. آشكروفت قاطعه، وقال: دعنا نوقف المناقشة ها هنا. ثم أضاف: إن المهمة الرئيسية لتنفيذ القانون الأمريكي هي أن نوقف أي هجوم آخر وأن نقبض على أي مشاركين أو إرهابيين قبل أن يضربونا مرة أخرى. وإذا لم يكن بإمكاننا أن نجلبهم إلى العدالة، فليكن ذلك.

وكان الرئيس قد وضّح لآشكروفت في محادثة سابقة أنه يريد أن يتأكد أن هجمات مثل الهجومين على البنتاغون ومركز التجارة العالمي لن تتكرر أبداً. وكان من الضروري التفكير بطريقة غير تقليدية. والآن كان آشكروفت يقول بأن

محور التفكير في مكتب التحقيق الفيديرالي ووزارة العدل يجب أن يتغير من المقاضاة إلى الوقاية، وهذا تحول جذري في تحديد سلّم الأولويات.

وبعد أن انتهى بوش من إجتماع مجلس الأمن القومي، استمر في الاجتماع بستة رؤساء يشكلون وزارة الحرب من دون معظم نوّابهم ومعاونيهم.

وقال پاول إن وزارة الخارجية مستعدة لحمل رسالة الرئيس للباكستان والطالبان ـ إمّا أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا.

وأجاب بوش بأنه يريد قائمة طلبات من الطالبان، وقال لپاول: «أن تسليمهم بن لادن ليس كافياً». وكان الرئيس يريد أن تُسلِّم كل منظمة القاعدة بأجمعها أو أن تُطرد.

وقطع الحديث رامسفيلد قائلاً: «إن كيفية تحديد أهدافنا في البداية أمر حاسم لأن هذا ما سيوقّع عليه الحلف». إن البلدان الأخرى سترغب في تعريفات دقيقة. «هل نركز على بن لادن والقاعدة أم على الإرهاب بشكل عام؟».

وقال پاول: «إن الهدف هو الإرهاب بالمعنى الأوسع، مع التركيز أولاً على المنظمة التي اقترفت الأعمال أمس».

وقال تشيني: «إذا عرّفنا عملنا بالمعنى الواسع، بحيث يشتمل على هؤلاء الذين يناصرون الإرهاب، فإن علينا أن نتقصد الدول. ومن الأسهل أن نجد هذه الدول من أن نجد بن لادن».

وقال بوش: «إبدأوا ببن لادن، فهذا ما يتوقعه الأمريكيون. فإذا نجحنا بعد ذلك، نكون قد وجّهنا ضربة قوية، ونستطيع من ثم أن نتحرك إلى الأمام». وقد أعطى بوش التهديد لقب «سرطان» وأضاف: «لا نريد تعريفه باتساع أكثر من اللزوم بحيث لا يفهمه الرجل المتوسط».

وألحّ بوش على رامسفيلد بالسؤال عما يمكن للقوات العسكرية أن تفعله فوراً.

أجاب الوزير «قليل جداً بشكل فعّال».

ورغم أن رامسفيلد لم يدخل في التفاصيل كلها، فقد كان يجد صعوبة في وصول مخططات حربية إلى مكتبه. وكان الجنرال تومي فرانكس ـ وهو القائد الأعلى للقيادة المركزية للولايات المتحدة الأمريكية المسؤولة عن جنوب آسيا والشرق الأوسط قد أخبر رامسفيلد بأن إرسال قوات إلى المنطقة وإعداد خطط لهجوم عسكري كبير في أفغانستان يستغرق عدة أشهر.

«ليس لديك عدة أشهر»، كان رامسفيلد قد قال له. وأراد رامسفيلد أن يفكر فرانكس بمدى أيام أو أسابيع. وكان فرانكس يريد قواعد وهذا وذاك. وأفغانستان تبعد مقدار نصف العالم. والقاعدة منظمة عصابات، يعيش أفرادها في كهوف ويركبون البغال ويقودون السيارات الرياضية الكبيرة. وبما أنهم كانوا يخشون ضربة عسكرية أمريكية، فإن مخيماتهم للتدريب كانت عملياً فارغة. وقال رامسفيلد إنه يريد أفكاراً خلاقة، شيء يكون ما بين إطلاق صواريخ كروز وعملية عسكرية شاملة. وقال رامسفيلد لفرانكس بشدة: «حاول مرة أخرى».

وقال بوش لمستشاريه ما كان قد قاله لرئيس الوزراء البريطاني طوني بلير ذلك الصباح في مخابرة هاتفية أمينة. وذلك أنه يريد أولاً وقبل كل شيء عملاً عسكرياً يؤلم الإرهابيين وليس عملاً وحسبُ يجعل الأمريكيين يشعرون بالتحسن. وكان يفهم ضرورة التخطيط والتحضير، إلاّ أنه كان لصبره حدوده. «أريد أن أتخذ إجراءات»، قال الرئيس.

وكان بوش يعتقد أن البنتاغون بحاجة إلى الدفع. «إنهم لم يوضعوا موضع التحدي بعد للتفكير بكيفية شن حرب عصابات وهم يستخدمون الأساليب التقليدية»، تذكر بوش. «لقد خرجوا من فترة القصف من بعيد ـ كما تعلم، صواريخ كروز موجهة إلى الشيء».

وكان الرئيس يفهم أن قراراته السابقة بشأن تغيير المناخ العالمي والدفاع القومي بالصواريخ قد أزعجت حلفاء أمريكا في أوروبا. وقد تخوّف أصدقاء أمريكا أن الإدارة مصابة بجرثومة جديدة من الأُحادية، عندها موقفُ مَنْ يقول اعملْ الأمور وحدك، ناظرة إلى الداخل بدلاً من أن تتعهد العالم كما يُتوقع من القوة العظمى الوحيدة أن تتصرف.

وفي إحدى المقابلات، وصف بوش لاحقاً كيف كان يعتقد أن سائر العالم كان يراه في الأشهر السابقة لهجمات 11 سبتمبر/أيلول. «أنظروا: أنا الرجل السامُ من تكساس، أليس كذلك؟ في رأي هؤلاء الناس، أنا الشخص الجديد. لا يعرفون مَن أنا. إن التصورات كانت لا بد عصيّة على التصديق».

وقبل الساعة الحادية عشرة صباحاً، أُدخل الصحافيون إلى غرفة الوزارة. وجلس بوش في مقدمة كرسيه قليلاً، وكان يرتدي طقماً كحلياً وقميصاً أزرق فاتح اللون وربطة عنق زرقاء مخططة. كان يريد أن يزيد من حدة خطابه للجمهور عما كان عليه الليلة السابقة.

«إن الهجمات المتعمَّدة والمميتة التي نُفذت أمس ضد بلادنا كانت أكثر من مجرد أعمال إرهاب»، قال الرئيس «لقد كانت أعمال حرب».

ووصف العدو بأنه عدو لم تواجه أمريكا مثله من قبل، عدو يعمل في الظلال، ويتخذ من الأبرياء ضحية له، ويضرب ثم يركض ليختبئ. «إن هذا عدو يحاول أن يختبيء، ولكن لن يتمكن من الاختباء إلى الأبد». إن البلاد ستستخدم كل طاقاتها لإيجاد المسؤولين عن هذه الهجمات. «سنحشد قوى العالم. سنكون صبورين، وسنكون مركّزين، وسنظل ثابتين في تصميمنا».

«إن هذا صراع جبار بين الخير والشر، ولكن الخير سينتصر».

تُرك إلى پاول الكثير من العمل على تجميع حلف عالمي، ولكن بوش

اتصل هاتفياً بالرئيس الروسي ڤلاديمير پوتين، وتكلم أيضاً مع رؤساء فرنسا وألمانيا وكندا والصين.

«كان موقفي كل الوقت هو أنه لو اضطررنا للانطلاق وحدنا، سوف نذهب لوحدنا؛ ولكنني كنت أفضّل ألاّ نفعل ذلك»، تذكر بوش.

في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، اجتمع الرئيس بقادة الكونغرس وقال لهم: «كان حلم العدو ألاّ نجتمع في هذا المبنى. كانوا يريدون أن يجعلوا البيت الأبيض حطاماً». وحذّر من هجمات أُخرى وقال: «ليس هذا حدثٌ منعزل». إن الجمهور قد يفقد مركز الأمور بعد شهر من الآن، سيكون الأمريكيون يشاهدون الفوتبول والمباراة النهائية منه على التلفاز. ولكن على الحكومة أن تستمر بالحرب إلى ما لا نهاية.

إن العدو ليس مجرد مجموعة معينة، قال بوش، ولكنه أيضاً «طريقة معينة من التفكير» تشجع الكراهية. «إنهم يكرهون كل شيء سوى أنفسهم». وأضاف إن على البلاد الأخرى أن تختار.

ونصح رئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ، توماس أ. داشل، وهو ديموقراطي من ولاية داكوتا الجنوبية، الرئيسَ بأن يلتزم الحذر عندما يختار خطابه، وقال: «إن كلمة الحرب قوية». وتعهّد داشل بالدعم من كلٍ من الديموقراطيين والجمهوريين، ولكنه طلب من الإدارة أن تجعل من الكونغرس شريكاً كاملاً في الاستشارات الجارية. وخلال أول اجتماع خاص بعد إعلان بوش فائزاً برئاسة الجمهورية، أدهش الرئيس المنتخب داشل بقوله، «أتمنى ألاّ تكذب عليّ أبداً». وكان جواب داشل: «حسناً، أتمنى ألاّ تكذب أنتَ عليّ أبداً».

وبُعيد انتهاء الاجتماع، نهض السيناتور روبرت بيرد، وعمره 83 سنة، وهو ديموقراطي من ولاية ڤرجينيا الغربية والرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ،

ووصف تعامله مع عشرة رؤساء جمهورية. ولاحظ أن بوش كان قد قال بأنه لا يريد إعلاناً للحرب من الكونغرس، ولكنه يرغب في أن يصدر الكونغرس قراراً بالمصادقة على استعمال القوة. وقال بيرد إن على بوش ألاّ يتوقع ذلك النوع من الشيك على بياض الذي أعطاه الكونغرس للندون جونسون في حرب ڤيتنام سنة 1964 عندما أصدر قرار خليج تونكين. ما زال لدينا دستور، قال بيرد، وهو يخرج نسخة منه من جيبه.

وتذكر بيرد تلك الليلة التي تناول فيها هو وزوجته طعام العشاء مع بوش في البيت الأبيض. وكان بوش قد صلّى صلاة المائدة، دون أن يسأل أحداً. «هذا ترك انطباعاً قوياً لدي». قال بيرد. وكان السيناتور قد تحدث عن تأثير هوليوود السلبي على الثقافة، وعن انزلاق الأمريكيين في اتجاه الانحلال الأخلاقي والمادي. وقال بيرد للرئيس: «إنني أصلي من أجلك. بالرغم من هوليوود والتلفاز، هناك جيش من الناس الذين يؤمنون بالهدي الإلهي وبالخالق». وجلبت ملاحظته الأخيرة الصمت إلى الغرفة قال: «قِفْ هناك»، «وستأتي قوات جبارة لمساعدتك».

وبعد ظهر ذلك اليوم، عقد بوش اجتماعاً خاصاً مع برنادين هيلي، رئيسة الصليب الأحمر الأمريكي، التي قالت: إنه ليس هناك كمية كافية من الدم إذا حدث هجوم آخر.

قال لها الرئيس: «استمري بتجميع الدم. هل تفهمين مغزى قولي؟» وقال إنه لن يهرب. «أنا في يدي الله». وكان قد قيل له إن هناك طائرة أقلعت من مطار ناشونال تحلق فوق نهر البوتوماك ويمكن أن تخرق اتجاهها الأصلي وتتجه إلى البيت الأبيض وتضربه خلال 40 ثانية. ولكن الرئيس كان قد تقبّل الأمور، كمال قال.

* * *

في وزارة الخارجية، كان ريتشارد آرميتاج، مثل لاعب الدفاع، يتحرك

في غرفته الواسعة التي تشكل مكاتبه على الطابق السابع باحثاً عن نقطة ضعف في خط الدفاع. وكان الرئيس بوش قد سأله مؤخراً، وآرميتاج مشهور بشغفه برفع الأثقال، ما هو الوزن الذي يرفعه هذه الأيام. وأجاب أرميتاج أنه يرفع 150 كيلوغراماً ست مرات متتابعة. وقبل عدة سنوات، عندما كان في أوجه، كان يرفع 210 كيلوغراماً.

وكان الرئيس قد أجابه: هذا جيد، وأنا أرفع 100 كيلوغراماً. أليس هذا أفضل مستوى لأي رئيس؟

نعم، أجاب آرميتاج، ورأى أن الأمر لا بد أن يكون كذلك.

والآن جاء وقت ديبلوماسية الاتصالات. وكان الرئيس قد أعلن «عقيدة بوش» الكاسحة دون أي تزويد من وزارة الخارجية. وكان البنتاغون ما زال يحترق، لم يكن هناك وقت للتنسيق مع الدوائر الأخرى.

وكان الجنرال محمود أحمد، رئيس المخابرات الپاكستانية في واشنطن صدفةً، يزور وكالة المخابرات الأمريكية. وقد أخبر تينيت ونوابه بأن قائد الطالبان مُلاّ محمد عمر رجل متديّن ذو نزوع للخير الإنساني العام، ولم يكن رجل عنف، بل إنه كان قد قاسى كثيراً على أيدي القادة العسكريين الأفغان.

«توقّف!» قال جيم پاڤيت. «دعني من ذلك. هل يريد مُلاّ عمر أن تطلق الآلة العسكرية للولايات المتحدة العنان لقواتها ضد الطالبان؟ هل تريد أن يحدث ذلك؟ لماذا يريد مُلا عمر أن يحدث ذلك؟ هل تذهب إليه وتسأله؟».

ودعا آرميتاج محموداً إلى وزارة الخارجية.

وبدأ آرميتاج الكلام بقوله إنه ما زال من غير الواضح ماذا ستطلب الولايات المتحدة من الپاكستان، إلاّ أن الطلبات ستفرض استبطاناً عميقاً. إن الپاكستان تواجه اختباراً واضحاً، إمّا هي معنا أو لا. «إنه خيار بين الأسود والأبيض دون أي لون رمادي».

وقال محمود إن بلاده قد واجهت خيارات صعبة في الماضي، ولكن الپاكستان ليست قوة كبيرة أو عظيمة.

وقاطعه آرميتاج: إن الپاكستان بلد هام.

وعاد محمود إلى الماضي.

«إن المستقبل يبدأ اليوم»، قال آرميتاج. أوصل الكلمة للجنرال مُشرّف، الرئيس الپاكستاني ـ إمّا معنا أو ضدنا.

* * *

في الساعة الرابعة بعد الظهر، اجتمع مجلس الأمن القومي مرةً أخرى. وكان السؤال الملحّ هو تحديد ماهية المهمجة بدقة.

وأصرّ رامسفيلد على نقطة كان قد قالها سابقاً. «هل نلاحق الإرهاب بشكل أوسع من مجرّد القاعدة؟ هل نريد أن نلتمس أساساً أوسع للدعم؟».

وقال بوش مجدّداً أن غريزته تقول بأن يتم البدء ببن لادن. إذا أمكنهم توجيه ضربة إلى القاعدة، كل ما يلي سيكون أسهل. ولكن رامسفيلد كان قلقاً بأن التحالف المبني حول هدف إزالة القاعدة سيتفكّك عندما ينجحون في هذه المهمة، وهذا يجعل استمرار الحرب على الإرهاب في أماكن أخرى أكثر صعوبة.

ووافق پاول مع بوش، مجادلاً أن تجميع العالم بادئ الأمر وراء هدف معيّن هو القاعدة أسهل بكثير. بإمكانهم أن يفوزوا بالموافقة على قرار واسع للأمم المتحدة إذا أبقوا الأمر مركزاً على القاعدة.

وركّز تشيني مرة أخرى على السؤال عن الدول التي تموّل الإرهاب. إن توجيه ضربة للإرهاب يعني حتماً استهداف البلاد التي تنمّيه وتصدّره، قال تشيني. ومن ناحيةٍ ما، تشكل الدول هدفاً أسهل من الإرهابيين المبهمين.

وكان بوش قلقاً من جعل الهدف الأولي مطاطاً زيادة عن اللزوم. دعنا لا

نجعل هدفنا من الاتساع بحيث يقصّر عن الإدراك ويخفق في اجتذاب التأييد من الأمريكيين العاديين، قال بوش. وأضاف إن ما يشعر به الأمريكيون هو أن البلاد قد عانت على يدي القاعدة.

واعترض تشيني قائلاً: إن التحالف يجب أن يكون وسيلة لمحو الإرهاب، وليس هدفاً بحد ذاته ـ وكان هذا رأياً شاركه فيه الآخرون. إنهم يريدون التأييد من سائر العالم، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يربط هذا التحالف أيديهم. إن المهمة يجب أن تحدّد هوية الحلف، وليس العكس.

وجادل رامسفيلد أنه في هذه الحالة يريدون تحالفاً مع شركاء ملتزمين فعلاً بالقضية، وليس مشاركين كارهين.

وقدّم پاول رأيه في بناء التحالف، وهو ما وصفه زميل له في وقت لاحق بأنه «علم الهندسة المتفاوت. يجب أن يكون التحالف أوسع ما يمكن، ولكن المطلوب للاشتراك فيه يتفاوت من بلد إلى آخر. هذا يستلزم تحالفاً من التحالفات، بتعبير رامسفيلد».

وأثار رامسفيلد قضية العراق. وتساءل لماذا لا نهاجم العراق، وليس حسبُ القاعدة؟ ولم يكن رامسفيلد يتكلم عن نفسه فقط عندما أثار هذا السؤال، إذ كان نائبه پول د. وولفو ويتز ملتزماً بسياسةٍ تجعل من العراق هدفاً رئيسياً للدورة الأولى من الحرب على الإرهاب.

وقبل الهجمات، كان الپنتاغون يعمل لمدى أشهر على تطوير خيار عسكري ضد العراق. وكان كل المجتمعين حول الطاولة يعتقدون أن الرئيس العراقي صدّام حسين يشكّل خطراً، وهو قائد مصمم على أن يمتلك ـ وربما أن يستعمل ـ أسلحة الدمار الشامل. وأي حرب جدية وكلية ضد الإرهاب لا بد أن تجعل من العراق هدفاً ـ في نهاية المطاف. وكان رامسفيلد يثير الاحتمال بأن بإمكانهم أن يستفيدوا من الفرصة التي سنحت لهم من قِبل الهجمات الإرهابية لملاحقة صدام فوراً.

ولكن پاول، الذي كان يعارض ضرب العراق في ذلك الوقت، ردّ بأنهم إنما يركّزون على القاعدة لأن الشعب الأمريكي يركز عليها. «كل عمل يحتاج إلى التأييد العام. إنه ليس وحسب ما يؤيده التحالف الدولي، إنه ما يريد الشعب الأمريكي أن يؤيده. إن الشعب الأمريكي يريد أن نعمل شيئاً ضد القاعدة».

ووضّح بوش بأن ذلك الوقت لم يكن مناسباً لحل القضية. وأكّد مرة أخرى على أن هدفه الرئيسي هو عمل خطة عسكرية من شأنها أن تنزل أذىً حقيقياً وتدميراً بالإرهابيين.

وقال لهم بوش: «لا أريد حرباً هي مجرد فرصة للتصوير». إنه يريد «بطاقات إصابات واقعية و«لائحة بالسفاحين» الذين سيُستهدفون. وقال بوش إن الجميع يفكرون بحرب الخليج، وذلك قياس خاطئ، وقال: «إن الشعب الأمريكي يريد ضجة مدوّية. عليّ أن أقنعهم أن هذه حرب ستحارب بعدة خطوات».

وكانت تلك إشارة منه إلى ڤيتنام، حيث حاربت القوات العسكرية الولايات المتحدة الأمريكية حرباً تقليدية ضد عدو يتألف من عصابات. وقال فيما بعد إنه «كان يعلم بالغريزة بأنه يجب عليهم أن يفكروا بطريقة مختلفة» في كيفية محاربة الإرهابيين. «إن الاستراتيجية العسكرية كانت ستستغرق وقتاً لتتبلور»، قال الرئيس، «وصرت أشعر بالخيبة».

وبعد ظهر ذلك اليوم، أرسل پاڤيت برقية سرية ثانية من مقر وكالة المخابرات المركزية إلى كل المحطات والقواعد حول العالم عنونها «العمل المطلوب: أفكاركم».

وكتب پاڤيت أن الوكالة تستأنف مجهودها العظيم حول العالم لإيجاد مرتكبي أحداث 11 سبتمبر/ أيلول. «إن وكالة المخابرات المركزية هي أيضاً في سبيل العمل على تطوير برنام عمل سري جديد لا سابق له، الهدف منه بوضوح إنزال الخراب والقضاء على مموّلي الإرهاب الإسلامي المتطرف مسانديهم

وحثّ پاڤيت موظفيه السريين في إدارة العمليات ـ هؤلاء الذين في الشوارع وقريبين من العمل ـ أن يقدمو أجرأ الأفكار وأكثرها تطرفاً حول كيفية السلوك في اصطياد الإرهابيين على نطاق واسع جداً. ليست هناك أية قيود. فكروا «بطرق جديدة وغير ممتحنة» لإنجاز هذه العملية.

«إن برنامج العمل السري هذا سيحتوي على عناصر حرب شبه عسكرية ولوجستية ونفسية، إضافة إلى التجسس التقليدي»، قالت البرقية. بكلمات أخرى، ليس هناك مقابض ممنوعة.

وهكذا، عادت إدارة العمليات إلى العمل.

وحوالى الساعة التاسعة والنصف صباحاً من يوم الخميس الواقع في 13 سبتمبر/ أيلول، اجتمع الرئيس بمجلس الأمن القومي في غرفة المواقع بالبيت الأبيض، الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من الجناح الغربي، طابقاً واحداً تحت مكتب رئيس الأركان. وأحضر تينيت معه رئيس مكافحة الإرهاب كوفر بلاك ليقدّم تفاصيل إضافية عن مقترحات وكالة المخابرات المركزية.

وكانت فكرة تينيت تدعو إلى تجميع طاقات جَمْع المخابرات الموسعة، والتكنولوجيا المتطورة، وفرقاء الوكالة شبه العسكرية، وقوات المعارضة في أفغانستان، واستعمالها بطريقة عمل سرية كلاسيكية. ثم ينضمّ هؤلاء إلى قوة الولايات المتحدة العسكرية والقوات الخاصة في صورة محكمة دقيقة قاتلة هدفها تدمير شبكات الإرهابيين.

وقال تينيت إن الفكرة الرئيسية هي تمويل الاتحاد الشمالي وإنعاشه، والاتحاد الشمالي يتألف من حوالي 20 ألف محارب هم على وجه التأكيد، يسيطر عليه خمسة أحزاب، وإنْ كان هناك في الحقيقة 25 حزباً فرعاً فيه. وكان الاتحاد هذا يشكل ائتلافاً متوتراً، لمصالح مشتركة أحياناً. وكان اغتيال أكثر قادته جاذبيةً أحمد شاه مسعود، قبل يومين من 11 سبتمبر/ أيلول ضربة كبيرة لهم، تركت الحلف أكثر تفككاً من السابق. ولكن مع دعم فرقاء وكالة

المخابرات المركزية الأمريكية والأطنان من المال، كان من الممكن تجميع هذا التحالف وجعله قوة مقاتلة متماسكة، قال تينيت.

وكان فرقاء الوكالة شبه العسكرية يجتمعون من وقتٍ إلى آخر بشكل سري بقادة الحلف خلال السنوات الأربع السابقة. وقال تينيت إن بإمكانه إنزال فِرقاً شبه عسكرية داخل أفغانستان مع كل قائد عسكري في الاتحاد. إضافة «إلى فرقاء من القوات الخاصة من قوات الولايات المتحدة العسكرية، يمكنهم أن يشكّلوا «عيوناً على الأرض» تمكّن قوات الولايات المتحدة العسكرية الضرب بالقنابل من قِبل العسكرية الأمريكية. وأن التفوق التكنولوجي الأمريكي يمكن أن يعطي الاتحاد الشمالي تقدُماً هاماً.

وجاء دور كوفر بلاك. وكان بلاك قد وجد في هذه الاجتماعات مع كبار المسؤولين نزعةً مؤسفة للتكلم بالعموميات. لم يكونوا معتادين على الطَّرق على الهدف، كما يقال، أو على الضرب الحاد والمباشر. ولكنه كان يعتقد أنه يعرف ما يتوقون إليه.

وقدم بلاك شرحاً سردياً مستعملاً معه الشرائح التصويرية. وقال بلاك: «سيدي الرئيس، يمكننا أن نفعل ذلك. ليس لدي أي شك. سنفعل ذلك بالطريقة التي رسمنا معالمها، وسنرتّب هذا الأمر بحيث يكون قتالاً جائراً للقوات العسكرية للولايات المتحدة.

وواجه بلاك بوش الذي كان يجلس على رأس الطاولة. «ولكن يجب أن تفهم أن أشخاصاً سيموتون. وأسوأ ما في ذلك هو أن أمريكيين سيموتون ـ زملائي وأصدقائي».

«ولهذا يجب ألاّ يكون هناك أي سوء فهم بأن هذه ستكون عملية غير مصحوبة بإراقة الدماء».

وقال بوش: «تلك هي الحرب».

«علينا أن نتقبّل أننا سنفقد أشخاصاً في هذه الصفقة، كم من الناس، لا أعلم. من الممكن أن يكون العدد كبيراً».

«موافق»، قال الرئيس، «لنذهب. تلك هي الحرب، وهذا ما نجد أنفسنا فيه لننتصر».

وكان بلاك مسرحياً وهو يصف فعّالية العمل السري. وكان يقوم ويقعد على كرسيه وهو يعرض نقاطه، ويرمي الأوراق على الأرض وهو يصف وضع قوات على الأرض في أفغانستان.

وكان بلاك يريد أن تبدأ المهمة بأسرع ما يمكن. ولم يكن لديه أي شك بأنهم سينجحون. «أعطنا المهمة»، قال، «ونحن نقبض عليهم». وقال مردداً لغة الرئيس العلنية حول إخراج الإرهابيين من كهوفهم بالدخان: «سنطردهم».

ولاحظ بلاك أن الهدف المطلوب حالياً هو القبض على أفراد القاعدة وتسليمهم للعدالة. ولكنه للأسف كان قد عرف أن القاعدة لا تستسلم ولا تفاوض. وكان الشهيد العظيم من الحلف الشمالي الزعيم مسعود قد قال له مرةً: «إننا نحارب هؤلاء الأشخاص منذ أربع سنوات ولكنني لم أقبض على واحد من أولاد الحرام هؤلاء قط». والسبب هو أن في أي وقت تُجتاح إحدى وحداتهم، يتجمعون ويفجّرون قنبلة يدوية. المهمة إذن هي قتل القاعدة، قال بلاك.

وتابع بلاك: «وعندما ننتهي منهم، سيمشي الذباب على أعينهم». وكانت صورة الموت هذه هي التي تركت انطباعاً ثابتاً لدى عدد من أعضاء وزارة الحرب. وصار بلاك يعرف في دائرة بوش الداخلية بـ: «رجل الذباب على العيون».

وقال بلاك أيضاً بأنه عليهم أن يلاحقوا ليس القاعدة وحسب ولكن الطالبان أيضاً، لأن الاثنين ملتصقان لدى الورك. إن وكالة المخابرات المركزية

لم تتمكن من تحضير خطة عمل سرية تسمح لهم لتحييد الطالبان ـ عن طريق استغلال حب المال ـ بحيث يمكن مقاتلة القاعدة.

وسأل بوش: كم نعرف عن قادة الحلف الشمالي بالتحديد؟

وأعطى بلاك مقتطفات وجيزة، ثم لاحظ أن هناك نقاط ضعف ساطعة أيضاً، وذلك ليُظهر أن سيناريو الوكالة ليس وردياً كله. واسم أحد جنرالات الحلف الرئيسيين، عبد الرشيد رستم، موجود على جداول مرتبات الجميع ـ روسيا وإيران وپاكستان.

وسأل بوش كم مِن الوقت يستغرق إدخالُ الفرق شبه العسكرية إلى داخل أفغانستان.

سريعاً، أجاب بلاك. يتمّ ذلك بشكل متصاعد: عندما يدخل فريق واحد، يتبعه فريق آخر بسهولة أكثر، وهكذا دواليك.

وسأل الرئيس: «كم من الوقت سيستغرق ذلك؟» وكان معنى «ذلك»: النصر.

منذ نزولنا على الأرض، قال بلاك، يجب أن يتم ذلك في مدة أسابيع.

ولم يكن أحد عدا بلاك في الغرفة، بما في ذلك تينيت، يصدق أن ذلك ممكن.

ومع ذلك، فإن أداء بلاك كان لا يُنسى، كما كان له تأثير عظيم على الرئيس. وكان بوش قد أبدى في اليومين الأخيرين، وبأكثر الطرق مباشرةً، تصميمه على إيجاد الإرهابيين وتدميرهم. والآن، وللمرة الأولى، كان يُقال له دون تحفّظ أن هناك طريقة لإنجاز ذلك، وأنه ليس من الضروري له أن ينتظر إلى ما لا نهاية، وأن لدى الوكالة خطة.

وكانت حماسة بلاك معدية، مع أنها كانت حتماً متفائلة. ولن تتم الأمور بالسرعة أو السهولة التي عبّر عنها، ولكن في تلك اللحظة هذا ما كان الرئيس

يريد أن يسمعه. وما قاله بلاك بدا منطقياً أيضاً ـ استعمال ثلاثية وكالة المخابرات المركزية والحلف الشمالي والقوات العسكرية الأمريكية.

وكان پاول من ناحيته قد رأى أن بوش قد تعب من الكلام. إن الرئيس يريد أن يقتل شخصاً ما.

وعلّق بوش لاحقاً: «بدا واضحاً لي أننا سنستطيع أن نشنّ حرباً مختلفة عن الحرب التي شنّها الروس». إن غزو أفغانستان بجيش تقليدي، كما فعل الاتحاد السوڤياتي دون نجاح في الثمانينيات. لن يكون الخيار العسكري الوحيد للولايات المتحدة «قد أُعجبت بمعلومات وكالة المخابرات المركزية عن المنطقة. وكانت لدينا هناك مصادر قوة لفترة طويلة من الزمن. وقد نجحوا، وكانوا يحلّلون الأمور».

* * *

وقُبيل الساعة الحادية عشرة صباحاً، أدخل معاونو البيت الأبيض جماعة الصحافيين إلى المكتب البيضوي حيث يجري الرئيس مكالمة هاتفية على أكثر من خطّ مع محافظ مدينة نيويورك رودولف و. جولياني وحاكم ولاية نيويورك جورج إ. پاتاكي.

وفي اليوم السابق، كان فريق البيت الأبيض للاتصالات، هيوز ومجموعتها، قد قرروا أن تنقل المحادثة على التلفاز. لقد أرادوا أن يُشاهَد الرئيس وهو يمد يده إلى عائلات الآلاف من الضحايا الذين ماتوا عندما انهار البرجان. وكذلك إلى عمّال الإنقاذ الذين كانوا يجاهدون على مدار الساعة للبحث اليائس عن الأحياء. وحيث أن بوش لم يكن قد قرّر أن يزور نيويورك ذلك الأسبوع، فإن المكالمة المتلفزة الكثيرة الخطوط كانت ستعتبر خير مبادرة.

ولكن عندما تكلّم بوش على الهاتف قال للمحافظ والحاكم بأنه سيطير

إلى نيويورك بعد ظهر اليوم التالي، بعد الصلاة العامة في كاتدرائية واشنطن القومية مباشرةً.

وبدا بوش متضايقاً، ذاهلاً تقريباً، عندما كان يجري المكالمة الكثيرة الخطوط المتلفزة. «أتمنى لو أنني كنت أزوركم في ظروف أفضل من هذه»، وقال في الختام: «ولكنها ستكون فرصة لنا نحن الثلاثة أن نشكر ونتعانق ونبكي مع المواطنين في منطقتكم الفاضلة». وعندما انتهت المكالمة الهاتفية، قرّر بوش أن يجيب على أسئلة الصحافيين الواقفين على بعد أمتار منه.

«سيدي الرئيس»، سأل أحدهم، «هل بإمكانك أن تعطينا فكرة عن أي نوع من الصلاة تفكّر فيه، وأين قلبك، لنفسك، عندما كانت...».

أجاب «إنني لا أفكّر بنفسي حالياً»، وكان من الواضح فوراً بأنه كان يتصارع مع عواطفه. «إنني أفكّر بالعائلات وبالأطفال». وأدار رأسه وامتلأت عيناه بالدموع.

«أنا شخص مُحِبٌّ»، قال الرئيس وهو يستعيد رباطة جأشه، وإنني حزين وحسب، «ولكنني أيضاً شخص لديه وظيفة، وأنا أنوي أن أقوم بها. هذه الخطة رهيبة. ولكن هذه البلاد لن ترتاح حتى نخلّص أنفسنا وغيرنا من المأساة الرهيبة التي حلّت بأمريكا».

وكانت الدموع ما زالت في عينيه عندما أنهى الجلسة بإيماءة طفيفة من رأسه، واصطحب جماعة الصحافيين إلى الخارج.

وقال بوش فيما بعد: «إن الرؤساء لا يحبون أن يبكوا أمام الجمهور الأمريكي، وخاصة في المكتب البيضوي. ومع ذلك فقد فعلت». ولكنه كان يعتقد أن «حالته النفسية كانت تعكس حالة البلاد بطرق كثيرة. إن الناس في بلدنا كانوا يشعرون بمثل شعوري».

وربما كانت الدموع العلنية هامة جداً. لمدة يومين، كان بوش يتجاوب

كرئيس للجمهورية، بإخلاص ولكن ضمن حدود التصرف المتوقع من رئيس للجمهورية. وربما كان ذلك أكثر انعزالاً وتجرداً عن الشعور الشخصي مما يتحمله الوضع. وما قاله لم يبدُ وكأنه مما يصدر عنه عادةً. لقد تقلَّدَ هيبةَ الرئاسة، ولقد فرضها على نفسه، وقد أوضح البكاء في المكتب البيضوي أن المشاعر الإنسانية تغلبت حتى على منصب رئيس الجمهورية.

وقبيل الثانية عشرة ظهراً، قام بوش وزوجته بدورة على وحدة الحريق في مركز مستشفى واشنطن، حيث كان يعالج بعض الذين نجوا من الهجوم على البنتاغون. وكان هنالك رجال ونساء قد غسلوا بالزيوت وعصبوا بالضمادات حروقهم. وتحدث الكثيرون ممن غطَّت الحروق نسبةً كبيرةً من أجسادهم عن زحفهم من خلال النار.

وكانت تلك صدمة عاطفية ثانية. وحوالي الساعة الثانية عشرة والنصف، عندما توقفت سيارة الرئيس في طريق البيت الأبيض الخاصة، لم يكن الرئيس في مزاج للمراوغة، وقبل أن يحاول الخروج من السيارة، رفع آندي كارد يديه، مشيراً للرئيس بأن يجلس في مقعده.

«سيدي الرئيس»، قال كارد، «اجلس في السيارة لمدة دقيقة. عندي شيء يجب أن أقوله لك». وصعد إلى السيارة وجلس على المقعد الخلفي قرب بوش وأغلق الباب.

«لقد تسلَّمنا تهديداً آخر للبيت الأبيض»، قال رئيس الأركان، «ونحن نأخذه مأخذ الجد». وكانت وكالة المخابرات المركزية قد بعثت للتوّ تحذيراً من وكالة المخابرات الهندية جاء فيه أن مجاهدين باكستانيين ـ وهم مسلمون متطرّفون ـ يخطِّطون لهجوم وشيك على البيت الأبيض.

قال بوش بحدة «ولماذا تقول لي هذا هنا؟»، وكان غاضباً، لأن كارد قد خاطر بالقيام بمشهد غير ضروري يمكن للصحافيين أسفل طريق البيت الأبيض الخاصة أن يلاحظوه. «كان بإمكانك أن تنتظر حتى أدخل المكتب البيضوي».

وخرج بوش من السيارة، ومشى ومعه كارد مباشرة إلى المكتب البيضوي، حيث كان ينتظره مدير الخدمة السرية ستافورد ورئيس حرس بوش السرّي الخاص.

وقال ستافورد: «يجب أن نبعدك». كان التهديد موثوقاً ومتناسقاً مع المخابرات الأخرى التي قرّرت أن هناك خطراً وشيكاً. وكانت لدى وكالة المخابرات الهندية اتصالات جيدة بالباكستان. وكان ستافورد يريد أن يأخذ الرئيس إلى مركز عمليات الطوارئ الرئاسية، وهي الغرفة المحصنة تحت أرض البيت الأبيض.

فقال بوش: «لن أغادر». وكان يريد المزيد من المعلومات إذا كانت لديهم معلومات. ولكنه في الوقت الحالي لم يكن سيغادر إلى أي مكان. وأضاف ـ من دون توجيه الحديث إلى شخص معيَّن ـ : «على فكرة، أنا جائع». وعيَّن فرديناند جارسيا، وهو المضيف التابع للبحرية الذي كان في الخدمة في الجناح الغربي. «فريدي»، قال بوش: «أريد هامبرغر».

وكان كارد يعلم بأن بوش كان يؤمن بالقضاء والقدر نوعاً ما. إذا كان شيء سيحدث، فإن ما يمكن عمله محدود. والاختباء في غرفة تحت الأرض لم تكن بالضبط خياراً. وقبل الهجمات، كان بوش يأكل أكلاً خفيفاً ـ مثل الفاكهة وغيرها من المآكل الصحية ـ حتى ينقص وزنه.

فقالت هيوز عندما سمعته يطلب الهامبرغر، «حسناً، كُل الجبنة أيضاً».

وكانت رايس قد انضمَّت إلى المجموعة، ووافق الجميع على أنه، حتى وإن كان الرئيس غير مستعد للمغادرة، فإن عليهم واجباً تجاه سائر موظفي البيت الأبيض. وكان الكثيرون من الموظفين، وخاصة الأصغر سناً ومركزاً منهم، ما زالوا يعانون من القلق بعد صدمة 11 سبتمبر/أيلول، عندما أُجلي من في البيت الأبيض.

وقرّر الرئيس ومستشاروه بأن عليهم أن يسمحوا للموظفين غير الضروريين بالذهاب إلى بيوتهم بعد ظهر ذلك اليوم. وأبلغ كارد هذه المعلومات في اجتماع لكبار الموظفين، وأعلن أن الخدمة السرية ستطبِّق إجراءات إضافية لحماية المبنى، مثل توسيع المساحة الآمنة حول مجمَّع البيت الأبيض.

وقال كارد إن نائب الرئيس سيُنقل إلى مكان غير مُعلن كاحتياط على أن لا يكون الرئيس ونائبه معاً في حال حدوث هجوم آخر. والاستمرارية في الحكومة ـ أي التأكُّد من استمرار حياة شخص يقع في الصف الدستوري لخلافة الرئيس ـ كانت مسألة رئيسية في سلَّم الأولويات.

وكان القرار بنقل تشيني أوضح الدلالات على مدى الجدية التي اتخذوا بها التهديدات بهجوم آخر. وسوف يؤدي هذا القرار إلى تساؤلات عن مكان نائب الرئيس وصحته ـ وكان قد أُصيب بأربع نوبات قلبية ـ ولكن نائب الرئيس أصرَّ على الابتعاد عن البيت الأبيض عندما تكون التهديدات جدية.

وقال تشيني للرئيس: «إن علينا أخذ مسؤولية التأكُّد من أن الحكومة قادرة على الاستمرار».

5

في وزارة الخارجية، كان پاول وأرميتاج يركّزان على باكستان ـ مسمار العجلة في أية استراتيجية لعزل القاعدة والطالبان في أفغانستان ومهاجمتهما في نهاية المطاف. وكانت باكستان واحدة من دولتين رئيسيتين وحسبُ في العالم اعترفت رسمياً بالطالبان كحكومة رسمية في أفغانستان. وكان لهذه الحركة الإسلامية المتطرّفة عدد كبير من الأتباع ضمن حدود باكستان.

ولم يكن لدى الولايات المتحدة علاقات جيدة مع الجنرال پيرڤيز مشرّف، الذي وصل إلى الحكم بعد انقلاب عسكري أبيض سنة 1999 ـ بعد سنة واحدة من فرض الولايات المتحدة عقوبات على باكستان لقيامها باختبار نووي.

وكان پاول قد قال لبوش بأنه مهما كان العمل الذي يقوم به، فمن المستحيل القيام به من دون تأييد باكستان. وكذلك كان لا بدّ من إعلام الباكستانيين. وكان الإسراف في الضغط على مشرّف أمراً خطراً. ولكن عدم الضغط عليه كان أكثر خطورةً. وكان پاول يفكّر بما يشبه الرمية إلى الخلف يقذف فيها قاذف البايسبول الكرة في محيط خطر ـ ضربة عالية سريعة وقاسية على الرأس.

وكان الرئيس قد قال: «افعل ما يجب عليك أن تفعله».

وقال پاول لأرميتاج: «لنعد ما يجب علينا طلبه، ماذا نريد من هؤلاء الأشخاص؟».

وبدآ بإعداد قائمة.

أولاً: «أَوقفوا عملاء القاعدة على حدودكم؛ اعترضوا شحنات الأسلحة التي تمرّ من خلال باكستان وأَنهوا كل دعم لوجستي لبن لادن».

ثانياً: «نحصل على حقوق شاملة للطيران فوق باكستان والهبوط فيها».

ثالثاً: «حرية استعمال القواعد البحرية والقواعد الجوية والحدود الباكستانية من قبل القوات الأمريكية».

رابعاً: «معلومات فورية عن المخابرات والهجرة».

خامساً: «أدينوا هجمات 11 سبتمبر/ أيلول و«حُدُّوا من كل الشعارات المحلية المؤيِّدة للإرهاب ضد الولايات المتحدة أو أصدقائها أو حلفائها». وكان پاول وأرميتاج يعلمان أن ذلك أمر لم يكونا بقادرين على عمله حتى في الولايات المتحدة.

سادساً: أوقفوا كل شحنات الوقود إلى الطالبان وأوقفوا المتطوعين الباكستانيين من الذهاب إلى أفغانستان للانضمام للطالبان.

وكان الطلب السابع في رأي پاول هو الطلب الذي يُزلّ قَدَم الباكستانيين أو يدعو مشرّف إلى التوقف: «إذا دلَّت الدلائل بشدة على تورُّط أسامة بن لادن وشبكة القاعدة في أفغانستان، وإذا استمرَّت أفغانستان والطالبان بإيواء بن لادن وشبكته، فإن على باكستان أن تقطع علاقاتها الديبلوماسية مع حكومة الطالبان وتوقف دعمها للطالبان وتساعدنا بالطرق المذكورة سابقاً للقضاء على بن لادن وشبكته القاعدة».

وبكلمات أخرى، كان پاول وأرميتاج يطلبان من باكستان المساعدة في تدمير ما كانت وكالة مخابراتها قد أسهمت في تكوينه ودعمه: الطالبان.

واتصل أرميتاج هاتفياً برئيس المخابرات الباكستانية، الجنرال محمود، وكان قد اجتمع به في اليوم السابق، ودعاه إلى وزارة الخارجية.

وقال أرميتاج للجنرال إن هذه الطلبات السبعة المكتوبة على ورقة واحدة ليست موضع مساومة. عليكم أن توافقوا عليها كلها.

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، اتصل پاول هاتفياً بمشرف. «إنني أتحدث إليك حديث جنرال إلى آخر»، قال له، «إننا بحاجة إلى شخص يحارب إلى جانبنا. وأقول لك بكل صراحة إن الأمريكيين لن يتفهموا الأمور إذا لم تقف باكستان إلى جانب الولايات المتحدة في هذه المعركة»!

وقال مشرف ما أدهش پاول: إن باكستان ستدعم الولايات المتحدة في كلٍّ من الأعمال السبعة.

وأدار جلسة تزويد الصحافة بالتقارير من البنتاغون ذلك اليوم نائبُ وزير الدفاع پول وولفو ويتز، الذي كان سابقاً موظفاً كبيراً في وزارة الدفاع خلال إدارة بوش الأول. وكثيراً ما كان وولفو ويتز يعبّر عن آراء مجموعة صريحة من المحافظين في قضايا الأمن القومي في واشنطن، وكثيرون منهم كانوا قد عملوا في إدارتي ريغان وبوش الأكبر. وكان هؤلاء الرجال يعتقدون أن ليس هناك في العالم خطر أكبر من الرئيس العراقي صدام حسين، وكانوا يجادلون أنه إذا كان الرئيس جاداً في ملاحقة مَنْ يأوون الإرهابيين، فإن عليه أن يضع حسين في رأس القائمة.

وكان رأيهم أن العراق تشكّل مشكلة للرئيس وفريقه توازي في جدّيّتها أفغانستان. وإذا قرر صدام ـ وهو امرؤ متعلق بالحياة مراوغ لا يمكن التنبؤ بأعماله ـ أن يشنّ هجوماً إرهابياً أو مجرّد ضربة عسكرية محدودة على المنشآت

الأمريكية بعد 11 سبتمبر/ أيلول، وإذا أخفق الرئيس في التحرك ضده، فإن الاتهامات المضادة قد لا تنتهي.

وكان رامسفيلد قد أثار موضوع العراق في اجتماعات الأمن القومي في اليوم السابق مع الرئيس. والآن أراد وولفو ويتز أن يصدر تحذيراً علنياً للبلدان الإرهابية. وكان ذلك جهداً آخر لحث الرئيس على ضم العراق إلى جولته الأولى من الأهداف.

وقال وولفو ويتز، «ليست المسألة مسألة قبضٍ على الناس وتحميلهم المسؤولية وحسب، ولكن المسألة هي إزالة الإرهاب، وإزالة الأنظمة الداعمة له، ووضع نهاية للدول التي تكفله».

ستكون حملة، وليس مجرّد عمل واحد. وسنستمر في ملاحقة هؤلاء الناس ومؤيديهم حتى يتوقف الإرهاب.

وكان هذا ـ إذا قُرئ قراءة غير مؤذية ـ مجرد إعادة لـ «عقيدة بوش» ليلة 11 سبتمبر/ أيلول، ولكن بطريقة أكثر استفزازية. ولم يكن وولفو ويتز بالحقيقة يبتدع شيئاً جديداً، ولكنه أكثر من الكلام. وستكون ملاحظته مادة العناوين الكبيرة، ومن شأنها بالتأكيد أن تخوّف الكثيرين من حلفاء الولايات المتحدة. إن «وضع نهاية للدول التي تكفل الإرهاب» ـ أي تغيير الحكم ـ كان من جملة ما قاله بوش؛ ولكن لم يكن مصرّحاً به بوضوح.

ولكن پاول أبعد نفسه علانية. وقال «أنا أترك الأمر عند وضع نهاية للإرهاب، وليتكلم السيد وولفو ويتز عن نفسه».

وكان الجنرال في الجيش هيو شلتون، والذي سيكون رئيس الأركان المشتركة لمدة أسبوعين آخرين قبل أن يحل محله مايرز، يعارض بشدة إدخال العراق في المعادلة العسكرية في تلك المرحلة المبكرة. وكان تحليله أن التسويغ الوحيد لملاحقة العراق هو برهان واضح يقرن العراقيين بهجمات 11

سبتمبر/أيلول. ومن دون ذلك، لا يستحق جعلُ العراق هدفاً للمخاطرة بإغضاب الدول العربية المعتدلة، وأن تأييد هذه الدول العربيبة حاسم ليس وحسب لأي حملة في أفغانستان، ولكن أيضاً لإحياء عملية السلام في الشرق الأوسط.

وفي وقت سابق من ذلك الأسبوع، كان پاول قد دنا من شلتون وقلب عينيه بعد أن أثار رامسفيلد موضوع العراق كهدفٍ محتمل.

وتساءل پاول، «يا للجحيم، بماذا يفكر هؤلاء الأشخاص؟» وكان پاول قد شغل منصب شلتون كرئيس للأركان المشتركة من قبل. «هل يمكنك أن ترجع هؤلاء الأشخاص إلى داخل العلبة؟».

ولم يكن بإمكان شلتون أن يكون أكثر اتفاقاً مع ما قاله پاول. وقد كان يحاول ويناقش الأمور من النواحي العملية وعلى أساس سلم الأولويات. ولكن وولفو ويتز كان عنيفاً في عزمه والتزامه.

وفي جلسة مجلس الأمن القومي في غرفة المواقع بعد ظهر ذلك اليوم، قال الرئيس أنه سيوافق على اقتراح وكالة المخابرات المركزية بتوسيع العمليات السرية من أجل إعطاء التأييد المادي وشبه العسكري للحلف الشمالي.

وقال پاول وهو يتناول نسخة من الطلبات السبعة من الباكستانيين، «أودّ أن أقول لكم ما قلناه للباكستانيين اليوم». وكان يعرف أن الرئيس لا يحب أن يجلس دون حركة خلال القراءات الطويلة، إلاّ أنه كان فخوراً بما أنجزوه دون أن يعيقهم الجدل الطويل فيما بين الوكالات. وقرأ پاول الطلبات السبعة بصوتٍ عالٍ، وعندما انتهى، أعلن أن مشرّف كان قد قَبِلَ هذه الطلبات.

قال الرئيس: «يبدو أنك بلغت المراد من كل شيء»، إن هذه هي وزارة الخارجية في أحسن حالاتها، دون لباس مخطط رسمي.

سأل بعض الآخرين «هل بإمكاننا أن نأخذ نسخة من هذه الطلبات؟».

وأعطى وزير المالية پول هـ. أونيل تقريراً عن الجهد لكتابة مسودّة أمر

تنفيذي يسمح لوزارة المالية بملاحقة أموال الإرهابيين. وفي المحادثات التي جرت قبل 11 سبتمبر/أيلول حول ما يجب عمله ببن لادن في الربيع والصيف، كان موظفو وزارة المالية يبذلون الجهود لملاحقة مصادر الإرهابيين المالية، وكانت هناك معارضة مؤسساتية مستمرة لفرض عقوبات على الإرهابيين. وكانت المشكلة الرئيسية أن الكثير من الجماعات الإرهابية كانت تستخدم مؤسسات خيرية خاصة كغطاء لها، وأن الاتجاه لتجميد مصادر أموالهم قد يظهر الولايات المتحدة بمظهر المُعاقِب، مما يؤدي إلى اعتراضات صاخبة وإلى التهديد برفع الدعاوي.

ولاحظ بوش أن بعض البيروقراطيين قلقون من هذه السلطة الجديدة، ولكنه رفض الآراء القائلة إنَّ هذه التحركات قد تؤدي إلى الاضطراب في نظام التمويل الدولي. «هذه حرب، وليس هذا وقت السلام. اخلعها. إن بن لادن بحاجة إلى المال، ونحن بحاجة إلى معرفة مَن يموله، ونتعامل معه».

وقدّم شلتون تقييماً متشائماً عن الخيارات العسكرية الفورية. وكانت خطط الطوارئ الموضوعة على الرف تشير وحسب إلى إطلاق صواريخ كروز ضد مخيمات التدريب. «إنها مجرد حَفْر خنادق»، قال شلتون.

وقال رامسفيلد إنهم بحاجة لمهمات جديدة للقوات العسكرية إذا كانوا يريدون ملاحقة الدول التي تأوي بن لادن. «إننا لم نقم بمثل ذلك في السابق قط».

وكان بوش قلقاً من أن وزارة الحرب لم يسنح لها الوقت الكافي بالحقيقة للقيام بمناقشة مسلكها في العمل لمناقشته وتقييمه، ولدرس الخيارات والخطط. كانت اجتماعات مجلس الأمن القومي متعجلة وقصيرة أكثر مما ينبغي، لا تستمر أكثر من 60 ـ 90 دقيقة في بعض الأحيان، ولمدة أقصر من ذلك بكثير في أحيان أخرى. وكان وقت الرئيس مقطعاً قطعاً صغيرة من أجل إفساح المجال لتلبية ما يُطلب منه في دوريه الخاص والعام في الأزمة. ولم يكن

قد توفر لهم الوقت للتفكير ملياً في الأمر كما كانوا يرغبون، ولذلك طلب بوش من مستشاريه أن يأتوا إلى كامب داڤيد مع أزواجهم في عطلة نهاية الأسبوع.

وقال بوش بإصرار، «إن هذا عالم جديد. وعلى الجنرال شلتون أن يعود إلى جنرالاته لتحديد أهداف جديدة. ابدأوا بِعَدِّ الساعات. إن هذه فرصة، أريد خطة ـ التكاليف والوقت. أريد خيارات على الطاولة. أريد خيارات أفغانستان في عطلة نهاية الأسبوع في كامپ داڤيد. أريد قرارات بسرعة».

وكان رامسفيلد يحاول أن يحثّ البنتاغون، وقد صفق استحساناً لحسم بوش وشعوره بالإلحاح؛ ولكنه ذكّر الرئيس بالإحراج الذي سبّبته بعض الهجمات السابقة ـ قصف السفارة الصينية في بلغراد سنة 1999 خلال أزمة كوسوڤو، والهجوم بالصواريخ على معمل كيماوي في السودان سنة 1998، وهذا كان جزءاً من عملية مخفقة على بن لادن.

قال رامسفيلد «إن لك علينا حقاً أن نخبرك عما يُمنى بالإخفاق»، «عن الأمور التي تمنع الريح عن أشرعتنا، مثل ضرب مخيمات خالية من الأشخاص».

قال بوش «قولو للأفغانيين أن يجمعوا أفراد القاعدة»، «دعنا نراهم، وإلاّ فإننا سنضربهم بشدة. سوف نؤذيهم بقسوة حتى يرى كل مَن في العالم أنه يجب ألاّ يتعاملوا مع بن لادن. ولا أريد أن أقذف بصاروخ يكلّف مليون دولار على خيمة ثمنها خمسة دولارات».

وسجّل أحد كاتبي الملاحظات في الاجتماع بعض المحاورات التي دارت فيه، وقد شملت تلك الملاحظات الشعور بالإلحاح وفقدان المحور وعاصفة من الأفكار العشوائية.

وقال رامسفيلد في لحظة معينة، «نحن بحاجة إلى خيارات جديدة. إن هذه مُهمة جديدة».

وبدا الرئيس موافقاً على ذلك. «كل شيء يوضع على الطاولة»، قال بوش. «أنظروا إلى الخيارات». وقال أيضاً إن البريطانيين يريدون فعلاً المشاركة. «أعطوهم دوراً. إن عامل الوقت جوهري. وقبل أن نذهب إلى كامب دافيد، يجب أن يكون عندنا برنامج زمني واضح للعمل ـ ولكنني أريد أن أعمل شيئاً فعّالاً».

كان الوقت يشير إلى منتصف الليل من تلك الليلة الثالثة من الأزمة عندما عادت رايس أخيراً إلى شقتها في بناية واتر جايت. وكانت قد أمضت الليلة الأولى من الأزمة في البيت الأبيض نائمة نوماً متقطعاً. ولم يكن نومها أفضل ليلة الأربعاء، كانت تعمل كالآخرين على إفرازات الأدرينالين. والآن كان لديها بضع لحظات في بيتها لتسترخي. وشاهدت التلفاز للمرة الأولى منذ بدء الأزمة، وكانت الشاشة تعرض مشهداً مألوفاً ـ تغيير الحرس في قصر باكنغهام في لندن. ولكن الموسيقى أثارت اهتمامها. في مبادرة تضامن وتعزية مع الولايات المتحدة، كانت الفرقة الموسيقية لحرس كولد ستريم تعزف النشيد الوطني الأمريكي. واستمعت رايس لمدة ثوانٍ قليلة، ثم أجهشت بالبكاء.

وفي وقت مبكر من صباح الجمعة في 14 سبتمبر/أيلول، اتصل موظف متوسط الرتبة من مركز القيادة العسكرية القومية ـ وهي غرفة الحرب في البنتاغون، اتصل هاتفياً بالبيت الأبيض ليؤكد أن الرئيس لا يريد أن تواكب طائرةٌ حربية طائرة سلاح الجو رقم 1 Check carli occunrences in the book عندما يطير فيها إلى نيويورك بعد ظهر ذلك اليوم.

وتشاورت رايس مع نائبها ستيف هادلي ورئيس الأركان في البيت الأبيض كارد. ووافقوا جميعاً على أن القرار يجب أن يرجع إلى رامسفيلد. وكانت أوضاع التهديدات ما زالت تشير إلى درجة عالية تتجاوز اللوائح، ولم يكن أحد يعلم ما يمكن حدوثه. وإذا حدث شيء بسبب غياب مواكبة الطائرة الحربية، فإن رامسفيلد يكون المسؤول عن تفسير ذلك للبلاد وللعالم.

واتصل أحد نواب رايس هاتفياً بالپنتاغون، وقدَّم الموضوع لرامسفيلد ذاكراً أن مركز القيادة العسكرية القومية قد اتصل بالبيت الأبيض مستفهماً عن الطائرة الحربية المواكبة.

وفقد رامسفيلد صوابه وصبّ غضبه قائلاً: «إن أحداً في وزارتي يتحدث مع البيت الأبيض دون علمي أو إذني؛ لن أقبل بهذا!» وكان رامسفيلد تحت ضغط عظيم. لم تكن عنده خطط عسكرية، والرئيس يريد شن حرب. وبدأ البحث فوراً لمعرفة الموظف الذي اتصل بالبيت الأبيض. وفي تلك الأثناء، رفض رامسفيلد مواجهة السؤال عما إذا كان سيخصص طائرة حربية لمواكبة طائرة سلاح الجو رقم 1 أم لا.

وفي صباح ذلك اليوم، عُقد اجتماع للوزارة بكاملها في البيت الأبيض لأول مرة منذ الهجمات الإرهابية. ولما دخل الرئيس إلى الغرفة، وقف الجميع وصفقوا له. وتفاجأ الرئيس، وخنقته مشاعره للحظة. وكانت هذه هي المرة الثانية خلال يومين يفقد فيها رباطة جأشه أمام الآخرين.

وكان بوش يرغب في افتتاح كل اجتماع للوزارة بصلاة، وكان قد طلب من رامسفيلد أن يحضّر صلاة لذلك الاجتماع. ومن الأمور التي صلّى لها رامسفيلد «الصبر لضبط تلهّفنا نحو العمل».

وكان پاول قلقاً من إظهار بوش لعواطفه. فبعد ساعات قليلة سيتكلم بوش في كاتدرائية واشنطن القومية، وكان پاول يرى أن البلاد والعالم يحتاجان لمشاهدة رئيس قوي. وكان پاول يجلس إلى جانب الرئيس باعتباره ـ حسب التقاليد ـ عضواً كبيراً في الوزارة. فخطّ مذكرة بسرعة: عزيزي السيد الرئيس، إن ما أفعله عندما يكون عليّ أن ألقي خطاباً مثل هذا، أن أتفادى الكلمات التي أعرف أن من شأنها أن تدمع عيناي بسببها، مثل ماما وبابا. ثم، وببعض الارتعاش، دسّ المذكرة على الطاولة أمام الرئيس.

وتناول بوش الورقة وقرأها، ثم ابتسم. «لأُخبركم بما قاله لي وزير

الخارجية»، قال بوش، وهو يحمل الورقة. «عزيزي السيد الرئيس، لا تنهار». وضجّت الغرفة بالضحك، وشارك في الضحك كل من پاول والرئيس.

وقال بوش، «لا تقلقوا: لقد أخرجت العواطف من جسدي». وأكد الرئيس لهم أنه ووزارة الحرب يطوّرون خططاً لردّ عسكري، يكون فعّالاً. ثم طلب من الحاضرين أن يطلعوا على آخر المستجدات لديهم.

ووصف پاول الهجوم الديبلوماسي. وكان، مثل الرئيس، يرى الهجمات فرصة لإعادة تشكيل العلاقات مع العالم كله. ولكنه أخبر الوزراء بأن العمل يتطلب بناء تحالفٍ محددٍ فيه بشكل واضح ما المتوقَّع من الشركاء، بما في ذلك المشاركة في المخابرات وتجميد أموال الإرهابيين والمساعدة في الحملة العسكرية.

«إن هذا ليس مجرد هجوم ضد أمريكا: إنه هجوم ضد الحضارة وهجوم ضد الديموقراطية»، قال پاول، وكأنه يتكلم كرئيس: «إن هذه حرب طويلة، وهي حرب يجب أن ننتصر فيها. نحن ننهمك في العمل مع العالم، ونريد أن يكون هذا التحالف طويل الأجل».

وقبل ذلك الصباح. كان پاول قد أنجز 35 مكالمة هاتفية مع زعماء العالم، وكان ما زال لديه 12 مكالمة أخرى ذلك اليوم. «لقد كنت أعمل على عدة محاور في الأيام القليلة الأخيرة لدرجة أنني أشعر بدوار البحر» نكّت پاول.

وضحك الجميع.

واطّلع رامسفيلد المجموعة على آخر المستجدات عن الدمار الذي أصاب البنتاغون، كما أعلن أن درجة التحذير العسكري قد أُنزلت درجة واحدة إلى الرقم 4. ويوم 11 سبتمبر/ أيلول، كانت درجة التحذير قد رفعت إلى الرقم 3 لأول مرة منذ الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1973. وكانت أعلى درجة تحذير ممكنة هي رقم 1، وتستعمل في حال الحرب الشاملة.

وقال وزير المواصلات نورمان ي. مينيتا إن الطيران المدني سيستأنف ذلك اليوم، ولكن بنسبة 16٪ فقط من معدّله العادي، وكان ذلك واحداً من مقاييس تأثير الهجمات.

واختتم بوش الجلسة بتذكير المجتمعين أنه بالرغم من أن الإدارة تركّز الآن على محاربة الإرهابيين، فإنّ عليهم ألاّ يهملوا الأولويات المحلية الأمريكية مثل مشروع قانون التعليم ومشروع قانون حقوق المرضى والتشريع الذي يعطيه صلاحية أكبر للمفاوضة بشأن الاتفاقات التجارية.

وحوالى الظهر، غادر موكب الرئيس البيت البيض تحت المطر الشديد في رحلة استغرقت حوالى 12 دقيقة متجهاً شمالاً نحو الكاتدرائية القومية.

وكانت هناك مجموعة غير عادية من الشخصيات الكبيرة في الكاتدرائية تنتظر بداية الصلاة. وكان المتكلمون يشملون قسيساً بروتاستانتياً وحاخاماً يهودياً وكاردينالاً كاثوليكياً ورجل دين مسلم وصاحب الغبطة بيلي غراهام. وكان الرئيسان السابقان بيل كلينتون وجيمي كارتر حاضرين، وكذلك نائب الرئيس السابق غور. واشتمل الحضور أيضاً على أعضاء الوزارة ومعظم أعضاء مجلس الشيوخ وعدد كبير من أعضاء مجلس النواب ورئيس البنك المركزي الفيديرالي والكثيرين من كبار الموظفين وكان يجلس إلى جانب الرئيس وزوجته والدُ بوش ووالدته.

وقد خطر لكونداليزا رايس أن الرحلة إلى الكاتدرائية تشبه موكب جنازة. وعندما قادت مغنية الأوبرا دينيس غرايفز المجتمعين في إنشاد الصلاة الربانية، فكّرت رايس: كيف بإمكان الرئيس أن يتماسك بعد هذا كله؟

وبدأ الرئيس قوله: «نحن الآن في الساعة الوسطى من الأسى». لقد قاسى الكثيرون بشدة من فقد أحبائهم بسبب الهجمات، وأن الشعب سيفكر فيهم ويتعرف إلى قصصهم ويبكي. «ولكن مسؤوليتنا أمام التاريخ باتت

واضحة: الرد على هذه الهجمات وتخليص العالم من الشر». كان الرئيس يطرح مهمته ومهمة بلاده ضمن رؤية مهيبة لخطة الله الكبرى.

«يُقال إن الكوارث تعرّفنا على أنفسنا». وتحدث عن أعمال الشجاعة والتضحية التي أظهرت التزام الأمريكيين بعضهم ببعض وحبهم لبلادهم. «إننا اليوم نشعر بما سماه فرانكلين روزفلت الشجاعة الحميمة للوحدة القومية»، وهي وحدة نَسَبٍ بين الأسى والتصميم الثابت على الانتصار على أعدائنا».

وكان هناك الكثير في الخطاب يهدف إلى التطمين، ولكن أكثر سطوره جدارةً بالتذكر ـ وكان قد أنشأه فريق كاتبي خطابات بوش ووافق عليه الرئيس بسرعة ـ جاء عندما كان الرئيس يتحدث بثقةٍ عما سيحدث في المستقبل. «إن هذا النزاع بدأ بتوقيت الآخرين وشروطهم»، قال بوش، «ولكنه سينتهي بطريقة وفي وقت نختارهُ نحن».

وكان إلقاء خطاب حربٍ في كاتدرائية يعتبر أمراً مؤذياً بل خَطِراً، ولكن الخطاب أدّى الرسالة التي كان بوش يريدها. ولما عاد بوش إلى مقعده في الصف الأول، بسط أبوه يده عبر لورا بوش على يد ابنه.

وفي نهاية الصلاة، وقف الحاضرون ورتلوا «ترتيلة المعركة للجمهورية». وأحسّت رايس بأن الكنيسة كلها قد تشنّجت بالتصميم.

ولما خرجت مجموعة الرئيس من الكاتدرائية، كان الغيم والمطر الصباحيّان قد تبددا، وحلّ محلهما نور شمس مشرقة وسماء زرقاء.

واستعاد بوش تذكُر خطابه من بعد، معتبراً إياه نقطة محورية باتجاه الحرب إلى حد ما، ولكن ـ وإلى حد أبعد ـ تعبيراً دينياً. «لقد اعتبرتها لحظة للتأكيد على أنني قدمت المساعدة بالمواساة، وساعدت على اجتياز عملية التفجع»، قال بوش، «وكنت كذلك أنظر إليها من منظور روحي، وهو أنه من الهام أن يصلي الشعب». ووافق أن بعض كلامه كان «قاسياً جداً» وقال إنه كان

«يعكس مزاجه». ولكنه أضاف، «بالنسبة لي، كانت تلك اللحظة أكثر من ذلك، كانت في الحقيقة ولم أكن أراها مناسبة للتحضير لخطاب مستقبلي. كنت أعتقد أن الشعب يحتاج لأن يصلّي».

وكان الپنتاغون ما زال ينتظر قرار رامسفيلد حول ما إذا كان سيرسل طائرة حربية لمواكبة الرئيس الذي كان سيغادر بعد قليل إلى مدينة نيويورك. وكان الوزير متوتراً، إذ كان يرى أن هذا الموضوع يدخل في صميم تسلسل الحكم وفي صلب سلطته القانونية. إن المعلومات تُتبادل باستمرار بين البيت الأبيض والپنتاغون، ولكن القرار بنشر القوات، وحتى بإرسال طائرة حربية مواكِبة كان يعود إليه وحدهُ بحسب القانون. وقال رامسفيلد فيما بعد، «إن سلطة الأمن القومي ترجع من الرئيس إليّ». وأنت يمكنك أن تجعل الناس هناك في الأسفل يرسلون تعليمات إلى الپنتاغون، وبذلك يقوم الناس بالتصرّف بناءً عليها، ولكن الرئيس لا يمكن أن يتأكد من أن الأفعال سوف تكون متوافقة مع ما يريد مني القيام به».

«ثم إن بعض الأشخاص يكلمون أشخاصاً آخرين، فيقول أحدهم: دعنا نرسل طائرةً حربية مواكبة، أو: دعنا نرسل مقاتلة خَفَرٍ جوية، أو: دعنا لا نرسلها. وهذا قد يكون مناقضاً لما يريده الرئيس أو لما أُريده... وهذا أمر لا تريد أن تلعب به».

وحوالى ربع ساعة قبل أن تقلع طائرة سلاح الجو رقم 1، أعطى الوزير أمره. سيكون هناك طائرة حربية مواكِبة.

ثم انتقل رامسفيلد لتحرير مسودة الأمر البالغ السرية من المخابرات الذي كانت وكالة المخابرات المركزية تريد من الرئيس أن يوقّعه. وفي رأي رامسفيلد، كانت هذه المسودة غير متقنة ومكتوبة بإهمال، إذ كانت لغتها مبهمة وغير محددة، كما كانت السلطة فيها واسعة وجارفة أكثر مما ينبغي. وكتب على نسخته اقتراحاته بالمراجعة والشطب والتوضيح. إن السلطة التي يجب أن

تكون مخصصة للرئيس أو لمدير وكالة المخابرات المركزية باتت تُسند إلى موظفين ثانويين.

* * *

«هل تشمّ شيئاً؟» سألت هيوز. فيما كانت الطائرة المروحية التي تقلّ موظفي البيت الأبيض تقترب من نيويورك في آخر قسم من رحلتها. وكانوا على بعد 15 أو 17 كيلومتراً من منهاتن السفلى.

وهزّ الآخرون رؤوسهم موافقين على وجود رائحة. وظنّ وزير الإعلام أري فلايشر أن الرائحة لا بد أن تكون صاعدة من الهليكوبتر. ولكن عندما نظروا من شبابيك الطائرة إلى جهة واحدة، رأوا جسماً متحركاً عملاقاً من الدخان. كان ما شمّوه هو رائحة الخراب المحترق من مركز التجارة العالمي.

وحطت الهليكوبتر في مطار المروحيات في وول ستريت، وتَشَكَّلَ من ثَمَّ موكب كبير جداً ـ يتألف من 55 سيارة ـ وهو أكبر موكب كان قد شاهده أي شخص من الفريق الرئاسي المتقدم على الإطلاق. وسيقت سيارة الرئيس مارّة بمحاذاة حشود من الناس تهتف وتلوّح بالأعلام الأمريكية، حتى وصلت إلى أرض الصفر.

وترك مرأى الحطام الضخم والغامق المترامي كالقفر لدى بوش انطباعاً من الصعب محوه، وهو انطباع تذكره من بعد بأنه غريب مخيف جداً جداً جداً». ومع أنه كان قد تحدث مع الكثيرين عن الدمار، فإنه كان ما زال غير مستعد لما وجده. كان «كابوساً، كابوساً حياً». وبالإضافة إلى أن بوش لاقى خراباً أسوأ بكثير مما كان قد شاهده على التلفاز أو سمع عنه من مستشاريه، قابل حشداً من عمّال الإنقاذ المتعطشين للثأر. وكان الحشد «عاطفياً بشكل لا يصدق» يتطلب العدالة، كما تذكر الرئيس فيما بعد.

وبينما كان الرئيس يمشي خلال تلك المنطقة، واجه منظراً موحشاً.

«ليس بإمكاني أن أصف لك كم كان عمال الإنقاذ عاطفيين». وكانوا يصيحون: «مهما كلّف الأمر».

وأشار أحد عمال الإنقاذ إلى الرئيس عندما مشى إلى جانبه وصاح: «لا تخذلني». وشُدِهَ بوش. وفكّر أن كلمات هذا الرجل والنظرة على وجهه ستبقى معه ربما إلى الأبد ـ «لا تخذلني أنتَ». كان هذا القادم شخصياً بدرجة كبيرة، فكر الرئيس، أحس وكأنه في ميدان من الأزمنة القديمة. وبدأ عمال الإنقاذ ينشدون: «يو إس آي، يو إس آي، يو إس آي».

«يريدون أن يستمعوا إليه»، صاحت نينا بيشوب، وهي من أعضاء الفريق الرئاسي المتقدم، إلى كارل روف فيما كان الرئيس يشق طريقه خلال الحشود. «إنهم يريدون سماع رئيسهم».

وللمرة الأولى، كان فريق اتصالات البيت الأبيض ـ الحاضر أبداً ـ غير مستعد كليةً. وبما أنه لم تكن هناك خطة لأن يتحدث بوش إلى المجموعة لم يكن هناك مكبر للصوت أو أي جهاز سمعي آخر. وسأل روف بيشوب إذا كان بإمكانها أن تجد بوقاً.

وقريباً منهم، كان بوب بيكويز، وهو إطفائي متقاعد من نيويورك ضئيل البنية ويبلغ التاسعة والستين من عمره، يقف على شاحنة إطفاء متفحِّمة كانت قد أُخرجت من تحت الركام. وسأل مساعد بوش بيكويز ما إذا كان بإمكان الرئيس استعمال شاحنة الإطفاء كمنصة، وإذا ما كان بإمكان بيكويز ـ بكمامة الغاز المدلاّة أن يقفز بضع مرات على الشاحنة للتأكد أنها ثابتة. وكان هناك عند قاعدة شاحنة الإطفاء لوح من حجارة الرصف أو الإسمنت ظن البعض من فريق التقدم بأنه يجب عليهم أن يزيحوها من موضعها؛ ولكن عمال الإنقاذ قالوا لهم بأنه قد يكون تحتها جثث.

وفي الساعة الرابعة و40 دقيقة من بعد الظهر، وضع شخص بوقاً في يدي الرئيس، وأعانه على النهوض فوق الأنقاض. وأراد بيكويز أن ينزل عن

الشاحنة، ولكن بوش طلب منه أن يبقى إلى جانبه. وبدأ الإنشاد مجدداً: «يو إس آي، يو إس آي».

وبدأ بوش، «أشكركم جميعاً. أريدكم جميعاً أن تعلموا. . .» وبدا أن الوادي الشاسع الممتدّ المكوّن من الأنقاض والجماهير يبتلع كلمات الرئيس من بوقه الصغير.

«ليس بإمكاني أن أسمعك»، صرخ عامل إنقاذ.

«ليس بإمكاني أن أتكلم بصوت أعلى»، قال الرئيس ضاحكاً. «إن أمريكا اليوم تركع على الرّكَب وتصلي للناس الذين فقدوا حيواتهم هنا. . .». وانطلق صوت آخر من بين الجماهير. «لا يمكنني أن أسمعك». وتوقف بوش للحظة ثم وضع ذراعه حول كتف بيكويز وصاح، «بإمكاني أن أسمعك. سائر العالم يسمعك. والناس الذين أسقطوا هذين المبنيين سيسمعون منا جميعاً عما قريب!».

وابتسمت هيوز، التي كانت تقف جانباً، ابتسامةً مشرقة بكل معنى الكلمة. كانت تلك لحظة مدهشة، فكرت هيوز ـ لحظة بليغة بسيطة أمام خلفية مثالية لحظة لغلافات المجلات الإخبارية ولاتصالات بهو المشاهير والتاريخ. ولم يكن لها أي يد في ذلك الأمر.

* * *

بعد توقف قصير سُمح للرئيس أن يشكر فِرق العمّال، انطلق الموكب عابراً طريق الجانب الغربي من نيويورك إلى مركز المؤتمرات جايكوب ك. جافيتش، الذي كان يستعمل كمحطة لجهود الإنقاذ. وكانت قد خصصت مدة 30 ـ 45 دقيقة من زيارة عائلات الضحايا. وكان من المفروض أن تكون هذه الزيارة خاصة ـ دون صحافة ولا مصوّرين ولا حتى أعضاء وفد الكونغرس الذي رافق الرئيس.

وكان المنظّمون قد استعملوا الستائر لجعل الغرفة المتكهفة أكثر حميميةً، وشكّل مساعدو بوش حائطاً بشرياً لعزل المجموعة بشكل أكبر. وكان ينتظر الرئيس حوالى 250 شخصاً، وكان الكثيرون منهم يحملون صوراً فوتوغرافية لأقربائهم المفقودين. والأطفال الذين أصبحوا الآن يتامى كانوا يحملون ألعاباً وأشياء تذكارية أخرى.

وصفقت العائلات لدى دخول الرئيس، ثم فجأة خيّم صمت كامل حتى أنه لم يعد يُسمع سوى أزيز صوت نظام التهوئة. وكانت تلك لحظة تنذر بالحرج لبوش، إذ لم يكن متأكداً من كيفية مواجهة العائلات. وأخيراً، شق فريقه إلى المجموعة وخاطب شخصاً قائلاً، «أخبرني عن نفسك». ثم فعل الرئيس الشيء نفسه مع شخص آخر وآخر. وكل مرة كان يسمع القصة نفسها. وتوصل إلى إدراك ساحق: كان كل شخص يعتقد، قال الرئيس، «إن الشخص الذي يحبه ويهمه أمره ما زال على قيد الحياة».

ورغب هؤلاء في توقيع الرئيس، فبدأ بوش بتوقيع اسمه على صور أو قطع من الأوراق أو غيرها من المواد العزيزة. وكان يقول للعائلات كما تذكر فيما بعد: «سأقول لكم شيئاً. سأوقّع على هذا، وعندما ترون جيم أو عندما ترون بيل، قولوا لهم إن هذا فعلاً توقيعي وأنكم لم تزوّروه». وتابع بوش قائلاً، «كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي كنت أعرفها لمساعدتهم. كنت أستغل تلك اللحظة لأتمكن من أن أقول لهم إنني أشارك آمالهم أيضاً، وأنني أصلي حتى يخرج جيم من تحت الأنقاض».

وكان الكثيرون في الغرفة يبكون وكان الرئيس دامع العينين وهو ينتقل من عائلة إلى أخرى. وكان رجل يحتضن طفلاً بين يديه وهو يحمل صورة أخيه، وهو أطفائي قُتل. وأشار الطفل إلى الصورة وقال ببساطة، «هذا عمي». وبعد حوالى ساعة من هذه الجلسة، بدأ بوش يستعيد بعضاً من مَرَحِهِ. وسُمعت ضحكات من بعض الأقرباء فيما استمر بوش لمدة ساعتين بالتنقل بينهم. وقد

تحدث مع كل عائلة. وقريباً من انتهاء زيارته، اجتمع بوش بأرلين هاورد، والدة جورج هاورد، وهو شرطي من شرطة جهاز النقليات، وقد قُتل عندما كان يحاول إنقاذ الآخرين، وهو إذ ذاك خارج الخدمة. وكانت هاورد تحمل شعار الشرطة المعدني الذي كان يخص ابنها. فقدمته للرئيس، طالبةً منه أن يأخذه تكريماً لابنها. وقبل الرئيس ذلك الشعار.

وفي طريق العودة إلى مطار المروحيات، مشى موكب بوش خلال ميدان تايمز سكوير، وكان مكتظّاً بالناس وهم يحملون شموعاً وأعلاماً أمريكية. وقد صفقوا للرئيس عند مرور موكبه. وفي قاعدة ماكجوير الجوية في نيوجيرزي، فارق بوش المتعَب موظفيه الذين عادوا إلى واشنطن.

وإذا كان من الممكن أن يعيش شخص ما حياة كاملة في يوم واحد، فإنه كان ذلك اليوم.

وبدلاً من أن يركب بوش طائرة سلاح الجو رقم 1، صعد إلى طائرة سي ـ 20، وهي صغيرة بما فيه الكفاية حتى تستطيع الهبوط في هاغر ستاون في ولاية ماريلاند. ومن هناك توجه إلى كامپ داڤيد. وأظهر شريط الڤيديو الذي سجل صورة الرئيس وهو خارج من طائرته المروحية أنه كان مرهقاً أشد الإرهاق مستنزفاً يكاد يكون مترنحاً.

وكان بوش قد طلب من كبار مستشاريه للأمن القومي ـ تشيني وبويل ورامسفيلد ورايس ـ أن يسبقوه إلى كامپ داڤيد للإعداد لاجتماع اليوم التالي. واجتمعوا في كابين تشيني لتناول عشاء من لحم الجاموس.

وأعطى هذا العشاء للمجتمعين فرصة لكي يقارنوا ملاحظاتهم في جو أكثر ارتياحاً، وليطلع بعضهم بعضاً على آخر المستجدات ولكي يحددوا الموضوعات التي ستُبحث في اجتماعات اليوم التالي. وتحدثوا عن الضغط المستمر للقيام بعمل سريع، وعن طول المجابهة المستقبلية وعن الفرق بين

الصراع القادم وحرب الخليج، حين كان هناك وقت طويل للاستعداد وحملة عسكرية قصيرة نسبياً ـ 38 يوماً من القصف المكثف بالقنابل وأربعة أيام من الحرب على الأرض. وظنوا أن الصراع القادم سيكون على عكس حرب الخليج. وكلما ازدادوا تحادثاً، كلما أدركوا أن هذه الحرب القادمة ستكون أصعب من سابقتها وأن عواقبها سوف تكون عظيمة إذا ما أخطأوا سبيلهم فيها.

وفكر پاول أن عشاءهم ذاك كان مثل العشاء التجريبي الذي يجري في الليلة السابقة للعرس، إلاّ أنه كان عشاءً يخفي بعض الاختلافات الجدية بين أفراد العائلة.

وعندما ذهب بوش إلى كابينه، راجع رايس التي أخبرته أنه ليس هناك من تطورات جديدة هامة. وبعد يوم في العلن تحت الأضواء الكاشفة كمعزٍّ، كان بوش على وشك أن يبدأ بأشدّ المحادثات حسماً مع وزارة الحرب. وكان في قرارة نفسه قد توصل إلى بعض القرارات.

وتذكر الرئيس فيما بعد: «ما كان قد تقرّر هو أن الحرب هي المحور الأساسي لهذه الإدارة. وكان قد تقرر بأنه مهما ستستغرق هذه الحرب من الوقت، فإننا سنقضي على الإرهاب حيثما وُجد. وما كان قد تقرر، وما كان عقيدة، هو أنك إذا كنت تأوي الإرهابيين أو تطعمهم أو تُسْكنهم، فأنت مذنب مثلهم، وستواجه المحاسبة. وما كان قد تقرر هو أن. . . هذه الحرب ستشتعل على عدة جبهات، بما فيها ناحية المخابرات وناحية التمويل والناحية الديبلوماسية والناحية العسكرية. ما كان قد تقرّر هو أننا سنضربهم بكل طاقاتنا وبعنف».

وكان بوش يعلم أنه ما زال هناك الكثير من الأمور التي يجب مجابهتها. «ما كان لم يقرَّر بعد هو ما إذا كان أعضاء الفريق متفقين على الاستراتيجية نفسها، وما إذا كانوا مستعدين للتوقيع عليها، لأنني أعلم أنه من الممكن ألاّ يكون الجميع على الصفحة نفسها، وإذ ذاك ينحرفون عن السرب ويتأوّلون

الأمور، وبذلك لا تتم العملية كما يجب حقاً، ولا تكون هناك مناقشة صريحة».

كانت هذه مشكلات إدارة الفريق، ولكن الرئيس كان يواجه أكثر من ذلك. إنه كان يسبح في بحر من الأفكار العريضة والخطاب البياني بسببٍ من عوامل الفجاجة والمفاجأة والدمار التي أحدثتها الهجماتُ وبسبب من غرائزه أيضاً. ولكن العمل الحقيقيّ الرئيسي الشجاع للرئاسة يختصر في متى وأين وكيف تُستعمل القوة ـ في كلٍّ من العمل السري والضربات العسكرية ـ إذ يوضع المدفع على الهدف. وستمرّ لحظات في اليوم التالي يتساءل خلالها مستشارو بوش ما إذا كانوا سيجدون طريقة للتوقف عن الكلام ـ للخروج من بحر الكلمات والضغط على الزناد.

6

كان الرئيس على أهبة الاستعداد للحرب عندما دخل نزل لوريل في كامپ داڤيد باكراً صباح السبت الواقع في 15 سبتمبر/ أيلول، ولكن كان عليه أولاً أن يصغي ويتأكد من أن موقفه يتسم بالحسم دون التهور.

«وفسّر الرئيس فيما بعد أن إحدى الطرق لتتأكد من أنك غير متسرع هي أن تصغي إلى جماعة ذات خبرة من مستشاري الأمن القومي». وكان الرئيس يرى مستشاريه وسيلة مفيدة لضبط ميوله. «إذا كان لدي أي نبوغ أو ذكاء، فإن ذلك يعود إلى قدرتي على تمييز الموهبة، فأطلب منهم أن أخدم وأعمل معهم كفريق». وكان للفريق كمجموعة ما يقارب المئة سنة من الخبرة للتعامل الكامل في شومون الأمن القومي، هذا إذا حسبنا الأمور حساباً محافظاً. وكانت خبرة الرئيس أقل من سنة.

وقال: «عندما يعطون نصيحة، فإني أثق بحكمهم. ولكن أحياناً لا تكون النصائح متماثلة، وهنا يأتي دوري: عليّ أن أجرش هذه المشكلات وأطحن تلك الطروحات، وبعد ذلك أرجو أن أحوز على إجماع ستة أو سبعة أشخاص أذكياء، وهذا ما يسهّل مهمتي».

ولكنه كان على وشك أن يكتشف أن النصائح في الواقع قد تكون ليست

مختلفة وحسب، وإنما قد تأتي مصوغة في لغة غير دقيقة. وكان الرئيس على وشك أن يرى أن الجرش ليس دائماً سهلاً.

في الساعة التاسعة و19 دقيقة صباحاً، كانت قد مضت أربع ساعات عليه عليه مستيقظاً، فقابل الصحافيين في غرفة المؤتمرات، وقال لهم أن ليس لديه الكثير ليقوله علانيةً، «إن هذه الإدارة لن تتحدث عن كيفية جمع المخابرات ولا عن كيفية معرفتنا بما سنفعله ولا عن ماهية مخططاتنا».

ودخل أعضاء وزارة الحرب إلى غرفة المؤتمرات ذات الجدران الخشبية، وأخذوا أماكنهم حول الطاولة الكبيرة التي تتسع لـ 24 شخصاً. وكان تينيت قد أحضر معه نائبه، جون إ. ماكلوفلين، ورئيس مكافحة الإرهاب كوفر بلاك. وأحضر رامسفيلد نائبه پول وولغو ويتز. أمّا نويل، الذي كان قد فهم أن الاجتماع للرؤساء فقط، فإنه لم يحضر معه آرميتاج. وكان الجميع يرتدون الألبسة غير الرسمية، وكان بعضهم يرتدي معاطف بسبب درجة الحرارة الباردة. وكان بوش يرتدي قميصاً أزرق وجاكيت خضراء. وجلس هو في الأمام متوسطاً، فيما جلس إلى يمينه تشيني وإلى شماله پاول. وجلس رامسفيلد إلى جانب پاول.

وافتتحوا الاجتماع بالصلاة، وبإطلاعات روتينية حول آخر المستجدات قدمها پاول ووزير المالية أونيل.

وبعد ذلك تكلم تينيت. وكان مدير وكالة المخابرات المركزية قد وصل إلى كامپ داڤيد وهو يحمل شنطة ممتلئة بوثائق وخطط بالغة السرية، تشكل ثمرة عملٍ لمدة أكثر من أربع سنوات عن بن لادن والقاعدة والإرهاب الدولي. ووزّع تينيت مَلَفّاً تلخيصياً عليه عنوان لافت للنظر: «الذهاب إلى الحرب». وكان هناك على الزاوية العليا اليسرى منه صورة لبن لادن داخل دائرة حمراء مع خط مرسوم على وجهه، وكان هذا هو الرمز الذي اتخذته وكالة المخابرات من الرمز العالمي للخطر.

وفتح تينيت الصفحة الأولى وعنوانها «الكُلاّب الأول: تدمير القاعدة، وإغلاق ملجئها الأمين» ـ وهو أفغانستان، قاعدة بن لادن للعمليات ومحل إقامته. تُرسَل فرق شبه عسكرية من وكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان للعمل مع الحلف الشمالي. وهؤلاء يمكن أن يجتمعوا في نهاية المطاف بوحدات القوات الخاصة الأمريكية، جالبين بذلك قوة السلاح والتكنولوجيا للمقاتلين المعارضين في أفغانستان بهدف تكوين جبهة شمالية.

وكانت هذه الخطة تدعو إلى هجوم شامل سري على دعائم تمويل شبكة الإرهاب. بما في ذلك المراقبة السرية للكومبيوتر والاستماع السري الإلكتروني. بهدف اكتشاف موجودات القاعدة وغيرها من المجموعات الإرهابية التي كانت تشغّل الأموال بشكل غير قانوني وتختبئ تحت ستار عدة مؤسسات خيرية وما يسمى بالمؤسسات غير الحكومية.

وكان هناك عنصر ثانٍ بعنوان «تركيز وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي على جماعة الأفغانيين الكبيرة في الولايات المتحدة». وتقوم الوكالة والمكتب بتنسيق العمل فيما بينهما لتعقُّب مؤيدي بن لادن وإخراجهم إلى النور ـ وقد كان هذا ضعف واضح قبل الهجمات.

وأشار تينيت إلى جهود الدعاية، وذكر بأن لديهم بعض المشايخ المدفوع لهم.

وكان في صميم الاقتراح توصية بأن يعطي الرئيس ما سماه تينيت بـ «الصلاحيات غير العادية» لوكالة المخابرات المركزية لتدمير القاعدة في أفغانستان وسائر العالم. وكان تينيت يريد أمراً عريضاً للمخابرات يسمح للوكالة بالقيام بعمليات سرية دون أن تضطر لترجع إلى الرئيس للحصول على موافقة رسمية لكل عملية بعينها. وكانت العملية في الوقت الحالي تستغرق الكثير من الوقت والتفحص القانوني والمراجعات والمناقشات. فالوكالة تحتاج إلى

صلاحية جديدة قوية للعمل دون قيد. وأراد تينيت أيضاً من الرئيس التشجيع على المخاطرة.

وهناك عنصر رئيسي آخر، قال تينيت، وهو «استعمال الصلاحيات غير الاعتيادية للقبض على عملاء القاعدة في العالم كله». وكان هذا يعني أن بإمكان الوكالة أن تستعمل وكالات المخابرات الأجنبية أو غيرها من المصادر المدفوع لها. وتُعطى الصلاحية لتينيت وكبار نوابه للموافقة على «انتزاع» العمليات في الخارج، وهذه سلطة استثنائية حقاً.

وكان تينيت قد أحضر معه مسودة أمرِ مخابراتٍ رئاسي ـ ويسمى استكشافاً ـ لوكالة المخابرات باستعمال كامل الطاقات السرية، بما في ذلك سلطة القتل. ولمدة تزيد على عشرين سنة، كانت وكالة المخابرات تجري مجرد تعديلات عن الاستكشافات الرئاسية السابقة من أجل الحصول على الصلاحية الرسمية لمكافحة الإرهاب. وكان اقتراح تينيت الجديد ـ ويسمّى تكنولوجياً باسم «مذكرة إعلام» ـ قد قُدم كتعديلٍ للاستكشاف المخابراتي الذي وقعه الرئيس ريغان سنة 1986 بشأن مكافحة الإرهاب في العالم كله. وكان هذا الاقتراح ينسخ خمس مذكرات كهذه وقّعها الرئيس كلينتون، وبذلك بدا وكأنه محو رمزي للماضي القريب.

وانتقل تينيت إلى صفحة عنوانها: «العون المالي الكبير لخدمات الاتصالات العربية». وشرح أنه بزيادةٍ قدرها مئات من الملايين من الدولارات للعمل السري الجديد، يمكن لوكالة المخابرات المركزية «شراء» خدمات مخابرات رئيسية، مزوّدةً إياها بالتدريب والمعدات الجديدة والأموال لشبكة عملائها ولأي شيء يحتاجون إليه. وقد وُضعت لائحة بعدد من وكالات المخابرات: مصر والأردن والجزائر. وأن بإمكان هذه الوكالات، إذا عملت كنوّاب للولايات المتحدة، أن تضاعف ثلاثة أو أربع مرات طاقات وكالة المخابرات المركزية، وتكون بذلك بمثابة قوة ارتزاقية موسعة من عملاء المخابرات.

وكما هو الحال في الكثير من النشاطات السرية، كانت هذه الترتيبات معرضة للمخاطر، إنها تضع الولايات المتحدة في تحالف مع وكالات سرية مشبوهة، لدى بعضها سجلات رهيبة في مسألة حقوق الإنسان، ولبعضها سمعة بالقسوة واستعمال التعذيب للحصول على الاعترافات. واعترف تينيت بأن رجال هذه الوكالات لم يكونوا من النوع الذي يجلس إلى جانبك في الكنيسة يوم الأحد. وأضاف: إنني لا أضبط هؤلاء الرجال كل الوقت.

وقال بوش إنه يتفهم هذه المخاطر.

وأضاف تينيت إن الولايات المتحدة قاعدة كبيرة من مصادر القوة في المنطقة بسبب العمل الذي كانت الوكالة تقوم به منذ مدة من الزمن في البلاد المجاورة لأفغانستان. وكانت الوكالة ترسل طائرات من غير طيّار ـ تعرف باسم بريداتور ـ في مهمات للمراقبة تنطلق من أوزبكستان لمدة أكثر من سنة لتزويد الوكالة بفيديو واقعي عن أفغانستان. ومن الممكن تجهيز هذه الطائرات بصواريخ هلفاير المصنوعة من بُعد واستعمالها للمهمات المميتة أيضاً، وذلك لإخراج بن لادن أو ضباطه الكبار، مثلاً.

وقال تينيت إنه يجب على الولايات المتحدة أن تلتمس العمل عن كثب مع طاجيكستان وتركمانستان وباكستان، لتوقف سَفَر قادة القاعدة وتغلق كل المعابر الحدودية أمامهم. ودعا تينيت لإقامة صلات مخابراتية مع بعض الدول الخبيثة مثل ليبيا وسوريا والتي يمكنها ـ كما قال ـ أن تساعد في محاولة تدمير القاعدة. فلأجل أن تحصل وكالة المخابرات المركزية على المعلومات المساعِدة ضد الإرهابيين، من الممكن أن توسخ أيديها.

ومضى تينيت إلى قضية العمليات داخل أفغانستان، فوصف دور القبائل المعارضة في القسم الجنوبي من أفغانستان، وكانت هذه القبائل تشكّل جماعات معادية للحلف الشمالي إلاّ أنها ضرورية في حملة ضد القاعدة والطالبان. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد بدأت بالعمل مع حوالي 12

قائداً قبلياً في الجنوب في العام السابق، وبعضهم يحاول أن يلعب على الجهتين، قال تينيت، ولكن عندما تبدأ الحرب، يمكن استمالتهم بالمال والغذاء والذخيرة والمعدات لجعلهم ينضمُّون إلى حملة تقودها الولايات المتحدة.

ثم توسَّع تينيت في تفصيل ما جاء في تقريره السابق للرئيس حول كيفية إمكانهم استخدام الحلف الشمالي بشكل فعّال. وكانت وكالة المخابرات تعتقد أن بإمكان هذا الحلف أن يكون قوة كبيرة، ولكنه شديد الحاجة إلى المال والأسلحة والمخابرات.

وانتقل مدير المخابرات المركزية إلى وثيقة أخرى بالغة السرية، عنوانها «جدول الهجمات العالمية»، جاء فيها وصف للعمليات السرية في 80 دولة، وبعض هذه العمليات كان قد شُرِع بها، وبعضها الآخر كان تينيت يوصي الآن بالشروع بها. وتراوحت هذه الأعمال من الدعاية الروتينية إلى العمل السرّي المميت استعداداً للقيام بهجمات عسكرية. وقد تضمنت هذه الأعمال الجهود لتعطيل المخططات أو الهجمات الإرهابية في بلدان في آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا. في بعض البلاد، ستقتحم فِرق وكالة المخابرات بعض المواقع للحصول على المعلومات، وكان ما اقترحه تينيت يشكِّل انحرافاً ملحوظاً للسياسة الأمريكية، إذ يعطي وكالة المخابرات المركزية أعرض سلطة وأكثرها إماتةً في تاريخها. وقد أشار تينيت إلى هذه السلطة بأنها «قطعة خارجية»، تتجاوز أفغانستان. وأعطى المجموعة صورة سريعة عن الثمانين بلداً ـ نحن هنا الآن، وهذا ما نقدر أن نفعله، وهذا ما نريد أن نفعله. وكان كل هذا مذهلاً في شموله ـ وكأنه حرب سرية عالمية على الإرهاب.

ولأن وكالة المخابرات كانت تعمل بنشاط ضد الإرهاب لعدة سنوات، قال تينيت، إن الوكالة قد قامت بأعمال موسعة في مجالي تطوير الأهداف وتحليل الشبكات. وما كانت الوكالة بحاجة إليه هو المال والمرونة والسلطة العريضة، حتى تقدر أن تتحرّك بسرعة، وفوراً، إذا اكتشفت أهدافاً.

وكان رامسفيلد متحمساً لفكرة التوسيع، ولكنه كان ما يزال يريد أن يُكتب الأمر بدرجة أكبر من الدقة والتقييد.

ولم يقم الرئيس بأي جهد لإخفاء رأيه باقتراحات تينيت، فصاح: «هذا عملٌ عظيم!».

قال بوش، متجهاً إلى مولر، مدير مكتب التحقيق الفيديرالي: «أعطني تقريراً. أين نحن بالنسبة لما يحدث؟».

وكان روبرت مولر نائباً سنة فيديرالياً سابقاً وقد أمضى سنوات وهو يعمل على ضرب الإرهابيين بالقنابل سنة 1988 طائرة پان أمريكان، الرحلة رقم 103. وكان يعلم أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لمدير مكتب التحقيق الفيديرالي هو حصول حادثة إرهابية محلية كبيرة زمن إدارته. وربما كان الشيء الثاني السيّء هو أن يدعوه الرئيس للكلام وهو غير مستعد. فكان المدير جديداً جداً وقد دُهش لدعوته لحضور جلسة التخطيط للحرب. كان ينتظر أن يُدعى بعد ذلك بكثير، أو ربما لا يُدعى أبداً.

وبما أن مولر لم يكن معتاداً على هذه المجموعة ويشعر بالرهبة في حضور القيادة العليا للأمة، فقد أعطى تلخيصاً روتينياً عن التحقيق في خطف الطائرات. وقد أدرك أنه كان يثرثر، فأعطى الكلام لغيره بسرعة.

وأعطى النائب العام الجنرال آشكروفت آخر الأخبار عن جهوده لتطوير ملفّ تشريعي لتوسيع قوات تنفيذ القانون من أجل محاربة الإرهاب. وحذّر أنه من المهم تعطيل الإرهابيين الآن، ولكنه أضاف: «يجب أن نتذكر بأن هؤلاء الناس صبورون، مذكّراً المجتمعين بمرور ثماني سنوات بين الهجومين على مركز التجارة العالمي. إن الإدارة تحتاج إلى استراتيجية طويلة الأمد «لأن هذا هو النوع من الاستراتيجية التي عند الإرهابيين».

وقدّم العرض الأخير ذلك الصباح الجنرال شلتون، وكان هو أيضاً قد

أحضر معه حقيبة كبيرة إلى كامب داڤيد. وكان بوش قد أمر البنتاغون بالحضور إلى الاجتماع ومعهم الكثير من الخيارات. وكان شلتون مستعداً للحديث عن العمل العسكري ضد أفغانستان، وإذا جرى ضغط عليه، ضد العراق أيضاً.

وكان لدى شلتون ثلاثة خيارات لأفغانستان.

الخيار الأول هو ضربة بصواريخ كروز، وهذه خطة بإمكان القوات العسكرية أن تنفذها بسرعة إذا كان عامل السرعة من أولويات الرئيس الكبرى. ويمكن إطلاق الصواريخ من سفن سلاح البحرية أو طائرات سلاح الجو من مسافة المئات من الكيلومترات. وكانت الأهداف تضم جميع مخيمات القاعدة التدريبية. .

ولاحظ شلتون أن المشكلة، كما كان الجميع يعلم، أن هذه المخيمات فارغة، وكان واضحاً أن شلتون وبوش ورامسفيلد وأيضاً الآخرين لم يكونوا يحبذون هذه الفكرة. وكان يمكن تسمية هذا الخيار بـ «خيار كلينتون». وكان هناك قرف واضح لدى ذكر مجرد صواريخ كروز فقط.

وكان الخيار الثاني يضمّ إلى جانب صواريخ كروز هجمات القنابل التي يقودها رجال. وقال شلتون إن بوش قد يختار ابتداءً ضربة تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام أو أكثر ـ ربما حتى عشرة أيام. وتضم الأهداف مخيمات القاعدة للتدريب وبعض أهداف الطالبان. ولكنه كان لهذا الخيار حدود أيضاً.

ووصف شلتون الخيار الثالث والأقوى بأنه يضم صواريخ كروز وقاذفات القنابل إلى جانب ما كان المخططون يسمونه «الأحذية على الأرض». وكان هذا الخيار يشمل كل عناصر الخيار الثاني إضافةً إلى وحدات من نخبة المغاوير في القوات الأمريكية الخاصة، وربما أيضاً الجيش والمارينز، الذين يتم إنزالهم في أفغانستان. ولكن شلتون قال إن هذا الخيار يستغرق 10 ـ 12 يوماً على الأقل لمجرّد وضع القوات الأولية على الأرض بسبب الحاجة إلى القواعد

وحقوق الطيران في المنطقة حتى تستطيع فِرق البحث والإنقاذ أن تخرج الطيارين الذين تسقط طائراتهم.

وقد فوجئ المحاربون القدماء في حرب الخليج، ولا سيما پاول وتشيني، كيف أن الوضع العسكري في أفغانستان يتخذ شكلاً مختلفاً جداً عن حملة «دزرت ستورم» في حرب الخليج. ففي يوم السبت الواقع في الرابع من أغسطس/آب سنة 1990، وفي المنزل نفسه في كامپ داڤيد، قدم الجنرال نورمان شوارتسكويف، القائد الأعلى للقيادة المركزية، اقتراحاً مفصلاً مأخوذاً عن الرّفّ للعمل العسكري. وكان هذا يُدعى مخطط العمليات رقم 90 ـ 1002. وكان عبارة عن مخطط عسكري رئيسي من الممكن تنفيذه خلال الأشهر السبعة القادمة لطرد الجيش العراقي من الكويت.

أما الآن، فلم يكن هناك مخطط عسكري مأخوذ من على الرفّ. بل يجب ابتكار خطة بسرعة ومن الصفر حالما يقرِّر الرئيس شكل الحرب ونقطة التركيز في الحملة الأولية والعلاقة بين وكالة المخابرات المركزية والپنتاغون.

ولدى نقطة معيَّنة، قال أحد المجتمعين إن هذه الحرب لن تكون على الأرجح مثل حرب البلقان، حيث شغلت الحزازات العنصرية إدارة كلينتون لمدة تقارب الثماني سنوات. وقالت رايس: «إننا سنتمنى أن تكون هذه الحرب مثل حرب البلقان»، لأن مشكلات أفغانستان والمنطقة المجاورة لها معقَّدة جداً. ونظرت إلى خارطة وفكَّرت بمجرَّد «أفغانستان». واستحضرت هذه الكلمة كل الصورة السلبية: بعيدة جبلية دون مخرج بحري وصعبة.

وقال بوش إن النتيجة المثالية لهذه الحملة ستكون طرد الإرهابيين من بعض الأماكن مثل أفغانستان، ومن خلال هذا العمل إقناع الدول الأخرى التي دعمت الإرهاب في الماضي، مثل إيران، بتغيير تصرفاتها.

وأكَّد پاول أن الجميع في التحالف العالمي مستعد لملاحقة القاعدة،

ولكن توسيع الحرب بحيث تطول بلاداً أو جماعات إرهابية أخرى قد يُسبِّب انسحاب بعض الدول من التحالف.

وقال الرئيس إنه لا يريد أن تملي عليه بلاد أخرى شروط الحرب على الإرهاب «في نقطة معيَّنة من الزمن»، قال بوش، «قد نكون الوحيدين الباقين. وهذا لا بأس به من ناحيتي. نحن أمريكا».

ولم يُجب پاول. إن الذهاب إلى الحرب منفردين كان تماماً ما يريد أن يتفاداه، إذا كان ذلك بالإمكان. ورأى أن مقولة الرئيس غير واقعية. من دون شركاء، لن يكون بإمكان الولايات المتحدة أن تشن حرباً فعَّالة حتى على أفغانستان. وبالتأكيد ليس في كلِّ العالم. واعتقد پاول أن الرئيس قدّم هذا التعليق وهو يعلم أنه قد لا يصمد أمام تحليل آخر. إن الكلام القاسي قد يكون ضرورياً، ولكن يجب ألاَّ يُخلط بالسياسة.

وعلى العكس من ذلك، فقد عمل تشيني على أساس الاعتقاد أن الرئيس صادق في قوله. وكان مقتنعاً أن الرئيس كان جادّاً عندما قال إن الولايات المتحدة قد تُقدم على العمل وحدها إذا اضطرت إلى ذلك.

وأثار رامسفيلد مشكلة أخرى. رغم أن الجميع كانوا متفقين على أن تدمير القاعدة هو الهدف الأول، فإن أي إفراد لبن لادن، خاصةً من جانب الرئيس، من شأنه، كما كان قد حدث بالنسبة للرئيس العراقي صدام حسين خلال حرب الخليج. وقال رامسفيلد إن أسوأ شيء يمكن أن يعملوه في مثل هذه الحالة هو أن يحرِّفوا غرضهم، وأن الفعالية لا تكمن في النجاح في عزل بن لادن أو قائد الطالبان محمد عمر أو قتلهما من دون حل المشكلة الرئيسية وهي الإرهاب. إن الحط من قدر بن لادن قد يسلب الولايات المتحدة قدرتها على صياغة هذه الحرب كحرب أكبر من بن لادن. وبكلمات أخرى، إن لافتة «لا لبن لادن» التي ظهرت على كل صفحة من تقارير وكالة المخابرات المركزية كانت في غير محلها ويجب ألاَّ تُعاد علانيةً.

وكان هناك عامل مُربك آخر وهو الطالبان. فقد كان واضحاً أن الولايات المتحدة ستضغط على أمل أن تقطع الطالبان صلاتها بالقاعدة وتتخلّى عن بن لادن. ولكن المجتمعين لم يظنوا أن ذلك أمر محتمل الحدوث، إلاّ أنهم وافقوا على أن عليهم أن يقوموا بجهود في ذلك السبيل.

وكان تاريخ أفغانستان يزعج مستشاري الرئيس، إذ إن جغرافيتها وعرة وسجلّها في صدّ القوات الخارجية أمر حقيقي. وبالرغم من الخيارات التي كانت قد قُدمت ذلك الصباح، فإن عدة مستشارين بدوا قلقين. وسألهم بوش: ما هي أسوأ الحالات هناك؟ وما هي المخاطر الحقيقية ضدنا؟.

وكان أحد هذه المخاطر إحداث بلبلة في أفغانستان من شأنها أن تصل إلى باكستان. وكان رايس وتشيني خاصةً ينظران إلى هذه القضية على أنها خطر كبير. قال تشيني إن أفغانستان في حالة فوضى حتى في الوقت الحاضر، وإذا سقطت باكستان، فإنهم يكونون قد أطلقوا العنان لمجموعة جديدة من العفاريت. وكان تشيني قلقاً من أن اختيار الباكستان تأييدَ الولايات المتحدة قد يؤدي إلى أن يحاول المتطرفون فيها إسقاط حكومة مشرّف، وهذا قد يعطي المسلمين المتعصبين مدخلاً إلى أسلحة الباكستان النووية.

وكان الجميع يدركون أن الرئيس مشرّف هو الحاجز الحاسم الذي يفصل بين الاستقرار وأسوأ الحالات الممكنة.

وسأل بوش ما إذا كان الباكستانيون قد فكّروا ملياً بالمخاطر الناتجة عن تأييدنا.

فقال پاول إنه يعتقد أنهم قد فعلوا ذلك. أولاً، إن مشرّف قد رأى مدى جدية الإدارة؛ ثانياً، قال پاول، مشرّف قد أدرك أنه يفقد السيطرة على بلده تدريجياً، وقد يرى هذه فرصةً لوضع حد للانزلاق نحو التطرُّف. وتابع پاول إنه يعتقد أن مشرّف لا يريد أن تصبح باكستان دولة خبيثة؛ بل يسعى لأن تكون بلداً علمانياً غربيّ السمات.

فقال الرئيس إن الرئيس مشرّف يعرِّض نفسه لخطر عظيم، وعلينا أن نكافئه. يجب أن نساعده في عددٍ من الأمور، بما في ذلك الأمن النووي. أعدوا ملفاً لإعانة باكستان.

وكان هناك خطر آخر لمواجهة المجموعة وهو العجز عن التقدم في أفغانستان، شأن البريطانيين في القرن التاسع عشر والروس في القرن العشرين. وتساءلت رايس عما إذا كان الأمر قد يكون مماثلاً للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين.

وشارك الآخرون تخوفات رايس، وقاد ذلك إلى مناقشة مختلفة: هل يجب أن يفكِّروا بالبدء بعمل عسكري في مكان آخر كبوليصة تأمين في حال تَرَدِّي الأمور في أفغانستان؟ إنهم يحتاجون إلى النجاح باكراً في أي حرب من أجل المحافظة على الدعم الداخلي والعالمي. إن انتصار الولايات المتحدة السريع سنة 1991 في حرب الخليج، ومشاهدته وهو يتكشف فوراً وعبر البثّ المباشر على شبكة سي إن إن، قد أعادا صياغة توقعات الناس عن الحرب، وهذا وضع لم تغيره إدارة كلينتون بهجماتها بصواريخ كروز من وقت إلى آخر.

وسألت رايس إذا كان بإمكان المجتمعين تصوُّر حملة عسكرية ناجحة في غير أفغانستان. وهذا السؤال وضع موضوع العراق على الطاولة.

وتحمَّس نائب وزير الدفاع پول وولفوويتز، الذي كان وديعاً في التصرُّف ولكن متشدِّداً في السياسة. وولفوويتز، البالغ من العمر 57 سنة، كان يعتقد أن النهاية المفاجئة لحملة دزرت ستورم على الأرض في حرب الخليج سنة 1991 كانت خطأً إذ تركت صدام في السلطة.

ومنذ تسلمه الرئاسة، كان بوش يبحث عن طرق لإضعاف صدام حسين، ففيما كان وولفوويتز يدعم الجهود لمساعدة الجماعات المعارضة، وفيما كان پاول يلتمس الدعم لفرض مجموعة جديدة من العقوبات. كان الخوف يرتكز على أن صدام مستمر في محاولة تطوير أسلحة الدمار الشامل والحصول عليها

ثم استعمالها في نهاية المطاف. ومن دون وجود مراقبين من الأمم المتحدة في العراق، لم تكن هناك طريقة لمعرفة الطبيعة الدقيقة للخطر الذي كان يواجههم. وقد أعطت الهجمات الإرهابية يوم 11 سبتمبر/أيلول الولايات المتحدة نافذةً جديدة لملاحقة صدام حسين.

وانتهز وولفوويتز الفرصة. إن الهجوم على أفغانستان سيكون غير مؤكد. وهو قلق على مئة ألف جندي أمريكي قد يعجزون عن التقدم في قتال في الجبال في أفغانستان بعد انقضاء ستة أشهر. وعلى العكس من ذلك، فإن العراق ذو نظام حكم جائر سريع الكسر، ويمكن كسره بسهولة. ومن الممكن عمل ذلك. وقد قدّر وولفوويتز أن هناك احتمال بنسبة 10 ـ 50 بالمئة أن يكون صدام متورِّطاً في هجمات 11 سبتمبر/أيلول الإرهابية. وعلى الولايات المتحدة أن تهاجم صدام في وقتٍ ما إذا كانت الحرب على الإرهاب ستؤخذ بجدية.

وفكّر آندي كارد بأن وولفوويتز كان يضرب على الطبل وحسب، إذ لم يزود المجتمعين بمعلومات إضافية أو ببراهين جديدة.

وخلال فترة استراحة، انضمّ بوش إلى محادثة جانبية كانت تضم تشيني ورئيس أركان تشيني، أي. لويس «سكوتر» ليبّي، وولفوويتز. وقال لهم الرئيس إنه وجد بعض الخيارات العسكرية التي قدمها شلتون غير مبتكرة.

وتوسع وولفوويتز في جداله حول أن حرباً ضد العراق قد تكون أسهل من حرب ضد أفغانستان.

وسأله الرئيس لماذا لم يتحدث أكثر عن هذا الأمر في الاجتماع.

«إنه ليس مكاني أن أعارض رئيس القوات المشتركة إلاّ إذا طلب مني ذلك وزير الدفاع»، قال وولفوويتز، وكان يعلم أن شلتون معارض لهجوم على العراق.

وعندما اجتمعت المجموعة مرةً أخرى، سأل رامسفيلد هل هذا هو الوقت لمهاجمة العراق. ولاحظ أنه سيكون هناك تجمّع كبير للقوات في المنطقة، وكان ما زال قلقاً جداً من تعذّر إيجاد أهداف جيدة في أفغانستان.

" ولكن پاول اعترض. ستسمع من شركائك في التحالف، قال الرئيس. إنهم جميعاً معك، كل واحد منهم، ولكنهم سيرحلون إذا ضربتَ العراق. إذا كان لديك شيء يلقي مسؤولية 11 سبتمبر/ أيلول على العراق، فهذا عظيم ـ لنضعه على الطاولة ونرفسهم في الوقت المناسب. ولكن الآن دعنا نستولي على أفغانستان. إننا إذا فعلنا ذلك، نزيد من قدرتنا على ملاحقة العراق ـ إذا كان بإمكاننا أن نبرهن على أنه كان له دور.

وكان لدى بوش تحفظ قوي على مهاجمة العراق، ولكنه سمح للمناقشة أن تستمر. وكان قلقاً على شيئين، قال فيما بعد: «إن نظريتي هي أنك يجب أن تعمل شيئاً وتعمله جيداً، وأنه إذا كان بإمكاننا أن نبرهن على أننا سننجح على مسرح الأحداث الأفغاني، فإن سائر المهمة يصبح أسهل. وإذا حاولنا أن نفعل الكثير من الأشياء ـ شيئين مثلاً أو ثلاثة أشياء ـ على المستوى العسكري، فإن عدم التركيز سيكون مخاطرة ضخمة».

وكان هَمٌّ بوش الآخر همّاً لم يصرِّح به لوزارة حربه، ولكنه سيقول لاحقاً بأنه كان على باله أن يعلم أن حول الطاولة بعض المستشارين ـ پاول وتشيني وولفوويتز ـ الذين كانوا مع والده خلال مشاورات حرب الخليج. «وأحد الأشياء التي لم أكن سأسمح بها هو أننا لن نجعل خبرتهم السابقة في هذا المسرح الأحداث ذاك تملي علينا وجهة منطقية للحرب الجديدة». وبكلمات أخرى، لم يكن بوش يريدهم أن يستعملوا الحرب على الإرهاب كعذر لتسوية حساباتهم القديمة.

ولدى نقطة أخرى خلال الصباح، قاطع وولفوويتز رئيسه رامسفيلد،

وتوسّع في شرح نقطة كان قد ذكرها سابقاً عن العراق. وربما كان قد اعتبر ملاحظة الرئيس خلال فترة الاستراحة تشجيعاً له.

وساد صمت حرج. وبدا أن رامسفيلد تجاهل المقاطعة، ولكن عينيه ضاقتا. وظنَّ البعض أنه قد انزعج، وظنَّ الآخرون أنه كان يستمع وحسب.

ووجّه بوش نظرة حادة باتجاه كارد. وخلال فترة استراحة أخرى في الاجتماع، أخذ رئيس الأركان رامسفيلدَ وولفوويتز جانباً.

«إن الرئيس يتوقع أن يتحدَّث شخص واحد باسم وزارة الدفاع»، قال لهما كارد.

وفي وقت ما قبل الغداء، أفهمَ بوش المجموعة بأنه قد سمع ما يكفي من المجادلة حول العراق. وتذكر بوش فيما بعد: لم يكن هناك كلام كثير عن العراق في الاجتماع الثاني في جولة بعد الظهر. وتركز البحث في الجولة الثانية من المناقشات على أفغانستان فقط، دعني أضعها لك بهذه الطريقة».

وتناولت المجموعة طعام الغداء في الساعة الواحدة إلاّ الربع، وقال بوش لمستشاريه إن عليهم أن يأخذوا بعض الوقت للراحة أو التمارين الرياضية. وبعد ذلك، أريد الجميع هنا في الساعة الرابعة، وأريد أن أسمع آراءكم عما يجب علينا أن نفعله.

وكانت رايز قلقة على فقدان التركيز خلال القسم الأخير من الصباح. وكانت اجتماعات مجلس الأمن القومي عادةً أكثر تنظيماً، بحيث يعطي الرؤساء تقارير عن وزاراتهم أو وكالاتهم، ثم يعملون معاً على حل المشكلات ـ «يضربونها كالمعكرونة، كما قالت مرة» ـ ويصلون إلى خيارات. وكان اجتماع الصباح قد بدأ بصورة جيدة، ولكنه أصبح بعد ذلك متميزاً بالتكرار والانطلاق الحر في عرض الأفكار بشكل غير اعتيادي. ولم تكن رايس تعلم أين تركتهم

محادثات الصباح. كيف سنعمل مخططاً من كل هذا، تساءلت رايس هل لدينا أي شيء هنا؟ وكانت رايس تعلم أن الرئيس يريد أن يخرج من الاجتماع بخطة عمل.

وجمعت رايس الرؤساء ـ پاول ورامسفيلد وتينيت وكارد ـ من دون الرئيس، وعبَّرت عن قلقها. يجب أن نعمل بدرجة أكبر من الانضباط في المناقشة بعد الظهر، قالت رايس، وهي تحثّهم على انتحاء الدقة.

وعاد پاول إلى كابينه، حيث كانت زوجته ألما تقرأ كتاباً. وكانت وجهة نظره أن الأسئلة الكبيرة كانت ما زالت مطروحة على الطاولة: ماذا نفعل؟ متى نفعله؟ وهل نلاحق شيئاً واحداً ـ القاعدة والطالبان ـ اللّذين نعلم أنهما هنالك، أو هل نوسّع الحرب في هذا الوقت؟ وجلس پاول في مقعد وأغمض عينيه لمدة نصف ساعة.

أما تينيت وماكلوفلين، فقد ذهبا في نزهة في عربة غولف. وتساءل ماكلوفلين كيف سيأخذ الرئيس هذه المناقشة ـ التي تشعبت إلى جميع الأمور ـ ويعيد صهرها.

وذهبت رايس إلى كابينها وردّت على بعض المكالمات الهاتفية ثم خرجت لتعمل تمارين رياضية. وحوالي الساعة الرابعة إلاّ الربع، التقت صدفة بالرئيس خارج كابينه. كان قد عمل تمارين على ماكينة بيضوية الشكل ورفع أثقالاً. وإذ ذاك قال لمستشارته للأمن القومي إن لديه مخططاً بعد ظهر ذلك اليوم «سأدور حول الطاولة وسأسأل المجتمعين عن أفكارهم»، قال الرئيس: «ما رأيك بهذا؟».

«هذا جيد»، أجابت رايس. «هل تريدني أن أستمع فقط؟».

«أريدك أن تسمعي»، قال الرئيس، وأن بإمكانها أن تقدِّم أفكارها بعد أن تسمع من الجميع.

قال الرئيس أريد أن أسمع توصياتٍ من الرؤساء ـ پاول ورامسفيلد وتينيت وكارد ونائب الرئيس ـ عندما اجتمعت المجموعة مرة أخرى في نزل لورل في الساعة الرابعة بعد الظهر.

خيراً، من سيبدأ؟ ونظر الرئيس إلى پاول.

وكان پاول يتوقع مناقشة أكثر عمومية، ولكنه بدأ بالكلام بحسم. «أولاً، إن الأمر يتعلق بالقاعدة وبن لادن». لنجعلهم الهدف، هم ومخيماتهم وبنيتهم التحتية». وبعد ذلك، هناك شبكات أخرى، ولكن ليس مجموعة العصابات اليسارية في كولومبيا». إنهم بحاجة إلى حملة جوية متواصلة في الأماكن التي يُعرف أن بن لادن يختبئ فيها، قال پاول، ويجب عليهم إصدار تحذير إلى الطالبان 48 ساعة قبل بدء الحملة العسكرية، وذلك لتحميلهم المسؤولية، فإذا رفضوا، فإنهم سيبدأون بدفع الثمن.

«لا تلاحقوا قيادتهم في عاصمتهم»، استمر پاول: «لاحقوا الأشياء التي تبقيهم في مركز القوة، مثل سلاحهم الجوي. ابدأوا من أسفل الحلقة أولاً، بدلاً من البدء من الأعلى ثم النزول للأسفل».

وكانت لديه عدة أفكار أخرى. «ابتعدوا عن شبكة سي. إن. إن»، اقترح پاول. إن التغطية الفورية لأرض المعركة قد تخلق ضغطاً غير ضروري. وقال أيضاً إنه من المستحسن الإبقاء على شخص ما في الطالبان للتفاوض معه، وقد يكون من الممكن أن نعمل مع السعوديين من أجل محاولة الوصول إلى الطالبان، لأن السعوديين كانوا الحكومة الهامة الوحيدة الأخرى ـ إلى جانب الباكستان ـ التي تعترف رسمياً بالطالبان كالحكام الشرعيين في أفغانستان.

«أما بالنسبة لكل الدول التي دعمت الإرهاب، فيمكنكم أن تلاحقوهم في وقت تختارونه أنتم»، قال پاول، مكرراً جملةً كان بوش قد قالها في خطابه في الكاتدرائية في اليوم السابق. «إنهم لن يذهبوا إلى أي مكان». لا تلاحقوا خيار

العراق فوراً، إذ بذلك نخسر التحالف الذي نعاقد الآخرين عليه. «إنهم سوف يعتبرونه طُعْماً بغاية التحوّل، وذلك ليس ما عاقدوا عليه».

فإذا كنا لم نلاحق العراق قبل 11 سبتمبر/ أيلول، لماذا نلاحقهم الآن والغضبُ الحالي ليس موجهاً ضد العراق، سأل پاول. وليس بإمكان أحد أن ينظر إلى العراق ويقول إنه المسؤول عن 11 سبتمبر/ أيلول. إنه من الهام ألاّ نفقد نقطة التركيز. وأضاف: «اتركوا خيارات العراق مفتوحةً، إذا كان بإمكانكم استحضار الصلات [بـ 11 سبتمبر/ أيلول]. وربما سوريا وإيران» ـ الدول الرئيسية التي كفلت الإرهاب في الثمانينيات ـ «ولكنني لا أظن أنكم ستجدون الصلات».

ورغم أن العسكرية الأمريكية كانت تدَّعي أنها مخطَّطة ومُعَدَّة للقتال على جبهتين شاملتين في الوقت نفسه، فقد رأى پاول أن وزارة الدفاع تغالي في تقدير قدرتها على عمل شيئين في الوقت نفسه من القيادة نفسها ومع القائد والموظفين أنفسهم، وأن هجومَيْن عسكريين على كل من أفغانستان والعراق يقعان تحت سلطة القيادة المركزية.

ولم يسهب پاول في الحديث عن هذه النقطة ولكنه تصوَّر أنها نقطته الرابحة. فلم يكن أحد قد قدَّم خطة عسكرية للعراق. ولم يقل أحد، لا رامسفيلد ولا وولفوويتز ماذا يجب عمله بالضبط بالعراق وكيف يمكن أن يتم ذلك العمل. ولم يأخذ أحد هذه النقطة إلى الخطوة التالية ويقول: هذا ما نتكلَّم عنه. وإن فقدان خطة ترك فجوة عميقة.

وقال پاول إنه يجب أن تُعمَل قضية عامة تبيِّن بأن بن لادن هو المذنب. هذا أمرٌ هام. والبرهان يهمّ أيضاً.

وتكلَّم رامسفيلد بعد ذلك. يجب ألاّ نحدَّ قدرتنا على العمل على المدى الطويل، وهذا يعني أن عليهم أن يستمروا بالتفكير بما يعملونه بالإرهاب بشكل عام. والصبر هام. إن اقتلاع بن لادن يتطلَّب نوعاً من المخابرات مختلف جداً

عما عندهم. وإن عقيدة «الضرب ثم الكلام ثم الضرب» حيث تضرب الولايات المتحدة، ثم تتوقف مؤقتاً لترى ردة الفعل، ثم الضرب مجدداً بدت ترجيعاً لصدى حرب ڤيتنام.

«إن الخيارات العسكرية المعروفة الآن تبدو كما لو أنها عُملت منذ خمس أو عشر سنوات». قال رامسفيلد، موجهاً ضربة مباشرة للمخططين العسكريين ذوي اللباس الرسمي. وقال رامسفيلد إن هناك حاجة لطرق اقتراب غير اعتيادية، خاصة فيما يتعلق بعمليات القوات الخاصة، بتجميع المخابرات على الأرض. «حضّروا مجموعة تعمل بسرعة، اخرجوا من التفكير التقليدي».

أما بالنسبة لملاحظة پاول فإن التحالف سيتبدّد إذا هوجمت العراق، فقد قال رامسفيلد إن أي «حجة تقول إن التحالف لا يتحمّل ضرب العراق تستدعي حجة تقول ببناء تحالف مختلف». ولكنه هو أيضاً ـ وهذا أمر ملحوظ ـ لم يقدم توصية عن العراق.

وتابع رامسفيلد: «علينا أن نعمل بشكل أفضل في اختيار الأهداف. إن هذه ستكون حملة مستمرة. يجب أن يكون لدينا خلية عمليات موجودة حالياً».

وقدّم رامسفيلد بعض الأفكار عن ضبط المعلومات. «نحتاج إلى ضغط أكبر على الشؤون العامة فلنعاملها كحملة سياسية فيها نقاط يجب التحدث عنها يومياً. والاستمرارية تحتاج إلى قاعدة واسعة من الدعم المحلي، واسعة، وليس ضيقة». إن هذا سَبَق ماراثون كبير، وليس عدواً لمسافة قصيرة. إن العملية ستستغرق سنين وليس أشهراً. وفي حرب ستكون بعيدة وطويلة وسرية نسبياً، إنهم بحاجة إلى انضباط في الرسائل.

«إن الناس الذين يفعلون هذا لا يخسرون»، قال رامسفيلد، «وليس لديهم أهداف ذات قيمة عالية. إن لديهم شبكات وتعصب». وكانت هذه النقطة جلية، إلاّ أنها كانت أيضاً هامة إذ ذهبت إلى صميم المشكلات التي كانوا

يواجهونها ـ الافتقاد إلى أهداف جيدة، والافتقاد إلى مصادر للمخابرات في الداخل، وانعدام القيمة لاستراتيجية رادعة.

وقال الرئيس: «يجب أن نؤكِّد على الدفاع عن وطننا. أولاً، نحتاج إلى برنامج عمل مبكر للردّ»، وأعطى هذه المهمة إلى تشيني. «ويجب أن ننسق بين الأمور العامة»، قال بوش موافقاً. «ويجب علينا أن نحدِّث برنامج اتصالاتنا». وكان بوش يتذمر لعدة أشهر من برامجهم للاتصال المهلهلة، وكانت حالتها قد ساءت في السنوات الأخيرة بسبب فقدان التوظيف المالي فيها. وفي صباح 11 سبتمبر/ أيلول، لم تكن آلات الهاتف تعمل بشكل جيد.

ولخَّص تينيت الأمور: «يبدو أن هناك استراتيجية تتألف من ثلاثة أقسام». الأول هو الطلبات من الطالبان وغيرهم. والثاني هو «الضرب والخنق». والثالث هو «التطويق والتعزيز».

وأضاف تينيت فكرة تدعو إلى الكآبة؛ قال: «إن حالتنا تزداد شبهاً بحالة الإسرائيليين». إن الولايات المتحدة قد تكون داخلة في فترة من الهجمات الإرهابية المحلية الروتينية. ولن تذهب المشكلة. «إننا بحاجة إلى استراتيجية محلية تقوم بالتعطيل».

«لنبدأ بالخيارات العسكرية ضد الطالبان». وقد وافق تينيت مع پاول أن عليهم في البداية أن يتعقبوا الأهداف العسكرية للطالبان لا قيادتهم. «علينا على الأقل أن نحارب هدف القاعدة، وندمِّر معظم بنية الطالبان العسكرية».

وذكر تينيت خطته الخاصة بشأن التوجه العالمي، ولكنه وافق على أن التركيز العسكري الأول يجب أن يكون فقط على أفغانستان.

ثم تكلَّم كارد. لم تكن له خبرة كبيرة في السياسة الخارجية، ولهذا بدأ بالتكلم بشكل عام، «ما هو تعريف النجاح؟» وقال إنه أولاً البرهنة أن هذا ليس مجرَّد مجهود للضرب في الرمل. كما كان الرئيس قد وضَّح غير مرة. «إن

الناس إما معنا أو ضدنا. وإذا كان الخط غير واضح ولم تكن هناك عواقب واضحة، فإن الناس ينتقلون إلى الجهة الخاطئة من الخط». وقال كارد مردداً صدى ما قاله پاول ورامسفيلد: «لا تحدِّدوا النجاح بأسامة بن لادن. إن القاعدة ممكن أن تكون العدو».

«عدو واحد»، قال بوش، مقاطعاً رئيس أركانه، ومذكِّراً الجميع بأن هذه حرب ذات نطاق أوسع من القاعدة بكثير.

وقال كارد بأن التفكير بالقيام بأعمال متزامنة في أقسام أخرى من العالم، مثل إندونيسيا أو الفيليبين أو ماليزيا أو اليمن أو الصومال يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. «إذا كان لديك 15 فريقاً يضربون 10 أهداف مختلفة حول العالم في اليوم نفسه وفي وقت واحد، فإن هذا يبعث رسالة مفادها أننا نبسط أيدينا حول العالم».

واقترح كارد أيضاً بأن «يضعوا عدداً كبيراً من الجنود» في منطقة الخليج. إن هذا سيُري العالم أنهم هناك ليبقوا ويضعهم في مركز الاستعداد لضرب العراق فيما بعد. وهنا قال كارد أيضاً إنه لا يظن أن حجة مقنعة قد قُدِّمت بأن العراق يجب أن يكون هدفاً رئيسياً أولياً.

وقاطع تينيت كارد قائلاً إنه قلق على ما أسماه «إخفاق لعبة اللَّوم» وهو يعلم أنه ستكون هناك جميع أنواع الاتهامات والتحقيقات، مثل تلك التي أعقبت پيرل هاربور بشكل متكرِّر لانهائي، في محاولةٍ لإيجاد المعترِف ذلك الشخص الذي ألقى الكرة. «إن الناس يعملون بصورة مستمرة»، قال تينيت، وكان يتكلَّم عن موظفيه وعن الآخرين. لقد أنقذوا الآلاف من الأرواح». ومن الضروري إمدادهم بالتأييد. ثم قام تينيت بشيء غير عادي. نظر إلى الرئيس وقال: «إن الرجال والنساء الذين يقومون بالعمل بحاجة إلى أن يعرفوك، سيدي الرئيس؛ أعطهم ثقتك».

وأوضح بوش بأنه يفعل ذلك.

وتكلّم نائب الرئيس أخيراً. يجب أن نعمل كل ما في وسعنا لنوقف الهجوم التالي. لاحقوا أي شخص في الولايات المتحدة يمكن أن يكون إرهابياً. هل نحن متشددون بما فيه الكفاية؟ ونحن نحتاج الآن إلى مجموعة تنظر إلى الدروس التي تعلمناها منذ 11 سبتمبر/ أيلول. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار المحيط بشكل أوسع عند البحث عن بن لادن. ففي الأسبوع الماضي، وقبل 11 سبتمبر/ أيلول، كنا قلقين على قوة مركزنا بكامله في الشرق الأوسط. أين موضعنا بالنسبة للسعوديين والأتراك وغيرهم في المنطقة. والآن يريد هؤلاء جميعاً أن يكونوا جزءاً من جهودنا، وهذه فرصة. ويجب أن نبسط أيدينا لهذه الفرصة.

إن بناء تحالف يستغل هذه الفرص، قال تشيني، يعني أن هذا قد يكون وقتاً سيئاً لمهاجمة صدام حسين. إذا فعلنا ذلك، فإننا نفقد الزخم «إذا هاجمنا صدام حسين، فإننا نفقد مكاننا الصحيح بأننا الرجال الخيِّرين».

وهكذا، انضم تشيني إلى پاول وتينيت وكارد في معارضة ضرب العراق. أما رامسفيلد، فإنه لم يلتزم بموقف. وإذا كان هناك أحد يعدّ الأصوات، فإن النتيجة كانت 4 أصوات ضد صفر، باعتبار رامسفيلد ممتنعاً عن التصويت.

ومع هذا، فإن نائب الرئيس عبَّر عن قلق عميق بشأن صدام، وقال إنه لا يرى ملاحقة العراق في وقت ما أمراً غير وارد.

وقال تشيني إن وكالة المخابرات المركزية يجب أن تضغط على كل زر بإمكانها الضغط عليه. «إن إحدى خيبات الأمل هي المنظمات غير الحكومية التي تعتبر من مصادر قوة بن لادن الحقيقية» ـ وهي المجموعات الخيرية والمنظمات غير الحكومية التي ساعدت في تمويل القاعدة. واقترح تشيني تقوية الحلف الشمالي وضرب الطالبان، ولكن ليس بالضرورة بطريقة شديدة أولاً. يجب أن ندمِّر وسائل دفاعهم الجوي وقواهم الجوية. ويجب أن نكون جاهزين لوضع الرجال على الأرض. وأضاف إن هناك بعض الأماكن التي لا

يمكن إلاّ لقوات العمليات الخاصة أن تصل إليها. ويجب أن نسأل: هل لدينا الخليط المناسب من القوات؟.

وأخيراً، عاد تشيني إلى قضية الدفاع عن البلاد، يجب أن يعملوا كل ما في وسعهم للدفاع عن أمريكا ومنع الهجوم التالي عنها. وهذا الموضوع يدعو إلى الكثير من القلق. وكان تشيني قد راجع عمل خمس لجان حكومية درست الإرهاب مؤخراً. وكان الرئيس قد أسند إلى تشيني مهمة إيجاد خطة للأمن الوطني في مايو/ أيار السابق؛ ولم تكن تُعنى بمجرّد أمن الحدود والطيران، ولكن أيضاً بالحماية ضد الأخطار البيولوجية وغيرها من التهديدات التي يجب أن يفكّروا فيها.

وفي نهاية الاجتماع، دار بوش حول الطاولة وشكر الحاضرين فرداً فرداً. ولكنه لم يكن من الواضح إلامَ انتهت إليه الأمور. قال الرئيس «سأفكّر بالأمور كلها، ثم أعلمكم بما أقرّره».

* * *

وغادر پاول ورامسفيلد كامپ داڤيد، لكن أغلبية الآخرين بقوا مع أزواجهم لتناول العشاء. وقادت رايس المجموعة في غناء أناشيد أمريكية وطنية. وأمضى الرئيس بعض الوقت بحذاء طاولة مجاورة، مشاركاً الآخرين في محاولة جمع أحجية معقّدة للصور الخشبية المقطوعة.

7

في منزله في ضاحية من ضواحي واشنطن صباح اليوم التالي، تناول تينيت قلماً وبعض الأوراق وبدأ يكتب بخط يده. وكان متحمساً ويريد أن يبعث برسالة لفريقه الخاص من المستشارين. وكتب في أعلى الصفحة: «نحن في حرب».

هذه الحرب هي حرب على كل الجبهات ضد القاعدة، كتب تينيت، «ولا يمكن أن تكون هناك أي عراقيل بيروقراطية للنجاح. إن كل القوانين قد تغيَّرت. يجب أن تكون هناك مشاركة مطلقة وتامة في المعلومات والأفكار والإمكانيات. ليس لدينا الوقت لعقد الاجتماعات ولحل المشكلات ـ حلّوها بسرعة وبذكاء. وعلى كل شخص أن يتحمَّل درجة من المسؤولية الشخصية ليس لها مثيل في السابق». وأية مشكلات مع سائر الوكالات أو الجهات العسكرية أو قوات تنفيذ القانون الأخرى يجب «حلها الآن».

«يجب أن نكون جميعاً متحمسين ومندفعين، ولكن ليس إلى درجة فقدان النَّفس. يجب ألاَّ نفقد أعصابنا».

«وسننتصر في الحرب معاً، ونجعل رئيسنا والشعب الأمريكي فخورين. سننتصر في هذه الحرب نيابةً عن إخواننا وأخواتنا الذين قتلوا أو جرحوا في نيويورك وواشنطن ونيابة عن عائلاتهم».

وأرسل تينيت هذه الرسالة عن طريق الفاكس الأمين في منزله إلى مقر وكالة المخابرات المركزية لتُطبع وتُوزَّع. وكانت هذه المذكرة دعوة إلى العمل، ولكنها كانت أيضاً اعترافاً بأن لدى وكالته بعض المشكلات، مع النزعة إلى حل المشكلات بعقد الاجتماعات.

* * *

وعاد الرئيس من كامب داڤيد إلى البيت الأبيض في الثالثة والدقيقة العشرين بعد الظهر، وأعد تصريحاً موجزاً للصحافيين في الحديقة الجنوبية وأجاب على خمسة أسئلة. وأشار إلى «الشر» و«الشريرين» سبع مرات، كما أبدى دهشته ثلاث مرات لطبيعة الهجمات.

«إننا لم نشاهد هذا النوع من البربرية منذ زمن بعيد»، قال بوش. «لم يكن بإمكان أحد أن يتصوَّر أن قاذفي القنابل الانتحاريين يختبئون في مجتمعنا ويبرزون جميعاً في اليوم نفسه لقيادة طائراتهم ـ لقيادة طائرات أمريكية داخل مبانٍ مليئة بالناس الأبرياء ولا يظهرون أي ندم».

«إن هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب ستستغرق فترة من الزمن»، أضاف الرئيس. وسيعتبر تصويره للحرب بأنها «صليبية» خطأً فاضحاً بسبب معناها السلبي على نحو خطير في العالم الإسلامي، حيث كانت الصليبية ما زالت ترتبط بغزوات جيوش أوروبا المسيحية في العصور الوسطى. وكان على مساعدي بوش فيما بعد أن يسحبوا هذه الملاحظة ويقدموا اعتذارهم.

وكان بوش مدركاً لمشكلة الاتصالات الجبارة التي كانت تواجهه وإدارته. فلم يكن حادث 11 سبتمبر/أيلول وحسب أكثر الهجمات إماتةً في الوطن الأمريكي ـ وهو يفوق پيرل هاربور في عدد القتلى ـ ولكنه كان أيضاً أكثر اعتداء عنيف مصوَّر بآلات تصوير الأفلام في التاريخ. ومَن يستطيع أن ينسى مشاهدة الڤيديو الواضح، مرة بعد مرة، لطائرة يونايتد آيرلاينز الرحلة رقم 175 وهي تستدير برفق وتشقّ الطابق الثمانين من البرج الجنوبي لمركز التجارة

العالمي، وتضع نارها المميتة هناك، وتكاد تخرج من الناحية الأخرى. ومَن يستطيع أن ينسى صورة الدخان المتصاعد من البرجين التوأمين؛ أو ڤيديو البرجين وهما يتساقطان، الواحد بعد الآخر، وغيمة من الدخان والحطام تخنق مانهاتن السفلى؛ أو صور الناس يقفزون من الطوابق العليا إلى موتهم لتفادي درجة الحرارة التي لا تطاق في الداخل؛ أو اليأس على وجوه جميع الأمريكيين. فكأن الإرهابيين كانوا يدركون تماماً تعطش الأمريكيين إلى كل ما هو مسرحي ودرامي. وبدا أنهم لاحظوا أن لأمريكا إعلاماً ونظاماً خلقياً سيدفعان كل هذه الصور في كل وجهٍ مرة بعد مرة بعد مرة.

وشعر بوش بأنه لن يستطيع تقديم حادثة باهرة موازية للردّ على الهجمات. وسيكون الكثير من حربه ورده غير منظور وسيستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يتحقق.

واستدعى بوش رايس وهيوز وبارتلت ووزير الإعلام آري فلايشر طالباً إليهم الانضمام إليه في مكتبه في الطابق الثاني من مسكنه، وهو المعروف بغرفة المعاهدات.

وقال بوش لهيوز: «أنتِ مسؤولة عن كيفية إيصال المعلومات عن هذه الحرب». فإن الطريقة التي يفسر بها البيت الأبيض أهدافه وتفكيره عن المجهود الحربي هو أمر حاسم لنجاح هذه الحملة ككلّ. وسيكون ذلك أمراً رئيسياً في استمرار ثقة الجمهور بقيادته وفي تماسك التحالف الدولي. وكانت المشكلة أن فريق الاتصالات لن يعرف التفاصيل، خاصة عن العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية، وأن الرد الأمريكي سوف يتأخر.

«كنت أعلم جيداً أنه إذا كان بإمكاننا أن نحشد الأمريكيين لدعم عملية طويلة وصعبة، ستكون وظيفتنا أسهل»، قال بوش فيما بعد». أنا نتاج فترة ڤيتنام. «وأتذكّر رؤساء حاولوا أن يشنوا حروباً غير شعبية أبداً، وهذا أدّى إلى انقسام الأمة». وأشار إلى صورة لآبراهام لينكولن معلّقة في المكتب البيضوي.

«إنه على الحائط لأن مهمة الرئيس أن يوحِّد الأمة. هذه هي مهمة الرئيس. وكنت أشعر أن مهمتي هي التأكد أن الأمريكيين يفهمون. كانوا يفهمون قسوة الهجوم. ولكنني لم أكن متأكداً ما إذا كانوا يفهمون المدة الطويلة التي سيستغرقها الرد على الهجوم ودرجة صعوبة هذا الرد.

وقال بوش لمستشاريه: «سنقوم بمهام تعرّض العسكريين الأمريكيين للخطر. يجب أن نكون حذرين». وأراد بوش أن يشتغل الجميع ـ وزارة الدفاع والخارجية والوكالات الأخرى ـ على نفس الخط. تأكدوا بأن يدكم اليسرى تعرف ما تفعله يدكم اليمنى.

وتكلَّم المجتمعون لمدة ساعة تقريباً، عما كان الرئيس يتوقعه من فريقه للاتصالات. ويتذكَّر مستشاروه الحديث وكأنه من طرف واحد تقريباً. وشدَّد بوش على العوامل غير التقليدية في الحرب ـ دور تطبيق القانون والمشاركة في المخابرات وتعطيل الشبكات المالية للإرهابيين ودور وكالة المخابرات المركزية ثم الضرورة القصوى أن يكون قسم كبير من هذه الحرب غير مرئي.

وطلب بوش من مستشاريه أن يفكِّروا في كيفية تفسير المهمة والمخاطر والوقت الذي قد يحتاج إليه لتتميم هذه الواجبات القادمة. وستكون هناك أجزاء من الحملة لا يمكن أن يتحدثوا عنها، قال مرةً أخرى، ويجب أن يفكِّروا في طرقٍ لعرض كل عناصر الحرب التي يمكنهم أن يتحدثوا عنها، خاصة الجانب المادي والمجهود لاستخراج المال من شبكات الإرهابيين.

وقال الرئيس بإلحاح: «لا يمكننا أن نستمر بتسريب المعلومات. إن هناك أرواحاً في الميزان. رامسفيلد والبنتاغون سيتحدثان عن العمليات؛ ولن يفعل ذلك مسؤولو البيت الأبيض. لن يكون بإمكاننا أن نؤكِّد حدوث بعض الأعمال أو العمليات. إن مهماتكم لن تكون سهلة».

وتذكَّر بوش فيما بعد أنه كان شديد اليقين والوضوح عمَّا كان عليهم أن يقولوه في ذلك الوقت. «إن أمامنا صراعاً صعباً، إنه نوع جديد من الحرب؛

إننا نواجه عدواً لم نواجهه قط في السابق، وإنها حرب على جبهتين في بادئ الأمر: في أفغانستان وفي بلادنا. «وكان عليّ كذلك مسؤولية أن أُظهر عزمي. كان عليّ أن أُظهر للأمريكيين عزم القائد الأعلى للقوات المسلّحة الذي سيعمل كل ما في وسعه لكي ينتصر. لا استسلام. لا مراوغة. لا محاولة في هذا الشأن أو ذاك إلى ما لا نهاية، فنحن ملاحقونهم. ليس هذا وحسب على المستوى المحلي، ليرى الناس في بلادنا عزمنا. إنه أيضاً أمر في غاية الأهمية أن يراقبه بقية العالم». وكان بوش قلقاً بشكل خاص من كيفية تفسير قادة العالم لأعماله». إن هؤلاء الرجال يراقبون كل حركة من تحركاتي. ومن الهام جداً لهم أن يأتوا إلى المكتب البيضوي هذا ـ وهم يفعلون ذلك على نحو منتظم ـ وأن أنظر في عيونهم وأقول: «أنتم إما معنا أو ضدنا».

وقاطع بوش اجتماعه مرتين للتحدث مع قادة أجانب، بمن فيهم الرئيس المكسيكي ڤيسانت فوكس. وكان بوش قد زار مزرعته بعد وقت قصير من تسلمه الرئاسة. وبينما كان صاحبا المزرعتين يتحدثان، انتقل بوش إلى الكلام بلهجة الغرب الأمريكي القديمة: «مطلوب حياً أو ميتاً. هذا ما أشعر به»، قال بوش.

وأنهى بوش اجتماعه مع فريقه للاتصالات وطلب من رايس أن تبقى بعد أن يخرج الجميع.

«إنني أعلم ما أريد أن أفعله، وسأقوم به غداً في اجتماع مجلس الأمن القومي»، قال لها. وأملى عليها لائحة من الأعمال التي سيأمر بها صباح اليوم التالي.

وعادت رايس إلى مكتبها لتكتب صفحة واحدة عبارة عن ملخص للنقاط الـ 11 ـ وهي خطة حرب على ورقة واحدة.

ويوم الاثنين الواقع في 17 سبتمبر/ أيلول، وفي الساعة التاسعة و35 دقيقة صباحاً، اجتمع بوش بمجلس الأمن القومي في غرفة الوزارة، وهي غرفة

تشرف على حديقة الورد، وتشبه مكتبةً في شركةٍ محترمة للمحاماة. وكان هناك في منتصف الغرفة طاولة اجتماعات كبيرة متينة بيضوية الشكل مصنوعة من خشب الماهوغاني، وهي هدية من الرئيس نيكسون سنة 1970.

ولم يكن واضحاً للآخرين ما تمخضت عنه بوتقة الاختبار في كامپ داڤيد. وافتتح بوش الجلسة ذلك الصباح. «إن هدف هذا الاجتماع هو تعيين المهمات للجولة الأولى من الحرب ضد الإرهاب»، قال بوش، «وهي تبتدئ اليوم».

ووافق بوش على كلٍّ من طلبات تينيت لتوسيع دور الوكالة، فيما رفض معظم جهود رامسفيلد للتراجع. إن مرؤوسي وكالة المخابرات المركزية سيكون لديهم السلطة للعمل سرياً.

«أريد أن أوقِّع على بحث اليوم»، قال الرئيس: «أريد وكالة المخابرات المركزية أن تكون الأولى على الأرض».

«وإن النائب العام ووكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيق الفيديرالي سيعاونون في حماية أمريكا من هجمات أخرى». وكانت هذه السياسة الجديدة تشدِّد على المبادرة المسبقة بالنسبة للهجمات المستقبلية، بدلاً من التحقيق وتجميع البراهين والمقاضاة. وأمر بوش من آشكروفت أن يطلب صلاحية قانونية جديدة من الكونغرس تسمح لمكتب التحقيق الفيديرالي بملاحقة الإرهابيين واستراق أسلاكهم وتوقيفهم. وكان هذا المشروع قد بُدئ به سابقاً.

وقال الرئيس لرامسفيلد: «إننا بحاجة إلى خطط لحماية القوات الأمريكية وتجهيزاتها في الخارج. على وزير الخارجية أن يصدر إنذاراً ضد الطالبان اليوم»، قال الرئيس مخاطباً پاول، وكأنه ينج بأوامره. يريد شيئاً ينذرهم بأن يسلِّموا بن لادن والقاعدة التابعة له، وإلاّ فإنهم سيتحمَّلون العواقب».

«فإذا لم يمتثلوا، فإننا سنهاجمهم»، قال بوش. «إن هدفنا ليس تدمير الطالبان، ولكن تدميرهم قد يكون نتيجة لذلك».

«سنهاجم الصواريخ بقاذفات القنابل وبالأحذية على الأرض»، قال الرئيس، وهو يختار أوسع خيار لشلتون. «فلنضربهم بشدة. نريد أن نشير بأن هناك تغييراً عما كان عليه الأمر في الماضي. نريد أن نتسبَّب في جعل دولٍ مثل سوريا وإيران تغيِّر آراءها. ونريد أن نضرب بأسرع ما يمكن».

«وعلى البنتاغون أن يطوِّر ويقدِّم خطة مفصَّلة»، قال الرئيس. ولكنه كان من الواضح أن بعض الأسئلة الأساسية حول العملية ـ وهي أسئلة كان رامسفيلد قد أشار إليها قبل ستة أيام ـ لم تكن قد حُلَّت بعد. وكرَّر بوش هذه الأسئلة: ما هي الأهداف وكم تحتاج من الوقت، أي من القوى الحليفة نريد؟ كيف؟ ماذا يحدث في الجولة الأولى؟ وماذا بعد ذلك؟

وضع الرجال على الأرض قبل إطلاق القنابل على أفغانستان فكرة جيدة. «سنمطرهم بجهنم رهيبة، وعلينا أن نعرِّض الأرواح للخطر. يجب أن نضع رجالاً على الأرض».

وكان پاول قد تفاجأ بعض الشيء بأن بوش كان يريد أن يعطي الطالبان إنذاراً فورياً. وكان ذلك الوقت ليلاً في جنوب آسيا. وبما أنه لم يكن للولايات المتحدة علاقات ديبلوماسية مع الطالبان، فإن أي رسالة خاصة يجب أن تُرسَل من خلال حكومة باكستان.

وكانت هناك تعقيدات. كان على پاول أن يكتب الإنذار، وكان على كل شخص أن يفهم العواقب. وكان پاول قلقاً مما قد يحدث في باكستان. كان عليهم أن يُحكموا إغلاق سفاراتهم ويتكلَّموا مع حلفائهم. «أحتاج إلى ساعةٍ لأُفكِّر في الأمر، وما إذا كان علينا أن نؤجِّل هذا الموضوع إلى صباح الغد»، قال الوزير.

ووافق بوش، ولكنه تطلَّبَ أن تكون اللغة قاسية: «أريد أن أجعلهم يرتجفون في أحذيتهم».

وقال بوش إنه يريد خطة لحفظ الاستقرار في باكستان وحمايتها من عواقب تأييدها للولايات المتحدة.

وبالنسبة لصدام حسين، أنهى الرئيس الجدل: «أعتقد أن العراق متورِّط، ولكنني لن أضربهم الآن، ليس لديَّ البراهين في هذه النقطة من الزمن».

وقال بوش إنه يريدهم أن يستمروا في العمل على خطط للعمل العسكري في العراق، ولكنه قال بأن هناك الكثير من الوقت لإنجاز ذلك. غير أن كل شيء ما عدا ذلك يجب أن يُنجز سريعاً.

«ابدأوا الآن»، قال الرئيس. «إن التحرك بسرعة أمر هام جداً. هذه طريقة جديدة».

وقال شلتون إنه يحتاج إلى ما بين أربعة أيام إلى أسبوع للإعداد لنقل الجنود والمعدات جواً، بحيث يمكن دفعهم إلى الحدود الأفغانية. أما وَضع جنود القوات الخاصة في مواقعهم فإنه سيحتاج إلى وقت أطول.

وقال رامسفيلد: «هذه لعبة شطرنج وليست لعبة داما. علينا أن نفكِّر بما يتجاوز الخطوة الأولى». وكان يفكِّر أن الوضع يشبه لعبة شطرنج ذات ثلاثة أبعاد. وقد ذَكَّره بلعبة قديمة كانت تُلْعَب في محطات الوقود وتكلِّف ربع دولار، ويُستخدم فيها مجموعة من المسَّاكات والوصلات المحددة التي يجب أن تُعالج ببراعة للفوز بالجائزة.

وماذا بعد حملة الضرب بالقنابل لمدة 10 أيام؟ ماذا يمكن أن يحدث ليغيِّروا آراءهم على وجه الاحتمال؟ ما هي أسوأ الأشياء التي يمكن أن تحدث؟ وما هي أحسن الأشياء؟ في بعض الأحيان قد تتقدم الحملة العسكرية بسرعة

زائدة عن اللزوم، ولذلك يجب أن يكونوا مستعدين للتجاوب إذا سارت الأمور بأحسن مما كانوا يظنون.

وكانت هذه أسئلة جيدة، ولكن ميل رامسفيلد للتنظيم الفكري كان يخفي خيبة أمل واقعية. وكما كان يعلم كبار مساعديه، كان رامسفيلد قلقاً من أن القوات العسكرية، وخاصة الجنرال فرانكس، لم تكن «تنظر بعدوانية كافية إلى خيارات عدوانية». بتعبير موجز لأحد مساعدي رامسفيلد.

وذهب الرئيس بعد ذلك إلى البنتاغون لتلقّي التقارير المفصّلة عن العمليات الخاصة. وكان برنامجه الأصلي يقضي بأن يزور فورت براغ في ولاية كارولينا الشمالية التي كانت منزلاً للقوات الخاصة ودِلْتا، وهي الوحدة النخبوية الخاصة بإنقاذ الرهائن. ولكن الرحلة أُلغيت بسبب القلق من أن وجود الرئيس هناك يشير إلى الوجهة التي تنتهجها المخططات.

وكان جنرالٌ بنجمتين قد أُرسل من تلك القيادة لإعلام بوش ورايس وفرانك ميلر، وهو العضو الأعلى رتبةً في مجلس الأمن القومي لقضايا الدفاع. وميلر هذا، الذي كان قد عمل تحت إمرة تشيني في البنتاغون على خطط الحرب النووية، كان يعلم أن ضباط العمليات الخاصة صنف منفصل. وقام بمراجعة الشرائح الفوتوغرافية السرية.

وكان عنوان إحدى الشرائح عن العمليات المحتملة في أفغانستان: «التفكير خارج العلبة ـ تسميم إمدادات الطعام».

وكاد ميلر يتقيّأ، وأرى رايس الشريحة. إن الولايات المتحدة لا تعرف كيف تعمل هذا، وذكّرها ميلر، وليس هو مُباحٌ لنا. سيكون هجوماً كيماوياً أو بيولوجياً، وهذا ممنوع بصورة واضحة في المعاهدات التي كانت الولايات المتحدة قد وقعتها.

وأخذت رايس الشريحة إلى رامسفيلد وقالت: «إن هذه الشريحة لن

تُعرض على رئيس الولايات المتحدة. إن هجوماً بالسم كان بالضبط ما يخشون من بن لادن. فكيف يُتصوَّر أن يتخيل أحد تبنّي طرق بن لادن ثم عرض الفكرة على الرئيس؟

«أنت على حق»، قال رامسفيلد لرايس. وقال مسؤولو البنتاغون فيما بعد إن فحصاً داخلياً لمح الشريحة المزعجة، وأنه كان من المفروض ألاّ تُعرض أبداً، ولكن جلسة الاستماع إلى التقارير كان على بعد دقائق فقط عندما رأى ميلر الشريحة.

وبعد ذلك، خاطب الرئيس حوالي 35 ألف جندي احتياطي كانوا قد استُدعوا للخدمة. كما أجاب على أسئلة من الصحافيين.

«هل تريد بن لادن ميتاً؟»

«هناك لافتة قديمة في الغرب الأمريكي، كما أتذكر، مكتوب عليها مطلوب ميتاً أو حياً»، أجاب بوش.

وكان عليه أن يوقّع في ذلك اليوم على وثيقة ترخّص للعمل السري والعلني الهادفين إلى القبض على بن لادن أو قتله. وقد قال بوش فيما بعد إنه استعمل تلك اللغة لكي يعرِّف العامة وجهة سيره.

في كثير من الأحيان تخرج إلى هنا وأنت تعلم أن شيئاً ما سيحدث، أو أنك تفكّر بشيء معني، فذكر بوش فيما بعد. «وتُسألُ سؤالاً فيخرج الجواب عليه تلقائياً فجأة. أنا لست شديد الحذر بهذا المعنى أحياناً. لقد كان في كلامي بعض التبجح، ولكن كلامي أشار أيضاً إلى فهم معيّن للدفاع عن أمريكا، إلاّ أنني قد اتخذت قراراً بحماية أمريكا يعتبر فيه «حياً أو ميتاً» أمراً مشروعاً.

وعندما شاهدت لورا بوش الأخبار، لم تكن سعيدة على الإطلاق. قالت له «لطّف لهجتك يا عزيزي».

ولكنها قالت إن بوش لم يلطِّف لهجته. «وكان عليَّ أن أكرِّر ذلك بين الفينة والفينة».

بعد ظهر ذلك اليوم قُدِّمت في البيت الأبيض وثيقتان للرئيس للتوقيع عليهما. وكانت إحداهما مذكرة إشعار تُعدِّل المذكرة التي وقَّعها الرئيس رونالد ريغان في 12 مايو/أيار سنة 1986.

وأعطت المذكِّرة الصلاحية لكل الخطوات التي كان تينيت اقترحها في كامب داڤيد. وأصبح لوكالة المخابرات المركزية الآن القوة لتعطيل شبكة القاعدة وغيرها من شبكات الإرهاب العالمية على مستوى العالم كله، مستعملة في ذلك العمل السري المميت، وذلك لإبقاء دور الولايات المتحدة خفيّاً.

وكانت المذكّرة أيضاً تعطي الصلاحية لوكالة المخابرات المركزية للعمل بحرّية وبكامل طاقاتها في أفغانستان عن طريق الفرق شبه العسكرية الخاصة بها وضباط الحالات الخاصة وطائرات البريداتور التي قد أُمُدَّت بالسلاح حديثاً.

أما الوثيقة الثانية، البالغة صفحتين ونصف، فكانت تحتوي على الأوامر وخُطى العمل الموجهة إلى وزارة الحرب والوكالات، تلك التي كان بوش قد قدَّمها صباح ذلك اليوم. ودعت الأوامر إلى الضغط المالي والعمل الديبلوماسي والتخطيط العسكري والعمل السري. وقد صُنِّفت ببالغ السرية / بيرل. وكانت «بيرل» كلمة شفرية اختيرت دون هدف معيَّن كاسم للمدخل الخاص بالأدوار الأولى من الحرب، وكان من المفترض ألاَّ يرى هذه الوثائق سوى الأشخاص المذكورة أسماؤهم على لائحة محصورة.

وفي منتصف الصفحة الثالثة، خربش الرئيس توقيعه بخطه المميَّز: «جورج و. بوش».

* * *

ويوم الثلاثاء في 18 سبتمبر/أيلول، أحيا الرئيس بوش ونائب الرئيس

تشيني ذكرى اليوم السابع منذ الهجمات الإرهابية بدقيقة صمت على مرجة البيت الأبيض، ثم اجتمعا بمجلس الأمن القومي. وأخبر تينيت المجموعة بأن الوكالة سترسل أول فريق عسكري إلى أفغانستان للعمل مع الحلف الشمالي. وسيستغرق نزول الفرق إلى أرض أفغانستان ثمانية أيام، ولكن تينيت قال: «لقد بدأنا خطتنا».

ونقل رامسفيلد أن التخطيط العسكري يحرز تقدماً. وقال له بوش إن ترك الخيارات مفتوحة أمر هام ولكنه ليس نقطة التركيز الرئيسية.

«إن قمة الأولويات هي هزّ شجرة بن لادن».

وبعد اجتماع مجلس الأمن القومي، اجتمع الرئيس بهيوز وفريقه لكتابة الخطابات للنظر في الخطاب الذي كان سيلقيه في جلسة مشتركة لفرعي الكونغرس. ولم يكن راضياً عن المسودة الأولى، وكان راغباً في أن يختم الخطاب بتعهّد شخصي للشعب الأمريكي بخاتمةٍ على نمط: إن هذه هي مهمتي، وهدفي؛ إن هذا هو هدف الأمة». إن هذا ما يشكّل رئاستي».

وقال لفريقه إنه يريد أن يوصِل للشعب بأن الحرب على الإرهاب ستنفد طاقاته طوال رئاسته، وأنه يتعهد تعهداً شخصياً للشعب الأمريكي بأن يرى نهاية الإرهاب، مهما طال الزمن.

وأصبح الخطاب وسيلة بيانية لوصف مدى الحرب الشاملة على الإرهاب ـ على الأقل بلغة مبطنة.

وأحضرت رايس مسوّدة وزارة الخارجية للإنذار الموجّه إلى الطالبان. وعندما قرأها بوش، بدأ يفكّر أنه من الأصوب أن يضمّن الإنذار في خطابه بدلاً من أن يجعله صادراً عن وزارة الخارجية. إن الإنذار سيكون أرجح وزناً إذا جاء مباشرة من الرئيس وسيصبح عنواناً رئيسياً في وسائل الإعلام.

في حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً من تلك الليلة، اتصل بوش

بمايكل جيرسون، رئيس كتّاب خطاباته. وكان جيرسون قد وصل لتوه إلى الطريق الخاصة بمنزله في ضواحي ڤيرجينيا. ولم يكن معتاداً أن يكلِّمه الرئيس في هذا الوقت المتأخر من المساء، ولكنهما راجعا مسوَّدة الخطاب لمدة نصف ساعة، اقترح بوش خلالها 24 تغييراً.

* * *

وطار آرميتاج وكوفر بلاك إلى موسكو لطلب المساعدة من كبار الديبلوماسيين وضباط المخابرات الروس.

«نحن في حرب»، قال بلاك للروس. «نحن قادمون. ومهما فعلتم، فنحن قادمون على أي حال». وكان بلاك يعلم أن أفغانستان تقع في منطقة نفوذهم وأنهم سيشعرون بالقلق. نريدكم أن تنظروا إلى ما نؤديه على أقلّ ما يكون». ولم يكن بلاك يريد من الروس أن يحاولوا تخريب عمليات وكالة المخابرات المركزية. «ومن موقعي المتواضع أعتقد أن هذه فرصة تاريخية. لنخرج من القرن الماضي إلى القرن الجديد».

وأشار الروس إلى أنهم على استعداد للمساعدة وأنهم حتماً لن يعوّقوا أعمال الأمريكيين. ولاحظ أحدهم أن أفغانستان سماءٌ من الكمائن، دَمَّر فيه مقاتلو العصابات الجيش الروسي. «مع الأسف»، قال الروسي: «عليَّ أن أقول إنكم ستجابهون حقاً وضعاً جهنمياً هناك».

«سنقتلهم»، أجاب بلاك: «سنضع رؤوسهم على العصي. سنهزّ عالمهم».

وأرسل الروس عاجلاً فريقاً إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لتزويدهم بمخابرات على الأرض واسعة جداً، خاصةً فيما يتعلّق بطوبوغرافية الأرض والكهوف في أفغانستان.

واجتمع مجلس الأمن القومي صباح يوم الأربعاء في 19 سبتمبر/ أيلول

في فرعه الواقع في البيت الأبيض. وطلب بوش تأكيدات بأن المسؤولين الأمريكيين قد ألحّوا بوضوح على نظام الطالبان أن يطلقوا سراح امرأتين أمريكيتين شابتين كانتا من عمال الإغاثة وقد أُخذتا كرهينتين.

وحث الرئيس پاول ورامسفيلد على التشديد في تقاريرهما الإعلامية على أن التحالف الدولي سيتغيّر مع تغيّر متطلبات المجهود الحربي، وأنه سيُطلب من البلدان تقديم إسهامات مختلفة، وأن هذا التحالف لن يكون تحالفاً واحداً عظيماً ثابتاً.

وقال پاول: «لن نطلب من شركائنا في التحالف ما لا يستطيعون تقديمه، ولكن لا يمكن للدول أن تقول إنها ضد الإرهاب هنا ومع الإرهاب في ديارها».

وقال إنهم بحاجة إلى بناء حجج مقنعة تبيِّن أن القاعدة مسؤولة عن الهجمات.

«ولكن ليست حججاً قانونية»، ردَّ رامسفيلد. «إنها غير مرتبطة بالحدث». فالموضوع لم يكن أعمالاً إرهابية معينة. وكانوا يعلمون أن القاعدة تؤمن بالإرهاب. وقد قال ذلك بن لادن وغيره علانية عدة مرات. سُجِّلت ضدهم في السابق المقاضيات والاتهامات الجنائية الفيديرالية.

إن بعض البلاد تخاف.

لديها منطلقات أخرى. وستقول الصحافة إن التحالف ينهار إذا لم يكن هناك برهان يؤيد قضيتنا».

وسأل ستيف هادلي، «هل إيران في التحالف؟»

وقال رامسفيلد: «إن التحالف ليس تحالفاً واحداً».

وقال تينيت: «قد يكون الصمت أكثر وعيداً أحياناً». والامتناع عن قول شيء قد يقلق الإيرانيين أكثر من أي شيء آخر.

وسألت هيوز ذلك الصباح كارد ورايس ما إذا كانا يظنان أن الرئيس قد قرّر أن مسودة الخطاب جيدة بدرجة كافية. وكان رأيها أن المسودة ما زالت بحاجة إلى الكثير من العمل. ووافقت رايس وقالت إنها سترسل اثنين من كبار موظفيها للعمل مع هيوز.

وبالرغم من أن تصريحات الرئيس كانت مشوبة بالعاطفة طوال الأسبوع، فقد شعر الرئيس أن كُتّاب خطبه لم يضمّنوا خطابه البساطة والمباشرة التي كان يتشوّق إليها في الخاتمة.

وسأل الرئيس: «هل تسمعونني؟»

وحوالي الساعة 11 ونصف صباحاً، اتصل جيرسون هاتفياً بهيوز ليقول لها إنه سيُحضر مسودة منقّحة إلى مكتبها. وراجع جيرسون وهيوز هذه المسودة معاً سطراً سطراً ثم قرّرا أنهما جاهزين لعرضها على الرئيس. وحوالي الساعة الواحدة والربع بعد الظهر، دخلا المكتب البيضوي.

«إنكما تبتسمان»، لاحظ بوش، «هذا حسن».

وبدأ بقراءة الخطاب بصوتٍ عالٍ، وعندما وصل إلى الزيادة الأولى سأل: «هل أنتم بصدد مجرد وضع أشياء في الخطاب وحذفها؟» ووصل إلى نقطة أخرى، وقال: «إن هذه مختلفة. مَن وضعها؟ هل أنتم مجرد إضافة أشياء إلى هذا الخطاب دون حزم وتقرير؟

«كلا»، قالت هيوز: «كان عليَّ أن أستعمل اجتهادي، بما أنك كنتَ في اجتماع».

وأجرى بوش بعض الاقتراحات وهو يقرأ، ولكنه عندما انتهى قال، «إن هذا جهد عظيم. لنذهب ونخبر الكونغرس».

فيما بعد، وفي الساعة السادسة مساءً والدقيقة 25، ذهب بوش إلى مسرح البيت الأبيض للتمرين وهو يرتدي جاكيت مصنوعة من النايلون للرياضة.

وفي الساعة السابعة مساءً، اجتمع بوش بوزارته للحرب. وقال رامسفيلد أن الخطاب يجب ألاّ يُفرد بن لادن باللائمة لأن ذلك يؤدي إلى خطر الرفع من شأن بن لادن وتضييق قاعدة التأييد للحملة ضد الإرهاب. وأجابت رايس بأن القرار كان قد اتُخذ بذكر بن لادن مرة واحدة.

ولم يكن هناك قضية أخرى تحتاج إلى الحل. وكان مستشارو بوش أكثر من أي شيء آخر قد تناقشوا حول المقطع الذي يحذر البلاد التي تدعم الإرهاب. وكانوا قد بحثوا عن صياغة توضح المبدأ الذي كان بوش قد عبّر عنه في كلمته ليلة الهجمات، وذلك بأن الولايات المتحدة لن تميز بين الإرهابيين والذين يؤوونهم.

أي دولٍ أخرى يمكن أن يَسْتَهدفوا بعد حملتهم الأولى؟ وما هي القواعد الجديدة التي تُقاس بها تصرفات البلدان التي لها تاريخ في رعاية الإرهاب؟

وكان پاول ورايس يعتقدان أن الصياغة الحالية كانت حادة فوق اللزوم. وكانا يريدان أن يعطيا البلدان فرصة للتحلل من الماضي. وقد وافقا أنه بإضافة كلمتي «تستمر في» إلى الجملة، كانوا يعرضون مكافأة فمن دون التغيير، فكّر پاول، ستشن أمريكا الحرب على الجميع.

«لدينا تهديدات بهجوم إرهابي وشيك»، أعلن تينيت في بداية اجتماع مجلس الأمن القومي صباح يوم الخميس. وكانت تلك أخباراً مفزعة، خاصةً لأن برنامج الرئيس كان يقضي بمخاطبته الكونغرس تلك الليلة. وأشارت المخابرات أن أفراداً من أكبر أعضاء القاعدة، بمن فيهم جنرالات رئيسيون لـ بن لادن، يشيرون إلى هجومٍ كبيرٍ سيحدث خلال اليومين القادمين. وكان هذا نفس النوع من ثرثرة المخابرات التي كانت قد شوّشتهم قبل 4 يوليو/ تموز، حين لم تكن هناك هجمات، وقبل 11 سبتمبر/ أيلول.

وقال تينيت للرئيس إن أول فريق شبه عسكري تابع لوكالة المخابرات المركزية سيصل إلى أوزباكستان يوم الجمعة وإلى شمالي أفغانستان يوم الأحد.

«احترس من إثارة التوقعات الكاذبة، ومن عدم التمييز بين هزيمتهم مقابل هزيمة قدرتهم على تهديد طريقة معيشتنا قال رامسفيلد. وكانت تلك صيغة حذرة بل دقيقة لطيفة. لم تكن هناك طريقة لإيقاف الإرهاب بكلِّيَّته، ولكن من الممكن الحدّ منه إلى المستوى الذي يسمح باستمرار طريقة المعيشة الأمريكية. وباستعمال هذا «المقياس»، يصبح من الأسهل توضيح الخطوط على المدى القصير والبعيد أيضاً. وكان رامسفيلد قلقاً بأن يبدو الكلام طموحاً أكثر من اللزوم.

ولكن بوش أصرّ أنه لم يخفّف من لهجة تصميم أمريكا على الانتصار في الحرب. سنهزم أعداءنا، وسنرسم نمطاً للرؤساء القادمين، قال بوش. «بعد سنتين من الآن، قد لا يكون معنا سوى البريطانيين».

وأثار رامسفيلد احتمال استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد الولايات المتحدة. «إن هذا منشّط للأمريكيين»، قال رامسفيلد. «إنه وضع مختلف تماماً عن أي وضع واجهناه في الماضي». هل يجب أن يثير الرئيس هذا الموضوع في خطابه؟

«لقد حذفتُهُ»، قال بوش مباشرةً، «من شأنه أن يهيمن على الخطاب كله يجب أن نُطلع الأمة على هذا الموضوع، بالتأكيد، في نقطة معينة من الزمن. ولكنني حذفتها. وستبقى محذوفة. لقد فكرت ملياً وطويلاً فيها».

وكان واضحاً «أن بوش كان خائفاً من إلقاء الرعب في قلوب الناس بعد مجرد 9 أيام من الهجمات المروّعة، ولذلك قال إنه سيتكلم عن هذا الموضوع لاحقاً، ربما عندما تكون لديهم معلومات أفضل».

وأضاف: «سأضعه في نطاق الاستراتيجية ككل»، تابع بوش. «عليّ أن أكون متأكداً، عليّ أن أكون أميناً، ولكنني لا أعلم أن عليّ في أن أكون أميناً إلى درجة القساوة».

وذكر رامسفيلد أن هناك طلباً روتينياً ما زال معلّقاً لضرب بعض الأهداف العراقية ـ وهو مجهود عمره 10 سنوات، الغرض منه فرض عدم الطيران بالقوة في مناطق من العراق عُيِّنَتْ بعد حرب الخليج.

«إذا قمتَ بضربةٍ قرب بغداد، وأدار ذلك كل [أجهزة] الإنذار في بغداد، فإن وضوح المهمة يصبح مشوشاً»، أجاب بوش. وقد يظن العراق والعالم بأن الضربة ذات علاقة بالرد على 11 سبتمبر/ أيلول. «يجب أن نتمتع بالصبر بشأن العراق».

وأخذ بوش قيلولة قصيرة بعد الظهر وهو ينتظر رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير Blair وكان بوش قد دعا بلير إلى البيت الأبيض للعشاء وكضيف متميز لدى إلقائه خطابه أمام الكونغرس. وكان بلير قد قَبِل الدعوة بالرغم من بعض القلق في بريطانيا بشأن ما سماه أحد المسؤولين «عامل كلب البودل» ـ الخشية من أن رئيس الوزراء قد يظهر بمظهر التابع أو الذيل للرئيس الأمريكي. ولكن بلير رأى في الدعوة فرصةً أخرى للتعبير عن تضامنه مع بوش وللتعرف مباشرةً ـ وهذا أهمّ ـ كيف تطور تحضير الأمريكيين للحرب.

واجتمع بوش وبلير على حدة في الغرفة الزرقاء لمدة عشرين دقيقة. وبسط بوش خطته، بما في ذلك استعمال القوات الأمريكية في أفغانستان. «القوة الكاملة لقوات الولايات المتحدة العسكرية» قال بوش لـ بلير «وقاذفات القنابل آتية من جميع الجهات».

وقال بلير كما نقل عنه بوش، «إنك لا تبدو قلقاً أو مضطرباً على الإطلاق. ألا تحتاج لأن تقضي بعض الوقت منفرداً»؟

وقال بوش لـ بلير، «أعرف تماماً ما أحتاج أن أقوله وكيف أقوله وماذا أفعل».

وقال بوش فيما بعد، «أظن أنه استغرب ذلك قليلاً. عليك أن تتذكر أن

كل خطاب من الآن فصاعداً هو (خطاب حياتي). . . لقد استمعت إلى ستة من هذه الخطابات من بعض مستشاريّ المؤتمنين. وهكذا أصبح لدي مناعة لخطاب (خطاب حياتك)».

وشاهد خطاب الرئيس أكثر من 80 مليون أمريكي على التلفاز.

* * *

«نحن الليلة بلد أفاق على الخطر واستُدعي للدفاع عن الحرية»، قال بوش، فيما كانت الطائرات العسكرية تحلق فوق مبنى الكابيتول. «إن حزننا قد انقلب إلى غضب، وغضبنا تحوّل إلى قرار. وإذا جلبنا أعداءنا إلى العدالة أو جلبنا العدالة لأعدائنا، فإن العدالة ستسود».

سنوجه كل طاقة تحت تصرفنا، قال بوش، «كل وسيلة للديبلوماسية، وكل أداة للمخابرات، وكل آلة لتطبيق القانون، وكل نفوذ مالي، وكل سلاح ضروري، لتعطيل شبكة الإرهاب العالمية وهزيمتها».

ووصف بوش طبيعة هذه الحملة غير العادية لتبيين التغير الكبير الذي طرأ على سياسة الولايات المتحدة. «إن ردّنا يتضمن ما يتجاوز كثيراً الانتقام الفوري والضربات المنعزلة»، قال الرئيس. «يجب ألاّ يتوقع الأمريكيون معركة واحدة، بل حملة طويلة لا تشبه أية حملة قد شاهدناها من قبل. إنها قد تتضمن ضربات دراماتيكية تشاهدونها على التلفاز وعمليات سرية، سرية حتى في نجاحها». وحثّ الرئيس الأمريكيين قائلاً: «عيشوا حياتكم واحتضنوا أطفالكم»، كما طلب «الصبر» من أجل الصراع الطويل الآتي في المستقبل.

وأخذ على نفسه عهداً: كان عمل عليه حتى يصبح ممتازاً «لن أنسى هذا الجرح الذي أصاب بلدنا ولا الذين قاموا به»، قال الرئيس. «لن أستسلم؛ لن أستريح؛ لن ألين في شن هذه المعركة من أجل تحرر الأمريكيين وسلامتهم».

وقال التصفيق كالرعد.

وكان من المستحيل أن ترى من على المنبر كيف كانت ردة الفعل على الخطاب، تذكر بوش. «لا أعرف كيف كانت تسري تلك الأمور. أنا في وسط الدوامة، كما يقولون، عندما أخطب.

وقال: «لقد أدركت بالفعل مدى رغبة أمريكا بأن تُقاد عندما أوقفوا لعبة الهوكي في فيلادلفيا»، لقد طلب الهواةُ أن يتمكنوا من مشاهدة خطاب الرئيس على شاشات الڤيديو المعلقة في الملعب الرياضي. وأوقف المسؤولون اللعب، وحث اللاعبون حول مقاعدهم للمشاهدة أيضاً.

«كان شيئاً لا يُصَدّق»، قال بوش. «وقد أرادوا، أرادوا ألاّ تستمر اللعبة. أرادوا أن يستمعوا إلى ما يقوله القائد الأعلى للقوات المسلحة، رئيس الولايات المتحدة، في تلك اللحظة».

واتصل بوش هاتفياً بجيرسون. ويتذكر الرجلان كلمات الرئيس: «لم أشعر طوال حياتي بمثل هذا الارتياح».

وكان بوش على وشك أن يعرف أنه عندما تصل الأمور إلى تطبيق تصريحاته الجريئة، فإن الأحوال ستكون أقل راحة وأكثر صعوبة.

8

«إن تسرُّب المعلومات سيقتلنا وسيقوّض تحالفنا»، قال تينيت بغضب في بداية اجتماع مجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم الجمعة الواقع في 21 سبتمبر/ أيلول. وكان قلقاً بالذات على أوزبكستان التي كانت تسمح سرّاً لطائرات البريداتور التابعة لوكالة المخابرات المركزية أن تطير من أراضيها. وكان من السهل أن يستعمل الرئيس إسلام كاريموف التسرب كمسوّغ للتحلل من موقفه.

ويمكن أن تصبح الدول الأخرى التي تقدم العون في الحرب أو سيُطلب منها المعاونة فيه أن تجفل، أو ترفض المساعدة، تاركةً وكالة المخابرات المركزية والپنتاغون مُهْمَلَيْن.

وفي الأيام العشرة التالية للهجمات على نيويورك وواشنطن، وضعت وسائل الإعلام طاقاتها بشكل ليس له مثيل في السابق لتغطية كل زاوية من القصة. وكان الصحافيون والمحرّرون والمنتجون ينقبون في المصادر القديمة والجديدة ويلاحقون الأقنية الخلفية للحصول على غَرْفة من المعلومات. وأصبح الشَّغَف حتى القمة من المعلومات الجديدة أكثر حدّة بسبب ضغوط التزويد بالأخبار على مدى 24 ساعة في اليوم، ـ ويؤكد ذلك الشريط الزاحف من الأخبار المكتوبة في أسفل الصور في ستة أقنية للأخبار المتلفزة. وكانت

المخططات العسكرية السرية أو المخابرات أو التحركات الديبلوماسية تشكّل أحسن الغُرَفات.

«سأقرأ قانون الشغب على موظفينا»، قال تينيت.

«يجب ألاّ نضع بعض الأمور الأكثر حساسية على الورق»، قال بوش، وليذهب التاريخ إلى الجحيم. وماذا سيحدث إذا صار السجلّ غير كامل. كان بوش مصمماً على عدم تعريض المهمة للخطر.

وانتقلت المجموعة إلى مناقشة آخر المخابرات عن موقع بن لادن. ومع أن الإدارة كانت تحاول أن تحط من أهمية بن لادن، فقد كان بوش يفهم القيمة الرمزية للإمساك به. كان يريد بن لادن بشدة.

ولكن مرة أخرى كانت المخابرات في هذا المجال خفيفة، ولم يكن لدى تينيت أية أخبار ذات شأن.

وقال لهم الرئيس إنهم بحاجة لأن يجدوا طريقة ليُظهروا حدوث تقدّم ملموس في الحرب على الإرهاب، وعلى شروطهم. كان يريد «لوحة تسجيل للإصابات» وسيلةً لقياس ما كان لديهم وما سيحققونه ولتبيينهما بوضوح. لقد كانوا في مرحلة التطبيق، ومع أنهم لن يتكلموا عن الخطط والعمليات، فإن الرئيس كان يريد أن يتكلم عن النتائج. كان يريد شيئاً، على لوحة تسجيل الإصابات. «أريد أن يعلم الناس الذين لهم شأن بالعمليات أنني أراقب الأمور».

ولم يشك أحد في هذا.

وكان وزير المالية پول أونيل حاضراً في الاجتماع بسبب الخطط لتعطيل أموال الإرهابيين حول العالم.

«إننا نحتاج إلى أن نجهز العمليات في هذا المجال»، قال بوش، وهو

يدير خرطوم إطفائه على وزير المالية. «إن تعطيل الشبكات المالية يجب أن تكون أداة في مستودع أسلحتنا. إنه أمر هام. ويجب أن نستعمله».

وأومأت الرؤوس بالموافقة. وأُكِّدت طمأنةُ الرئيس بجوقة من العبارات: «قريباً، سيدي الرئيس؛ على الطريق، سيدي الرئيس» سيكون الإعلان العلني عن الخطط جاهزاً خلال أيام.

وأثارت رايس موضوعاً بالدرجة نفسها من الصعوبة. وقد كانت وكالة المخابرات المركزية توزع كل يوم لائحة شديدة السرية محدودة التداول عن مستوى التهديد تُعدّد فيها أَحدثَ المخابرات الفجّة وأكثرها حساسيةً وتذكر العشرات من التهديدات بالضرب بالقنابل أو بخطف الطائرات أو بغيرها من المخططات الإرهابية. وكان هذا يسبب القشعريرة، إذ كانت اللائحة أحياناً تتضمن مئة تهديد معين للمنشآت الأمريكية حول العالم أو لأهداف محتملة داخل أمريكا ـ سفارات ومبانٍ للتسوق ومُدن معينة وأماكن يجتمع فيها الآلاف من الناس. وكان بعض هذه التهديدات بشكل مخابرات هاتفية مجهولة اسم المتكلم أو بشكل مراسلات إلكترونية تبدو جدية على وجه الاحتمال؛ وكان بعضها الآخر مجرد حالات جنون. ولكن الكثير من هذه التهديدات كان آتياً من أكثر المصادر البشرية حساسيةً ومن معترضات الاتصالات خارج الولايات المتحدة.

وكان النواب يجتمعون كل يوم للبحث في موضوع الأمن الوطني خاصة. وكانت رايس تراقب عملهم عن كثب، ولاحظت أن تقدمهم ضئيل جداً. وكان سبب ذلك أنهم كانوا يحاولون عَمْل الكثير، حلّ المشكلات الكبيرة للأمن، جعل أمريكا صلبة حقاً. ولاحظت أن ذلك مستحيل.

ولخّصت رايس هذه النتيجة لمجلس الأمن القومي. «تأكّدوا أن الأحسن ليس عدوّ الجيد»، قالت رايس. «اعملوا ما يمكنكم الآن من أجل المساعدة في

التقليل من الخطر على الولايات المتحدة». وأن الخطوات التي قد لا تكون مستحسنة على المدى البعيد يجب اتخاذها على المدى القصير، الآن.

وكان الاحتمال بأن تُضرب الولايات المتحدة مجدداً ووشيكاً احتمالاً حقيقياً. ولاحظت رايس بأنه فيما كانت صدمة 9/11 تهمة، فإن الوجهة الطبيعية تقضي بالبدء بتحسينات منهجية شاملة للأنظمة والإجراءات التي استغلها الإرهابيون، خاصة أمن المطارات. وقد يستغرق هذا أشهراً أو سنوات. ويجب أن تكون نقطة التركيز قبل كل شيء على أي إجراءات قصيرة المدى يمكنها أن تمنع هجوماً آخر أو تعطله أو تؤخره.

«لا تنتظروا حتى تصدر دراسات طويلة. سيكون لدينا الوقت الكافي لعمل دراسات»، تابعت رايس. «إن 60٪ إلى 70٪ مما يجب أن تعملوه، يجب أن تعملوه الآن. اذهبوا واعملوه فقط». واقترحت أن يستعملوا بكل بساطة القوة الوحشية، وأن يعززوا الحماية والأمن في كل مكان. وأن وضع الحرس القومي في المطارات يضفي جوّاً من الأمن المضاعف ويجب فحص أكبر عدد ممكن من الطرائد والحاويات التي تأتي إلى موانئ أمريكا.

وكان الواقع أن البلاد مفتوحة وغير حصينة.

وعاد بوش إلى موضوع تمويل الإرهاب. إنه شيء يمكن القيام به فوراً. وكانوا يحتاجون إلى المعاونة الدولية لتعطيل شبكات التمويل، قال الرئيس. «إذا كانت البلدان مترددة، أخبرونا بذلك. ضعوهم على لائحتي للاتصالات الهاتفية».

وبما أن العمليات في الحرب على الإرهاب كانت تبدأ ـ أو ستبدأ قريباً ـ كان بوش يريد من مستشاريه أن يشعروا أن بإمكانهم الاتصال به للمساعدة. وكان قد قدّم مكتبه وهاتفه ونفوذه وكل ما يحتاجون إليه للتحرك في لوائح عملهم. ووجّههم قائلاً: «أعطونا الأمور العشرة الأولى التي تريدوننا أن نقوم بها، وسنقوم بها».

وانتقلوا إلى موضوع الاقتصاد، وكان هذا موضع قلق أيضاً وكانت أسعار الأسهم قد تدهوت طوال الأسبوع منذ إعادة فتح السوق يوم الاثنين، مخفّضةً كلَّ المؤشرات الرئيسية إلى أدنى درجاتها منذ ما يزيد على السنتين. وكان مؤشر الداو جونز للمعدل الصناعي قد هبط تحت 8400 نقطة ـ هابطاً 13٪ في أقل من أسبوع.

وعالج المجتمعون أيضاً باختصار موقع الولايات المتحدة بالنسبة للجمعية العمومية للأمم المتحدة التي كان من المقرر أن تجتمع في نيويورك في الأسبوع التالي، وأن يلقي الرئيس بوش فيها خطاب الترحيب. وكانت الأمم المتحدة قد أجّلت هذا الاجتماع إلى أجل غير مسمًّى لأن طاقات المسؤولين عن الأمن في نيويورك كانت قد استُنزفت إلى أقصى حدّ.

وقُبيل انتهاء الجلسة، عاد پاول إلى أحد موضوعاته المحببة ـ تحالف الأمم التي تقدم العون وستقدمه. وكان واضحاً من الاجتماع أن الحرب على جميع الجبهات ـ العسكرية والمخابراتية والاقتصادية والديبلوماسية ـ كانت تتوقف على وجود شركاء. ووافق پاول على أن الولايات المتحدة لن تغير موقفها ليتلاءم مع ما تريده الأمم الأخرى. «إن التحالف لا يقيد عملياتنا»، قال پاول، وكأنه يكرر إحدى مقولات رامسفيلد.

«إن الحرب هي كما عرّفتها مساء أمس»، أجاب بوش. وكان بوش في خطابه، قد بدا أكثر استعداداً للذهاب إلى الحرب وحده، إذا استدعت الضرورة ذلك. ولكن الانتحاء الأُحادي لديه بدا وكأنه يتراجع. «إن الحرب تحتاج إلى تحالف؛ لا يمكن القيام بها من دونه»، قال بوش مذعناً.

ولكنه عاد سريعاً إلى ما كان يغلب على تفكيره، مضيفاً، «ويجب علينا أن نبدأ بإظهار النتائج».

وأدرك بوش أنه يضغط عليهم. وقال الرئيس فيما بعد أنه كان أيضاً يحاول أن يحميهم. «قلت لفريقنا: (أنظروا، لا تتخذوا قرارات غير سليمة

بسبب الضغط، ولا تقلقوا على كوني أشك بما تقومون به)، قلت لهم (اتخذوا أفضل القرارات التي بإمكانكم اتخاذها، وأنا سأحمي فريقنا بأفضل ما يمكن، وذلك عن طريق تقديم التفسير للجماهير بأن هذا الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً».

وفي لانجلي، استدعى تينيت صفوة الخبراء عن أفغانستان في وكالته ـ من العملاء والمحللين ـ إلى مناقشة عامة في غرفته للمؤتمرات.

كيف نُطلق العمل السري في أفغانستان؟ سأل تينيت.

وقال أحدهم إن القَبَلية سِمَةٌ هامة وغالبة في الحياة الأفغانية. ووافق الجميع. ويتألف الشعب الأفغاني من ست جماعات عرقية كبيرة وعدة جماعات أصغر. وكان تاريخ هذه الجماعات ومطالباتها بالأراضي والنزاعات فيما بينها يعود إلى عدة قرون سابقة، كما أن الخصومات بين الجماعات المتنافسة كثيراً ما تكون قوية ويشكّل الپاشتون خُمْسَيْ سكان أفغانستان، وهم يعيشون غالباً في الجنوب. أمّا الطاجيك، وهم يشكّلون المجموعة التالية للباشتون عدداً، والأوزبك، فهم يعيشون غالباً في الشمال. وكانت الحرب بين الباشتون الشماليين والطاجيك والأوزبك الجنوبيين قد أبقتْ البلاد مستنقعاً من النزاع منذ انتهاء الاحتلال السوڤياتي سنة 1989.

وكان هذا الفراغ هو الذي سمح للطالبان وبن لادن بالتغلب على البلاد.

وحتى داخل المجموعات العرقية، هناك اختلافات قبلية ودينية قد أطلقت شَرَر الضغائن المهلكة. وقد كانت القبيلتان الغالبتان على الباشتون يحارب بعضها بعضاً منذ القرن السادس عشر. وكانت إحدى هاتين القبيلتين قد أيّدت مؤخراً مُلاّ عمر وميليشيا الطالبان، فيما أيّدت القبيلة الأخرى الملك الأفغاني السابق الملك محمد ظاهر شاه.

ثانياً، قال خبراء وكالة المخابرات المركزية، أنه من المهم جعل الحرب حرباً للأفغانيين ضد العرب، وليس حرباً لبعض الغربيين ضد الأفغانيين. وأن

من الضروري جداً أن نصوغ هذه الحرب في قالب حرب للتحرير. إن الأفغانيين يتذكرون مجهود السوفيات المخفق الذي استمر لمدة 10 سنوات والذي كان يرغب في إقامة حكم فاشستي. وإن الآلاف من العرب الذين ولدوا خارج أفغانستان وقدموا إليها للتدريب في مخيمات القاعدة هم الغرباء، والغزاة. وأن الحرب موجّهة ضدهم وليس ضد رجال القبائل الأفغانية من أهل البلاد. ووجد تينيت اتفاقاً إجماعياً تقريباً على هذه النقطة أيضاً.

كيف يمكنهم استعمال القَبَلية لمصلحتهم؟ الجواب: بجعل الأفغانيين يحاربون، وليس يتكلمون وحسب.

وإضافة إلى ذلك، فإن أي عملية أفغانية يجب أن تتكيّف بشكل لا يُصعّب الأمور على الرئيس الباكستاني مشرّف. وقال الخبراء إن بإمكان الولايات المتحدة أن تنجز ذلك بعدة طرق، في مقدمتها تجنُّب تدفق عدد كبير من اللاجئين الأفغانيين إلى باكستان، وإظهار فوائد التعاون للباكستانيين. وكان قد جرى بعض الكلام في ذلك الأسبوع، إنه في مقابل مساعدة الباكستان في الحرب على الإرهاب، بإمكان الباكستان أن تتوقع رفع العقوبات الاقتصادية التي فُرضت عليها سنة 1998 عندما أجرت اختبارات نووية، وأن تتوقع أيضاً صفقة سخيّة من المعونات ومن تخفيف الديون. وكان السكرتير الثاني للشؤون السياسية في وزارة الخارجية، مارك جروسمان، في الكابيتول ذلك اليوم ليُعلم قادة الكونغرس أن الرئيس ينوي رفع العقوبات عن الباكستان.

وقال الكثيرون في الاجتماع إن على الولايات المتحدة أن تشدد على الديبلوماسية العامة، وهو تعبير لطيف لحرب المعلومات أو الإشاعات المنشورة على سبيل الدعاية. والفكرتان الأساسيتان يجب أن تكونا: (1) إن هذه ليست حرباً ضد الإسلام؛ (2) إن هذه ليست حرباً ضد الشعب الأفغاني.

وكانت القاعدة العامة هي دراسة ما كان السوفيات قد فعلوه والتصرف بعكس ذلك.

في الساعة الخامسة والنصف مساءً، اجتمع الرؤساء بواسطة جهاز أمين للاتصال بالڤيديو من دون الرئيس. وكانت كوندي رايس وآندي كارد في كامب داڤيد، حيث كانا يمضيان عطلة نهاية الأسبوع مع الرئيس. واجتمع الآخرون في غرفة المواقع في البيت الأبيض.

وتصفّحوا لائحة من البلدان كانت معهم، وأعطوا تقارير عن موقع الولايات المتحدة بالنسبة لإقامة القواعد وحرية الدخول وحقوق الطيران في هذه البلدان، وكلها كانت ضرورية قبل التمكن من البدء بالعمليات العسكرية. وكلما ازداد تفحّصهم لأفغانستان، كلما بدت أفغانستان أكثر صعوبة: إيران تقع إلى الغرب منها، وثلاث جمهوريات سوڤياتية سابقاً والصين تقع إلى الشمال منها، وباكستان تقع إلى الشرق والجنوب منها. وكان أقرب المداخل المائية إليها المحيط الهندي، ويبعد عنها مئتي كيلومتر. ولم يكن لديهم حلفاء أقوياء في المنطقة المجاورة: ولم تكن لهم علاقات ديبلوماسية مع إيران. لذلك انتقلوا إلى الأمم الصغيرة في الخليج الفارسي: البحرين والإمارات العربية المتحدة وعُمان، على أمل أن تزوّدهم هذه الدول بالأراضي التي يمكن أن تُشَنَّ منها طلعات لقذف القنابل أو غيرها من الأعمال العسكرية الهجومية.

وكانت عُمان تشكل أفضل الاحتمالات. وعُمان بحجم ولاية كانساس، وتقع في مكان استراتيجي على الحد الشرقي من شبه الجزيرة العربية، ولديها شاطئ طوله 1600 كيلومتر على خليج عمان والبحر العربي - على بعد مسافة 450 كيلومتراً يمكن منها ضرب أفغانستان. وكان القائد العماني، السلطان قابوس بن سعيد، وهو ممن درسوا في الأكاديمية العسكرية ساندهيرست في بريطانيا، قد استولى على السلطة من أبيه سنة 1970. وفي سنة 1980، جعل بلاده متاحةً كمنطقة تجمع عسكري للمحاولة المخفقة لإطلاق سراح الرهائن في إيران في عملية دزرت وان. وفي سنة 1998، سمح لقاذفات القنابل الأمريكية أن تضرب العراق من بلاده.

ولكن التقرير الأولي عن عمان كان غير حاسم ـ كان ما زال من غير الواضح إذا كانت عُمان ستسمح للعمليات الحربية أن تنطلق من جزيرة المسيرة التابعة لها والتي تحتل موقعاً استراتيجياً في البحر العربي.

وكان من الواضح أن روسيا ستلعب دوراً رئيسياً. وقسّم الرؤساء مسؤولية العمل مع الروس بشأن القضايا المتصلة بإقامة القواعد في آسيا الوسطى. وكانت الاستراتيجية تقضي بأن «يقوم كل واحد بدور». إن كل واحد من المسؤولين الأمريكيين سيتصل بنظيره الروسي. فعلى پاول أن يتعامل مع وزير الخارجية إيغور إيڤانوف؛ وعلى رامسفيلد أن يتعامل مع وزير الدفاع سيرجي إيڤانوف؛ وعلى رايس أن تتعامل مع المستشار الأمني في الكرملين ڤلاديمير روشايلو.

وأدركت رايس أن المسألة دقيقة وتتطلب الحذر. ذلك أن بعض دول آسيا الوسطى، وهي جمهوريات سوڤياتية سابقة، قد تنزعج من أن الولايات المتحدة تحاول الوصول إليها عن طريق روسيا. وكانت أوزبكستان نافرة من روسيا. ومن ناحية أخرى، كانت طاجيكستان كلياً في المعسكر الروسي، ولن تتحرك دون موافقتها.

وذكّرت رايس المجتمعين برغبة الرئيس أن يقوم بدور أيضاً. «إذا احتجتم أن يتصل الرئيس بوتين، اطلبوا منه ذلك».

في يوم السبت الواقع في 22 سبتمبر/أيلول، سأل الرئيس ما كان مبيناً على «لوحة تسجيل الإصابات».

ونقل ميلر بأن مكتب التحقيق الفيدرالي قد أجرى مقابلات مع 417 شخصاً كجزء من حملته ضد الإرهابيين، وأن 331 شخصاً ـ وهذا رقم مذهل ـ هم على لائحة المراقبة.

ثلاثمئة وواحد وثلاثون شخصاً. وكان العدد شديد الوطأة على نفوسهم. وكان ميلر يقول إنه قد يكون في الولايات المتحدة 15 مرة ضعف عدد

الإرهابيين الذين نفّذوا هجمات 11 سبتمبر/أيلول؟ وكان عليهم أن يفترضوا أن بعض هؤلاء قادر على تنفيذ مخططات مميتة.

وفكرت رايس أن العدد كبير. وكاد قلبها أن يغور. قبل 11 سبتمبر/أيلول، كانوا قد حُذِّروا عن القاعدة في الخارج. ولكن لم يكن هناك أي تحذير مماثل أو تفصيل عن إرهابيين في الولايات المتحدة من جانب مكتب التحقيق الفيدرالي، الذي كانت مسؤولية مكافحة الإرهاب محلياً تقع على عاتقه.

وذكر بوش فيما بعد: «شعرت أنني في القاع. إن هذا كان كثيراً. أتذكر ذلك. إنه رقم لا يصدق».

وقال إنه استمر في المحاولة للحصول على أرقام تدل على حجم جيشهم ـ في أفغانستان وفي سائر العالم وفي الولايات المتحدة.

ومع أن الرئيس كان يلقي بالأرقام علانيةً طوال الوقت ليصف التقدم، فإنه قرر أن الرقم 331 كان رقماً على لوحة تسجيل الإصابات ويجب أن يبقى سرياً. وقال فيما بعد: «إن هذا رقم يقول للشعب الأمريكي الذي قد خرج لتوّه من لحظة صدمة نفسية في تاريخنا أنه ما زال هناك الكثير من الصدمات النفسية في مجتمعات أخرى، وفعلاً كان هناك الكثير. أنت تعرف ذلك كما أعرفه أنا. وإن فكرة القول إن هناك 331 قاتلاً من نوع القاعدة يختبئون، لدرجة أنهم يشكلون لائحة، كان سيكون ـ لم يكن قطّ ضرورياً».

«ومن الناحية الأخرى، كان الأمر الضروري هو أن يدرك مكتبنا للتحقيق الفيديرالي أن طريقة تفكيرهم يجب أن تتغير، وذلك في كل مكان من النظام بأكمله»، قال بوش وهو يتذكر قلقه. «إن هذا العدو من الصعب الإمساك به، وهو محنّك جداً. إن هؤلاء ليسوا جماعة من الفقراء اليائسين في محاولتهم. إنهم قتلة باردون وحذرون».

ونقل پاول الأخبار عن وضع المفاوضات بشأن إقامة القواعد. وكانت

أوزبكستان ما زالت ترفض. «سيرى القائمُ بأعمال السفارة كاريموفَ في الساعة 11 من هذا الصباح. فإذا لم نحصل على (نعم) منه، فسأتصل به». وطلب من الرئيس أن يخابر الرئيس الروسي ويطلب منه أن يخابر الأوزبكيين لتشجيعهم على السماح للولايات المتحدة بالدخول إلى أراضيهم.

ورأت رايس أن ذلك قد يؤدي إلى إحداث معاكس، ولكن مخابرة إلى پوتين تدور حول أمور مقاربة قد تكون مفيدة.

وكان بوش حريصاً على أن يقوم بتصريح علني عن الأمر التنفيذي الذي تجمّد بموجبه أموال الإرهابيين. وقيل له إن العمل فيه قد انتهى تقريباً. وكانت رايس ستعمل عليه بعد ظهر ذلك اليوم.

واتصل بوش هاتفياً بپوتين في عطلة ذلك الأسبوع.

«سنساندكم في الحرب على الإرهاب»، قال پوتين. وتكلم الرجلان مدة 42 دقيقة، مستخدمين مترجمين.

وقال پوتين إن روسيا ستعطي الولايات المتحدة حق الطيران فوق أراضيها. ولكن لأغراض إنسانية فقط. «لا يمكننا أن نضع أي جنود روس على الأرض في أفغانستان»، قال پوتين حسب ترجمة البيت الأبيض. «إن هذا ليس معقولاً لكم ولا لنا». ولم يكن بحاجة إلى أن يذكر كارثة التدخل السوڤياتي. «ولكننا على استعداد لتزويدكم بفرق البحث والإنقاذ في حالة سقوط طيّاريكم في شمال أفغانستان. نحن على استعداد للقيام بذلك».

وسأل بوش إذا كان الرئيس الروسي سيستعمل نفوذه مع دول آسيا الوسطى لمساعدة الولايات المتحدة في الحصول على إقامة القواعد في المنطقة.

«إنني مستعد لأن أقول لرؤساء الحكومات في دول آسيا الوسطى التي تقيم علاقات جيدة أنه ليس لدينا مانع بأن يكون للولايات المتحدة دور في آسيا

الوسطى طالما أن هدفها من القتال هو الحرب على الإرهاب، وطالما أن ذلك مؤقت وليس دائماً. فإذا كان الأمر كذلك، فلن يكون لدينا مانع، وهذا ما سأقوله للناس». وقال إن روسيا ستقدم للولايات المتحدة خدمات أكبر من حلفائها التقليديين.

واستغربت رايس. كان ذلك تنازلاً هاماً. وكانت قد توقعت أن يقول پوتين لبوش: احذر، إن هذه منطقة مصالح روسية. وفي الأحوال العادية، يشك الروس في أن هناك دوافع خفية لوجود الولايات المتحدة في تلك المنطقة.

على أن النقطة السلبية الكبيرة كانت أن روسيا لم تكن على علاقات طيبة مع أوزبكستان، وهي الدولة الرئيسية في آسيا الوسطى.

وفكرت رايس بأن پوتين اعتبر هذا الوضع فرصةً لتغيير العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا. كانت الحرب الباردة قد انتهت، ولم يعد الأمن القومي لعبةً مجموعُ الإصابات فيها صفر. وبدا أن پوتين كان راغباً ليس في مجرد نقل البلدين من العداوة إلى الحياد بل في الذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى اعتناق الشعور بالأمن المشترك. وبدا أيضاً أن پوتين رأى في الحرب ضد الإرهاب فرصة استراتيجية ليخترق الحواجز إلى الرئيس الأمريكي مباشرة. وإذا كان بوش يتطلع إلى توثيق صداقةٍ ما من خلال طلب معروف ما، فإن پوتين كان يفعل ذلك بإسداء المعروف. «أنا هنا للمساعدة» كانت الرسالة المرسلة. أن لديك صديقاً في هذا الوقت من التحدي الشخصي الضخم. وفكرت رايس بأن هذا الموقف من جانب پوتين كان ذكياً.

ورأى الرئيس العلاقة مع پوتين بطريقة شخصية عميقة. ووصف في مقابلة أول اجتماع له مع پوتين يوم 16 يونيو/ حزيران سنة 2001 في ليوبليانا في سلوڤينيا «ودخل پوتين وجلس، وكان هناك فقط أنا وكوندي وپوتين وذلك الشخص ـ راشيلوف والمترجم للطرفين. وكان يريد أن يبدأ. فقلت (دعني

أقول شيئاً لفت نظري، سيدي الرئيس، وذاك أن والدتك أعطتك صليباً وأنت باركتَهُ في إسرائيل، الأرض المقدسة)، وقال پوتين، (هذا صحيح). وقلت إن ذلك يدهشني، فإنك كنت شيوعياً وعميلاً للمخابرات الروسية (الكي جي بي)، ومع ذلك كنت مستعداً لأن تلبس صليباً. (إن هذا يقول لي الكثير عنك)، سيدي الرئيس، هل بإمكاني أن أدعوك ڤلاديمير؟». وهكذا، أصبح ڤلاديمير وجورج، الاسمان المستعملان بين الرجلين بعد ذلك، قال بوش.

«وتابع الرئيس الروسي، وبقية القصة هي أنني كنت ألبس صليبي. وعلّقته عى بيتٍ روسي ريفي (داخا). واحترقت الداخا، وكان الشيء الوحيد الذي أردتُ استرداده هو الصليب). وقال (أتذكر يد العامل وهي تنفخ وفيها الصليب الذي كانت أمي قد أعطتني إياه، وكأن ذلك كان مقدّراً له أن يحدث). وأظن أنني قلت له عند ذلك، (هذه قصة الصليب من ناحيتي. إن الأشياء مقدّر لها أن تحدث!».

«وانتقل پوتين فوراً إلى الدَين السوڤياتي وأن من الظلم أن تتحمل روسيا دين الاتحاد السوڤياتي، وسأل إذا كان بإمكاننا المساعدة. وكنت أكثر اهتماماً بمعرفة هوية هذا الشخص الذي أتعامل معه. كنت أريد أن أتأكد أن قصة الصليب قصة صحيحة». وكان هذا شعار ريغان القديم: «ثِقوا، ولكن تحقّقوا» ـ ولكن تحت ظروف جديدة مختلفة تماماً.

وأرى پوتين بوش الصليب بعد شهر في اجتماع في جنوى بإيطاليا.

«كان اجتماعنا ناجحاً جداً. وكنت قد أقنعته بأنني لم أعد أنظر إلى روسيا كعدو، وأنني أعتبره، على المستوى الشخصي، كشخص من الممكن التعامل معه».

وكانت المكالمة الهاتفية في نهاية ذلك الأسبوع في سبتمبر/أيلول هامة. «ما كان يقوله هو (لاحقوهم، نريدكم أن تنتصروا! ولكن كان واضحاً في نبرة

بوتين أنه يحتاج إلى التأكيد بأن هذه ليست لعبة لتأسيس وجود عسكري طويل الأمد في ما كانت أراضيه السابقة» ـ وأعطى بوش هذا التأكيد دون تردد.

كانت كارين هيوز في الكنيسة يوم الأحد في 23 سبتمبر/ أيلول، عندما رنّ هاتفها اللاسلكي. وكانت المكالمة من الرئيس في كامپ داڤيد. وكان حاداً، لاذعاً.

«إنكم جميعاً لا تفهمون»، قال الرئيس.

إن المسودة التي أعددتها للتصريح عن الأمر التنفيذي للرئيس بتجميد مصادر تمويل الإرهابيين قد أخطأت المرمى كلياً. هذا ليس عملاً عادياً ضئيلاً يعالجه وزير المالية في مؤتمر صحفي روتيني ـ إنه خبر كبير، وعليهم أن يعتبروه كذلك.

«إن هذه أول رصاصة في الحرب ضد الإرهاب. إن هذه هي الضربة الأولى. وإنها ليست صادرة عن رجال يلبسون البزّة العسكرية. إنها صادرة عن رجال يلبسون الطقم المقلّم. إن هذا سيشحذ الحقيقة القائلة بأن هذا نوع مختلف اختلافاً تاماً من الحرب. ويجب عليّ أنا أن أعمل الإعلان».

واتصلت هيوز هاتفياً بدان بارتليت.

«هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟».

وأجاب بارتليت بالإيجاب. ففي العادة يقوم وزير المالية بالإعلان عندما تُجمد مصادر الأموال.

ولكنهم أدركوا بسرعة ما هو عادي لا ينطبق على الأوضاع الحالية. وكان بوش قد قال لهم عدة مرات بأنه سيكون واجبهم هم إيصال كيفية اختلاف هذه الحرب عن غيرها من الحروب وسبب ذلك الاختلاف وكانوا قد أخفقوا في ذلك.

وفي وقت لاحق من يوم الأحد ذاك، اجتمع الرؤساء مرة أخرى ـ تشيني

وپاول ورامسفيلد وتينيت وشلتون. وترأست رايس الاجتماع، وطرحت جدول الأعمال. «أريد أن أسمع من جورج تينيت عن تقرير رئيس المحطة»، قالت رايس. «وأريد أن أتحدث عن استراتيجيتنا بشأن أفغانستان، وبعد ذلك أريد أن أتكلم عن محادثات پوتين وإيڤانوف».

وكان رئيس المحطة، الذي يعمل لتينيت في إسلام أباد في الباكستان، خبيراً واسع التجربة بالمنطقة واسمه بوب. وكان بوب قد أرسل برقية سرِّيَّة تتألف من ثماني صفحات عنوانها «التقييم الميداني» وكان تينيت يريد تلخيصها.

«سألتُ رئيسَ المحطة كيف نستفيد من العمل السري؟ كيف نفكر بالأهداف العسكرية؟ ما رأيك بتعاقُب الأحداث؟».

إن ملا عمر، القائد الروحي الأعلى للطالبان، سيلقي بمصيره مع بن لادن، وسيشارك الطالبان في هذا التأييد على أنه «قَدَرهم»، قال التقييم. أمّا شيوخ القبائل والوطنيون المتحمسون من الأفغانيين ـ وهم كثرةٌ بين صفوف الطالبان ـ فإنهم يزدادون ارتياباً في ملا عمر بسبب صنف الإسلام المتشدد والمتعصب الذي يطرحه وبسبب تأييده لبن لادن والإرهابيين العرب. وكان اقتراح رئيس المحطة أنه يمكن للولايات المتحدة أن تلعب على هذه الفروقات.

«إن التهديد الأمريكي بالعمل العسكري قد أثار انشقاقات داخل الطالبان، وهي انشقاقات يمكن استغلالها»، قال تينيت. «هناك اتصالات قَبَلية مع الآلاف من المقاتلين. ورسالتنا هي: القضية هي قضية الأفغانيين ضد العرب ـ إن عمر قد تحدى الشيوخ واختار الجهة الخطأ».

وكان عدد القادة العسكريين وزعماء المعارضة كبيراً في الشمال والجنوب، بحسب قول رئيس المحطة. ولم تحدّد البرقية هؤلاء بالاسم، ولكنها أشارت إلى أن لدى أحدهم عدة آلاف من المقاتلين، ولدى عدد قليل

من الآخرين 500 رجل أو 1000 رجل. ولدى ست قواعد حوالى مئتي مقاتل، وهذا العدد يبدو صغيراً، قال رئيس المحطة إلاّ أنه هام.

وقال تينيت «إن 11 سبتمبر/ أيلول كان جريمة شنيعة لا تنسجم مع القرآن. وأن الانحياز إلى جهة دون أخرى هو لعبة مجموعها النهائي صفر». قال تينيت. «علينا أن نشجع الملك».

والملك هذا هو محمد ظاهر شاه، وهو رجل معتدل مناصر للغرب ينتمي عرقياً إلى الپاشتون، وكان قد حكم البلاد من سنة 1933 إلى سنة 1973، وتميزت فترة حكمه بالازدهار والاستقرار. وقد عاش منفياً في روما منذ أن عزله رئيس وزارته في انقلاب أبيض، إلاّ أنه كان لديه الكثير من المؤيدين في أفغانستان وعلى المستوى العالمي. وقد كان هناك أمل من أن هذا العاهل ـ الذي يبلغ من العمر 86 سنة ـ قد يخلق ثورة ضد الحكّام من الطالبان، ولعله يتولى دوراً قيادياً في حكومة مؤقتة.

وكانت النقطة الرئيسية في برقية بوب أن الحرب يجب أن تُصاغ بصيغة الأفغانيين ضد الأجانب وقال تينيت: «يجب أن نَسِمَ هؤلاء الناس بسمة الغرباء. يجب أن نلاحق المنشآت العربية وندمّر البنية التحتية العربية».

«يجب أن نلاحق قيادة الطالبان ثم نلاحق الطالبان بشكل أعمّ». وكان بوب قد شدّد على أهمية الديبلوماسية العامة ـ حرب الدعاية ـ واقترح موضوعين. أولاً: تذكير الجميع بنجاح مجهود وكالة المخابرات المركزية في دحر السوڤيات خارج أفغانستان في الثمانينيات، إذ دعمت الوكالة حركة المقاومة المحلية. ثانياً: التأكيد على أنه ليس للولايات المتحدة رغبة في الأراضي أو القواعد الداعمة في المنطقة.

«يجب أن تدفع القبائل إلى القتال»، قال تينيت. وأفضل فرصة للنجاح تكمن في جعل قوات المعارضة تقوم بالعمل. «علينا أن نعطيهم الاستكشاف،

وعلينا أن نقدم العون في استهداف قيادة القاعدة، وعلينا أن نجعل الأفغانيين يقاتلون العرب ويضربون الأهداف العربية. ويجب أن تكون هناك هجمات أرضية سريعة استئصالية. ونحن ننقل الأموال، وعلينا أن ننقل أجهزة الاتصالات».

ولن ينجح العمل الأمريكي العسكري إذا استولى الحلفُ الشمالي على البلاد أو حتى إذا بدا كأنه قد استولى عليها. فلن تقبل ذلك الأغلبية الپاشتونية. وقد يؤدي ذلك إلى حرب أهلية وقبلية توازي في سوئها سوء الحالة التي ورثناها، قال تينيت. «لنسأل الباكستانيين عن كل شيء لديهم عن القاعدة». وكان التقييم قد عبّر عن الثقة بالرئيس مشرف.

«يجب أن نؤجل مجابهة الطالبان»، تابع تينيت، «حتى لا نُفقد باكستان وعلاقتنا بها الاستقرار». وكان ما زال هناك قَدْرٌ كافٍ من التأييد للطالبان في باكستان بحيث أن أي حملة عسكرية موجّهة بشكل واضح ضد الطالبان قد تُضعف مكانة مشرف، «نريد أن نجعل القاعدة تنتقل إلى أماكن مسدودة المسالك، وهذا قد يسمح لنا بأن نستهدفهم ونستغلهم».

وسأل رامسفيلد، «كيف تنجح هذه الاستراتيجية داخل الولايات المتحدة؟ لا نريد أن نُرَى وكأننا ندقّ على الرمل». وكان رامسفيلد يعلم أن هذا الكلام مشحوناً. فإن «الدقّ على الرمل» كان تعبير بوش الساخر عن الجهود الضعيفة لإدارة كلينتون ـ صواريخ كروز تضرب خياماً، وهكذا دواليك. «ولهذا السبب كان هناك ضمن مجموعة أهدافنا أهداف عسكرية تابعة للطالبان»، أكمل رامسفيلد. وكانت لدى الطالبان مصادر قوة عسكرية، وإن كانت محدودة: بضع طائرات ورادارات. «يجب أن يكون عندنا شيء لنضربه، وليس هناك الكثير من مما لدى القاعدة يمكن ضربه». وكانت المخابرات عن القاعدة حتى ذلك الحين تُظهرها إلى حد كبير بصورة خيم وأكواخ طينية ومخيمات تدريب خالية.

وطرح رامسفيلد سؤالاً مهماً: وهو يبحث عن شيء يمكن أن يوضع موضع التنفيذ في تقرير رئيس المحطة المفاهيمي إلى درجة كبيرة: ما هي مجموعة أهدافي؟

«قد نركز على اللواء العربي في الشمال»، أجاب تينيت، «لأن هناك وحدات عربية محددة». وكان اللواء العربي ـ وهو المعروف أيضاً باللواء 55. ـ. نخبة القوة المقاتلة لدى الطالبان. وكان هؤلاء قد تدربوا في مخيمات بن لادن للإرهاب، وكانوا من الولاء بحيث أنه إذا تجرأ أحدهم أن يتراجع في المعركة فإنه يُعدم رمياً بالرصاص. وكان عددهم نحو الألف رجل، وكانوا يمثّلون قلب جيش الطالبان / القاعدة. وكان أفضل مئة ـ أو نحو ذلك ـ فهم يخدمون كحرس أمن خاص لـ بن لادن. وكان الآخرون موزعين على المدن الهامة في الشمال، ويقومون بتشجيع الجنود العاديين.

واقترح تينيت: استهدفوا هذا اللواء أولاً، وما يفعلونه يكون مجرد بداية. وذكر تينيت بعض المعلّقين المسلمين الذين قد يؤيدون الولايات المتحدة فيما تريد أن تقوم به.

وقال رامسفيلد: «ربما يجب أن نضع بعض الناس على الأرض للقيام بعمليات إنسانية في الشمال وفي الجنوب معاً. وحدات صغيرة. فهذا يساعد في تخفيف بعض النقد لعملياتنا».

«ونحتاج إلى مخابرات يمكن ترجمتها إلى أعمال فنتمكن من معالجة هذا البرنامج بنجاح»، قال رامسفيلد. ولم يكن راضياً عن المخابرات التي كان يتلقاها. «ويجب أيضاً أن نفكر ملياً بسياستنا المعلنة لفصل الطالبان عن القاعدة، ولفصل سائر أعضاء الطالبان عن ملاّ عمر».

وقال پاول إن الدعاية والضغط الديبلوماسي على الطالبان يجب أن يكون المحور، «وليس الهدف في البداية تغيير الحكم ولكن الهدف حَمْل الحكم على القيام بالشيء السليم». ويمكنهم أن ينتظروا ليروا كيف سيردّ الطالبان. «إننا

سنضرب أهداف القاعدة لأن تلك الأهداف استعملت للإرهاب في الماضي». وكان يدرك أنه من الصعب الفصل بين الاثنين. واقترح: «الندسّ موضوع الطالبان».

ولم تكن أوزبكستان قد ردت بعد على الولايات المتحدة، ولذلك كان عليهم أن يعيدوا تقييم الأمور. ما هي أهمية أوزبكستان؟ كم هم بحاجة إليها؟

وكان الجواب أنهم بحاجة إلى أن يكونوا على الأرض في أفغانستان ليجمعوا المخابرات عن العدو.

وسأل پاول، «أين تريدين الأحذية على الأرض؟».

«إن الشمال أكثر أمناً»، اقترح تينيت. ولكنهم أخيراً اتفقوا على أنه من الأفضل وضع أناس في الشمال وفي الجنوب.

وقال رامسفيلد: «إن الأحذية التي على الأرض ذات قيمة بحد ذاتها، إذ إنها تقدم صورة مختلفة للولايات المتحدة». وانحنى إلى الأمام، وأضاف: «لسنا بصدد الغزو، ولن نبقى هناك. ولكن علينا أن نبدأ بخلق البيئة التي تكون أفغانستان فيها غير مضيافة للقاعدة والطالبان».

وأرادت رايس أن يتفقوا على كيفية عرض كل هذا على الرئيس في اليوم التالي. وكانت ترغب في أن تنقل إلى الرئيس ملخصات واضحة غير ملتبسة تعكس تفكيرهم. وكثيراً ما كانت أفضل طريقة القيام بتنسيق أعمال اجتماع مجلس الأمن القومي في اليوم التالي وكتابة جدوله. واتفقوا على مَن سيقول ماذا، وبأي تسلسل.

* * *

وفي اطّلاعٍ صباحي على تقارير المخابرات مع تينيت خلال تلك الفترة، استعرضَ الرئيس ـ التهديدات للمراكز التجارية والمباني والمدن

والمؤسسات التجارية والأفراد والجسور والأنفاق والبرامج الرياضية ـ أي مكانٍ تجمُّعٍ كبير.

«لا يمكننا أن نطارد كل شيء»، قال الرئيس. وكان يريد تحليلاً للمخاطر. «لنعمل سلّماً بالأولويات. لنقيّم المخاطر وبعد ذلك نقرر الاستراتيجية اللازمة لمعالجة كلٍّ من هذه المخاطر».

وتذكّر بوش في مقابلة، «كان هذا استمراراً في فهم عقلية العدو. وعليك أن تفهم العدو من أجل أن تنتصر في الحرب».

«وكان الأمر الذي يقلقني بشدة في ذلك الوقت الأثر النفسي لنوعٍ وسخ من القنابل». وكان هذا هو الاسم لقنبلة إشعاعية فجّة يمكن عملها بأخذ مادة شديدة الإشعاعية، مثل عيدان الوقود المأخوذة من المفاعلات المستهلكة، ولفّ هذه المادة حول متفجرات تقليدية. «وسواء أكنتَ وحدك أو مع مجلس أمنك القومي، فإنك تبدأ بالتفكير وبالحديث عن أسوأ السيناريوهات، وكيف تتعامل معها. وأنت تعلم أن هناك أسوأ السيناريوهات التي يجب أن نفكر فيها.

وحاول بوش وتينيت ورايس أن يفكروا في الاحتمالات. وكان من الواضح أن بن لادن وشبكته يحبون الأشياء المثيرة للعجب. لعلهم سيضربون النصب التذكارية، وربما نشاطات صناعة التسلية بشكل ما، بسبب كراهيتهم للقيم الأمريكية. وكان كل شيء هدفاً محتملاً، من البيت الأبيض إلى مدرسة صغيرة في سهل الغرب الأوسط.

«سيكون علينا أن نعمل بعض الرهانات عما هو مرجح»، قال بوش، اعملوا بعض اللوائح وتقريراً وقيموا الأفضليات والمرجحات. وكان بوش جاداً، آمراً تينيت أن يبدأ بالعمل على هذا الأمر فوراً.

وذهب تينيت إلى هاتف في البيت الأبيض واتصل بنائبه جون ماكلوخلين في المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية.

«يجب أن نضع على الورق ما نعتبره أهدافاً»، قال تينيت.

ماذا؟ فكر ماكلوخين. لعله يمكنهم إرسال كل دفاتر الهاتف من كل مكان في العالم.

«نحن لا نعرف»، اعترف تينيت، «لأن ليس هناك أشياء محددة». وأدرك الصعوبة. «ولكن ضع رهانك». نعم، إن هذه الأمور يجب أن تكون مسجّلةً على الورق. اجمع أفضل العقول حول الطاولة ـ وافعل ذلك الآن. حاول أن تفكر بما يحفز هؤلاء الناس. ماذا يحاولون أن ينجزوه؟ ما الذي سيساعدهم في إنجاز ما يحاولون إنجازه؟ «ضع رهاناتك».

وكان ماكلوخين من محترفي وكالة المخابرات المركزية المحنكين، ذا صوت خافت، وكان قد وصل إلى المركز الثاني في الوكالة عن طريق تحليلاته. ولكن اهتمامه استُثير. بالطبع هناك طريقة للتفكير بكل هذا ـ إن تحليل المخابرات يتكوّن جزئياً من وضع أفضل الرهانات المعقولة.

وبُعَيْد الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين الواقع في 24 سبتمبر/ أيلول، خرج بوش إلى حديقة الورد ليتكلم مع الصحافيين.

«في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأولى من هذا الصباح، بدأت دفعة كبيرة لحربنا على الإرهاب بضربة قلم»، قال بوش. «اليوم قمنا بضربة على الأُسُس المالية لشبكة الإرهاب العالمية». وكان قد وقّع أمراً تنفيذياً الليلة السابقة ـ مباشرةً بعد منتصف الليل، وهذا وقت متأخر كثيراً عن الموعد المعتاد لذهابه للنوم ـ أمراً يجمّد فوراً الموجودات المالية لعدة مؤسسات إرهابية وعدة قادة وشركات واجهة وعدة منظمات لا تعمل للربح ـ 27 في المجموع.

وكان ذلك يعني أنه كان على البنوك الأمريكية أن تجمد موجودات 27 من الجماعات والأشخاص مُسَمَّيْن بالاسم. وهذا الأمر الصعب، الذي بدأ تنفيذه قبل بداية اليوم المصرفي، وضع ضغطاً أيضاً على البنوك والمؤسسات المالية

في الخارج، حيث لم يكن للولايات المتحدة سلطة قانونية، ولكن حيث كان من المعتقد أن معظم أموال الإرهابيين مجموعة. وإذا أخفقت هذه البنوك في المشاركة في المعلومات وفي تجميد الموجودات المرتبطة بالإرهابيين نفسها، فإن وزارة المالية بإمكانها أن تمنعها من القيام بالمعاملات التجارية أو الوصول إلى موجوداتها في الولايات المتحدة. وأعطى هذا الأمرُ وزارةَ المالية صلاحية كاسحة أقسم بوش أنها ستُنفذ بشكل مسؤول.

«لقد طورنا المُقابِلَ المالي العالمي لتنفيذ قانون لائحة «المطلوبون بشدة»، قال الرئيس. وكانت اللائحة المؤلفة من 27 مجرد بداية.

9

انتقل الرئيس بخفةٍ من حديقة الورد إلى غرفة المواقع في البيت الأبيض لحضور اجتماع مجلس الأمن القومي المقرر عقده في الساعة التاسعة و45 دقيقة.

«سيدي الرئيس»، بدأ تشيني، بحسب الجدول الذي كانوا قد كتبوه في اليوم السابق، «لقد وَجَّهتَنا بأن نبحث مذكّرة رئيس المحطة على مستوى الرؤساء. وقد فعلنا ذلك. وعلى وجه العموم، قد كَيّفنا خططنا بحيث تعكس المعلومات التي زَوَّدَتْنا بها مذكّرة رئيس المحطة. وأولويتنا هي أن نلاحق مخيمات القاعدة، أن نشرع في تضييق حريتهم في العمل».

«وسنركّز على عمر، ونشجّع قيادة الطالبان الحالية على استبداله بشخص يكون أسهل انقياداً» لما نحتاج إلى القيام به بالنسبة للقاعدة».

«بعد ذلك سنركّز على قوات الطالبان العسكرية ونلاحق أيضاً ذلك اللواء التابع للقاعدة في الشمال».

وكان تشيني يعرض الخطوط العريضة لخطّة اللعبة وتعاقبها. أمّا التوقيت فإن القرار بشأنه لم يُتخذ كلّيّاً تقريباً.

وكان لدى الرؤساء أفكار مختلفة عما إذا كان عليهم أن يلاحقوا الطالبان

قبل كل شيء. وقد انعكس هذا الاختلاف في اليوم السابق في برامج المحادثة التلفزيونية يوم الأحد. وكان باول قد قال: «إن هذا الأمر لا يحتلّ مكانةً عليا في تفكيرنا حالياً». أمّا رايس فلمَّحَتْ إلى غير ذلك: «إن نظام الطالبان نظامُ حكمٍ قمعي فظيع. وأن الشعب الأفغاني سيكون في حالة أفضل من دونه. وسوفَ نرى أي الوسائل في تصرّفنا لتحقيق ذلك».

وقال تينيت: «سننشّط هذا الأمر في هذا الأسبوع. وكانت إحدى فرقه السرية شبه العسكرية ستذهب قريباً إلى أفغانستان لتعمل مع الحلف الشمالي. «إننا نزوّدهم بالمخابرات والمراقبة عن الأهداف الليّنة. وسوف نعطيهم بعض الوقت للتفكير».

وانتقل تينيت إلى صلب الأفكار التي طوّرها هو وقيادة وكالة المخابرات المركزية مع خبراء الوكالة وبالنظر إلى تقييم رئيس محطة إسلام أباد. «نريد أن نبنيها على أساس أفغانستان مقابل الغرباء»، قال تينيت مكرراً نفسه. «لسنا نغزو. لسنا نحتلّ. وأن ملاّ عمر قد ضلّل الشعب الأفغاني، وأدخل هؤلاء الغرباء. هذه هي المشكلة».

وقال إنه من الهامّ تأخير الهجوم المباشر على الطالبان. ويجب أن تُضرَب صواريخهم وراداراتهم ابتداءً لحماية قاذفات القنابل الأمريكية. «لكننا سنتمهّل في ملاحقة الطالبان حتى نرى ما إذا كنّا سنستطيع جذبَ فكرة التغيير في قيادة الطالبان أو اللجوء إلى طريقة أخرى لفصلهم عن القاعدة». فإذا لم يحصلوا على أي من هذين الأمرين، فإن عليهم أن يهاجموا جنود الطالبان وقيادتهم بشدة.

ووافق تشيني. «إننا لا نريد أن نضرب الطالبان قبل كل شيء، لأننا لا نريد أن نوهن من عزيمتهم لتغيير قيادتهم وللانفصال عن القاعدة».

وسجّلت رايس قلقها من أن ذلك قد يوحّد الأفغانيين ضد الولايات المتحدة.

وسأل تشيني: «هل هناك أية شكوك في تقييم رئيس المحطة؟».

«كل رجالي الأفغانيين متفقون مع رئيس المحطة»، قال تينيت.

قال بوش: «يجب أن يكون ذلك هو القالبَ لاستراتيجيتنا. علينا أن نستخدم الأفغانيين في الصراع».

أجاب تينيت: «سيبحث هذا رئيس المحطة وطومي فرانكس».

وقال پاول: «يجب أن يكون ما تطلبونه من الأوزبكيين واضحاً بدقة. القواعد، وعدد الأشخاص، وماذا سيفعلون، وكم سيبقون هنالك».

«أنظروا»، قال رامسفيلد، «علينا أن نتحدث عن الأمور بشكل عام، لأننا لا نعرف ما الذي سنفعله قبل أن نصل إلى هناك». وكان سعي البنتاغون للخروج بخطط للحرب لم يثمر بعد. وكان رامسفيلد سرّاً شديد الغضب، ويلحّ على فرانكس دون توقف.

وكان البنتاغون ووزارة الخارجية يواجهان مشكلة مألوفة، وهي كيفية تأمين حقوق الطيران وإقامة القواعد في البلدان الأجنبية لعملياتٍ لا يمكن معرفتها بشكل كامل قبل بدء القتال. إن الأمم التي تفكر في منح أية حقوق تريد معلومات معينة عن نوع العمليات المرسومة وطولها وحجمها قبل أن تُقدم على منح التراخيص. ولكن موظفي وزارة الدفاع لم يكن لديهم فكرة عما إذا كان النزاع قد يزداد حدةً ويتطلب عمليات أوسع. ولذلك مال العسكريون إلى المبالغة في الطلب، مطالبين بأكثر ما يمكن، وهذا أدّى إلى تأخير المفاوضات أو تطويلها.

وانتقل المجتمعون إلى مسألة ما يريده الأوزبكيون بالمقابل إذا أمكن التوصل إلى اتفاق.

وقال پاول إن عليهم أن يكونوا حذرين بالنسبة لماهية الكلفة. فإن

الاستطلاعات الأولى تشير إلى أن المسألة ستصبح مقايضة حقيقية شأنَ معاملات تجار السجّاد: العرضُ الأول لا يُقبَل.

وكانت رايس تعلم أن الرئيس كاريموف يريد العمل ضد المعارضة الداخلية له، وهي حركة إسلامية متطرفة تعرف باسم حركة أوزبكستان الإسلامية. وكان أحد الأخطار هو السماح بأن تُوسَمَ كل شخصية مُعارِضة بِسِمَةِ الإرهابي، فتصبح من ثَمَّ خاضعة لحرب الولايات المتحدة على الإرهاب. «يجب علينا أن نعرف ما نشتريه»، حذّرت رايس.

وقال تشيني: «يجب علينا أن نستولي على القاعدة قبل أن يستولوا علينا». فقد كان قلقاً مثل الآخرين بأنهم سيهجمون مجدداً. «وعلينا أن نكون مستعدين للتعامل مع الروس لهذا الغرض».

واستغرب عدد من المجتعين ممن كانوا قد عملوا مع تشيني مقالتَه. وكانوا يعرفون مدى عمق ارتيابه بالاتحاد السوڤياتي السابق وبالحكومة الروسية الحالية. وكان استعداده للعمل مع بقايا «إمبراطورية الشر» السابقة يشي بالكثير.

وتذكّر بوش فيما بعد: «أعتقد أن ديك بدأ يدرك أن پوتين مختلف، لأنه كان قد سمع عن مناقشاتي مع پوتين». وكان تشيني «قد فهم بوضوح أننا نتطور باتجاه علاقة ستكون مختلفة بدرجة كبيرة، وأن الحرب الباردة قد انتهت بالفعل».

وقدم پاول صياغته. «نريد أن تكون أفغانستان خالية من الإرهابيين. وإذا كان بإمكان الطالبان أن يفعلوا ذلك، فهذا حسن؛ وإلاً فإننا سنعمل مع آخرين بإمكانهم أن يجعلوها خالية من الإرهابيين. ويجب ألاً يكون في كلامنا أي إشارة إلى أننا نحاول أن نقرر مَنْ سيحكم أفغانستان في نهاية المطاف».

وانتقل الرئيس إلى ما كان يشغل ذهنه بشكل متزايد. «أريد إسقاط إعانات إنسانية في الشمال وفي الجنوب. وأريد أن يُنَسَّق ذلك مع العسكريين. هل بإمكاننا أن نجعل الطعام أُولى قنابلنا؟».

وكان من الممكن لأي شخص ذي فهم أوّلي للاستراتيجية العسكرية أن يبتسم لدى سماع هذا السؤال. إن طائرات النقل المستعملة في إسقاط الطعام تتّسم بالضجيج وبطء الحركة، وهي ـ مثل البطّ الجالس ـ سهلة الاستهداف ولا تشغَّل إلاّ بعد تدمير منشآت الدفاع الجوي. وبتهذيب، أجاب شلتون: «إن عليك أن تُعْنَى بالدفاع الجوي، كما تعلم». وكان شلتون يعرف أنه من الإهمال الذهاب إلى هناك بطائرةٍ للإعانات الإنسانية ثم تُسْقَط الطائرة بإطلاق النار عليها.

سأل بوش: «أين بلغنا في موضوع باكستان؟».

وقدم هادلي تقريراً عن صفقة كبيرة لإعانة باكستان.

وكان تشيني أقلّ اهتماماً بالإعانات الإنسانية أو بإعانة باكستان؛ ما كان يهمه هو أسلحة الدمار الشامل. «يجب أن تستهدف ضرباتنا الأولى أسلحة الدمار الشامل ومختبرات المخدّرات»، قال نائب الرئيس.

وفي أواخر الجلسة قال رامسفيلد: «علينا أن نعد لائحة» بالمطالب التي نريد أن نتقدم بها إلى كل بلد، وأن نقسمها إلى أقسام مستقلة».

وكانت المفاجأة بالنسبة لرايس إثارة الرئيس موضوع الإعانات الإنسانية. ولم يكن هذا الموضوع قد بُحث حقاً في مناقشات الرؤساء أو نوّابهم أو نوّاب نوّابهم. ما هذا الأمر؟ ومن أين أتى؟

وبالنسبة لبوش، كان هذا الأمر أساسياً لما يعتبره المهمة الأخلاقية للولايات المتحدة. وقد تحرّيتُ هذه المسألة بشكل مطوّل معه في مقابلةٍ لاحقة. «كنتُ حساساً [للاتهام] بأن هذه حرب دينية، وأن الولايات المتحدة ستكون بشكلٍ ما فاتحاً قاهراً. وكنت أريد أن ينظر إلينا كمحرّرين»، قال الرئيس. وكانت فكرة إطعام الشعب الأفغاني الفقير تروق له. وقال إنه لا يعتقد أن الناس يدعمون الطالبان، وأنهم ـ في أحسن الأحوال ـ رهائن. «إن فكرة

ضرب شعب بالقنابل حتى يذعن، ومن ثم تسقط الحكومة، فكرة لا علاقة لها بهذه الحرب». وإن ضرب الناس بالقنابل قد يقوّي الطالبان. وهذا اعتبار عملي. أمّا الاعتبار الأخلاقي، قال الرئيس، فهو «أنّ علينا أن نتعامل مع المعاناة».

وكان بوش قد رأى عن طريق الأقمار الصناعية صوراً عن الجوع والتعذيب والوحشية في مخيمات السجون على مستوى واسع جداً في كوريا الشمالية. وكان يعرف أيضاً عن التجويع الإجباري في العراق. «إن هناك وضعاً إنسانياً يجب أن نقلق عليه في زمن الحرب. وهناك نظام من القِيَم لا يمكن التهاون فيه ـ تلك القيم التي أعطانا إياها الله. وهي قيم ليست من اختلاق الولايات المتحدة. إنها قيم الحرّيّة والوضع الإنساني والأمهات اللواتي يُحببنَ أولادهنّ. وما هو هام جداً ـ ونحن بصدد تحديد السياسة الخارجية من خلال الديبلوماسية والعمل العسكري ـ ألاّ يبدو قطّ وكأننا نخلق ـ وكأننا نؤلف ـ هذه القيم».

«إن هذا يقود إلى سؤال أكبر عن نظرتك إلى الله». والعبرةُ، قال، هي «إننا جميعاً أولاد الله». كان يريد حرباً ذات بُعْدَيْنِ معاً: بُعْد عملي وبُعْد أخلاقي.

وبعد أن اقترح الرئيس أن يكون الطعامُ هو القنابلَ الأولى، تَذَكَّرَ الرئيس، فهم الجميع موقفه. «أدرك ذلك رامسفيلد، وهو السيد القاسي الذي ليس قاسياً. إنه رجل رقيق القلب من عدة نواحٍ. فهم ذلك فوراً». ومن الممكن أن العسكريين شُدهوا في أول الأمر، قال الرئيس، ولكنهم فهموا.

واجتمع الرؤساء لاحقاً من دون الرئيس بوش عن طريق جهاز الاتصال بالڤيديو بعد ظهر ذلك اليوم. وبعد تقديم تقارير روتينية من آشكروفت وپاول، أثارت رايس قضية رعاية الدول للإرهاب. «ما هي استراتيجيتنا بالنسبة للبلدان التي تدعم الإرهاب مثل إيران والعراق وليبيا وسوريا والسودان؟ كيف نحدّد

العقبات التي عليهم أن يتجاوزوها ليصيروا على الجانب الصحيح من الحرب على الإرهاب؟» إن الولايات المتحدة بحاجة إلى الصُّوَى التي يمكن عن طريقها تقييم ميول الدول للإرهاب.

«محاولة استباق الهجوم التالي» كان عنوان التقرير البالغ السرية والمؤلف من ثلاث صفحات الذي وصل إلى بريد الرئيس صباح يوم الثلاثاء الواقع في 25 سبتمبر/أيلول. وكان هذا هو التقرير الذي طلبه بوش قبل ذلك ببضعة أيام. وقد وُزِّع عليه وعلى عدد محدود جداً من مستشاريه الرئيسيين مع «اطلاع الرئيس اليومي»، وهو الوثيقة الأكثر حصراً في واشنطن.

وقد ألَّفَ التقريرَ فريقٌ من فرقاء «الخلية الحمراء» كان تينيت وماكلوخين قد عيّناه. وكان الفريق يتكوّن من محلّلين وعملاء متمرسين من وكالة المخابرات المركزية، وقد اطلعوا على جميع المخابرات الآنية عن بن لادن والقاعدة وغير ذلك مما يتصل بالإرهاب الدولي. وكانت مهمتهم أن يفكروا مثل بن لادن ونوّابه، وأن يذكروا ما قد يكون الجانب الآخر ـ وهو ما كان بوش وتينيت يسمّيانه «الرجال السيّئون» ـ يفكر به أو يعمله.

وقالت ملاحظةٌ على التقرير أنه، بما أن الخلية الحمراء قد أُمرت بالتفكير بشكل «غير تقليدي» و«خارج العلبة»، فإن أفكارهم يجب ألاَّ تعتبر نهائية. وكان قد أُسند إلى الخلية الحمراء مهمة التفكير في عدد «غير محدود» من الأهداف الإرهابية المحتملة، ثم محاولة تقليص هذا العدد إلى الأهداف الأكثر ترجيحاً داخل الولايات المتحدة في المستقبل، وذلك على ضوء ممارسات القاعدة في الماضي. وبكلمات أخرى، كان قد أُسند إليهم وَضْع رهاناتهم.

وخرجت الخلية الحمراء بتسعة أبواب:

1 ـ المراكز السياسية ـ واشنطن دي سي، أو المكاتب الفيديرالية في أي مكان.

2 ـ منشآت البنية التحتية ـ المطارات والطرق والموانئ والسكك الحديدية والسُدود والأنفاق والجسور.

3 ـ الأنظمة الاقتصادية ـ وول ستريت ومراكز التبادل التجاري في شيكاغو.

4 ـ البنية التحتية للطاقة ـ معامل التكرير ومنصّات النفط.

5 ـ الأهداف العسكرية ـ مناطق تجمّع عدد كبير من الجنود، وقواعد الجيش والبحرية وسلاح الجو والمارينز، وأماكن تخزين الأسلحة.

6 ـ الاتصالات البعيدة العالمية ـ نقاط مرور الاتصالات الإلكترونية، ومراكز توجيه الكومبيوتر على الإنترنت، ونقاط تقاطع البنوك.

7 ـ المراكز التربوية ـ جامعة هارڤارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (أم آي تي) في منطقة بوسطن.

8 ـ المراكز الثقافية ـ هوليوود والملاعب الرياضية.

9 ـ الأنصاب التذكارية وغيرها من رموز الهوية القومية.

وقال التقرير إن «أسامة بن لادن يميل إلى معاودة تتبع الأهداف التي كانوا قد نظروا فيها أو هاجموها سابقاً»، ملاحظاً أن هناك «قيماً متعددة» لبعض الأهداف المحتملة.

وكان للبيت الأبيض مثلاً قيمة متعددة باعتباره مركزاً سياسياً ورمزاً للهوية القومية في آنٍ معاً. إن بوش كان يسكن ويعمل في أرض صِفْر مصنَّفة.

واجتمع مجلس الأمن القومي مرة أخرى يوم الثلاثاء الواقع في 25 سبتمبر/ أيلول في البيت الأبيض. وتكلّم الرئيس أولاً: «لا يمكننا أن نعرّف النجاح أو الإخفاق على أساس القبض على أسامة بن لادن».

وتحدث تينيت عن الحلف الشمالي، «إن الناس مستعدون للانطلاق.

إنهم ليسوا من الباشتون، ولكنهم من الطالبان. ولن يكون بإمكاننا أن نردَّهم. سيضربون أهداف القاعدة والطالبان معاً لأن هذه الأهداف متداخلة». وكان فريق من وكالة المخابرات المركزية على وشك الذهاب. «سنشجّعهم على التقدُّم إلى الأهداف. وإن لديهم أجهزة اتصالات لإعطائنا المخابرات. سنعطيهم المال. وعلينا أن نقرِّر ما إذا كنا سندفع ثمن الأسلحة السوفياتية التي سنزودهم بها».

وكان الحلف الشمالي يسيطر على قسم من الرُّبع الشمالي الشرقي من أفغانستان. «إنه قاعدة محتملة لعملياتنا»، قال تينيت، «نريد أن ندفع بكمية متساوية من الضغط من الشمال ومن الجنوب. وسنعقد اجتماعات مع قادة المقاطعات. ونريد أن نختم الحدود لنتأكَّد أن العرب لن يفرُّوا».

وسأل پاول: «هل نريد أن ندفع للروس ثمن الأسلحة السوفياتية؟».

وسأل بوش: «هل يُحدث ذلك تقدماً في المهمة؟».

«نعم»، قال تينيت.

وأراد بوش أن يُنجز ذلك.

«هناك تغيُّر طفيف في انتماء رئيس المحطة»، قالت رايس، وكانت تشير إلى الأفكار المقترحة على البرقية من إسلام أباد. «هل نحتاج إلى تغيير لائحة الأهداف؟».

«سنضرب سام ووسائل الدفاع الجوي قبل كل شيء»، قال تينيت، مشيراً إلى مواقع صواريخ الأرض ـ الجو. وكان مدير وكالة المخابرات المركزية يُدخل نفسه مباشرةً في المناقشات العسكرية لأن رجاله كانوا هم المستعدين للذهاب على الأرض فيما كان البنتاغون يتلكأ. «هل هناك أهداف أخرى للطالبان نريد أن نضربها في الشمال؟».

وبقي هذا السؤال مفتوحاً. فحالما تستنفد الولايات المتحدة مجموع

أهداف الدفاع الجوي للطالبان، ستُعاق العمليات من دون رجال على الأرض يستطلعون الأهداف ويلتقطون الإرشادات الإحداثية الدقيقة ثم يرسلونها. وكانت هناك فسحة كافية في جنوب أفغانستان للبدء بإدخال قوات أرضية، وإن كان الوضع هناك غير مثالي. أما في الشمال، فإن عليهم أن يتحرُّوا انتماءات بديلة لأن أوزبكستان لم تكن قد تعهّدت بعد بإعطاء الولايات المتحدة حق إقامة القواعد.

«هل يمكن أن نقيم القواعد في مناطق الحلف الشمالي؟» سأل تشيني. وهناك إمكانية أخرى، وهي شن الهجمات من طاجيكستان، وكانت طاجيكستان قد وافقت على تأييد الولايات المتحدة. غير أن ممرَّ الطيران من هناك إلى شمال أفغانستان كان غدّاراً ويتضمّن الارتفاع فوق سلسلة عالية من الجبال.

وقال فرانكس: «عندنا موعد نهائي بشأن أوزبكستان في الساعة الرابعة بعد الظهر. فإذا لم نتمكن من الفوز بها، فإن علينا أن نُسقط الشمال ونعالجه فيما بعد، وننصرف إلى معالجة الجنوب الآن. وفي الجنوب علينا أن نقوم بعملياتنا من حاملات الطائرات» في المحيط الهندي، قال فرانكس، وهذا ما يسمونه باستراتيجية «ورقة النيلوفر الطافية»، حيث تستعمل حاملات الطائرات كحجارة عبور في المحيطات.

وقام المجتمعون بمراجعة الملاحظات التي قدمها بعض العلماء المسلمين على الاسم الذي اختاره البنتاغون للعملية. وكان اسم «عملية العدالة اللانهائية» قد انتُقد بسرعة لافتقاده إلى الحساسية تجاه الدين الإسلامي، حيث يُعتبر أن الله وحده قادر على توزيع العدالة اللانهائية. ووُضع الاسم على الرفّ. وقال رامسفيلد إن قراره قد استقرَّ على اسم «الحرية الباقية».

على أن مشكلة صورة البنتاغون كانت مصدر قلق ضئيل لرامسفيلد مقارنةً بالإصلاح الرئيسي للقوات المسلّحة الذي كان قد شرع فيه، وهو الآن ينفّذه

فيما يحاول أن يدير حرباً. وكان المشكّكون يقولون إنه لا يستطيع تحويل العسكريين ومحاربة حرب. إلاّ أن تفكير رامسفيلد كان يقضي بأنك إذا حاربتَ حرباً مختلفةً نوعاً، فإن الحرب سوف تقوم بتحويل العسكريين.

وقال رامسفيلد: إننا نقوم بتغيير قواتنا للعمليات الخاصة بحيث يكون لها دور عالمي. إنهم لن يكونوا مقيّدين بمناطق جغرافية مفردة تحت إمرةٍ معيَّنة من الآن فصاعداً، أي أنهم لن يكونوا محصورين بمسارح عملياتٍ معيَّنة.

وكان تينيت يرى أن التحوُّل لم يكن محصوراً بالبنتاغون؛ فإن وكالة المخابرات المركزية كانت تفكّر بطريقة جديدة أيضاً. وأضاف: «ونحن ننسق العمل فيما بين العسكريين ورجالنا السريين بحيث يعملون جنباً إلى جنب، بشفافية فيما بينهم، منتزعين للصراع فيما بينهما، وناظرين إليهما من منظور عالمي». وكان «انتزاع الصراع» يعني منع قوات الفريقين من أن تطلق إحداهما النار على الأخرى.

وتناقش المجتمعون في مسألة إصدار ورقة بيضاء يُراد منها أن تبرهن على أن بن لادن والقاعدة هم وراء هجمات 11 سبتمبر/أيلول.

وتساءل رامسفيلد: هل يريدون ورقة بيضاء وهل هم بحاجة إليها؟ إن من شأنها أن تشكِّل سابقةً رديئة. لنفترضْ أنهم يريدون شنّ هجوم عسكري وقائي على إرهابيين أو على بعض الدول التي ترعاهم؟ إنهم يمكن أن يُحدثوا توقعاً بأن ورقة بيضاء سوف تتلو ذلك العمل. ولكن ذلك قد لا يكون ممكناً. إن القرارات المتعلقة بالأمن القومي عن العمل العسكري كثيراً ما تُعمل على أساس أفضل الأدلّة المتوفرة، وهذه الأدلّة قد لا ترتفع إلى مستوى البرهان المقبول في المحاكم. وبذلك يكونون قد نصبوا الشراك لأنفسهم.

وفيما كانت خدمات المخابرات الأمريكية والحليفة قد شرعت في حل الخيوط لهجمات 11 سبتمبر/أيلول، كانت الأدلة التي وجدتها استنتاجية وإلى حدٍّ ما جزئية، وإن كان هناك بعض الكُتَل الصلبة. وكان خطر إصدار ورقة

بيضاء تعرض الأدلّة يكمن في أنها قد تكيّف الناس بحيث يرون الحرب على الإرهاب على أنها عملية من عمليات تنفيذ القانون، تدخل ضمن نموذج النظام القضائي بمقاييسه الخاصة للأدلّة ـ حيث يقع عبء الإثبات على الحكومة، وحيث على الأدلّة أن تكون فوق نطاق الشكّ المعقول ـ وهذه أمور لا يمكن الوفاء بها قطّ.

ولكن پاول كان يريد ورقة بيضاء من نوعٍ ما إذا كان ذلك ممكناً. لقد كان عليه أن يتعامل مع الدول الأوروبية والعربية، وزعماء هذه الدول تريد الأدلّة والبراهين.

وانتقلوا إلى مخطط الحرب، فقال رامسفيلد: «يجب أن يكون لدينا بداية عريضة ونهاية أيضاً. ويجب أن تتمحور الحرب على القاعدة وليس على أسامة بن لادن. . . وهي لا تنتهي إذا حصلنا على رأسه على طبق، وإن الإخفاق في الحصول على رأسه على طبق ليس إخفاقاً».

وسأل الرئيس عن المشاركة الدولية في المرحلة الأولى من العملية.

وأجاب رامسفيلد: «انظر، إننا غير قادرين على أن نحدِّد دور العمليات الخاصة لقواتنا نحن. وقبل أن نتمكّن من القيام بذلك، كيف يمكننا أن نتحدّث عن ضَمِّ الآخرين؟»

وقال بوش: «إننا نحتاج إلى أن نخطِّط وكأنَّ الأمور لن تسير سيراً حسناً». ما هو السيناريو إذا لم يحدث انشقاق في صفوف الطالبان؟ «علينا أن نفكِّر في أشكال لعبة الحرب، أن نفكِّر في كيفية إبقاء الضغط عليهم وإحداث التغيير، حتى إذا لم تسر الأمور السَّيْرَ الذي نريده».

وقد قدّم بوش ملاحظةً فيما بعد في مقابلةٍ عن سبب رغبته ـ وهو المتفائل الدائم ـ في تفحّص السيناريوهات السيّئة. قال: «أعتقد أن وظيفتي تقضي بأن أتطلَّع إلى ما يتجاوز اللحظة الراهنة. وإنني أظن أن الرئيس يمكن أن تشدُّه اللحظة الراهنة فتصبح غير قادر على أن تكون مفكِّراً استراتيجياً، كما

يفترض فيك أن تكون، أو على الأقل أن تُقدِّم فكراً استراتيجياً. وأنا ذلك النوع من الشخص الذي يريد أن يكون متأكداً من أن كل المخاطر قد قيّمت. وليس هناك شك فيما ستكون عليه المكافأة في تلك الحالة. على أن الرئيس يحلِّل باستمرار ويتخذ القرارات على أساس المخاطر، وخاصة في حالة الحرب ـ المخاطر المأخوذة بالنسبة إلى ـ ما يمكن تحقيقه». وإن عنده مستشارين قد شهدوا الحروب ومرُّوا بحالات لم تحدث فيها الخطة بالطريقة التي كان قد خُطِّط لها.

وقال الرئيس إنه سواء أكان الأمر يتعلَّق بالتطلُّع إلى ما يتجاوز اللحظة الراهنة أو بتقييم المخاطر أو بالوصول إلى ما يتجاوز اللحظة الراهنة أو بتقييم المخاطر أو بالوصول إلى الإجماع، «فإنني أظن أن ذلك آتٍ من الفطرة. أنا لا ألعب بتتبُّع الكتب المدرسية المقرَّرة؛ أنا ألعب بحسب ما تمليه الشجاعة».

وكان الرئيس والآخرون يكتشفون بشكل متزايد أنه ليس هناك كتاب مدرسي جاهز لهذه الحرب.

وقال رامسفيلد في الاجتماع: «انظروا، هل يجب أن نبدأ بشيء في منطقة أخرى غير أفغانستان كجزء من الحرب على الإرهاب، حتى لا يقاس النجاح أو الإخفاق أو التقدم بأفغانستان وحدها؟»

وكان من الجليّ الواضح أن وزير الدفاع لا يريد أن يتوقف: النجاح على أفغانستان. فالأهداف هناك ضئيلة. وماذا يمكنهم أن ينجزوه بحقّ؟

وتذكَّر بوش أن تركيزه بقي على أفغانستان. «كان من الواضح أن هناك البعض ممن بحثوا العراق. ولكن ذاك كان غير وارد في ذلك الوقت. أعني أنني لم أكن بحاجة إلى أية استطلاعات». وقال الرئيس إن رامسفيلد أراد أن يظهر أن الحرب على الإرهاب عالمية. «كان رامسفيلد يريد أن يتأكد أن العسكريين ناشطون في مناطق أخرى. وكانت نقطتي أن درجة الصعوبة يجب

أن تكون صغيرة نسبياً لأجل التأكد من أننا سنستمر بالنجاح في المعركة الأولى».

وكان أكبر همٍّ لدى تشيني استمرار الاحتمال بأن يحصل بن لادن أو غيره من الإرهابيين على أسلحة الدمار الشامل وأن يستعملوها. ولم يكن هناك ما يشير إلى أنه كان لدى القاعدة أجهزة نووية، ولكن كان هناك قلق بالنسبة للأسلحة البيولوجية والكيماوية.

وسأل تشيني: «هل يمكننا أن نقوم بعمل جيِّد بشكلٍ كافٍ في تحديد الأهداف المتعلقة بالأسلحة البيولوجية أو الأسلحة الكيماوية في أفغانستان؟ إن هذه يجب أن تكون قمة أولوياتنا».

«إننا بحاجة إلى استراتيجية مدروسة، ولكن علينا أيضاً أن نضربه قبل أن يضربنا. حدِّدُوا أهدافاً أخرى».

وقال بوش: «إننا بحاجة إلى تقصير رحلتي إلى الشرق الأقصى». وكان برنامج الرئيس يقضي بأن يسافر إلى شانغهاي لحضور اجتماع القمة لمجلس التعاون الاقتصادي الآسيوي ـ الباسيفيكي في شهر أكتوبر/ تشرين الثاني من بَعْد، ثم يزور بيجينغ وطوكيو وسيول. يجب عليهم أن يُلغوا المدن الثلاث الأخيرة. «عليّ أن أكون هنا».

وفي وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، رحَّب بوش برئيس الوزراء الياباني جونيشيرو كويزومي في البيت الأبيض. وقال لكويزومي في اجتماع خاص إن مشكلة الإرهاب مشكلتهما معاً. «في هذه الحرب الجديدة»، قال بوش، «قطع التمويل هو بنفس أهمية إلقاء قنبلة. وإعانة الباكستان هي بنفس أهمية إنزال الجنود على الأرض». سوف يكون مترَوِّياً صبوراً لأن العواقب ستكون كبيرة. «نحن غاضبون ولكننا لسنا حَمْقى».

10

في حوالي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت واشنطن من صباح اليوم التالي الأربعاء الواقع في 26 سبتمبر/ أيلول ـ كان رجل ضخم ـ عمره 59 سنة ذو وجه مستدير بهيج ويلبس نظّارات ـ يربض في مؤخرة طائرة هليكوبتر من طراز مي ـ 17 مصنوعة في روسيا وتملكها وكالة المخابرات المركزية. وكان على الهليكوبتر أن تجاهد لترتفع إلى ما يقارب الـ 5000 متر، وذلك لتجتاز ممرّ انجومان وصولاً إلى وادي بنج شهر في شمال شرق أفغانستان. وكانت الساعة هناك الثانية عشرة والنصف بعد الظهر.

وكان غاري يقود الموجة الأولى الحاسمة لحرب الرئيس جورج و. بوش ضد الإرهاب. وكان معه فريق من ضباط وكالة المخابرات المركزية السرّيين شبه العسكريين. وكان مع هؤلاء أجهزة تسمح لهم بإقامة اتصالات مباشرة محصورة بالمركز الرئيسي للوكالة. وكان بين رِجْلي غاري حقيبة معدنية كبيرة محزومة تحتوي على ثلاثة ملايين من عِمْلة الولايات المتحدة، وبشكل ورقات نقدية من فئة المئة دولار مرقّمة ترقيماً غير متسلسل. وكان دائماً يضحك عندما يشاهد عرضاً في التلفاز يقوم فيه شخص بتمرير مليون دولار في حقيبة صغيرة. هذا لا يتناسب والواقع.

وقد حدث عدة مرات أن قام غاري في حياته المهنية بحشو شنطة ظهره

بمليون دولار حتى يتمكن من التحرك وينقلها إلى أناس يقومون بعمليات أخرى. وما كان مختلفاً هذه المرة أنه كان بإمكانه أن يوزعها تقريباً على هواه.

وقد كان غاري ضابطاً في مديرية العمليات في وكالة المخابرات المركزية لمدة 32 سنة، وكان يمثّل نوعاً من العملاء السريين في الوكالة يظن الكثيرون أنه لم يعد موجوداً. وكان في السبعينيات ضابط قضايا سري في طهران ثم في إسلام أباد. وكان قد جنّد العملاء ونمّاهم ودفع لهم الأموال ووجّههم، فيما كان هؤلاء العملاء ينقلون التقارير من داخل الحكومات المضيفة. وفي الثمانينيات عمل رئيساً لقاعدة وكالة المخابرات المركزية في دبي، في الإمارات العربية المتحدة، ثم رئيساً لمحطة الوكالة في كابول. وبما أن السفارة الأمريكية في كابول كانت مقفلة آنذاك بسبب الاجتياح السوڤياتي، فإن غاري عمل من إسلام آباد. وفي التسعينيات عمل نائباً لرئيس محطة الوكالة في المملكة العربية السعودية، ثم رئيساً لمحطةٍ سرّية في الخارج تعمل ضد إيران. وكان بين سنتي 1996 و1999 رئيس المحطة في إسلام أباد، ثم عمل نائباً لرئيس قسم العمليات لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا التابع لوكالة المخابرات المركزية في لانجلي.

ويوم 11 سبتمبر/أيلول كان غاري يوشك على الخروج من الباب، ولم يبق بينه وبين التقاعد أكثر من بضعة أسابيع، وكان قد دخل برنامج الوكالة الانتقالي باتجاه التقاعد وهو برنامج طوله 90 يوماً. وحلّ محلّه ضابط آخر برتبة نائب رئيس قسم. وكانت زوجته سعيدة جداً.

ولكن غاري سُحِبَ إلى داخل الباب في يوم السبت ذاك الذي اجتمع فيه الرئيس بوش لمدة يوم كامل مع وزارة حربه في كامپ داڤيد ـ يوم 15 سبتمبر/أيلول. وكان قد تلقى في ذلك اليوم مخابرة هاتفية من كوفر بلاك، رئيس مركز مكافحة الإرهاب في الوكالة، طلب منه بلاك فيها أن يحضر إلى مركز الوكالة الرئيسي.

وقال له بلاك: «أعلم أنك تستعد للتقاعد. ولكننا نريد أن نرسل فريقاً

فوراً. وأنت الشخص المنطقي للذهاب». ولم يكن غاري ذا خبرة وحسب، وإنما كان أيضاً يتحدث الباشتو والداري، وهما اللغتان الرئيسيتان في أفغانستان.

وسيكوّن الفريق من مجموعة صغيرة من عملاء وكالة المخابرات المركزية وضباطها شبه العسكريين، وسيعملون في قسم النشاطات الخاصة التابع لمديرية العمليات، وهو قسم بالغ السرّية.

وقال غاري: «نعم، سأذهب». عندما كان رئيس محطة إسلام أباد قام بعدة رحلات سرّية إلى أفغانستان، وهناك التقى بقادة الحلف الشمالي، مُحضراً معه مبلغاً نقدياً مؤلفاً عادة من 200,000 دولار ـ كيسٌ من المال يوضع على الطاولة. وكان قد تعرَّف إلى أحمد شاه مسعود. وكان مسعود قد وحَّد الزعماء المتنافسين، وكان اغتياله يرمي دون شك إلى إفقاد الحلف الشمالي المعارض اللحمة والقيادة.

امضِ، قال بلاك لغاري، وأقنع الحلف الشمالي بالعمل معنا، ولن يكون ذلك شديد الصعوبة بسبب الوضع الراهن وبسبب أنَّ مسعود قد اغتاله قبل قليل نفس الأشخاص الذين هاجموا نيويورك والبنتاغون. هيِّء الأرض في أفغانستان حتى تستقبل قوات الولايات المتحدة، وتعطيهم مكاناً يدخلون إليه ومنصّة للعمليات.

وكان وضع الحلف الشمالي في مرحلة ما بعد مسعود غير واضح. وكان فريق غاري أول من سيواجهه. وليست هناك مؤازرة. وما هو متوفِّر بحدٍّ أدنى هو فرق البحث والإنقاذ لإخراجهم في حال حدوث خللٍ ما.

وبعد أربعة أيام، في 19 سبتمبر/أيلول، خابر بلاك غاري هاتفياً في مكتبه. سيسمَّى الفريق رسمياً «فريق الارتباط لشمال أفغانستان» وسيكون اسمه الشفري «كاسر الفكّ». وعليهم أن ينطلقوا في اليوم التالي، فيتوجهون إلى أوروبا، ومنها يذهبون إلى المنطقة ثم إلى أفغانستان بأقصى سرعةٍ ممكنة.

وكان على كاسر الفك واجب آخر. لقد وقَّع الرئيس على أمر استخباراتي جديد: كل الأمور مباحة.

«إن لديكم مهمة واحدة»، أمر بلاك. «اذهبوا وجدوا أفراد القاعدة واقتلوهم. سنستأصلهم. اقبضوا على بن لادن، جدوه. أريد رأسه في علبة».

«هل أنت جادٌّ؟» قال غاري. لقد كان لدى بلاك ميل إلى الدراميّة، وكان غاري يعرف القيود الرئاسية على القتل المباشر والاغتيال. وكان هو الرجل الذي أخبر كبار موظفي وكالة المخابرات المركزية ـ الفِرَق العليا التي كانت تقتفي أثر بن لادن ـ إنه لا يمكنهم نصب كمين لقافلة بن لادن لأن ذلك يعتبر اغتيالاً.

«تماماً»، قال بلاك. إن الصلاحية الجديدة واضحة. نعم، قال، إنه يريد رأس بن لادن. «أريد أن آخذه وأقدمه للرئيس».

«حسناً، لا يمكن أن تكون التعليمات أوضح»، أجاب غاري.

وغادر غاري واشنطن في اليوم التالي، والتقى أعضاء الفريق في آسيا. وحدث انتظار مُجنّ للفيزات والتصاريح من أجل الدخول إلى أوزبكستان وطاجيكستان.

والآن، وهو في الهليكوبتر، كان على غاري أن يقلق مدة ساعتين ونصف الساعة، هي الوقت الذي تستغرقه رحلة الطيران إلى أفغانستان. فقد كان أحد رجال وكالة المخابرات المركزية في طشقند على اتصال منتظم بالراديو بالحلف الشمالي، وكان قد أرسل رسالة بالراديو أن الفريق قادم. غير أن وصلة الراديو لم تكن أمينة، ورغم أن الأراضي التي كانوا يطيرون فوقها تُعتبر تحت سيطرة الحلف الشمالي، فإن أي عضو من الطالبان أو القاعدة معه صاروخ ستنجر أو مدفع زي ـ 23 مضاد للطائرات ويقف على رأس تلَّة يمكن أن يطلق النار على الهليكوبتر من طراز مي ـ 17 ويخرجها من الجو.

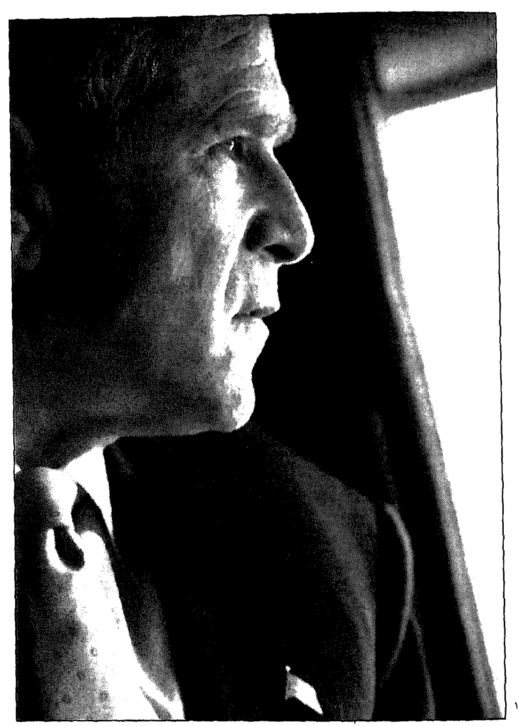
وكانت وكالة المخابرات المركزية قد اشترت هذه الهليكوبتر الروسية التي يعتمد عليها منذ ما يزيد على السنة لقاء مبلغ مليون ونصف مليون دولار. وكانت طائرات المي ـ 17 هذه مراكب بالغة المتانة عظيمة النفع، ولم تكن مراكب جميلة، ولكنها كانت تزوّد ركّابها بغطاء جيد. وكانت الولايات المتحدة قد رفعت من فعالية طائراتها عن طريق تزويدها بإلكترونيات طيران أفضل وبالقدرة على الرؤية الليلية، وصبغتها بألوان جعلتها توازي أسطول الحلف الشمالي.

وبما أنه كان على الهليكوبتر أن ترتفع ما يقارب الخمسة آلاف متر حتى تتجاوز الجبال، فإن غاري أرجع أجهزتهم وأسلحتهم وسائر رُزّمهم ليخفف من حمولة الطائرة. وكانوا قد أحضروا معهم كميات كبيرة من الطعام لأنه لم يكن لديهم أية فكرة عن الأحوال التي سوف يواجهونها، وما إذا كان عليهم أن يأكلوا من ثمار الأرض.

وكان كاسر الفك يتكوّن من عشرة رجال: غاري؛ ونائب كبير؛ وضابط قضايا شاب من مديرية العمليات كان قد أمضى أربع سنوات في باكستان ويتحدث الفارسية والداريّة بشكل ممتاز؛ وضابط اتصالات ميداني مجرّب كان قد عمل في أماكن قاسية؛ ورجل كان سابقاً في البحرية في فريق السيل؛ وعميل آخر شبه عسكري؛ وطبيب قديم في الوكالة؛ وطيّاران؛ وميكانيكي متخصص بالطائرات المروحية.

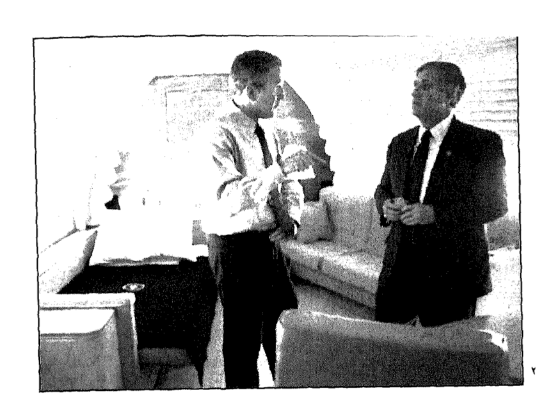
وحطّت طائرة كاسر الفكّ في حقل للهبوط يبعد نحو مئة كيلومتر إلى الشمال من كابول، في صميم أراضي الحلف الشمالي، وكانت الساعة آنذاك الثالثة بعد الظهر بالتوقيت المحلي.

ورحّب بهم ضابطان من الحلف الشمالي مع عشرة آخرين. وحَمّل هؤلاء الأجهزة على شاحنة كبيرة، وقادوا الشاحنة مسافة كيلومتر ونصف تقريباً، ووصلوا إلى بيت للضيافة كان مسعود قد أصلحه في قرية صغيرة. وكان قد

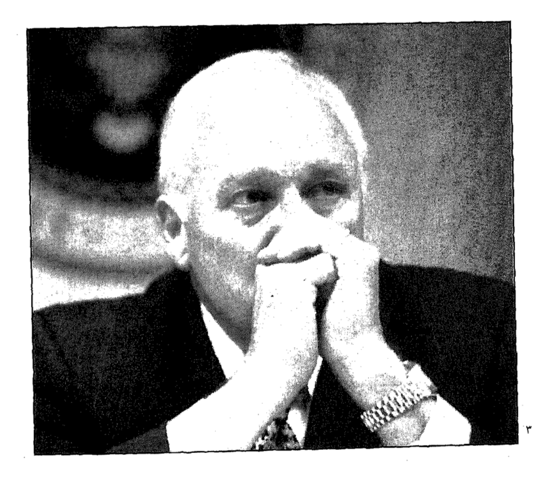


١

١ - الرئيس جورج دبليو بوش يُطِلُّ على البنتاغون المدمّر من طائرة هليكوبتر في ١٤ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١.



٢



٣



٤

٢ - بوش وكبير موظفي البيت الأبيض، أندرو كارد، يتحدثان في طائرة الرئاسة في صبيحة يوم ١١ أيلول / سبتمبر.

٣ - نائب الرئيس دِك تشيني في البيت الأبيض.

٤ - مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تِنِت يتابع الرئيس يلقي خطابه إلى الأمة.

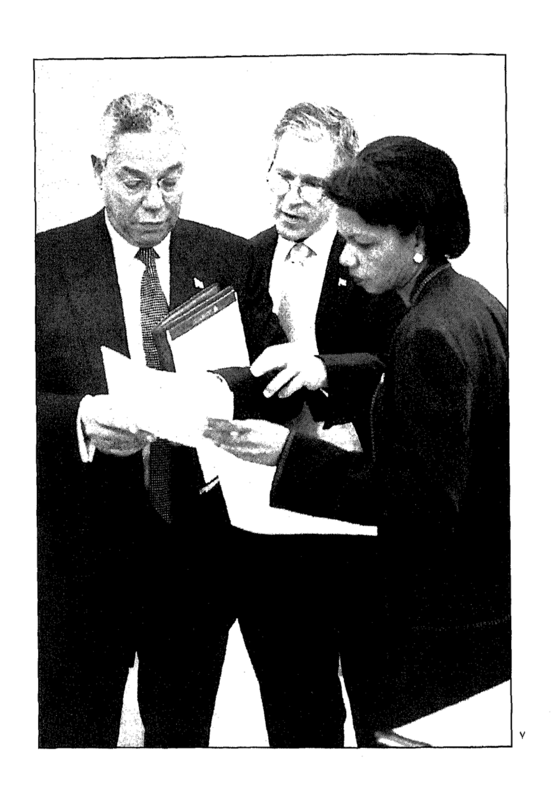
٥ - وزير الدفاع دونالد رامسفيلد يطلع مع الرئيس على الدمار الذي حل بمقر البنتاغون في اليوم التالي للحادث.

٥



٦ - بوش يجمع مجلس الأمن القومي بكامله في البيت الأبيض يوم الأربعاء ١٢ أيلول / سبتمبر. وقد جلس من اليسار : تِنِت، وزير العدل جون أشكروفت، رامسفيلد، ووزير الخارجية كولن پاول، بوش، تشيني، رئيس هيئة الأركان هيو شلتون، ومستشارة الأمن القومي كُندا ليزا رايس. وقد جلس في الخلف: نائب وزير الدفاع پول ولفوفتز، نائب وزير الخارجية ريتشارد آرمِتاج، مستشارة للرئيس كارن هيوز، نائب رئيس هيئة الأركان ريتشارد مير، والناطق الصحفي باسم البيت الأبيض آري فلايشر.

٧ - بوش يتحدث مع پاول ورايس في المكتب البيضاوي.



٧



٨

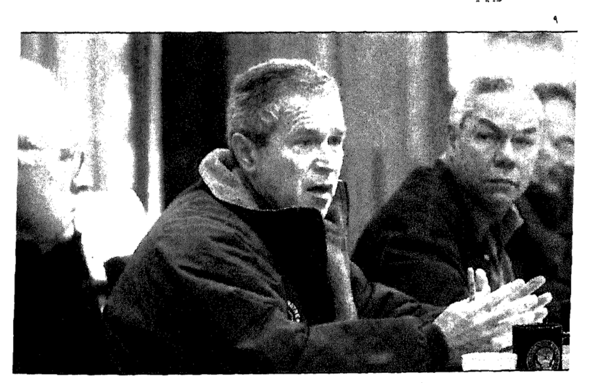
٨ ـ بوش مع متقاعدي الدفاع المدني في موقع الدمار في نيويورك قائلاً: «أنا اسمعكم، وباقي العالم يسمعكم، والذين هاجموا هذه الأبنية سيسمعونكم جميعاً في وقت قريب».

٩ ـ في كامب ديڤيد يوم السبت ١٥ أيلول/ سبتمبر، في مجلس حرب استغرق اليوم كاملاً.

١٠ ـ مدير الاتصالات في البيت الأبيض دان بارتلِت، فلايشر، هيوز ورايس مع بوش في قاعة «تريتي».

١١ ـ آرمِتاج (إلى اليسار) و ولفوڤتيز (إلى اليمين) مع السناتور جي روكفللِر، النائب الديمقراطي عن غرب ڤرجينيا.

٩





١٠

١١



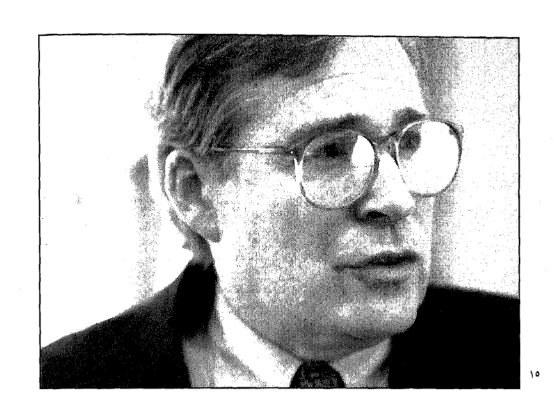
۱۲



۱۳

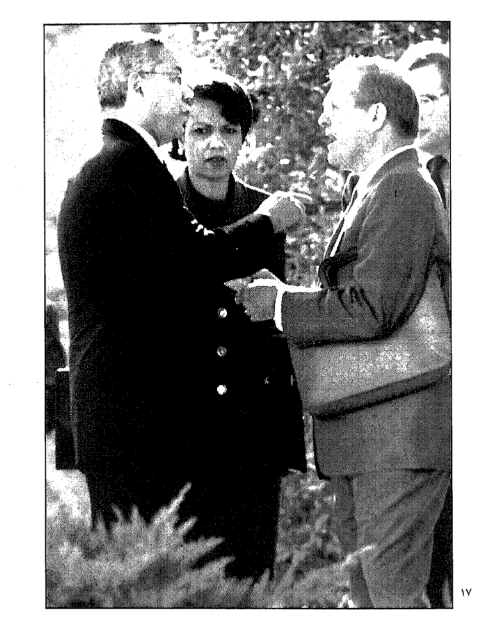


١٢ ـ الرئيس مع تينت، كارد ورايس في كامب ديفيد في أواخر شهر أيلول/ سبتمبر، عقب الاجتماع الأول لفريق وكالة الاستخبارات المركزية مع قادة تحالف الشمال في أفغانستان.
١٣ ـ وكالة الاستخبارات المركزية تضع إشارة «لا لابن لادن» على أعلى كل صفحة من صفحات تقريرها شديد السرّيّة «ذاهبون إلى الحرب»، الذي قدمته الوكالة في اجتماع كامب ديفيد يوم ١٥ أيلول / سبتمبر، ٢٠٠١ .
١٤ ـ وزير الخزانة پول أونيل إلى يمين تشيني، يلتحق بوزارة الحرب في البيت الأبيض لبحث الجانب المالي من الحرب على الإرهاب.



١٥

١٦



١٧

١٥ - نائب مستشارة الأمن القومي ستيف هادلي رأى إجراءات التخطيط للحرب على أفغانستان إجراء لابُدَّ منه.

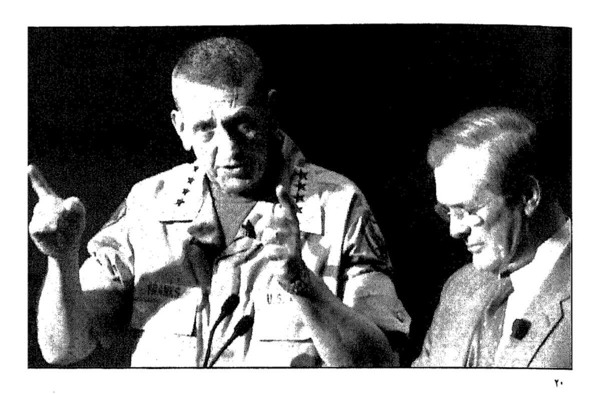
١٦ - هيوز مع كارل روف في الجناح الغربي للبيت الأبيض. بوش يقول لصديق عمره وكبير مستشاريه: «إنها مسؤوليتك أن تعرض هذه الحرب للناس».

١٧ - پاول ورامسفيلد مستغرقان في نقاش ساخن في حديقة الورود في البيت الأبيض. إنها من النوادر التي ظهر فيها التوتر بينهما للعامة. رايس وهادلي ينظران.

۱۸



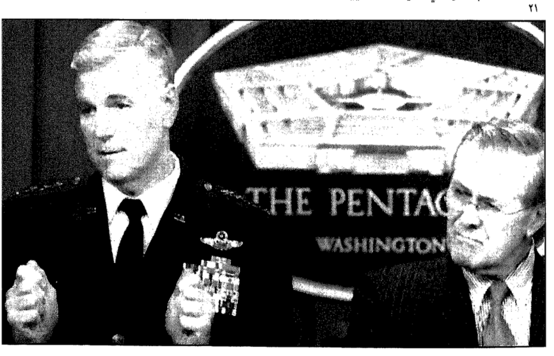
۱۹

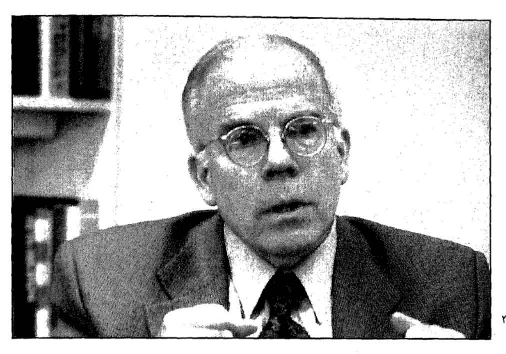


٢٠

١٨ ـ رامسفيلد في حديث للصحفيين بعد الظهر. «نحن لم نستنفد الأهداف، خلافاً لأفغانستان».
١٩ ـ كارد، رايس وباول يشتركان في لحظة انسجام. كان ذلك في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر رغم أن المزاج كان عَكِراً. في مجلس الحرب. الشتاء كان يقترب والقاذفات الأمريكية تقصف قوات طالبان ولكنها لم تجتثها. مصطلح (المستنقع المخيف) تداولته الصحافة بكثرة.
٢٠ ـ الجنرال تومي فرانكس قائد الفرقة الوسطى مع رامسفيلد في حديث للصحفيين.
٢١ ـ مايرز، الذي تولى رئاسة هيئة الأركان المشتركة في ١ تشرين الأول/ أكتوبر، ٢٠٠١، مع رامسفيلد في البنتاغون في حديث للصحفيين.

٢١





٢٢

٢٢ ـ نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون مكلكلن استجاب لطلب تنت في أواخر أيلول / سبتمبر بتقديم قائمة بأهداف الإرهاب المحتملة في الولايات المتحدة.

٢٣ ـ كوفر بلاك، رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية لقمع الإرهاب، أخبر الرئيس في حديث بينهما عن خطط سرية لعمليات مقترحة، «يجب أن تتفهم أن أناساً سيموتون».

٢٤ ـ قائد تحالف الشمال محمد فهيم يستقبل رامسفيلد.

٢٥ ـ الرئيس بوش يجتمع بالقائد الأفغاني كارازاي (في الوسط) ووزير خارجيته عبدالله عبدالله (إلى اليسار). لقد تم اختيار كارازاي المعتدل الموالي للغرب في مؤتمر رعته الأمم المتحدة في كانون الأول / ديسمبر، ٢٠٠١، والولايات المتحدة مرتبطة في العمق في إعادة بناء البلاد.



٢٣



٢٤

٢٥





٢٦

٢٦ . الأعضاء السبعة الرئيسيون في وزارة الحرب في اجتماع في البيت الأبيض شارك فيه هادلي ولويس «سكوتر» ليبي، كبير موظفي نائب الرئيس. وفي أيلول / سبتمبر ٢٠٠٢، كانت إدارة بوش منغمسة في التحرك إلى حرب العراق كجزء من سياستها الاستيلائية الجديدة.

ضُرِبَ نطاق حول القرية وأقيم حاجزان للتفتيش على طرفيه. وكان ضباط الحلف عصبيي المزاج ويرغبون في أن يكون الفريق بمنأى عن الأنظار.

وكانت مساكنهم تقع في مبنى بدائي أرضه من الإسمنت المغطى بسجّادٍ كاذب. وكان السطح يتكوّن من جذوع الشجر الممدودة من جانب إلى جانب، وفوق تلك الجذوع موادّ صناديق الشحن، يتلوها طبقة من الطين. وكان الهواء مغبرّاً اغبرار الجحيم، وكان التراب موجوداً باستمرار. وكان المرحاض حفرةً في الأرض ويمكن التبول فيها أو الإقعاء فوقها.

ولما حلّت الساعة السادسة مساء كانوا قد أمّنوا اتصالاتهم. وأرسل غاري برقية محصورة طالباً إعادة تزويدهم ببعض المؤن. وكان غاري مليئاً بالانشراح لوصولهم بالسلامة ومتنبهاً لمطلب بلاك بشأن رأس بن لادن، ودفعه ذلك إلى إضافة سطر على البرقية طلب فيه علباً متينة من الكرتون وبعض الجليد الجاف، وإذا أمكنَ بعض المسامير الطويلة المستدقّة الرأس.

وكان اجتماع غاري الأول ذلك المساء مع المهندس محمد عارف سواري الذي كان يرأس خدمة المخابرات والأمن للحلف. وكان عارف قد حث قائده مسعوداً مجادِلاً ألاّ يستقبل الرجلين اللذين اغتالاه، رغم أنهما أتيا كصحافيين حاملين رسائل توصية. ومع ذلك، فقد كان تحت ضغط عظيم ليساعد الحلف على التوحّد لأنه كان المسؤول عن الأمن، ولأن الاغتيال حدث في مكتبه.

وميّز عارفٌ غاري من لقاء في ديسمبر/كانون أول السابق، عندما قابَلَ ـ بصفته نائب رئيس قسم ـ مسعوداً في باريس. وبدا عارف مرتاحاً، وقال: «أنتَ كنتَ هناك».

وهزّ غاري رأسه، ووضع رزمةً من النقد على الطاولة: 500,000 دولار موضوعة بشكل عشر كُوَم من ورقات المئة دولار، علوُّ كل كومة مقدار ثلاثين سنتمتراً. وكان يعتقد أن هذه الطريقة أكثر تأثيراً: من طريقة الـ 200,000 دولار

المعتادة، وهي خير وسيلة للقول: إننا ها هنا؛ إننا جادّون؛ هاكم المال؛ نحن نعرف أنكم بحاجة إليه.

وقال غاري: «ما نريده منكم هو أن تستعملوا هذا المال. اشتروا الطعام والأسلحة وكل ما تحتاجون إليه لبناء قوّاتكم». وعلى المال أن يغطي نفقات عمليات المخابرات واستخدام العملاء ومصادر المعلومات. وهناك كمية أكبر منه ـ أكبر بكثير. وسيطلب غاري قريباً من المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية تسلُّم مبلغ عشرة ملايين دولار نقداً».

إن الحلف الشمالي يرحّب بك، قال عارف.

وقال غاري إن الخطة تقضي بتمهيد الطريق للقوات العسكرية الأمريكية. «لا نعرف كيف سيأتون ولا عددهم، ولكنهم جماعات من القوات الخاصة، وحدات صغيرة، كما تعرفون، رجال آتون للقيام بالعمليات، ولمساعدتكم ولمساعدة جيشكم، وللتنسيق بين قواتكم والقوات الأمريكية التي ستأتي وتهاجم جيش الطالبان. وعلينا أن ننسّق ذلك».

هذا عظيم، قال عارف.

وفي البيت الأبيض، تحدث الرئيس مع رايس على انفراد عن الوقت الذي يمكن أن يبدأ فيه العمل العسكري.

«يجب أن يكون لديّ إدراك جيد عن هذا التوقيت، متى سنكون مستعدين للانطلاق حقاً»، قال لها بوش. «لأن عليّ أن أواصل إعداد الشعب الأمريكي. لقد مرّوا بصدمة فظيعة. ولا يمكن لهم مجرّد التوقف عن الاستماع إلى ما لدينا. يجب أن أعرف متى سيبدأ شيء ما».

هل كانت تعتقد أنهم سيكونون مستعدين أوائل الأسبوع القادم ـ يوم الاثنين أو الثلاثاء؟

أجابت رايس بحذر: «إنني لا أعرف في الحقيقة»، وكان رأيها الخاص

أنه من غير المحتمل أن يكونوا مستعدين خلال خمسة أو ستة أيام. ولكنها شعرت أن مكانها لا يسمح لها بأن تخبر الرئيس أنَّ ذلك لم يكن محتملاً أو ممكناً. إن عملها هو التنسيق. وهي تبدي رأيها فقط إذا ألحّ الرئيس عليها إلحاحاً شديداً بعد أن يكون قد استمع إلى آراء الآخرين. ولم يكن الوقت قد حان بعدُ لها للكلام، ولم يكن التكهن بما قد يقوله رامسفيلد وفرانكس ممكناً. وكان رامسفيلد بشكل خاص مليئاً بالمفاجآت. «هذا سؤال يجب أن تطرحه على المجموعة»، اقترحت رايس.

وتَذَكَّرَ الرئيس في مقابلةٍ ذلك اليوم: «إن إحدى مهماتي هي أن أكون محرّضاً»، قال، «وأنا جادٌ في ذلك: أن أحرِّض الناس حتى ـ حتى أنتزع القرارات منهم بقوة، وحتى أتأكد من أنّ وُجْهتنا واضحة في أذهان الجميع. وكان هناك نوع من الإيقاع والتدفق لهذه المسألة، وكنت قد بدأت بالشعور ببعض الإحباط... لم تكن الأمور تسير نحو النضج بالسرعة التي كنا نرجوها. وكنت أحاول أن أدفع الموضوع بقوة دون أن أعرّض السلامة للخطر».

وعند تلك النقطة أدرك مدى حذر العسكريين. «إنه من الهام جداً أن تفهم كيف توازن بين رغبة العسكريين في تغطية كل الاحتمالات مرةً على الأقل، وربما أحياناً مرّتين ـ إنهم مُعادون للمخاطر نسبياً، ويجب أن يكونوا كذلك، إذ هم يعالجون حيوات الناس ـ وبين الحاجة إلى إظهار العمل العسكري لأي سبب كان».

وكان لديه عدد من الأفكار، وكانت هذه الأفكار تدفعه إلى الرغبة في أن يكون تحريضياً مع أعضاء وزارة حربه. «إن فكرة مهاجمة عدوّ ـ وهذا أمر لم أكن قد أصدرته من قبل ـ هو قرار خطير بالنسبة لأي رئيس. وكنت أريد التأكد من أن الناس يدركون أننا نستعد للقيام بهجوم، وأنني أريد توضيحات لوجهات نظرهم». وقال إنه أراد أن يسأل: «هل لدى أحدكم شك؟».

«إنني أقدر على التصرف على أساس غرائزي وحدها. إسمع، أنا نتاج عَالَم ڤيتنام. وهناك خطٌ دقيق جداً بين إدارة المعركة عن كثب ووضع التكتيكات الحربية من ناحيةٍ ـ وهذا أمر لم يرد القيام به ـ وبين التأكد من أن هناك إدراكاً، ليس للإلحاحية، وإنما للإحساس بالغائية وبالتحرك إلى الأمام». وكان قلقاً من أن الولايات المتحدة قد فقدت أفضليتها. «إن مهمتي هي التحقق من أن النصل حادّ».

«وكانت غرائزي قد بدأت تقول لي إن هناك قلقاً آخذاً بالاستفحال. وكنت أريد التأكد من أن شركاءنا في التحالف يعرفون أنّ عُودنا صلب». وكان بعض الحلفاء قد مدحوه لإظهاره التحفّظ في البداية، فأضاف ساخراً: «إن لدينا تحالفاً من الناس الذين ـ يُعْرَفُون بفكرة أن الولايات المتحدة لم تندفع إلى العمل العسكري فوراً».

وكانت زيارته إلى أرض الصفر في مدينة نيويورك ما تزال تشغل ذهنه. «هؤلاء الناس ناظرون إليك إلى عينيك، هذه الوجوه المُتْعَبة. (اقبض عليهم). وسنقبض عليهم، لا شك في ذلك». ولم يكن بعد في ذلك الوقت يشعر بضغط الجمهور. «ومن الناحية الأخرى، كان جسمي، ساعتي ـ سَمِّها ما تشاء ـ غرائزي، أُحسّ أنني أضغط».

«واضحٌ أن الرئيس ومجلس الحرب يجب أن يكونا حاسِمَيْن، ولكن ليس متسرّعين».

إذن سيكون التحريض أداةً واحدة. هل شرح لرايس أو لسائر أعضاء وزارة الحرب، أو حذّرهم، أنه يمتحنهم، وأنه يعتزم أن يكون تحريضياً؟

«طبعاً كلاّ. فأنا القائد ـ أنا لا أحتاج إلى الشرح ـ لا أحتاج إلى أن أشرح لماذا أقول ما أقوله. هذا هو الأمر الممتع في كون المرء رئيساً. ربما كان بعض الناس بحاجة إلى أن يشرحوا لي لماذا يقولون شيئاً، ولكني لا أشعر أنّي أَدين لأحدٍ بالشرح».

كان عددٌ من الأمور الملحّة قد نَضَجَ صباح يوم الأربعاء الواقع في 26 سبتمبر/ أيلول عندما اجتمع مجلس الأمن القومي.

وانتقل تينيت إلى بعض العمليات السرِّيَّة. لقد استطاعت وكالة المخابرات المركزية أن تنجز بعض الاستسلامات في الخارج ـ قبضتْ على بعض المشتبه بأنهم إرهابيون وخطفتْ بعضهم في بلدان أخرى. وكانت مختلف أجهزة المخابرات الأجنبية إمّا تتعاون مع وكالة المخابرات المركزية أو تُشْتَرَى لاعتقال المشتبه بأنهم إرهابيون.

وفي معظم الأحوال، كان المشتبه بهم يسلَّمون إلى الشرطة المحلية أو إلى وكالات تنفيذ القانون. وكانت تلك طريقة فعّالة لتجميد نشاط عملاء القاعدة المشتبه بهم إلى أجل غير مسمّى ولاستجوابهم. وكانت لدى تينيت طموحات كبيرة بالنسبة لبرنامج الاستسلام، وكان يأمل أن يُخرج من التداول مئات من المشتبه بأنهم إرهابيون، بل أكثر من ذلك. وكان لدى معظم محطات وكالة المخابرات المركزية في الخارج لوائح ومعلومات عن أعضاء القاعدة المشبوهين في بلادهم. وفي بعض البلدان ـ مثل مصر أو الأردن أو بعض الدول الأفريقية ـ حيث الحريات المَدَنيّة والالتزام القانوني الدقيق بحقوق الأفراد لم تكن قضايا هامة، كانت أجهزة المخابرات أكثر من مستعدة لتلبية طلبات وكالة المخابرات المركزية. إن التجوال المجّاني للإرهابيين في الخارج سيتوقف.

«إننا نراقب شيئاً يجري في السودان»، قال تينيت. «إننا نراقب شيئاً يجري في بلغاريا، إننا نراقب شيئاً يشمل العراقيين، وإننا نراقب شيئاً يشمل حزب الله»، المنظمة الإرهابية التي تدعمها إيران، «وجنوب أمريكا».

وأوضح تينيت إن برنامج الاستسلامات لم يكن عالمياً وحسب بل عريضاً أيضاً. والأهداف سوف تشتمل على جماعات إرهابية سوى القاعدة.

وكان واضحاً أن الرئيس قد سُرّ؛ وسأل: «عند أية نقطة ستشعر بالراحة

لدى الحديث عن هذه الأشياء؟» إن هذه لوحة تسجيل إصابات أخرى محتملة يمكن أن تُعلَن من قِبَل الحكومة.

وكانت العمليات حساسة، وكانت معظم البلدان تعارض بانفعالية، بل بعنف، أي ذيوعٍ يبيّن أنهم يتعاملون سراً مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أو أنهم مأجورون من قِبَلها. وعندما يتجمع العشرات حتى المئات من الاستعارات الناجحة، فإن الأعداد يمكن أن تُنشر.

وقال تينيت أن أول فريق شبه عسكري تابع لوكالة المخابرات المركزية قد دخل أفغانستان. إننا ننشر هناك طائرات بريداتور صغيرة مسلّحة من دون طيّارين. وقد قمنا ببعض الاتصالات. ونحن نحثّ القوات المحلية على مهاجمة بعض الأهداف الصغيرة. ولدينا الآن مخابرات واقعية تزودنا بالمعلومات عن الأهداف، وفريقنا للبحث والإنقاذ قد استقرّ هناك بحيث يمكننا إخراج بعض الناس إذا وقعنا في ورطة».

«نحن على اتصال بثلاثة قادة في الشمال. ولدينا مئة هدف سنعمل عليها». ثم ركّز على المنطقة الجنوبية وقال: لدينا في الجنوب اتصالات بالقبائل الجنوبية ـ وقد بدأنا بالحصول على بعض المداخل. ونحن نستعمل رسائل عمّا نمثّله مشابهة للرسائل التي استعملناها في الشمال. «وكان ذلك يعني أن تصريحات قوية ستؤكد أن ليس للولايات المتحدة طموحات إقليمية ولا رغبة في وجودٍ دائم في أفغانستان».

«البريطانيون لديهم مصادر في الجنوب، كما تعلمون»، أكمل تينيت. «ونحن مقترنون بهم. وسنضيف بعضاً من رجالنا إلى رجالهم. وسنحاول أن نعمل على تشجيع بعض الناس من الطالبان في الجنوب على الفرار والاستسلام». وأننا إذ نشارك البريطانيين، قال، يمكننا أن نتأكد من أن عمليات البلدَيْن أو عملاءهما لا يدهش أحدهما الآخر. لدينا مصادر واتصالات في

الجنوب، وسنحاول أن نرى ما إذا كان بإمكاننا أن ندمجها ونسيّرها كعملية واحدة بشكل فعّال.

«وبعد ذلك علينا بالطبع أن نفهم وننسّق العلاقات بين ما نقوم به في الشمال وما نقوم به في الجنوب»، قال تينيت. وكان ذلك سؤالاً كبيراً، واحداً من مسائل كثيرة عريضة مشكوك فيها.

وقال پاول إنه يعمل على الإذن بالدخول إلى أفغانستان من خلال أوزبكستان وطاجيكستان. وقال: «لقد اتصلنا الآن برئيس طاجيكستان، وقد منحنا عملياً كل ما نريده. وهو يريد أن يعمل معنا مباشرةً، من دون وسيط، ويريد منا أن نبقي علاقتنا سرِّيَّة».

وانتقل إلى عُمَان. «ستُرْسَل رسالةٌ اليوم»، قال پاول، وهي تتضمن طلباً بحقوق إقامة القواعد، «وإنني متشائم».

وكان جزء من المشكلة يتعلق بالمناورات العسكرية البريطانية المستمرة في عمان، تلك المناورات التي جعلت المساحة مكتظّة بشكل غير مريح وحَدَّتْ من توفر الأماكن المخصصة للوقوف في المطارات وما إلى ذلك، قال پاول. «والسؤال بمعنىً من المعاني هو: هل هذا سبب أم عذرٌ للتأخر في الإجابة على طلبنا؟ ولكننا ما زلنا نعمل على هذا الموضوع». ولم يكن قد ظهر من العُمانيين أية إشارات تدل على أنهم غير راغبين في التعاون، ولكن تأمين حاجات لعبة البريطانيين الحربية لم يبدُ أنه تسويغ جيد بشكل خاص لإبقاء الولايات المتحدة خارج المكان ـ خاصة وأن البريطانيين كانوا قد تعهدوا بالدعم في الحرب الحقيقية التي كانت على وشك الابتداء في أفغانستان. لعلهم قد غفلوا عن شيء، أو لعلهم يقومون بالاستقراء المبالغ فيه للموقف العُمَاني.

وكانت رايس قد اتصلت هاتفياً بداڤيد مانينغ، مستشار بلير للشؤون الخارجية. وقد أكد مانينغ لرايس أن البريطانيين لن يسمحوا للمناورات بأن تقف في طريق وضع قوات أمريكية على الأرض.

وقال پاول إنهم يعملون على قطر، وهي إحدى أصغر دول الخليج، لكي تكون محطة متوسطة محتملة لتوقف القوات العسكرية الأمريكية، وبإمكان هذه القوات أن تقفز منها إلى حاملات الطائرات التابعة للبحرية الأمريكية والتي تشكّل ورقة طافية، وتنطلق من ثَمَّ إلى أفغانستان. وكان تشيني سيتصل هاتفياً بقطر، حيث كانت له علاقات ترجع إلى حرب الخليج سنة 1991.

وقال پاول إن السودان ـ وهو مأوى مشهور بسوء السمعة للإرهابيين ـ يبدو أنه يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية. لقد تلقينا ردة فعل جيدة بالنسبة للأمر التنفيذي المتعلق بتمويل الإرهاب، «الأمر التنفيذي الذي يقضي بتجميد الموجودات الإرهابية».

وأضاف پاول: «نتوقع أن نتلقى قراراً جيداً عن الإرهاب من منظمة المؤتمر الإسلامي»، وكان يشير إلى المجموعة التي تمثّل مصالح 57 أمّة إسلامية.

وقال تينيت: «أنا قلق بعض الشيء على جماعتنا في سفارتَيْنا في أندونيسيا وماليزيا». لقد كانت هناك تهديدات. وللقاعدة وجودٌ هائل في تينك البلدين.

«سأتسلّم هذا الأمر»، قال پاول. وكانت وزارة الخارجية قد أصدرت تحذيراً سنة بشأن أندونيسيا يشير إلى أن بعض العناصر المتطرفة قد تكون بصدد التخطيط لاستهداف المنشآت الأمريكية هناك. وكانت المشاعر المعادية لأمريكا قد بدأت منذ وقت قريب بالانتقال من الأقلية الإسلامية العنيفة إلى الشعب عامةً وإلى الحكومة. وكان الرئيس الأندونيسي السابق عبد الرحمن وحيد قد سمّى الولايات المتحدة علناً «شعباً إرهابياً». وقال نائب الرئيس الحالي إن هجمات 11 سبتمبر/ أيلول قد تساعد أمريكا في «تطهير ذنوبها».

وقال الرئيس: «أريد أن نتحدث عن المعونات الإنسانية لأفغانستان، وأريد أن أسمع ما لديكم من الخيارات لتحريك الأمور في الجنوب».

وأعلنت وزارة الدفاع أنها تعمل على موضوع المعونات، وقال تينيت إنه يشتدّ في دفع الخيارات للجنوب.

«أريد التأكد من أنكم قد أَصَبْتُم في تحديد سياستنا المعلنة»، قال بوش. هل كانوا يقولون ما يفعلونه ويخططون لفعله؟ وكان واضحاً أن الكثيرين في وزارة الحرب، بما فيهم تينيت، كانوا يعتقدون أن علاقة الطالبان بالقاعدة وثيقة إلى درجة أن الفصل بينهما غير ممكن عملياً. لكن إنذار بوش إلى الطالبان كان ما زال مطروحاً على الطاولة.

«أنظر»، قالت رايس، «سنلتزم بما طلبته من الطالبان في خطابك تلك الليلة. فإذا أراد الشعب الأفغاني أن يطيح بالطالبان، فهذا حسن. ولكن ما طلبناه من الطالبان هي الأشياء التي طلبناها في خطاب الرئيس بشأن القاعدة».

«نعم»، قال الرئيس، «يجب أن نلتزم بما طلبناه».

«يجب أن نشدّد على ما طلبه الرئيس»، قال پاول. «إذا جعلنا الهدف هو الإطاحة بحكومة الطالبان، فإننا بحاجة إلى خطة حملةٍ جديدة، وستكون هناك قضية كيفية رد فعل الباكستانيين». وكان وزير الخارجية غير مرتاح لتغيير في الحكم لا مسوّغ له، وقال: «إذن هي كلمة الرئيس، هذا جيد، وهذا حيث يجب أن نبقى.

واستدرك رامسفيلد: «إذا رفضوا طلباتنا وآووا القاعدة ـ كما يفعلون الآن ـ ولم نقم بالردّ، فإن هذا يشير إلى أننا غير جادّين. وكانت عبارة «كما يفعلون الآن» حادّة. كان رامسفيلد يريد موقفاً متشدداً. كم من الزمن يمكن للإنذار أن يبقى مطروحاً على الطاولة؟ ولم يكن يريد أن يختبئ الطالبان وراء قصةٍ خياليةٍ ما. إنهم يؤون بن لادن وشبكته. وقد قال الرئيس إن الذين يؤون الإرهابيين سوف يدفعون الثمن.

«هذا صحيح يا دون»، قالت رايس، «ولكننا لم نصل إلى هذه النقطة بعد».

وذكّرت رايس المجموعة بموقفهم. «إن رسالتنا في هذه النقطة من الزمن ما تزال: استجيبوا لما طلبه الرئيس، وإلاّ فإنكم ستشاركون القاعدة في مصيرها».

وكانت المشكلة أن بن لادن والشبكة كانوا عملياً دون المتناول في ملاذهم بعد مرور خمسة عشر يوماً على الهجمات.

ولعدة أيام كانت وزارة الحرب تحوم حول السؤال الأساسي: كم من الزمن يمكنهم أن ينتظروا بعد 11 سبتمبر/ أيلول قبل أن تبدأ الولايات المتحدة بـ «النشاط» ـ كما كانوا كثيراً ما يسمّونها ـ ضد القاعدة بصورة مرئيّة؟ إن الجمهور صابر ـ أو على الأقل كان يبدو صابراً ـ إلاّ أن الجميع كانوا يريدون العمل. وإن عملية عسكرية شاملة ـ من الجوّ وبالأحذية ـ ستكون الدليل الحاسم على الجدّيّة ـ لـ بن لادن ولأمريكا وللعالم. ووقف الرئيس لإلقاء كلمة.

«هل يشكّ أحدكم في أن علينا أن نشرع في هذه العملية يوم الاثنين أو الثلاثاء من الأسبوع القادم؟» تساءل الرئيس. وكان ذلك ما سيؤكد أنه تحريض متعمّد.

وتردّدت كلماته في الغرفة. الاثنين؟ الثلاثاء؟ إنه يدفع الأمور إلى الأمام بشدة، يكاد يهدر!

وفوجئ باول بعض الشيء. وكان يعرف كأي شخص آخر طول المدة التي يستغرقها نقل القوات والتحضير الكامل لعملية عسكرية واسعة النطاق. وكان تعزيز القوات سنة 1990 ـ 1991 قبل حرب الخليج قد استغرق خمسة أشهر ونصف الشهر قبل أن يبدأ القصف بالقنابل. وكان آرميتاج يعتقد أن وزارة الدفاع كانت في ذلك الوقت سيّئة الاستعداد بشكل ملحوظ. وكان قد مضى إلى حد التعبير عن رأيه بشكل خاص أن رامسفيلد كان يبيع الرجلَ المُسِنَّ ـ مصطلحه للرئيس ـ قائمةً بالبضائع تحدد الوقت لاستعدادهم والمقدار الذي يمكنهم تسليمه في الواقع.

«إذا كان العسكريون جاهزين»، قال پاول للرئيس وللآخرين، «فإن علينا أن ننطلق». وشدّد على كلمة «إذا».

وكان تينيت يريد المزيد من الوقت ـ لإدخال فرق أخرى إلى أفغانستان، وللعمل مع رجال القبائل، ولتوزيع المزيد من المال المخصص للعمل السرّيّ، ولدراسة حاجات رجال القبائل بشكل أكمل، ولتطوير نظام لشحن الأسلحة، وللشروع في إدخال فرق القوات الخاصة. ولكن الآن، ومع احتمال بدء العمل العسكري بعد خمسة أو ستة أيام، قال تينيت للرئيس: «كلما كان لدي المزيد من الوقت، كلما كان ذلك أفضل لي، لكنني جاهز إذا كان الموعد هو الأسبوع القادم».

وقال پاول: «في أي وقت نقرر أن ننطلق، علينا أن نخبر الناس ـ أن يكون لدينا خطة لإشعار قادة العالم وغيرهم حتى لا يقرأوا عن العملية في الصحف». ولم يكن پاول يريد مجموعة أخرى من الأوساخ الديبلوماسية التي عليه أن ينظفها علاوةً على الحرب.

واتفق كل من رايس وهادلي وپاول وآرميتاج على رسم خطةٍ بالإشعار للاتصال بالقادة الأجانب الرئيسيين على مراحل مختلفة، وفي بعض الحالات ساعاتٍ وحَسْبُ قبل أن تبدأ الضربة العسكرية.

وقال تينيت: «إننا بحاجة إلى تقييم لمدى تقيّد حركتنا، لأننا ما أن نبدأ حتى يصبح احتمال الردّ ممكناً، وعلينا أن نكون مستعدّين». إن العمل العسكري الأمريكي يمكن أن يطلق العنان لهجوم إرهابي انتقامي.

«أنا موافق يا جورج»، قال الرئيس، «أنت على حق تماماً. نحتاج إلى هذا التقييم. ونحتاج إليه في الأيام القليلة القادمة. وأضاف بوش إن الأهداف في أفغانستان ستكون أنظمة الدفاع الجوي والمطارات العسكرية والمدارج وغير ذلك من الأهداف العسكرية الثابتة. أمّا ما يحدث بعد ذلك فإنه يتطلب تقييماً من رجالنا لما يحدث على الأرض ولما نراه معاً. وعلى وزارة الدفاع ووكالة

المخابرات المركزية أن يستمرّا في تطوير الأهداف». ثم أعلن الرئيس فكرة أخرى لم يكن قد أَشركَ فيها حتى رايس ـ تحريض آخر. والأحذية على الأرض قد تكون متزامنة وقد لا تكون متزامنة.

وكان ذلك على وجه الاحتمال تغييراً خطيراً، لأن الافتراض الضمني في قرار الرئيس بشأن الضربة العسكرية كان يقضي بأن يحدث الهجوم الجوي في نفس الوقت الذي يتحرك فيه الجنود على الأرض ـ وليس بصواريخ كروز تضرب خياماً على طريقة كلينتون.

ولكنه كان يتضح لهم باطّراد أن لديهم مشكلة بشأن بنية القواعد الضرورية للعمل المتزامن.

وألحّ الرئيس: «هل نحن مستعدون للبدء في الأسبوع القادم؟».

«إن القائد الأعلى للقوات المسلحة سيكون مستعداً في ذلك الوقت»، قال شلتون. «ولكن نقطة الإشكال هي فِرَق البحث والإنقاذ في القتال». وكان يشير إلى فِرَق الهليكوبترات التي يفترض أن تكون على مقربة من عمليات القتال وعلى استعداد لإنقاذ الطيّارين وأَطقُم الطائرات التي يسقطها العدوّ. إن هذه الفرق المَعْنِيّة بعمليات القصف بالقنابل في الجنوب يمكن أن تقام لها قواعد سرية في الباكستان ودول الخليج. أمّا في الشمال، فإن أيّاً من الدول التي تنتهي أسماؤها بـ «ستان» ـ تركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان ـ لم توافق بعد على إعطاء الإذن لهذه الفرق، وهو الأمر الضروري لقصف الشمال بالقنابل.

وكان الأساس الوطيد لعقيدة شلتون ومعظم الضباط العسكريين أن عمليات القتال لا يمكن أن تبدأ دون توفر الأجهزة الكاملة للبحث والإنقاذ. وأن فرق البحث والإنقاذ في القتال لهي حبل السلامة للذين يقومون بمهمات طيران قتالية، وكان هناك افتراض أن كبار الضباط العسكريين يعملون كل ما في وسعهم للتأكد من أن فرق البحث والإنقاذ في موضعها الصحيح. ولم يكن الغرض من ذلك الحفاظ على حياة الطيارين وأطقم الطائرات وحسب. فإن أي

ملاّح جوّي تُسْقَط طائرته وراء خطوط العدوّ هو رهينة محتملة. وأي شخص مرّ بأزمات للرهائن - من الـ 52 أمريكياً الذين احتجزوا في طهران خلال سنتي 1979 - 1980 إلى الذين احتجزوا في لبنان في منتصف الثمانينيات - يعرف التأثير المحتمل للرهائن الأمريكيين على السياسة الخارجية.

ويمكن أن يكون للرهائن تأثير سياسي أكبر. فأزمة الرهائن الإيرانية شلّت رئاسة جيمي كارتر وكانت حتماً عاملاً في خسارته الانتخابات لمدة أربع سنوات أخرى. وأصبحت صُوَرُ الحطام في الصحراء الإيرانية رموزاً لعجز كارتر. وفي منتصف الثمانينيات، أدّى ارتباطُ الرئيس ريغان العاطفي المبالغ فيه بمصير ستة مواطنين أمريكيين احتُجزوا كرهائن في لبنان إلى إطلاق مخطط مشبوه لاستبدال الأسلحة العسكرية الأمريكية بالرهائن الأمريكيين، وإلى فضيحة إيران - كونترا.

وقال شلتون إنه والآخرين ما زالوا يعملون على مسألة فِرَق البحث والإنقاذ في القتال.

قال الرئيس: «أخبروني يوم الجمعة»، وهكذا كان لدى البنتاغون مدة يومين.

ولم يكن رامسفيلد قد أجاب مباشرة على سؤال الرئيس بشأن الشروع بالعمل العسكري في الأسبوع التالي. وبدلاً من ذلك واجَهَ السؤالَ بشكل غير مباشر، مثيراً إحدى قضاياه المفضلة، وقلِقاً من أن التركيز على الحرب ما زال شديد الضيق، وأنه قد يُرَى وكأنه موجّه نحو أفغانستان بشكل مبالغ فيه. وقال رامسفيلد: «أرى أنه سيكون من المهمّ القيامُ ببعض العمليات المعيّنة في أماكن أخرى من العالم وفي نفس الوقت. يجب أن نفعل شيئاً على الأرض - القوات الخاصة في أفغانستان - ولكن إذا كان ذلك غير متوفر، فإنه يمكننا أن نفعل ذلك في مكان آخر». ويمكن لفِرَقِهِ أن تدخل إلى أي عدد من ملاذات الإرهابيين لتعطيل الجماعات الإرهابية وتخريبها.

وفكّر بعض الآخرين أنه يتوق إلى جعل العسكريين يقاتلون في أي مكان.

قال الرئيس بتعاطف «أنا موافق». «لا يمكننا الانتظار إلى الأبد، ولكن لا يمكننا أن نتسرّع أيضاً. ونحن نستطيع أن ندبر الأمور إذا لم يكن هناك أحذية على الأرض. وقال بوش إنهم سيُظهرون عزمهم لأن الضربة الأولى بالطيران ستتلوها ضربة ثانية وثالثة. إن القصف سيكون دون انقطاع.

«حسناً»، قال رامسفيلد، «إذا لم نحصل على أهداف، فإن الضربة الثانية والضربات التي تليها ستكون طفيفة».

وفهمت رايس شعور رامسفيلد بالإحباط. إن الأمر ليس وكأنه لديهم شبكات كهرباء ضخمة يمكن قصفها. إن أفغانستان مكان ينتمي إلى القرن الخامس عشر. فبعد أن يمحوا المجموعة الأولى من الأهداف، سيُتركون وهم يضربون الرمل.

وردّ الرئيس: «أنظروا، إن استراتيجيتنا هي أن نخلق فوضى، أن نخلق فراغاً، أن نجعل رجال السوء يتحركون. فإذا جعلناهم يتحركون، يصبح بإمكاننا أن نراهم، وبإمكاننا من ثَمّ أن نضربهم».

وأجاب رامسفيلد: «كما تعلم، إنّ حشدنا العسكري قد حقّق هذا الأثر. كانت مخيمات القاعدة خالية، وقد تَشتّتَ الإرهابيون.

وانتقلوا إلى مسألتي الدفاع الوطني ومواطن الضعف في خطوط الأنابيب والموانئ. وكلما زاد تعمّقهم في موضوع الدفاع عن البلاد، كلما زاد عدد المواضع اللّينة. لم يكن أي شيء أميناً.

وقال بوش: «لا شك أننا بحاجة إلى الاهتمام بالدفاع عن الوطن. ولكن علينا ألاّ نجعل قلقنا في هذا المجال مانعاً لنا من العمل العسكري».

«إن لدينا أساساً نفس الاستراتيجية التي كانت لدينا سابقاً»، قال الرئيس

ملخّصاً الأمور. «يجب ألاّ تطرف عيوننا. أعطوني في اجتماع مجلس الأمن القومي يوم الجمعة عن موضوع التأكد من أننا مستعدّون». وأراد أن يفكروا جميعاً بما يجب القيام به «في حال حدوث ضربات هنا».

وكان تشيني قد أمضى وقتاً في وكالة المخابرات المركزية ليحاول أن يفهم مدى متانة اتصالات الوكالة في الجنوب. وكانت الاستراتيجية قد بُنِيتْ في ذلك الوقت على استمالة بعض شيوخ القبائل. ولكن كلما ازداد تعمّقه في هذا الأمر ازداد عدد أسئلته، كلما بدت هذه الاتصالات أشد رقةً. لم تكن الاتصالات على قدر كبير من الجودة، ولم تكن قد امتدت إلى القبائل الأساسية. وكانت وكالة المخابرات المركزية تستعمل معلومات مستمدة من خرائط بريطانية قديمة ترجع إلى عشرات السنين.

وبما أن الحلف الشمالي كان الحليف الأقوى، ولديه مقاتلون حقيقيون على الأرض، فربما كان عليهم أن يوجهوا الاستراتيجية نحو الشمال، لا نحو الجنوب. وهذا يعني ملاحقة الطالبان بصورة جدِّيَّة، بدلاً من محاولة إيقاع الشقاق بينهم. ربما يجب عليهم أن يحاولوا مجرد قطع رأس قيادة الطالبان، قال تشيني.

11

في حوالى الساعة الثالثة صباحاً بتوقيت واشنطن يوم 27 سبتمبر/ أيلول ـ ظهراً في وادي بنج شير Panjshir في أفغانستان، جلس غاري، رئيس فريق كاسر الفكّ، مع الجنرال محمد فهيم، قائد قوات الحلف الشمالي، والدكتور عبد الله عبد الله، وزير خارجية الحلف. ووضع غاري مليون دولار على الطاولة، مفسّراً أنه بإمكانهما أن يستعملاها كما يجدانه مناسباً. وقال فهيم إن لديه حوالى عشرة آلاف مقاتل، وإن كان الكثيرون منهم غير مجهزين تجهيزاً جيداً.

«إن الرئيس مهتمّ بمهمّتنا»، قال غاري، «وهو يريدكم أن تعرفوا أن القوات الأمريكية آتية، ونريد تعاونكم، وأن الرئيس مهتمّ شخصياً بهذا الموضوع». وقد ركّب غاري جهاز اتصال أمني مع واشنطن، وقال بمبالغة: «كل ما أكتبه وأرسله إلى واشنطن يراه الرئيس. هذا الأمر إذن مهمّ». وأضاف دون مبالغة: «إن هذا مسرح العالم».

«نحن نرحب بكم»، قال فهيم. «وسنعمل كل ما في وسعنا». ولكنه أضاف بعض الأسئلة: «متى تبدأ الحرب؟ متى سيصل رجالكم؟ متى ستبدأ الولايات المتحدة بالهجوم فعلاً؟».

«لا أعرف»، قال غاري. «ولكن ذلك سيكون قريباً. يجب أن نكون

مستعدين. فعلى القوات أن تُنقَل، وعلينا أن نجمّع الأشياء. وستعجبكم الأمور. إنكم لم تروا قطّ شيئاً يشبه ما سنوجهه إلى العدو».

* * *

وفي واشنطن بدأت رايس يوم الخميس الواقع في 27 سبتمبر/ أيلول بقلقٍ عميق، ليس وحسبُ حول ما قد يمكنهم توجيهه إلى العدوّ، ولكن أيضاً متى يكون ذلك ممكناً. وكان من الواضح من استطلاعاتها لآراء بعض الرؤساء أن هناك اضطراباً. وندما قال الرئيس إنه يريد قراراً يوم الجمعة ـ غداً ـ بدا وكأن الجميع يسلّمون: نعم سيّدي. ولكنها كانت تعلم أن هناك شكوكاً.

وكانت رايس قد رتّبت أن تذهب مع تشيني إلى لانغلي لاحقاً ذلك اليوم للاستماع إلى اطلاع عن الحلف الشمالي في المقرّ الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية. وكان الكثير يتوقف على الحلف.

وعرض عليهما تينيت وبعض خبرائه خرائط سرية جداً لأفغانستان، عليها دبابيس صغيرة ملوّنة تعيّن مواقع الحلف وقواته. إن لدى الحلف ما بين عشرة آلاف وثلاثين ألف مقاتل. وخطر لرايس أن هذا تراوح ضخم، ولا يوازي الرقم الذي كان في التداول، وهو عشرون ألفاً.

واعترف خبراء وكالة المخابرات المركزية أن هناك ثغرات، ثغرات هامة. ولكن فريق كاسر الفك هو الآن على الأرض مع الحلف، وستذهب فِرَقٌ إضافية للإجابة على أسئلتهم. ولم تكن هناك طريقة موثوق بها لتحديد أشدّاء المقاتلين دون تفحّص على الأرض من جانب رجال الوكالة شبه العسكريين وخبرائها في العمليات. هؤلاء يمكنهم أن يقدّروا الأمور بسرعة. وستصل قريباً تقارير من الفريق الأول.

وكان بإمكان رايس أن ترى أن وكالة المخابرات المركزية منظّمة، وأن سنواتٍ من العمل السرّي والتمويل قد أدت بوضوح إلى نتائج جيدة.

أمّا الجنوب، وهو معقل الطالبان، فقد كان قصة مختلفة. وقد كان لدى وكالة المخابرات المركزية هناك نحو 12 مصدراً فقط. وكان هناك القليل من الدلائل على وجود مقاتلين للمعارضة.

وصعد تشيني ورايس للقيام بجولة على المركز الجديد الذي كان قد أقيم لتتبُّع عمليات الإرهاب.

وقيل لرايس: «الرئيس على الهاتف، وهو يريد التحدث معك».

وسأل بوش: «أين أنتِ؟».

«إنني في الوكالة»، قالت رايس. إنها كانت تحضر اطلاعاً عن الحلف الشمالي.

«متى سترجعين؟» سأل الرئيس ببعض الإلحاح.

«بأسرع ما تشاء لي»، قالت رايس ضاحكةً.

«ماذا سأسمع غداً؟».

قالت رايس إنها غير متأكدة ولكنها ستستخبر عن هذا الموضوع. وهناك ناس حولها في مركز العمليات. «دعني أتصل بك عندما أصل إلى السيارة».

وكانت الساعة تشير إلى حوالى السادسة و45 دقيقة مساءً عندما اتصلت رايس بالرئيس من الهاتف الأمني في سيارتها.

وسأل الرئيس: هل سأسمح ما أظنّ أني سأسمعه غداً؟

أنتَ تعلم، سيدي الرئيس، إنهم يعلمون ما في وسعهم ليكونوا مستعدين، قالت رايس. ولكن يجب أن تتذكر أن هذا الأمر صعب.

صاح بوش «لماذا؟ هذا غير مقبول».

وبدأت رايس بالشرح: إنهم يواجهون مشكلة دائرية. فمن دون المخابرات لا يمكنهم تحديد الأهداف بفعالية ودقة. ولكن الحصول على

المخابرات مشكلة لأنهم لم يتمكنوا من وضع عددٍ كافٍ من الناس على الأرض. وانقطعت محاولتهما عندما توقف الهاتف الأمني عن العمل.

وعادا إلى الاتصال ثانيةً، إلاّ أن الخطّ لم يكن واضحاً.

«أنا قادمة إلى البيت الأبيض»، قالت رايس، «سآتي لأراك حال وصولي إلى هناك».

ولكن الرئيس كان راغباً في الكلام.

ما هي القصة؟ ماذا يجري؟

سيدي الرئيس، قالت رايس، إن توقعاتك من حيث الزمن لا تتسق على الأرجح مع توقعات العسكريين. وقد لا يكونوا مستعدين تماماً.

وكان خط الهاتف يجيء ويروح.

«سيدي الرئيس، أنا الآن على شارع إي. سأتصل بك».

ولما وصلت رايس إلى البيت الأبيض، أسرعت إلى مكتبها. وكان مُطارد الهاتف على الهاتف الأمين. فكرّرت ما كانت قد قالته له من السيارة، وهو أن العسكريين ليسوا مستعدين كامل الاستعداد.

«هذا غير مقبول!» قال بوش مرة أخرى. «لماذا؟»

وقالت رايس إنها ستأتي إلى سكنه وتشرح له الأمور بتفصيل أكبر. وصعدت إلى سكنه ونشرت أمامه المشكلات المتعددة. إن هذا الأمر صعب بالنسبة للبنتاغون ـ ليس هناك بنية تحتية تُذكر في المنطقة، ولا قواعد، والمخابرات الآتية من الأرض ضعيفة في هذا الوقت، والأهداف ضئيلة، وقد بدأ الطقس يسوء. كانت هناك مشكلة أخرى، كما كان بوش يعلم، وهي أن فريق البحث والإنقاذ في القتال للطيارين لم يكن قد وُضع في المكان الملائم بعد. أظنُّ أن المسألة الرئيسية يوم الجمعة يجب أن تكون محاولة تحديد طريق السير قُدُماً، وليس محاولة اتخاذ قرار، أشارت رايس.

وتذكّر الرئيس فيما بعد هذا التعاقب للأحداث، «أنا مستعدّ للمضيّ»، قال بوش، «أنا أحياناً كذلك ـ ناريّ، ولكن، من الناحية الأخرى، مهمةُ رايس هي أن تتحمَّل الوطأة العظمى لبعض هذه النار ـ فتحدُّ منها قليلاً. وهي جيدة في القيام بذلك». وقال إنها مجرَّد طبيعته أن يكون نارياً.

«كنت قد بدأت بالإحساس بشيء من فقدان الصبر. وإنه يمكنني أن أكون شخصاً غير صبور. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني أشعر بالارتياح ـ أحد الأمور التي أشعر بالارتياح فيها أنني أستطيع أن أكون تلقائياً، لا أستند إلى نص مكتوب أو أُعيد ما قد تمرَّنت عليه مع كوندي. تلك هي طبيعة وظيفتها: أن تستوعب ما ـ أن تقدِّم العون، كما تعرف، وتقول ما معناه: حسناً، سيدي الرئيس، أنا أقدِّر وجهة النظر هذه، وأعتقد أنه ربما عليك أن تفكِّر قليلاً بهذه الطريقة».

وعندما رجعت رايس من سكن بوش، اتصلت هاتفياً برامسفيلد «دون»، قالت له بحذر، محذرةً إياه، «أعتقد أن عليك أن تكون مستعداً غداً لتبليغ الرئيس كيف يبدو الخط الأمني في الواقع، لأنني أعتقد أن توقعاته لا تنسجم مع ما ستتمكَّن من قوله له. وأظنّ أنه سيتقبَّل ذلك، ولكنه من المهمّ أن يكون لديه الآن في الحقيقة رؤية واضحة عن مقدار الزمن الذي نتحدث عنه».

«سأكون مستعداً للقيام بذلك»، أجاب رامسفيلد.

واجتمع الرؤساء من دون الرئيس لاحقاً ذلك المساء. وقال تشيني إنه تحدث مع أمير قطر.

وقال باول: «لقد كنت ناشطاً. وقد سعيت وراءه مرتين». وكان هذا يعني تحذيراً دبلوماسياً. «نحن نعمل على هذا الموضوع».

وقال تشيني: «إن الرئيس يريد أن يتفادى وضع أية قيود اصطناعية أو خطوط زمنية على عملنا العسكري. لنقمْ بالأمر بشكل صحيح. دعنا لا نقوم بشيء أحمق لغايات العلاقات العامة».

ووافقت رايس.

وقال تشيني: «إن العمليات الجوية من دون أحذية على الأرض قد تبدو ضعيفة، كما تعلمون». وفي الوقت نفسه لم يكونوا يريدون إجبار «رجالنا» للقيام بعمل بسبب تأثيره على العلاقات العامة. «افعلوا ما تفعلوه لأنه ذكي».

«لقد تحدثنا عن النظر فيما إذا كانت هناك أية خطط لعمليات عسكرية خارج أفغانستان»، قال پاول.

«نعم»، قال رامسفيلد، «إنني أبحث هذا الموضوع».

ورغم كل الدفع الذي كان يقوم به رامسفيلد، لم تكن لديه أية خطط كانت قد توصّلت إليها وزارة الدفاع.

وقال پاول إن رجاله اجتمعوا مرة ثانية بالأوزبكيين للحصول على الإذن باستعمال أراضيهم. وكان لدى الأوزبكيين سؤال: «ماذا نفعل إذا عرَّضنا عملكم العسكري للخطر؟».

وكان هذا سؤالاً جيداً، إلاّ أنه مرَّ دون جواب.

وقال پاول أيضاً إنهم على وشك الحصول على اتفاق على قرارٍ من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يتبنّى أمر الرئيس التنفيذي بتجميد موجودات الإرهابيين على النطاق العالمي. وسيكون من الجيد جداً جعل الحرب، على الموجودات المالية، عالمية.

ونقل پاول أيضاً أنه سيُعقد اجتماع في اليوم التالي في ألمانيا للبلدان التي ستتبرَّع بالأموال لإعادة بناء أفغانستان. ويجب أن يكون ذلك جانباً مرئياً من استراتيجية التحالف، وحافزاً للأفغانيين على تحرير أنفسهم. إن عليهم أن يعلموا أن هناك قدراً كبيراً من المال لمساعدتهم على إعادة بناء بلدهم إذا كانوا مستعدين للقيام بما عليهم أن يقوموا به.

وقال رامسفيلد إن الجنرال فرانكس مستعد لقبول ضباط ارتباط من حكومات التحالف في مقره الرئيسي في تامبا، بولاية فلوريدا.

وبدا أن الآخرين موافقون على أن هذه هي الخطوة الأولى لجعل أعضاء التحالف يساهمون بقوات. إذ ذاك يستطيع فرانكس أن ينظر فيما يقدِّم ويرى ما يمكن أن يكون مفيداً في الواقع.

وقال شلتون: «سيكون لدينا طائرتان من طراز سي ـ 17 بعد الأسبوع القادم مستعدتان للرمي من الجو بالمؤن والراديوهات والبطانيات، وسنقوم بذلك بشكل متزامن مع عمليتنا العسكرية».

«إن مجهوداً إنسانياً كبيراً أمر مطلوب»، قالت رايس. «علينا أن نطوِّر حملة إنسانية ونشرع فيها في الأسبوع القادم». وبدا عليها الإحباط. فالرؤساء، باستثناء باول، يبدون أكثر اهتماماً بالحرب منهم بالمعونات الإنسانية التي شدَّد الرئيس عليها. «علينا أن نوضح على لسان رئيسنا أنه سيكون هناك مجهود كبير لمساعدة الشعب الأفغاني».

«أنا ما زلت قلقاً بشأن فرق البحث والإنقاذ في القتال»، قال شلتون. «إن فرانكس يقول إن العمليات الخاصة ستكون جاهزة بعد عشرة أيام من نقطة الانطلاق». ولكن فِرَق العمليات الخاصة لا يمكن أن تذهب إلى أي مكان في غياب الحقوق لإقامة القواعد في المنطقة. فيبدو أن وضع الأحذية على الأرض أمر سوف نُضطر لتأخيره.

«انظروا»، قالت رايس، «يجب أن نقفل موضوعَيْ قوات العمليات الخاصة وفرق البحث والإنقاذ في القتال. ماذا لدينا؟ ماذا سنفعل؟» واستمرّت في الحديث بعض الوقت.

وانتقلوا إلى صُدَاع آخر. إن الجزيرة، وهي محطة التلفاز العربية التي تبث من قطر، قد فتحت مسارب الفيضان لدعايات بن لادن، وهي تبث

تصريحاته بكاملها، فتقوم شبكات التلفاز الأمريكية بالتقاطها وتبثها، وإن جزئياً.

وكانوا في صراع، لأنهم كانوا يريدون بعض الأشياء من قطر ولكن في الوقت نفسه لم تكن الحرية الممنوحة للجزيرة تعجبهم.

«بالنسبة للأوزبكيين»، قال تشيني وقد نفد صبره، «إن وَفْدَنا إليهم ليس رفيع المقام بشكلٍ كافٍ. إننا بحاجة إلى جولة ناشطة مطَّردة في المنطقة يقوم بها شخص رفيع المقام». وكان جون ر. بيرتون، وكيل وزارة الخارجية لشؤون مراقبة الأسلحة والأمن الدولي، هو الذي يتعامل مع الأوزبكيين. «ويمكن للرئيس أن يتصل هاتفياً. نحتاج إلى مكالمة هاتفية من الرئيس إلى كاريموف. يجب أن يذهب أحد ويحسم هذه المسألة».

وكانت تلك ملاحظة ذات مغزى لپاول، الذي كان مسؤولاً عن محاسبة الأوزبكيين.

وكان يوم الجمعة الواقع في 28 سبتمبر/ أيلول هو اليوم الذي حدَّده الرئيس لاتخاذ القرار بما إذا كان القصف بالقنابل سيبدأ في الأسبوع التالي. وكان جون مالكوخلين هو الذي أُسند إليه تبليغ بوش إعلام الرئيس اليومي، حالاً محل تينيت لمدة يوم واحد. وكانت ذاكرةُ مالكوخلين لا تُصدَّق، وكان مشهوراً بالقدرة على استيعاب كمية كبيرة من المعلومات ثم القيام بعرض النقاط الهامة منها.

وقبل سنة من ذلك الوقت، عندما كان الحاكمُ بوش المرشحَ الجمهوري لرئاسة الجمهورية، أُرسل مالكوخلين إلى تكساس للقيام باطلاع روتيني مُدَّته ساعة للمرشح. وطلب مالكوخلين آنذاك أن يبدأ بنكتة. فأجاب بوش: «فقط إذا كانت جيدة».

وأخبر مالكوخلين بوش أنه زار روسيا سرّاً، متظاهراً بأنه سائح، وتوقف

في المكان الذي أُطلقتْ منه الرصاصة الأولى للثورة الروسية. وكان الدليل السياحي قد قال: «كانت هذه الرصاصة المفردة أقوى رصاصة أُطلقت على الإطلاق: انطلقتْ وتسبَّبتْ في سبعين سنة من الخراب الصِّرف».

وضحك بوش ضحكة خافتة. وكان مالكوخلين ما يزال في أوائل اطلاعه عندما بدأ بوش بطرح الأسئلة. واستمرَّ الاطلاع مدة أربع ساعات. ووجد مالكوخلين بوش مستمعاً جيداً لا يُخيف. وعندما رجع إلى الوكالة قال لهم: «إذا انتُخب هذا الرجل فإنه يحسن بالمسؤول عن الاطلاع أن يكون مستعداً للأخذ والردّ».

وفي المكتب البيضوي صباح يوم الجمعة، استعرض مالكوخلين التهديدات. يبدو أن هناك الكثير من المؤامرات الجارية؛ وأن لدى القاعدة مخططات لهجمات أكبر.

«لماذا لم يحدث شيء، في رأيك؟» سأل بوش. فقد كان هناك الكثير من الثرثرة عن التحذيرات.

«بسبب أمور أمنية»، أجاب مالكوخلين. «فما نقوم به مهمّ». سَحْبُ الناس من الشوارع وتجميد الأموال، بحيث أن الشخص الذي يريد شراء جوازات سفر مزوَّرة لفريقٍ ما لا يستطيع الحصول عليها. وهناك أيضاً، قال مالكوخلين، قرار الرئيس بإعطاء الصلاحية لوكالة المخابرات المركزية باتخاذ موقف هجومي ـ بنقل ميزان جهودهم من الدفاع إلى الهجوم ـ ، وهذا القرار أحدثَ فرقاً أيضاً.

«متى يجب أن نبدأ بالعمل العسكري في رأيك؟» سأل بوش، مخفضاً صوته بشكل غريزي.

«سيدي الرئيس»، قال مالكوخلين، «القرار يعود إليك. ويمكنني أن أعطيك رأيي الشخصي فقط».

«هذا كل ما أطلبه».

«حسناً: بناءً على ما أراه الآن واستناداً إلى أين نحن الآن، أرى أن نعطي أنفسنا مدة أسبوعين آخرين للعمل مع شيوخ القبائل هؤلاء، وتقييم حاجاتهم، وعَمْل نظام لتوصيل الأسلحة إليهم، وللبدء بإدخال القوات الخاصة، أرى أن نعطي أنفسنا مدة أسبوعين آخرين».

«شكراً»، قال الرئيس.

عندما اجتمع مجلس الأمن القومي في وقت لاحق من ذلك الصباح، كانت رايس قلقة من أن الاجتماع لن يكون بهيجاً.

«يجب أن نعيد تقييم التوقيت والاستراتيجية للعمليات العسكرية»، قال الرئيس فوراً. «وقد قلت يوم الأربعاء إن قراراً سيتخذ يوم الجمعة» ـ ذلك اليوم. «قد نحتاج إلى وقت أطول»، قال بوش.

واستغربت رايس أن الرئيس كان يخفف من بعض الضغط.

«أنا مستعدٌ للكلام عن ذلك»، قال رامسفيلد، إلاّ أنه انتظر دوره.

وقدَّم تينيت وجهة نظر مختلفة بعض الشيء عن وجهة نظر نائبه مالكوخلين. «يجب أن نقوم بشيء في الأسبوع القادم». قال تينيت. «والناس في المنطقة لم يتخذوا مواقف معينة بعد. والقيام بعمل في الأسبوع القادم سيساعد». وذكر الانقسامات داخل خدمة المخابرات الباكستانية. «بعضهم يحبِّذ أسامة بن لادن، وبعضهم يعارض أسامة بن لادن». ورئيس الخدمة مُناصرٌ للملا عمر والطالبان بشكل واضح. «إن هجوماً في الأسبوع القادم أمر معقول. وإنني لأرغب في سماع خطوط خطة متكاملة ناجحة، لأنه سيكون هناك ردٌّ ثأري، وهناك الكثير من الإنذارات بالتهديد آتية من الخارج». وكانوا يراقبون إمكانات الطالبان العسكرية بانتظام بواسطة الأقمار الصناعية.

«لقد كانت هناك رسالة مفخَّخة إلى سفارتنا في تشيلي»، قال باول. وكان

الطرد البريدي الكبير ـ وهو مُعَنْوَنٌ إلى سفير الولايات المتحدة، وقد أوصله ساعي بريد تشيلي ـ يحتوي على كمية من المتفجرات تكفي لجرح مَن يفتحها على نحو خطير. وكان الحرّاس في مجمّع السفارة المحصَّن بكثافة ـ وهو يعتبر الأكثر أمناً في العالم ـ قد أعلموا الشرطة، فدخلت السفارة فرقة متخصصة بالقنابل. «وصلتنا معلوماتٌ سرّية من الاستخبارات، ففجرنا الطرد»، نقل پاول. ولم يعلن المسؤولية أي طرف، ولم تبدُ هذه الحادثة مرتبطة بحادثة 11 سبتمبر/ أيلول.

وانتقل المجتمعون إلى مشكلات الإرهابيين في إندونيسيا والفيليبين، حيث كانت هناك جيوب مكينة للقاعدة. ما مدى قدرة الولايات المتحدة على تشجيع الحكومتين هناك للقيام بالمزيد من العمل على مكافحة الإرهاب، ولجعل هذا العمل أفضل؟ وكانت الصورة غير واضحة.

«لقد قمنا بتأليف تصريح للرئيس بشأن المجهود الإنساني الذي سيصاحب عملياتنا. وقد حصلنا على خريطةٍ من وكالة التنمية الدولية أعطيناها للبنتاغون، ومنها تحديد للأماكن التي هي بغاية الحاجة إلى المعونات الإنسانية الملقاة من الجوّ»، عرض پاول. ووكالة التنمية الدولية تنسّق برامج الإعانة التابعة لحكومة الولايات المتحدة في الخارج.

إن هناك المئات من الأرواح التي يمكن أن تكون في خطر شديد؛ وإن المعاناة الاحتمالية لعشرات الآلاف من الأشخاص يمكن أن تُخفَّف إذا وصلت المعونات الملقاة من الجوْ.

وكانت أوزبكستان قد قرّرت أن تستقبل فريقاً للتقييم مؤلفاً من خمسة عشر عسكرياً أمريكياً. وكان هؤلاء سيدخلون أوزبكستان ويبحثون ما إذا كان ممكناً وملائماً إطلاقُ فِرَق البحث والإنقاذ في القتال من أراضيها. وكان هناك بعض التفكير أيضاً في جعل الأوزبكيين يسمحون لفرق القوات الخاصة بالقيام

بعملياتها هناك. وكان الأوزبكيون يريدون ضمانات أمنية، وكانوا قلقين بشأن حماية حدودهم.

وقال وزير الخارجية إنه يحتاج إلى بيان واضح عما يمكن أن يقوله الآخرون، بما في ذلك الديبلوماسيون، عما سنفعله.

«وما يمكن للناس القيام به للمساعدة»، اعترض الرئيس.

وقال هادلي إنهم قد شرعوا في العمل على هذا الموضوع وستكون لديهم مسوَّدة في ذلك اليوم.

وقال رامسفيلد إنه سيراجع فرانكس بعد ظهر ذلك اليوم ليرى أين موقعهم. «هناك مطار أوزبكي يقع على بُعد ما بين 12 و16 كيلومتراً من المطار الرئيسي. سنرسل فريقنا للتقييم، وسنرى إذا ما كان يمكن لمهبط الطائرات أن يستوعب طائرات سي ـ 5»، وهي طائرات نقلٍ عملاقة. «وسيكون رجالنا على الأرض بعد 24 ساعة، وسيقيِّمون ما إذا كان المهبط يفي بحاجاتنا. فإذا كانت المدرجات في حالة جيدة، فإنه يمكننا أن ندخل فرق البحث والإنقاذ في القتال. وإذا لم تكن المدرجات في حالة جيدة، فيجب أن ننظر ونرى ما إذا كان بإمكاننا أن نجعلهم يسمحون لنا باستخدام المطار الرئيسي. فنحن الآن قادمون على مرحلة عمليات مع الأوزبكيين».

«وإذا رفض الأوزبكيون»، قال الرئيس، «ما هي الخطة؟».

«إذا لم يكن لدينا فرق للبحث والإنقاذ في القتال في الشمال، فإنه لا يمكن لك أن تقوم بعمليات جوية في الشمال»، أجاب رامسفيلد، «فقط في الجنوب». وكان رامسفيلد بذلك يتمسك بمطلب العسكريين القاضي بأنه لا يمكن إطلاق العمليات العسكرية دون توفر فرق للبحث والإنقاذ في المنطقة المحاذية لموضع الضربات العسكرية بشكل عام.

وكان مركز العمل الرئيسي بالنسبة لتينيت هو الشمال. ولم يكن لديه أي

عمل أو القليل من العمل في الجنوب. والآن بدا وكأن تركيز القصف بالقنابل سيكون معاكساً تماماً: لا شيء في الشمال، وفقط في الجنوب. وسيكون ذلك تزاوجاً غير ملائم على الإطلاق.

«ما الموقف من إطلاق فرق البحث والإنقاذ في القتال من روسيا؟» سأل الرئيس. وكان بوتين قد قدم عرضاً في هذا الشأن.

«نحتاج إلى بعض التنسيق هناك»، قال رامسفيلد.

«ما الموقف من إطلاق فرق البحث والإنقاذ في القتال من طاجيكستان؟» سألت رايس.

«سنتحدث مع فرانكس عن هذا الموضوع»، قال رامسفيلد. «إذا نجحنا في ذلك، يمكن أن تكون فرق البحث والإنقاذ في القتال هناك في مدة أربعة إلى خمسة أيام».

وكان قصف الشمال بالقنابل مدلّىً من هذا الخيط.

ولخّص رامسفيلد الأمور قائلاً: «إن فرق البحث والإنقاذ في القتال هي الآن في رامشتاين» ـ القاعدة الأمريكية في ألمانيا. «لم يعطنا الأوزبكيون بعد الضوء الأخضر لإنزال القوات الخاصة. عُمان ستعطينا فرق البحث والإنقاذ في القتال للجنوب. ونحن نبحث الخيارات للقوات الخاصة في الجنوب. فالأمور الثلاثة التي نتفحصها الآن تتضمّن مخاطر كبيرة».

وأخيراً أعطى وزير الدفاع جوابه: «إذا أنهينا تقييمنا في أوزبكستان في مدة 24 ساعة وكان مهبط الطائرات في حالة جيدة، فإنه يمكننا أن نكون مستعدين للانطلاق في خلال خمسة أيام، وهذا يعني يوم الخميس في أبكر تقدير. ويوم السبت أكثر احتمالاً».

«يمكنك أن تبدأ في الجنوب ثم تعمل في الشمال في وقت لاحق»، قال بوش «هل نحن مستعدون للانطلاق في الجنوب؟».

وانتقل رامسفيلد إلى لائحة الأهداف ـ ومجموعها 700 هدف.

«كم هدف من هذه الأهداف يقع في الجنوب؟» سأل بوش.

«سنعرف ذلك اليوم»، قال رامسفيلد، وهو يحرف الموضوع. فالأهداف لم تكن مقسمة بحسب الشمال والجنوب.

ثم أثار رامسفيلد أحد الموضوعات المفضلة للرئيس. قال أن لديهم طائرتين من طراز سي ـ 17 جاهزتين للانطلاق، ويمكنهما تزويد الأفغانيين بـ 37,000 وحدة من الوجبات. «وسيكون ذلك مقارباً للضربة العسكرية في الزمن، ربما بعده بيوم واحد».

وقال شلتون: «سنكون مستعدين ابتداءً من يوم الاثنين لجعل ذلك متزامناً مع الضربة العسكرية»، وكان يعني أنه بإمكانهم إسقاط القنابل والوجبات في الوقت نفسه.

«وسنقوم بإسقاطات سيكولوجية»، قال رامسفيلد. وكان يشير إلى ما يسمّى بالعمليات السيكولوجية. ستُسقَط أوراقٌ تفسِّر أن الولايات المتحدة هي في أفغانستان لتحرير الشعب الأفغاني من الغُزاة: بن لادن والقاعدة، وأن تلك الحرب ليست حرباً ضد الإسلام. أما بالنسبة للعمليات الخاصة في الشمال، فإن رامسفيلد ذكَّر الجميع قائلاً: «ليس لدينا أية قواعد».

وكان قد بدأ يتضح أن أفضل هدف هو في الشمال حول كابول. وقد بدا هذا الهدف من المخابرات أنه مكان يمكن أن تكون القاعدة تستخدمه لصنع الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. (واكتشفت المخابرات الأمريكية من بعد أنه معمل لصنع السماد الزراعي).

وقال رامسفيلد إن القيام بعمليات خاصة مبكرة أمر غير ممكن». لا نستطيع أن نقوم بذلك في الشمال، وليست لدينا بالفعل أهداف جيِّدة في الجنوب بَعْدُ». إن وضع الأحذية على الأرض في وقت مبكر لن يحدث.

«انظروا»، قال الرئيس، مشيراً إلى استسلامه لرأي العسكريين، «يمكننا أن نقوم بعمليات خاصة في وقت لاحق. هل هناك مشكلات في التنسيق؟».

وأجاب رامسفيلد: «نحن نعمل مع وزارة الخارجية على الترخيصات التي نحتاج إليها، والتنسيق جيِّد حتى الآن. وصِلاتُنا بجماعة المخابرات جيدة».

وكان تشيني يبدو قلقاً. «أجدني قلقاً على العلاقات بين ما نفعله هنا وبين الدفاع عن الوطن الأمريكي». وكانت تستولي على نائب الرئيس إمكانية حدوث هجوم آخر وإمكانية الردّ الثأري عندما يطلقون عنان العمليات العسكرية.

«ديك»، قال بوش، «لا يمكنني أن أتفق معك أكثر من ذلك».

«سنحصل على إطلاع في هذا الموضوع اليوم»، قالت رايس.

«أنا قلقٌ بشأن التهديد بحرب بيولوجية»، قال تشيني.

وتساءل عدد من الحاضرين ما إذا كان نائب الرئيس يعرف شيئاً، أو أنه قد ربط بين أشياء فاتهم الربطُ بينها. وكان تشيني قارئاً متمعِّناً لتقارير المخابرات ويربط ما بين النقاط. ولكن لم يبدُ أنه كان هناك شيء معيَّن.

وانتقل الجنرال مايرز إلى موضوع أفغانستان، وقال: «إننا مستعدون لوضع القوات الخاصة على الأرض مع قوات وكالة المخابرات المركزية».

«هل هذه هي المرة الأولى التي نقوم فيها بمثل هذا العمل؟» سأل بوش.

«لم نقم بذلك منذ بعض الوقت»، أجاب مايرز. ففي البلقان قام العسكريون ووكالة المخابرات المركزية بعمليات سرِّية لاعتقال الأشخاص المتهمين بجرائم الحرب. وفي هذه العمليات، كانت وكالة المخابرات المركزية تجمع المخابرات فيما تقوم قوات العمليات الخاصة التابعة للعسكريين بالعمل. أما الآن فكانت الخطة تقضي بأن تعمل وكالة المخابرات المركزية والقوات الخاصة يداً بيدٍ، وهذا سيكون أمراً جديداً فاتحاً لمجالات كبيرة. «إننا لسنا

خبراء في ذلك»، اعترف مايرز، «وسنبدأ العمل على نطاق ضيّق ثم نتوسَّع في العمل».

وانتقلوا إلى موضوع قوانين الاشتباك ـ وهي التعليمات المعينة التي تُعطَى للقوات الأمريكية والتي تصف الظروف التي تسمح لهم بالهجوم أو بقذف القنابل أو بإطلاق النار. وما هو مقدار حرية العمل الذي يجب أن يُعطى للقوات؟ ما مقدار الجهود التي يجب عليهم أن يبذلوها لمنع الهجمات على غير المقاتلين؟

واتفقوا في النهاية على قوانين تسمح بقدرٍ ضئيل من الضرر المُصاحِب. وعلى الجنرال فرانكس أن يستأذن واشنطن إذا شاء أن يضرب هدفاً يُتوقع أن ينتج عنه قدرٌ متوسِّط أو كبير من الضرر المُصاحب. ولكن هناك استثناء: إذا وجدت وكالة المخابرات المركزية بن لادن أو قيادة القاعدة في بؤرة نظرها، فإنه يمكنها إطلاق النار من طائرات البريداتور دون استئذان. وقد كان الأمر المخابراتي الجديد الذي وقَّعه بوش قد أعطى الصلاحية في هذا المجال لتينيت، إلاّ أن تينيت أشار إلى أنه سيخوّل فرانكس تلك الصلاحية.

وذكَّر مايرز المجتمعين أنهم على بُعْد عشرة أيام من إقامة القواعد الضرورية للقوات الخاصة.

وفحصت المجموعة بعد ذلك إمكانَ استعمال حاملةٍ للطائرات متوقِّفة على بعد من باكستان كمحطة لانطلاق الطائرات.

قال بوش: «إن اجتماع بعد ظهر هذا اليوم مهمّ جداً»، مشيراً إلى اجتماع للأمن الوطني سيضمّ مسؤولين آخرين. «وسوف يكون علينا أن نسأل: هل نقوم بكل ما في وسعنا؟».

وقال رامسفيلد: «يجب ألاّ نعطي أية إشارات عن التوقيت خارج الاجتماعات». يجب ألاّ يحدث أي تسرُّب للمعلومات عن الوقت الذي يمكن

أن يبدأ فيه العمل العسكري. وأضاف: «إذا كنتم تريدون أن تُنهوا العمل بنجاح، فانهوه الآن حتى لا يتحوّل إلى إشارة».

وكان الرئيس خليطاً من العواطف عندما حاول تلخيص الأمور. «لا أريد أن تدخل المناورات السياسية في هذا الأمر»، قال بوش. «لا أريد أن توجّه الشؤون العامة العملياتِ العسكرية ولكن القلق والخوف سيزدادان في بلدنا. وسنحاول أن نعالج هذه المسألة في الأسبوع القادم. وسنستخدم الأرقام لبيان ما قد قمنا به في محاربة الإرهاب. ولن نتسرَّع في الشروع بالعمليات العسكرية، ولكن حثّوا طومي فرانكس بشدة على الاستعداد. يجب علينا أن نعمل شيئاً. سنعرف موقف الأوزبكيين خلال عطلة نهاية الأسبوع. وسنقيّم الأمور يوم الاثنين، وعلى الأهداف أن تكون متطابقة وأهدافنا. الأهداف العسكرية، أهداف الدفاع الجوي، أهداف القاعدة».

وقال پاول: «عندما نقوم بالضرب، سنفترض أن شيئاً ما سيصوَّب إلينا، وستقلق البلاد مرة أخرى».

قال بوش: «سنستمر في الاجتماع على هذا المنوال لبعض الوقت»، «ومن الأفضل أن يعود كل شخص إلى عمله المعتاد. وذكّرهم بأنهم ـ وزارة الحرب ـ ما يزالون في حالة استنفار، ويجب أن يكونوا جاهزين للاجتماع أو العمل في أي وقت. «ما نقوم به في أفغانستان جزء هام من مجهودنا. ومن المهمّ أن نكون جدّيّين، وستكون هذه إشارة إلى البلدان الأخرى عن مدى جدّيّتنا في التصدي للإرهاب». وذكر سوريا وإيران ـ وهما بَلَدان طالما كانا من رُعاة الإرهاب.

قال بوش: «ويعتقد الكثيرون أن صدام متورط في هذا الأمر»، «هذه ليست قضية في الوقت الحالي. وإذا أمسكنا به وهو متورط، فإننا عند ذلك نتصرف. والأرجح أنه كان وراء ذلك الأمر في نهاية المطاف».

وبذلك ترك الرئيس الاجتماع. وسارت معه رايس إلى المكتب البيضوي.

«كان هذا الاجتماع جيداً بالفعل في رأيي»، قالت رايس. «لم أكن متأكدة من أنه سيكون اجتماعاً جيداً بهذا القدر».

وضحك الرئيس، وقال: «سيذهبون للعمل. وبإمكاننا أن نقيس الحرارة مرة أخرى يوم الاثنين».

وعَلَّقَ الرئيس فيما بعد على السبب الذي دعاه إلى التراجع. «هذا تأثير رايس هنالك، كما تعلم. من يقول إنها ليست قوية؟ أنا إنسان واقعي، ومرةً أخرى، هناك توازن بين دفع الناس إلى الأمام وفرض عملية عليهم». وقال أيضاً إنه كان يعرف أن بإمكانهم الشروع بالعمل العسكري في خلال أسبوع أو عشرة أيام.

وقال بوش: «إن أحد الأشياء المثيرة في كونك رئيساً أنك لا ترى الكثير من البريد، وهذا أمر عجيب. والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقوله لك إنني أعتمد على غرائزي. وأني لأعلم أن الشعب الأمريكي سيقول في نقطة ما من الزمن: أين هذا الرجل؟ ماذا تعمل؟ أين هي قيادتك؟ أين هي الولايات المتحدة؟ إن لديك كل القوة، فافعل شيئاً». وكان بوش يشعر أن مهمّته تقضي بتثقيف الجمهور عن طبيعة الحرب. «أظن أن ذلك ـ إضافةً إلى شعوري الغريزي عن القلق والخوف ـ هو ردّ فعل على ملاحظتي كيف انفصل الناس عن القائد الأعلى للقوات المسلحة في ڤيتنام.

وقال الطيار السابق لطائرات ف ـ 102 التابعة لحرس تكساس الوطني: «كان شعوري ينبئ أن هذه الحرب حرب لم تُفَسَّر بشكل سليم، وأن الحكومة تدير الحرب عن كثب. وأنني لأتذكّر أصدقائي من الطيّارين يخبرونني أنهم فيما يخصّ ثاد ريدج» ـ وهو المجاز المشهور بسوء السمعة الذي كانت الطائرات

الحربية الأمريكية تطير فوقه وهي متوجهة إلى هانوي ـ «إنهم كانوا يستطيعون الطيران لمدة معينة فقط، وأن العدوّ كان يعلم ساعة قدومهم».

وفي وقت متأخر من الصباح، اجتمع الرئيس بالملك عبد الله، ملك الأردن. وكانت الأردن تقدم تعاوناً مخابراتياً هائلاً وتتلقى الملايين من أموال العمل السرّي المتوفر لدى وكالة المخابرات المركزية لقاء مساعدتها في تجميع الإرهابيين المشتبه بهم. وكانت تعليقاته الخاصة للملك تعكس حافزه الثنائي.

«إن شعبنا ما زال حزيناً بعض الشيء»، قال الرئيس للملك، «ولكننا غاضبون. وهناك قَدْرٌ معين من التوق الشديد إلى الدماء، ولكننا لن نجعل ذلك يوجّه ردة فعلنا». ولاحظ أن على خدمة المخابرات الباكستانية أن تبدأ قريباً بتطهير العناصر الموالية للطالبان. «وأننا لثابتون وواضحو الرؤية وصبورون»، قال بوش، «ولكن سيكون علينا أن نعرض أمارات النصر عما قريب».

وفي الساعة الواحدة و5 دقائق بعد الظهر عُقد اجتماع موسّع لمجلس الأمن القومي.

وقال بوش: «إن الهدف هو أن نركّز على ما نقوم به للإعداد لهجوم آخر».

وقال آشكروفت: «إننا نفكر في إنشاء نظام لمراقبة الحارات على مستوى الوطن». فيمكن للمواطنين أن يتصلوا بالهاتف أو يقدموا تقارير عن وجود تصرّفات غريبة أو إرهابيين مشتبه بهم في مناطقهم.

«تأكدوا من أنكم لا تشنّون حركة ارتجاعية ضد العرب في البلاد»، قال الرئيس. فإن وجود ثلاثة من الرجال العرب يتحدثون معاً قد يطلق التقارير.

«نريد أن نوصل رسالة تقول: إنك إذا كنتَ تقوم بعمل سيّئ فإنك سوف تُكتشف»، قال آشكروفت.

وقال تينيت: «إن هدفنا هو التعطيل. نريد تغيير الصفحة بشأن ما نريد أن

نقوم به من أجل تأمين السلامة في اللحظات الحاسمة. نريد تضليلهم، وإحباط مخططاتهم، وإظهار صفحة أمنية جديدة. نريد أن نريهم شيئاً لم يروه من قبل، ولم يعدوا الخطط ضده، ولا يمكنهم الاعتماد عليه. لأن الغرض هو التعطيل».

وتفتيش الجميع - من رجال الدين إلى السيدات العجائز - في أمن المطارات بإمكانه أن يرسل رسالة إلى الإرهابيين - ليس هناك أحد معفىً من التدقيق، مهما كان لِبَاسُكم ومهما بَدا مظهركم بعيداً عن مظهر المشبوهين.

12

كان آل بوش قد دعوا بعض أصدقائهم من شرق تكساس إلى البيت الأبيض لقضاء عطلة نهاية الأسبوع الواقعة في 29 ـ 30 سبتمبر/ أيلول. وكانت السيدة بوش ستأخذ النساء إلى مركز كينيدي، وكان الرجال سيلعبون البوكر في البيت الأبيض. إلاّ أن التهديدات للبيت الأبيض كانت كثيرة جداً، فاتصل بوش لإلغاء الدعوة. وقال الرئيس بوش فيما بعد: «إن الرئيس يتلقى المئات من التهديدات في الشهر الواحد»، لكن بعد 11 سبتمبر/ أيلول «ارتفعت درجة التهديدات ارتفاعاً كبيراً». وأُجِّل لقاء عطلة نهاية الأسبوع حتى أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول.

وكان لدى بوش وزوجته طرق كثيرة للتعامل مع التهديدات، وكان أحدها الإنكار. وقال الرئيس إن زوجته لم تخلق قط جبهة ثانية في البيت ولم تتذمّر أبداً. «كانت تعرف وجود التهديدات»، قال بوش، ولكنها لم تسأل أبداً أسئلةً مثل «كيف يمكنك أن تبقى هنا؟» أو «كيف يمكنك أن تطلب مني أن أبقى هنا في خضمّ هذا التهديد؟»، كما أنها لم تسأل قطّ «لماذا أوقعتني في هذه الورطة؟» حسب قول الرئيس. «إنها تفهم أن لديها وظيفة ـ إن عملها يقضي بالمساعدة على طمأنة الشعب الأمريكي».

ولكن خلال مقابلتي مع الرئيس في كروفورد في أغسطس/ آب سنة

2000، بدا واضحاً أن الحرب قد نالت من بوش وزوجته على المستوى العاطفي بشكل أكبر مما قد أظهرا.

وعندما انضمت إلينا السيدة بوش في أواخر المقابلة، التفت الرئيس نحوها وشرح كيف كان قد قال لي: «إنكِ لم تُصَابِي بالذعر قط، وأنكِ لم تتساءلي قطّ عن السبب لعدم تركنا البيت الأبيض. لم تكوني قلقة أبداً».

لكن كان للسيدة بوش رواية مختلفة بصورة كبيرة. «كنتُ فقط خائفة جداً»، قالت، وهي تضغط على يديها بشدّة وهما في حضنها. «كان هناك مجرد الكثير من الأمور المجهولة المرتبطة بكل ما حدث، كل خطوة، كل ـ أنت تعرف، طبعاً، ابتداءً بـ 11 سبتمبر/ أيلولِ والطريقة التي كان الناس يشعرون بها. أنت تعرف، كنت قلقةً ـ أنا متأكدة ـ من أنه سيكون هناك نوع من الضرب المضادّ فوراً. وكان ذلك على وجه التأكيد ـ فيما أعتقد ـ هو ما يظهر بشكل كافٍ في تقييمات التهديدات في ذلك الوقت».

أضافت بحذر «كنتُ مضطربةً، كنتُ قلقةً».

قال الرئيس: «حسناً، إنني لم أعرف ذلك قطّ». «أعتقد أنني لم أكن أعيرك الانتباه في ذلك الوقت»، أضاف الرئيس ضاحكاً.

«إنني لم أتحدث عن هذا الموضوع قطّ بشكل ملموس»، قالت السيدة بوش». كنت أستيقظ في منتصف الليل. وأعرف أنك أنت أيضاً كنتَ تفعل ذلك. أقصد أنني كنت أستيقظ في منتصف الليل وأعرف أنه هو أيضاً مستيقظ».

«لا أتذكّر ذلك. هل كنت أستيقظ في بعض الليالي؟» تساءل الرئيس وهو ينظر إليها.

وهزّت رأسها بإيجابيةٍ شديدة.

«نعم»، اعترف الرئيس.

وقاطعته: «لا بدّ أنك فعلتَ ذلك».

«أجل»، قال بوش. «مباشرةً بعد الهجمات ـ أقصد أنني كنت عاطفياً».

كم ليلة؟

أجاب الرئيس «ليس الكثير».

وبالطبع فإنه كان يستيقظ في الليل. وأن جزءاً كبيراً من واشنطن كان يستقيظ، فيما كان صوت سلاح خفر الجوّ يُسمع وهو يئزّ من فوق طوال الليل، هادراً بهدير مميّز بعيد. وكنت أنا أستيقظ رغم أني لم أسكن في أرض الصفر. والتفت بوش إلى زوجته: «إذا كنتِ مضطربة. . .».

«حسناً»، قالت السيدة بوش، «لم أخبرك بذلك».

قال الرئيس «هذا صحيح. لم تفعلي».

«أعني أنه لم يكن ممكناً أن أقول لك ذلك»، أجابت السيدة بوش، إذ كانت تعلم أن التطمين جزء من وظيفتها.

وكان لدى بوش وزوجته طريقة أخرى للتعامل مع جو التهديد. «أعتقد على نحوٍ ما أنه كان هناك نوع من التسليم بالقضاء والقَدَر في هذا الشأن، فإذا كان شيء سيحدث فإنه سيحدث»، قالت السيدة بوش. وأضاف الرئيس: «إذا كان مقدّراً لشيء أن يحدث فإنه سيحدث. ولذلك ليس هناك من داعٍ لمحاولة الاختباء من إرهابي».

وفي ذلك السبت الواقع في 29 سبتمبر/أيلول، كان الرئيس وزوجته في كامپ داڤيد. واجتمع بوش في الصباح بأعضاء مجلس الأمن القومي عن طريق ڤيديو أمين.

قال تينيت أثناء الاجتماع «علينا أن نركّز على التهديد في الخارج».

فالقاعدة لم تكن تستهدف الوطن الأمريكي فقط، بل كانوا يريدون أن يضربوا القواعد العسكرية أو السفارات في الخارج. وكانت هناك المئات من الأهداف الجيدة، وكان على الولايات المتحدة أن تقفلها.

وقال پاول: «لقد حصلنا على قرار الأمم المتحدة، وهذا شيء جيد». وكان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قد وافق على قرارٍ اقترحته الولايات المتحدة يدعو البلدان الأعضاء في الأمم المتحدة أن تقطع علاقاتها المالية والسياسية والعسكرية مع الجماعات الإرهابية وتجمّد مواردها. وقال پاول إن الإسبان هم الآن مستعدون لتقديم الجنود، وأن بعض البلدان الأفريقية موافقة على اتخاذ خطوات في هذا الشأن.

وقال پاول إن جيسي جاكسون ـ القائد الأسود، والمرشح الدائم لرئاسة الجمهورية، والرجل الذي شمل نفسه في المفاوضات بشأن الرهائن والسلام في سوريا والكويت ويوغوسلاڤيا ـ قد أعلن أنه لن يذهب إلى أفغانستان؛ وكان ذلك الخبر مريحاً، نظراً لما كانوا يخططون للقيام به هناك.

وكان پاول ما زال يعمل مع أوزبكستان، ولكن كل الأمور التي اقترحها كانت تُرفض على أنها غير كافية، على أنها ليست ضمن النطاق المقبول. وكان الأوزبكيون يريدون العضوية الفورية في حلف شمالي الأطلسي بداية ـ وهذا أمر لم يكن ممكناً للولايات المتحدة أن تمنحه، كما أنه كان موضوعاً حساساً بالنسبة إلى الروس ـ هذا في أدنى الاعتبارات. وبحسب تعبير پاول، فإن الأوزبكيين كانوا يريدون معاهدة دفاع ثنائية مشتركة، ومحبةً، وتعاوناً، ودعماً اقتصادياً. وكانوا يريدون نوعاً من البرهان على أن هذه المحبة دائمة ـ نوعاً من التصريح الإيجابي على السؤال «هل ستكونون هنا غداً؟» وكان پاول يعمل على مسوّدة اتفاقية بهذا الشأن.

وكان پاول سيتعامل مع وزير الخارجية الأوزبكي ومع العسكريين، وبعد

ذلك تذهب القضية إلى كريموف، فيقوم كريموف بالنظر فيها بتأنٍّ، لا لشيء إلاَّ لأنه يريد أن يبرهن أنه صانع القرار الوحيد.

ولماذا يتعاون الأوزبكيون مع الأمريكيين؟ لقد كانت علاقاتهم مع الروس سيِّئة، وكان موقفهم يبدو بصورة «كل شيء إلاَّ الروس»، ولكنه كان يظهر في الوقت نفسه أنهم كانوا يخشون تنفير الروس. كانوا يريدون حقوق الفخر بأنهم الأصدقاء الدائمون للولايات المتحدة، والأمريكيون أغنياء، والأوزبكيون يريدون أشياء مثل قروض بمقدار 50 مليون دولار من مصرف التصدير ـ والاستيراد التابع للولايات المتحدة. وأخيراً، فإن لديهم ثورتهم المتطرفة الخاصة مع الحركة الإسلامية في أوزبكستان التي تريد الإطاحة بكريموف. وكان لدى هذه الحركة مجال أمين للعمل في أفغانستان، ولذلك فإن كريموف سوف يكون سعيداً جداً لعزل الطالبان. ورغم أن الرقصة ستستمر، فإن الأوزبكيين قد وافقوا على فرق البحث والإنقاذ في القتال.

وأعطى وزير الخارجية تقريره الرئيسي الآخر، وهو يتعلق بباكستان، فقال: «إن مشرّف مسيطر على الوضع». وكانت الاحتجاجات ضد الولايات المتحدة تجتذب حشوداً أصغر من المتوقع، ولكن «يوم التضامن» الذي أعلنته الحكومة، والذي كان يهدف إلى إثارة العواطف القومية، هو أيضاً اجتذب القليل من الحشود.

وكان هناك قلق كبير على السفارة الأمريكية في أندونيسيا، وتخوّف من ضربة مضادة لأي عمل عسكري أمريكي في أفغانستان.

وقال هادلي: «لقد مررنا بذكرى الانتفاضة الثانية ولم يكن المنظر جميلاً». وكان ستة فلسطينيين قد قتلوا وجُرح العشرات خلال احتجاجات عطلة نهاية الأسبوع المُغْلِنَة لذكرى آخر فصل من فصول النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

«إننا بحاجة إلى تحديد ما يريده البنتاغون من البلدان»، قال پاول. وكان رامسفيلد قد أَصَرّ على أن يُشمَل هو في كل المناقشات التي تجريها وزارة الخارجية في هذه القضايا أو أن يُوافق عليها.

وسأل بوش: «كيف نحذّر الأمريكيين من عدم الذهاب إلى أفغانستان حالياً؟».

فقال پاول: «لقد أعلنّا التحذيرات».

ونقل رامسفيلد أن فريقاً أمريكياً قد وصل إلى أوزبكستان لتقييم مدارج مطاراتهم. «إن فرق البحث والإنقاذ في القتال في حالة جيدة في الجنوب. وليس بإمكاننا استعمال القوى الخاصة في الشمال، وسنطوّر هذه الفكرة بشكل أكمل في الجنوب».

وقاطعه پاول: «قد يكون لدينا خيار أن نفعل ذلك في الشمال فيما بعد».

«لندفع بقوة»، قال لهم بوش. كان يشعر بالإحباط، فإن خطة الهجوم كانت تبدو كلينتونية. «دعنا لا نتخلى عن مسألة الشمال؛ لنطوِّرْ خياراً للقوات الخاصة في الشمال. دعنا لا نتخلى عن ذلك!».

وكانت لدى رامسفيلد أخبار كئيبة. «إن لائحة الأهداف ليس بإمكانها أن تفرض الخراب على الناس الذين نريد أن نفرض الخراب عليهم».

إن معظم الأهداف، قال رامسفيلد، أهداف عسكرية للطالبان ـ أجهزة رادار التحذير المبكر، ومدارج مطارات، والعدد القليل من الطائرات التي بحوزتهم. وسيضربون مخيمات القاعدة التي أغلبها خالية. وهناك 50 أو 60 هدفاً من بين مئات الأهداف قد تحتوي على نقاط تسديد مختلفة في المخيّم الواحد، مثل المجمّع الكبير المسمّى مزارع طارناك جنوب قندهار. وهذه الأهداف ثابتة. «ما زلنا بحاجة إلى العمل على الأهداف. وقد نريد أن نؤكد على أن عملنا الأول هو جمع المخابرات بشكل كثيف والمعونة الإنسانية، «قال

رامسفيلد. وكان قلقاً من حدوث توقعات مضخّمة. ثمّ صحّح نفسه وقال: «نريد أن نتجنب مناقشة عملنا العسكري». لعل الصمت هو الأفضل.

ودعم الجنرال مايرز هذه النقطة. خلال الحرب الباردة، وحتى في حرب الخليج سنة 1991، كان العسكريون قد جهّزوا أنفسهم لمهاجمة الأهداف الثابتة، مثل مراكز الاتصالات، وأجهزة رادار التحذير المبكّر، وأماكن القيادة والتحكّم، ومصادر القوة العسكرية ـ الطائرات والدبابات ومستودعات التخزين والأسلحة، وحتى البنية التحتية الاقتصادية كالمولّدات الكهربائية والجسور. «إن لدينا عسكرية تعمل بشكل عظيم ضد الأهداف الثابتة. ولكننا لا نعمل بشكل جيد ضد الأهداف المتحركة. إنك لن تقلب نظام حكمٍ بهذه اللائحة من الأهداف»، قال الجنرال مايرز.

وفكّرت رايس: إنهم حقاً لن يقبلوا نظام الحكم من دون جنود على الأرض. كانت تلك هي المشكلة الحقيقية. ولكنها كانت على يقين من أنهم سيجدون حلاً ما.

وبعد 18 يوماً من 11 سبتمبر/أيلول، كانوا يطوّرون ردّاً، أو عملاً، لكن ليس استراتيجية. وكان هذا أسوأ كابوس بالنسبة لپاول ـ اضربوا ثم أرجوا خيراً. وأخذت ڤيتنام بالطواف أمام عينيه.

قال الرئيس «يجب أن نتدبّر أمر توقعاتنا». «علينا أن نفكر في هذا الأمر يوم الاثنين. إننا بحاجة إلى أن نتمكن من تحديد ماهية النصر بعد الجولة الأولى من العمل العسكري». لا يمكن أن يظهروا بمظهر الضعف.

قال رامسفيلد «قد نستطيع أن نفعل ذلك في برامج المحادثة التلفزيونية غداً».

واعترض بوش: «يجب أن نفعل ذلك. إنه جزء من مصداقية مجهودنا الكلّيّ. إن الحرب التقليدية لن توصلنا إلى النصر في هذا الأمر؛ إن هذا صراع حرب عصابات».

كانت تلك هي المشكلة. إن الولايات المتحدة لم تكتشف قط كيف تنتصر في حرب العصابات. وكانت المناقشة كلها تقريباً تدور حول القصف الجوي. وكان هناك فريق واحد مؤلف من عشرة أشخاص تابعين لوكالة المخابرات المركزية، بالإضافة إلى كاسر الفكّ، لكن من دون أن يكون هناك بوادر أمل في إنزال القوات الخاصة في أي وقت قريب.

وانتقل مايرز إلى بعض الأشياء التي كانوا يعملون عليها. «إن وكالة التنمية الدولية تنسق المعونة الإنسانية مع فرانكس. وطائرات الكابس هناك، وكذلك طائرات الآواكس». وكان يشير إلى مُقاتِلات الحَفْز الجوي وإلى طائرات نظام التحذير والتحكّم المحمولة جوّاً، وقد نُشرتْ لأجل الاستطلاع والاعتراضات المحتملة. «وعلى النوّاب أن يدفعوا هذا الأمر بلداً بلداً، بناءً على ما نريده من مختلف البلدان».

وقال الرئيس إنه بما أن الأفريقيين يريدون المساعدة «فربما علينا أن نطلب منهم المساعدة في حماية سفاراتنا».

وكان التركيز على مثل هذه القضايا الهامشية يُظهر مدى بُعدهم عن حلّ القضايا الرئيسية.

وكان آندي كارد وبوش يعقدان محادثات جانبية خاصة بشكل منتظم حول التقدم الذي يتم إحرازه في التخطيط للحرب.

«أنت تُبدي اهتماماً أكثر من اللزوم بالتكتيك»، قال كارد لبوش مضايقاً إياه لدى نقطة معينة. وقد كان بوش يبدو بالغ الاهتمام بأي طراز من الطائرات كان يقوم بأي عمل، وبما إذا كان بإمكان القوات الخاصة أن تدخل شمال أفغانستان، إلخ. «إن هذه الأمور مثيرة، إلاّ أنها ليست هي المهمة»، حذّر كارد.

وكان كارد أصغر من بوش بما لا يزيد عن عشرة أشهر، وكان كلاهما

يعرفان ما حدث في الستينيات والسبعينيات ـ ڤيتنام. وكان لكليهما نفس التجربة تقريباً. «لا تكن جنرالاً؛ كُنْ رئيساً»، قال كارد لبوش.

نعم، قال بوش. هناك خط دقيق بين إدارة المعركة عن كثب وبين تحديد الأهداف العريضة. إلاَّ أن الكثير الكثير كان يعتمد على القضايا الصغيرة.

«يجب أن تنتصر»، قال كارد، «ولكن عليك أن تَدَع الجنرالات ينتصرون. فإذا وضعتَ على الجنرالات ينتصرون. فإذا وضعتَ القيود على الجنرالات التي من شأنها أن تؤثر على قدرتهم على الانتصار في الحرب ـ».

كلا، وعد بوش، إنه لن يفعل ذلك، «لن أكون جنرالاً».

ولكن كارد كان يرى أن العمل عمل توازني. فإن على الرئيس أن يكون ملمّاً إلماماً كافياً بالتفاصيل، وأن يكون منغمساً بشكل كافٍ بالتكتيكات، حتى لا يظهر أبداً أنه جاهل أمام الناس. إن ذلك يشكّل كارثة حقيقية. وفي الوقت نفسه، كان على بوش وكارد أن يمتنعا عن التورط الزائد عن اللزوم في تفاصيل التكتيك العسكري.

واجتمع الرؤساء يوم الأحد الواقع في 30 سبتمبر/ أيلول من دون الرئيس.

وجرت مناقشة قصيرة حول قرار حلف شمالي الأطلسي بتنفيذ الفقرة الخامسة التي تعلن أن الهجمات على الولايات المتحدة في 11 سبتمبر/ أيلول هي هجوم على كل بلدان الحلف. وبعد ذلك انتقل رامسفيلد إلى فكرة الورقة البيضاء. وكان پاول قد طرح هذه الفكرة قبل ثلاثة أيام، عندما قال لإذاعة الراديو القومي العام: «إن المعلومات سوف تصدر».

«أعتقد أنها سابقةٌ سيئة أن تضطر إلى الخروج والدفاع عن موقفك علناً»، قال رامسفيلد، «لأنه قد لا يكون لدينا المعلومات الكافية للدفاع عن موقفنا في المرة القادمة، والسابقةُ قد تفسد قدرتنا على أخذ المبادرة المسبقة ضد التهديد الذي قد يكون متجهاً صَوْبنا». وسوف يكون أخذ المبادرة المسبقة ضرورياً،

عمّا قريب في الأرجح، وليس عمّا بعيد. وكانت هذه من أوائل المرّات التي ذُكرتْ فيها هذه الفكرة، وهي الفكرة التي كانت ستزداد أهميةً خلال السنة.

وتابع رامسفيلد الحديث عن الورقة البيضاء. وكان أحد سطوره المفضلة أن التقارير الأولى هي دائماً خاطئة. «إذا استعملنا الورقة فإنه يتعين علينا أن نحذف كل الحشو الزائد. وإذا أُصدرت الورقة، فإن صدورها يجب ألاّ يأتي من جانب الرئيس أو وزير الخارجية. أنزلوها درجات»، وأضاف بازدراء، «لتصدرْ عن مكانٍ ما في مكتب التحقيق الفيديرالي أو وكالة المخابرات المركزية. عامِلوها على أنها تقرير مبكّر، وقَدِّموا لها بمقدمة تحثّ على الحذر. هل سيتعيّن علينا أن ندافع عن موقفنا كل مرة؟».

وردّ پاول على رامسفيلد: «إنها ليست سابقة» بشكل كبير. فهناك الكثير من الدلائل، ومعظمها واقعي. ويمكنك أن تقول من البداية إنها تمهيد. وبعض أقرب حلفائنا يسألوننا عن بعض هذه المعلومات. ونحن نعمل عليها منذ فترة، ومن ثَمَّ فإنها ليست عملية متعجلةً. وبما أن پاول كان توفيقياً، فإنه أضاف: «كل ما تقترحه مقبول، ويجب أن نتمكن من القيام به. إن الحلفاء يتوقعونه. وهو يقوي موقفنا، وسيكون لمصلحتنا».

وتبادل رامسفيلد وپاول الكلام جيئةً وذهاباً بطريقة لا يتصرفون بها إذا كان بوش حاضراً. وكان قلق رامسفيلد الحقيقي متأتياً من أنهم قد يصدرون الورقة البيضاء ثم يواجهون ردّ فعل سلبياً ـ فيعلن المعلّقون وخبراء الشؤون الخارجية أن الورقة ليست جيدة جداً أو أنها لا تشكّل موقفاً مقنعاً. وماذا يفعلون عند ذلك؟ يتوقفون عن الهجوم؟

وقالت رايس: «إنها في الغالب قضية تاريخية. وهي واضحة بشكل جيد جداً فيما قامت به القاعدة من أعمال سابقة. وبعدُ، فإن هناك أناس قد وُجِّهت التُّهَمُ إليهم. وعندكم فواتير بأشياء محددة. أنا لست شديدة القلق بشأن هذا الموضوع».

ولكن رامسفيلد لم ينثنِ عن موقفه، وقال: «لماذا لا نستعمل الموجز الإعلامي الذي استعمله پول وولفويتز؟» وكان نائبه وولفويتز قد ذهب إلى أوروبا لإعلام وزراء دفاع بلدان حلف شمالي الأطلسي ببعض الدلائل التي تشير إلى بن لادن.

«إن موجز پول الإعلامي هو جزء من المشكلة»، قال پاول. «إنه لم يقدم تفاصيل كافية».

«أنظروا»، قال كارد، «أضيفوا توضيحاً في البداية يقول إننا لا نرى أننا نحتاج إلى القيام بهذا العمل فعلاً. وسيساعدكم هذا في مواجهة مسألة السابقة».

«أنسبوها قناتي»، قال تينيت. «فالناس محتاجون إلى المزيد من التفاصيل».

ونقل مايرز أن انطلاق فرق البحث والإنقاذ من أوزبكستان سيستغرق وقتاً أطول من التقدير الأولي، وهو أربعة أيام. وكان فريق التقييم قد أرسل رسالة تفيد أن المدرج يمكن أن يلبي حاجات طائرات النقل من طراز سي ـ 17، وهي أصغر وأكثر مرونة، ولا يلبي حاجات طائرات النقل الكبيرة من طراز سي ـ 5. وفي الوقت الحالي يمكن للمدرج استيعاب طائرة واحدة فقط من طراز سي ـ 17 في الوقت الواحد، وهذا يؤخر التقدير الزمني للقدرة على إطلاق فرق البحث والإنقاذ في القتال مدة 12 يوماً. أمّا الانطلاق من قواعد في طاجيكستان ـ فوق شمال شرق أفغانستان ـ فإنه خيار بديل، إلاّ أنه ـ هو الآخر ـ يتضمن مشكلات، إذ إنه يفرض قيادة الطائرات حول الجبال العالية من أجل الوصول إلى الأراضي الأفغانية. وكان السوفيات قد فقدوا الكثير من قواتهم عندما انحدروا إلى أفغانستان عبر تلك الطريق.

«إنني قلق من الذهاب إلى الطاجيكيين من خلال الروس»، قال رامسفيلد.

أجابت رايس «لن نفعل ذلك». «إنني أقل قلقاً. فكل ما نحتاجه هو أن يقول الروس «نعم»، وقد قالوا إنهم سيقولون «نعم». سنتعامل معهم بشكل مباشر». إنه لا يمكنهم أن يسمحوا للاستراتيجية الشمالية بالتفكك لأنه ليس عندهم استراتيجية جنوبية. والمسألة كانت: أمّا أن تكون هناك استراتيجية شمالية أو لا يكون هناك أي شيء.

وقال مايرز: «إن الطاجيكيين قد أبدوا استعدادهم لتلبية كل ما نريد ولم يطلبوا أي شيء». وكانت القيادة المركزية التي يرأسها الجنرال فرانكس بصدد إرسال فريق اتصال يذهب إلى الروس ويتحدث معهم عن إطلاق فرق البحث والإنقاذ من روسيا. «إنهم سيذهبون ويتحدثون معهم غداً»، قال مايرز. «ولدينا أعداد صغيرة من العسكريين الأمريكيين مستعدون للذهاب مع وكالة المخابرات المركزية والحلف الشمالي. وليست لدينا أية قدرة على القيام بعمليات خاصة في الشمال في الوقت الحالي حتى لو تلقينا إذناً بإنزال القوات الخاصة في الشمال. وبالطبع فإنه لا يمكننا أن نبدأ بأي شيء حتى تكون فرق البحث والإنقاذ في القتال قد استقرت في موضعها السليم. فلنتحدثْ إذن عن إقرار فرق البحث والإنقاذ في القتال في موضعها السليم».

«لن يتم ذلك قبل منتصف الشهر»، قال رامسفيلد، أي بعد أسبوعين.

وسأل پاول: «لماذا نحتاج إلى فرق البحث والإنقاذ في القتال؟».

وأجاب مايرز: «لأجل قاذفات القنابل وطائرات التاك»، وكان يشير إلى قاذفات القنابل التي تطير على علوّ مرتفع والطائرات التكتيكية التي تطير على علو منخفض.

وكانت رايس تعتقد أن هناك طرقاً قليلة فقط للقيام بخطأ كبير حقاً في هذه العملية. وإحدى هذه الطرق أن يؤسر أحد الطيارين. ولم تكن المسألة مجرد مسألة رهائن كارتر في إيران أو رهائن ريغان في لبنان. إن وجود رهائن مع بن لادن أو القاعدة من شأنه أن يغيّر شروط النقاش، معطياً إياهم نفوذاً هائلاً.

ولم يكن رامسفيلد مسروراً بالأهداف، وقال: «لن أُقْدم على الدخول دونَ فرق البحث والإنقاذ في القتال من أجل تلك القيمة من الأهداف». فلم يكن هناك أي معنى لفقدان طيار مقابل تلك الأهداف الثابتة ذات القيمة المتدنّية أو تلك الأهداف من نوع الأكواخ الطينية. أَجَل، يمكننا أن ننظر في المجازفة مقابل هدف عالي القيمة حقاً. أمّا هذه الأهداف، فلا.

«إن مراعاة فرق البحث والإنقاذ في القتال قد تؤخر العمليات الجوية مدةً تصل إلى 12 يوماً إذا لم نتمكن من تخفيف وطأة هذه القضية على نحوٍ ما»، قالت رايس. وكانت تعلم أن ذلك لن يكون مقبولاً من جانب الرئيس.

«إننا نحاول أن نرى ما إذا كان بإمكاننا أن نعمل 24 ساعة في اليوم لتطير الطائرات إلى أوزبكستان. كذلك نحن ننظر في دوشانبه في طاجيكستان، إلاّ أن هذا أمر غير مريح»، قال مايرز.

«وماذا عن الجنوب؟» سألت رايس.

«إن وضع فرق البحث والإنقاذ في القتال جيد»، قال مايرز. «إنها ستطير من عُمَان، إمّا عن طريق النقل الجوي أو عند الطلب. ونحن نفتش أيضاً عن نقطة متقدمة للتزود بالوقود فوق باكستان. إننا لا نريد أن نكون متطفّلين». وأضاف ما كانوا يريدون سماعه: «سنحلّ هذه المسألة».

«ومتى ستكون هذه جاهزة؟» سألت رايس. وكان الرئيس يريد الضربات العسكرية بعد ستة أيام، يوم السبت.

قال مايرز لن تمنع هذه ضرباتنا يوم السبت. ولكن ذلك يعني أن العمليات الجوية ستكون محدودة بالجنوب، وأنه لن يكون هناك مجال للقوات الخاصة لا في الشمال ولا في الجنوب. كان ذلك يشكّل رُبْعَ رغيف. وقال مايرز إنهم سينقلون حاملة الطائرات يو أس أس كيتي هوك إلى محطة بعيداً عن ساحل باكستان، على أن يكون على متنها قوات العمليات الخاصة من دون

طائراتها المقاتلة النظامية. «إن هذا سيعطينا بعض الإمكانيات»، قال مايرز، مشيراً إلى القوات الخاصة في الجنوب.

وكانت حاملة الطائرات كيتي هوك في اليابان. وكان پاول يعرف كم من الوقت يستغرقه نقلُ حاملةٍ للطائرات، وانتزع من مايرز القول بأن كيتي هوك لن تكون في محطتها قبل 11 أكتوبر/تشرين الأول، أي بعد أسبوعين.

وانتقلت رايس إلى موضوع الحلفاء الذين كانوا يطالبون بصَخَبٍ بالمشاركة. إن من الضروري جَعْلَ أكبر عدد منهم يشتغلون بقوات عسكرية في الحرب. لا بدّ أن يكون للتحالف أنياب. فهي لم تكن راغبة بأن تترك الحلفاء ـ وقد ارتدوا الملابس الرسمية ـ دون مكانٍ يذهبون إليه. «الأستراليون والفرنسيون والكنديون والألمان يريدون المساعدة»، قالت رايس. «إنهم يريدون القيام بأيّ شيء للمساعدة. ولدى الأستراليين قوات خاصة في تامبا»، مقرّ قيادة الجنرال فرانكس. «وعلينا أن نحاول استخدامهم».

«سنحضّر دراسةً عن هذا الموضوع»، قال رامسفيلد، مراوغاً لتأجيل الموضوع.

وابتسم پاول ناظراً إلى رايس وكأنه يقول لها: أترين ما عليّ أن أعالج؟

واسترجع رامسفيلد وقال: «نريد أن نشملهم إذا كان ذلك بإمكاننا».

ولكن رامسفيلد لم يكن يريد قوات أخرى تُشْمَلُ لأهدافٍ تجميلية. فإن كتيبةٍ ألمانية أو فرقاطة فرنسية قد تقف في طريق عمليته. إن على التحالف أن يكون مناسباً للصراع وليس على العكس من ذلك. وليس بإمكانهم اختراع أدوار. ولعلهم لا يحتاجون إلى فرقاطة فرنسية.

وانتقل تينيت إلى موضوع ألمانيا. لقد أصبح واضحاً أن مؤامرة 11 سبتمبر/أيلول ـ أو أقسام منها على الأقل ـ قد دبّرتها خلايا في هامبورغ، بما في ذلك محمد عطا، خاطف الطائرات الرئيسي. «إن أفضل شيء يمكن

للألمان أن يقوموا به هو أن ينظموا أمورهم فيما يتعلق بمشكلاتهم هم الإرهابية الداخلية وبالجماعات التي نعرف أنها في ألمانيا»، قال تينيت. وكان قلقاً بشأن مؤامرات أخرى تنطلق من ألمانيا.

وقال مايرز مجيباً رايس ومظهراً قدراً أكبر من التعاطف: «سنؤلف دراسة عما نخطط أن نطلب منهم القيام به. سنجهزها ـ وسنحاول أن نكون متجهين إلى الأمام. إننا نفهم أن المسألة قضية سياسية».

ولكن بالنسبة لكارد، لم تكن الأمور متساوقة. «إنني ما زلت قلقاً من أن توقعات الرئيس الزمنية بعيدة عما أسمعه هنا»، قال كارد.

«أعرف ذلك»، قال مايرز.

وقالت رايس: «علينا أن نشرح للرئيس أن العمليات الجوية في الشمال لا يمكن أن تبدأ قبل ثمانية أو عشرة أيام». هل من المعقول إذن أن نبدأ العمليات في الجنوب فقط؟

«يمكننا الضرب بالقنابل يوم الثلاثاء من دون فرق البحث والإنقاذ في القتال»، قال پاول. «متى ستكون هذه الفرق جاهزة»؟

وقال مايرز إنهم يخططون أن تكون جاهزة يوم الخميس، وعلى ذلك فإنه يمكنهم الضرب بالقنابل في الشمال يوم السبت في 6 أكتوبر/ تشرين أول. وكان ذلك يبعد ستة أيام، وهي مدة أفضل من تقديرات رايس المختلفة.

إن على الرئيس أن يفهم أنهم إذا بدأوا الضرب الآن في الجنوب، فإنه سيكون هناك فجوة زمنية كبيرة قبل أن يمكنهم البدء بالضرب بالقنابل في الشمال، قالت رايس. «إننا نحتاج إلى بعض الوضوح».

وسأل هادلي ما إذا كانوا يريدون أن يذهبوا إلى الأوزبكيين بوفد كبير.

«ليس الآن»، قال پاول. إذا كانت القضية قضية وضع قوات خاصة على الأرض، فإن عليهم أن ينتظروا بعد «لا يمكننا أن نُطلق عمليات للقوات

الخاصة من أوزبكستان قبل أن تستقر فرق البحث والإنقاذ في القتال هناك. وعندما تستقر فرق البحث والإنقاذ في القتال، لننظرْ في الأمور ولنتفحّصْ الوضع بكامله تفحصاً حقيقياً. بقوة «الآن».

«لننظر مرة أخرى إلى الطاجيكين، لأن تلك قد تكون الطريقة الوحيدة التي تمكّننا من إتمام العمل»، قالت رايس، «فإننا في نهاية المطاف قد لا نتمكّن من الاعتماد على الأوزبكيين». ولم يكن واضحاً قطّ أن الأوزبكيين سيسمحون لعمليات القوات الخاصة بالانطلاق من أراضيهم؛ فإن الإذن لفرق البحث والإنقاذ أمر مختلف تماماً عن الإذن لقوات العمليات الخاصة ـ لعملياتٍ هجومية واضحة.

ورجعت رايس بفكرها إلى الوقت الذي كانت فيه نائبة للرئيس في جامعة ستانفود، عندما أعطى سلك المهندسين التابع للجيش تقريراً عن الاستعداء لدى حدوث زلازل أرضية. إذ ذاك قال المُحاضر أن أوّل ما عليك أن تفعله خلال الكارثة هو أن تقرّر ما هي «الحالة التخويلية» ـ ذلك الشيء الذي يتوقف عليه أكثر ما يتوقف حدوثُ التقدم. وقد يكون ذلك تنظيف الطرقات أو توفير المساعدة الطبّيّة. حسناً، لقد قرر الرؤساء أخيراً أن «حالتهم التخويلية» هي أوزبكستان. ولا يمكن من دونها الضربُ بالقنابل في الشمال. أمّا الضرب بالقنابل في الجنوب فلا معنى له، إذ ليس هناك فيه قوة أرضية مُعارضة ذات شأن.

وحاول پاول أن يلخّص الأمور. وكانت كلمته لافتة للنظر، إذ إنها ركّزت على دوره هو وانتقصت من العسكريين، سواءً عن قصد أو دون قصد.

«المرحلة الأولى هي: الديبلوماسية؟».

«والمرحلة الثانية / ألف هي: استقرار تينيت على الأرض» ـ يعني فِرَق وكالة المخابرات المركزية شبه العسكرية؛

«والمرحلة الثانية / باء هي: بعض العمليات العسكرية. وقد نضطر إلى القيام بها دون فرق البحث والإنقاذ في القتال. اضربوا بعض الأهداف التي لا تورطنا في مشكلات مع العرب أو مع الأروبيين. قوموا بذلك في الجنوب، فإن ذلك يساعد جورج على إتمام بعض الأمور».

«المرحلة الثالثة هي: قوموا بشيء مسموع». وكان يشير بذلك إلى إشارات التغيير التي تحدث في الثانية الأخيرة، كتلك التي يقوم بها الظَّهير الرُّبعي عند خط المناوشة في لعبة كرة القدم. «اضربوا الأهداف المناسبة. وقد لا تتمكن القوات الخاصة من التمركز قبل مرور بعض الوقت. هذه حالتنا بالتحديد».

فبحسب تحليل پاول، تُعتبر العمليات العسكرية جزءاً وحَسْبُ المراحل الثلاث ـ المرحلة الثانية / باء ـ وعلى العمليات أن تُرْسَم بشكل يتجنب إثارة المشكلات الديبلوماسية مع العرب أو الأوروبيين.

وكان من الممكن أن ينفجر رامسفيلد، ولكنه لم يقل شيئاً.

وسواءٌ أوافق الآخرون على الإطار الذي رسمه پاول أو لم يوافقوا، فإنه كان لمقولته نوع من الواقعية. واعتبر هادلي العملية بديلاً مؤقتاً ـ «تعالوا كما أنتم». إنهم يرتِّبون الأمور وهم يسيرون.

وقال تينيت: «يجب أن نتفادى الظهور وكأننا غزو أمريكي. وهذه الرسالة ذات أهمية أكبر في الجنوب من أجل حَمْل الباشتون على الثورة. والشماليون قد حصلوا على قدر كبير ـ إنهم يحصلون على قدر كبير من المال». وكان تينيت يعرف الأهمية الحاسمة للمال.

سألت رايس «هل لدينا أسلحة كافية في الشمال؟».

«لقد حصلنا على تقديرٍ لذلك من الميدان»، أجاب تينيت. «وعلينا أن نتفحصه».

«كيف نتصرف بإزاء أعمالٍ تقوم بها القاعدة؟ علينا أن نفكر بالطرق غير التقليدية، وبكيفية استجابتهم لما نقوم به»، قال كارد.

ولم يكن لدى الحاضرين أية فكرة، لا بما يتعلق بالطرق غير التقليدية ولا بالطرق التقليدية. إنهم كانوا غير مستعدين بشكل كافٍ لما حدث يوم 11 سبتمبر/أيلول، وكانوا غير واثقين من الطريق الممتد أمامهم.

وقالت رايس إن الرئيس يحتاج إلى المزيد من المعلومات. وكان هو أيضاً معلّقاً هنالك، تماماً مثلهم. «كيف سيكون شكل الساعات الـ 24 والـ 48 والـ 72 الأولى من العمليات؟ علينا أن نراجع الرئيس في هذا الموضوع. ويجب أن تتلقى هذه المجموعة تقريراً عنه». كان لا بدّ من تقديم تقرير عن المظلة العسكرية. ولكن قبل ذلك كان عليهم أن يقرروا ما سوف تكون هذه الخطة.

وبعد الاجتماع تحدثت رايس مع باول.

وقالت وهي تبتسم: أليس ترتيب المساعدة للحلفاء من مهمات وزير الخارجية؟ إنني فقط أقوم بعملك.

وضحك باول.

وأعطت رايس الرئيس تقريراً موجزاً. وقالت له إن القضية تحرز تقدماً، ولكنها لم تكتمل بعد.

ما هي المشكلة؟

ولخّصت رايس الوضع للرئيس، مركّزةً بشكل خاص على فرق البحث والإنقاذ. «قد ترغب في أن تشدد على ذلك يوم الاثنين».

وكانت رايس متعاطفةً مع رامسفيلد والبنتاغون. لقد كانت المشكلة عصيّة. ولم يكن ممكناً للعسكريين أن يظهروا هنالك ويبدأوا بالضرب بالقنابل.

كان لا بدّ أن يكون لديهم قواعد. وبعد 11 سبتمبر/ أيلول، كانت كل البلدان الضرورية قد منحت الولايات المتحدة حقوق الطيران فوق أراضيها. إن هذا هو القسم السهل من المسألة. ولكن عندما كانت الأمور تصل إلى قضية: هل يمكننا أن نُطلق نخبةَ مغاوير قوات العمليات الخاصة؟.

13

في الزاوية الشمالية الشرقية من أفغانستان، أرسل غاري، قائد فريق وكالة المخابرات المركزية، عدداً من رجاله إلى منطقة تكر، وهي خط النار بين الحلف الشمالي وقوات الطالبان. فانطلق هؤلاء باتجاه الشمال، ووصلوا إلى مكان يقع على بعد 95 كيلومتراً إلى الشرق من قندز. فوجدوا أن قوات الحلف الشمالي منتظمة، وأن ملابسهم وأسلحتهم نظيفة. لكن معدّات الأمان كانت على بنادقهم، وتلك إشارة إلى أن منطقتهم لم تكن منطقة قتالٍ حامية. وقد اصطفّ الجنود في تشكيلات وأخذوا القيام بتدريبات عسكرية. لقد كان هناك لديهم بنية قيادية، إلاّ أنه لم يكن لديهم أعداد كافية من الجنود والأسلحة الثقيلة تمكّنهم من التحرك ضد الطالبان الذين كانوا يختبئون في الخنادق في الناحية الأخرى. وكان الوضع العسكري ساكناً، شأنه شأن حرب الخنادق في الحرب العالمية الأولى.

وكان غاري يعرف أن رجال مركز قيادة وكالة المخابرات المركزية يعتقدون أن الطالبان سيكونون عدواً عنيداً في القتال، وأن أي ضربة أمريكية ستخرج المتعاطفين معهم في أفغانستان وفي المنطقة، وخاصة في باكستان. إنهم سيلتفّون حول ملاّ عمر.

لكن غاري كان يرى الأمور بصورة مختلفة. كان يعتقد أنّ ضرب صفوف

الطالبان الأمامية بالقنابل بشكلٍ قوي مكثّف ـ «بقذائف ضخمة حقاً» كما كان يسمّيها ـ من شأنه أن يؤدي إلى كسر الطالبان وإلى تغيير الصورة. وفي 1 أكتوبر/ تشرين الأول أرسل تقييماً سرّيّاً إلى مركز قيادة الوكالة. وكتب: «في تلك الحالة، سيكون انهيار الطالبان سريعاً، وسيتقلّص العدوّ إلى عدد صغير من المؤيّدين الأشدّاء لملاّ عمر في الأيام أو الأسابيع الأولى للحملة العسكرية».

وكادت جملة «هذا هراء!» تُسمع من خلف جدران مديرية العمليات في الوكالة، حيث قام قدامى الحاذقين والخبراء هناك بالاستخفاف علناً بتقييم غاري. إلاّ أن تينيت أخذ البرقية إلى بوش.

قال الرئيس «أريد عدداً أكبر من مثل هذا».

في الساعة التاسعة والنصف صباحاً من يوم الاثنين الواقع في 1 أكتوبر/ تشرين الأول، اجتمع بوش بمجلس الأمن القومي.

ونقل تينيت أن كاسر الفكّ هو على الأرض مع الحلف الشمالي، وأنه يرجو أن يُنزِل فريقاً ثانياً قريباً. «أما في الجنوب، فإن الأمور ليست جيدة، إنهم لا يحرزون تقدماً كبيراً». وكان الجنوب ما زال بعيد المنال. وكانت الاستراتيجية الأفغانية ما زالت في حالة انتقالية.

وكان ذلك اليوم هو اليوم الأول الذي أصبح فيه الجنرال مايرز رئيس الأركان المشتركة. وأعطى تقريراً تفصيلياً عن وضع مدرج المطار في أوزبكستان. «إنهم يستطيعون أن يقوموا بخمس انطلاقات للطيران في اليوم، وفي النهار فقط، وبالطائرات من طراز سي ـ 17 فقط. إنهم يظنون أن بإمكانهم إطلاق طائرتين دفعةً واحدة، ولكن الطائرات لا يمكن أن تكون من طراز سي ـ 5. ولن نكون مستعدين بشكل تام في أوزبكستان قبل 12 يوماً. ولن يمكننا أن نعمل 12 ساعة في اليوم قبل ستة أو ثمانية أيام. ولكن يمكنك أن تنجز إنجازات أكبر إذا عملنا 24 ساعة في اليوم. وسنأخذ إلى هناك طاقماً من الموظفين الذين يمكن نشرهم حتى يحاولوا أن يجعلوا المكان قادراً على العمل

24 ساعة في اليوم. إننا بحاجة إلى 67 انطلاقة للطيران حتى يكون لدينا عدد كافٍ من الانطلاقات يعطينا القدرة على القيام بعمليات البحث والإنقاذ في القتال».

إن عمليات البحث والإنقاذ والاستعداد لها استعداد كامل يستلزم 67 توصيلة من الموظفين والمعدّات والهليكوبترات تقوم بنقلها جوّاً طائرات من طراز سي ـ 17.

«إذن هذا سيؤخر عملياتنا الخاصة؟» سأل الرئيس.

نعم، ويمكن أن يؤخّر ضَرْبَنَا الشمالَ بالقنابل، لأنه لن يكون لديهم فرق للبحث والإنقاذ.

«في الجنوب نحن مستعدون للانطلاق بقاذفات القنابل وصواريخ كروز»، قال مايرز. «وسنقوم بعمليات خاصة في وقت لاحق من هذا الشهر. وستجعل حاملات الطائرات ورقات نيلوفر طافية تكون قاعدة للعمليات، إلاّ أننا نحتاج أن تكون عُمان قاعدةً لتحميل حاملات الطائرات».

وكانت المناورات البريطانية في عُمان ما زالت ـ لاحتشادها ـ تحول دون إقامة قاعدة أمريكية. وقال پاول إنه سيرى إذا ما كان بإمكانهم أن يشجعوا عُمان على إعادة ترتيب الأمور. لعله يمكن للبريطانيين أن يقصّروا مدة مناوراتهم فيسمحوا لنا بالوصول إلى هنالك في وقت أبكر، قال پاول.

وقال الرئيس إنه سيتكلم مع طوني بلير.

«ولكن إذا أزلنا المناورات البريطانية من طريقنا، فإننا نظل في حاجة إلى الموافقة العمانية»، لاحظ پاول. ولم يكن ذلك يبدو عقبة رئيسية، لأن العسكرية الأمريكية كانت قد قامت بنشاطاتٍ انطلقتْ من عُمان على مدى يزيد على عشرين سنة، وهي تعود إلى محاولة إنقاذ الرهائن المخفقة سنة 1980 في إيران. إلاّ أن كل خطوة إضافية كانت تأخذ وقتاً ثميناً.

«أنظروا»، قال بوش، «علينا أن نجد طرقاً بديلة للقيام بهذا الأمر. ألاَ يمكننا أن نحمّل حاملاتنا للطائرات بقواتنا للعمليات الخاصة في مكان آخر؟ لماذا ينبغي أن يكون المكان عُمان؟».

«سننظر في ذلك»، وَعَدَ مايرز.

سأل بوش تينيت «هل تعتقد جماعتُك أننا بحاجة للقيام بعمل عسكري في هذا الوقت؟».

«نعم. بإمكاننا أن نعمل في الجنوب، ونتطلع إلى توجيه الطائرات من طراز بي ـ 52 إلى الشمال. إن هذا يشكّل تكملةً لحرب العصابات».

«سنراجع هذه المسألة كل يوم»، قال الرئيس. «أعتقد أننا بحاجة إلى القيام بشيء في عطلة نهاية الأسبوع أو بعدها بقليل. ويمكن للأهداف في الشمال أن تشكّل مرحلة ثانية». وجرتْ مناقشة حول موضوع المسافة التي يمكنهم أن يضربوها بالقنابل في شمال أفغانستان من دون فرقٍ للبحث والإنقاذ في القتال. وكان الجواب أن بعض الأهداف لا يمكن ضربها.

«الوضعُ ليس مثالياً»، قال بوش، «ولكن الوقت قد حان للتحرك. هل سنتحدث مع طومي اليوم؟».

وقالت رايس إن الجنرال طومي فرانكس سوف يأتي بعد ظهر يوم الأربعاء.

وصحّحها رامسفيلد: «سوف نتحدث معه عبر الڤيديو يوم الأربعاء».

وتذكّرَ الرئيس فيما بعد: «من المستحيل أن تجعل كل شيء يبلغ حدّ الكمال في الحرب. ولذلك فإن عليك أن تجعل الأشياء تبلغ الحدّ الأقصى الممكن من الكمال». وكان يعتقد أنه كان عليهم أن يكونوا قد شرعوا بالضرب بالقنابل. وكنت على كامل الاستعداد لإبلاغ الأمة بِلُغَةِ الجسد، وبالكلمات إذا

استدعى الأمر ذلك، إن جنودنا سيكونون محميّين بقدر الإمكان، إلاّ أن الوقت قد حان لأخذ العمل العسكري إلى العدوّ».

* * *

وبعد ظهر ذلك اليوم ذهب تينيت وهانك ـ رئيس عملياته الخاصة لمكافحة الإرهاب ـ إلى البنتاغون لمقابلة رامسفيلد وولفويتز ومايرز. وكان بوب ـ رئيس محطة تينيت في إسلام أباد ـ سيظهر على شاشة الفيديو الأمين.

وقال بوب إنه يتوقع أن الصدمة والرعب اللذين سيحدثهما الضرب بالقنابل سوف يفتح باب المفاوضات مع المعتدلين من الطالبان. وقد يكون من المستحسن إيقاف الضرب بالقنابل مؤقتاً من أجل إجراء مثل هذه المفاوضات. وكان قلقاً من حدوث حرب أهلية بين الشمال والجنوب. وقد يسمح الضربُ القوي بالقنابل في الشمال بإحداث تقدم كبير بالنسبة للحلف الشمالي وللجنرال فهيم ولغيرهما من الجماعات العرقية من الطاجيكيين والأوزبكيين. وسيعتبر الباشتون في الجنوب هذا الأمر غير مرغوب فيه؛ فإن الباشتون سيعتبرون التقدم في الشمال، في نهاية المطاف، هجوماً موجهاً ضدهم. ومرةً أخرى، فإن إيقاف الضرب بالقنابل مؤقتاً قد يعطي قبائل الباشتون في الجنوب بعض الوقت لاجتذاب النفوذ على الأرض.

وقال رامسفيلد إن ـ بالنسبة له ـ لن يكون هناك أي توقف مؤقت عن الضرب بالقنابل ـ وخاصة لأجل إجراء نوع من المفاوضات. نقطة. إن التوقف المؤقت عن الضرب بالقنابل له نكهة ڤيتنام. البتّةَ.

«هل عندك أي شيء تريدين أن تقومي به اليوم؟» قال رامسفيلد لتوري كلارك ـ الناطقة باسم البنتاغون ـ وهو يتحدث هاتفياً معها، وهي في بيتها، في حوالى الساعة السادسة صباحاً من يوم الثلاثاء الواقع في 2 أكتوبر/تشرين الأول. وبعد ظهر ذلك اليوم قال رامسفيلد إنهم ـ بما في ذلك توري كلارك ـ

سيذهبون إلى الشرق الأوسط وجنوب آسيا لزيارة المملكة العربية السعودية وعُمان وأوزبكستان والإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر. وسيرجعون ليل يوم الجمعة أو صباح يوم السبت.

وفي صباح ذلك اليوم قال رامسفيلد في اجتماع مجلس الأمن القومي: «أريد أن أدلي بالموجز الإعلامي الأخير في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر اليوم، وبعد ذلك أريد أن أقفل الموضوع بشكل كامل». وكان يعني ما يقوله حرفياً. ليس من المفروض أن يقوم أي شخص بالحديث علناً عن هذا الموضوع غيره.

وسأل الرئيس: «هل ستكون فرق البحث والإنقاذ في القتال جاهزة في الجنوب؟».

«ستكون جاهزة»، أجاب مايرز.

وقال رامسفيلد إن لديهم حلاً لضرب الشمال بالقنابل. «إن بإمكاننا أن نضرب أهدافاً في الشمال من دون فرق البحث والإنقاذ في القتال مستعملين طائرات من طراز بي ـ 2 وصواريخ كروز». وطائرات البي ـ 2 هي قاذفات قنابل من نوع ستيلث لا يمكن أن تلتقطها أي من رادارات الطالبان، ومن ثَمَّ فإنه لا يمكن مهاجمتها. وأن الطيارين والملاحين لا يكونون في خطر إلاّ إذا حدث حادث مفاجئ لقاذفات قنابلهم أو إذا حدث عطلٌ فيها، وتلك مجازفة هو مستعد لاتخاذها. أمّا صواريخ كروز غير المجهزة بالرجال فإنها لا تشكّل مشكلة.

«إن هذا يعني المهاجمة دون أفضل الأسلحة»، قال رامسفيلد، «ولكن إذا فعلنا ذلك فإن بإمكاننا أن نصيب كل الأهداف في الأيام الخمسة الأولى».

وأفضل الأسلحة هي قاذفات القنابل التكتيكية، لأنها تحلّق على علوّ أكثر انخفاضاً ويمكنها أن ترى الأهداف عياناً. أمّا قاذفات القنابل التي تحلق على

ارتفاع عالٍ فإن وَضْعَها سيعيقه انعدام الدلائل التي توفرها القوات الخاصة على الأرض والتي تشير إلى الأهداف بأشعة اللايزر.

وكانت الخطة تتّسم بشكل غير قليل بميسم الطريقة التي يعمل بها كلينتون: طريقة مأمونة، أقل من الأفضل، حلّ وسط. ولم يُثر أحد من الحاضرين هذه النقطة، ولكن كان هناك بعض الانزعاج.

«سنستعمل صواريخ كروز والطائرات من طراز بي ـ 1 وبي ـ 2 وبي ـ 52 والتاك في الجنوب»، قال رامسفيلد. وأضاف، متحرياً الوضوح: «كل الأهداف في الجنوب ستتلقى الأسلحة المفضلة. أمّا في الشمال فإننا سنصيب كل الأهداف دون استعمال الأسلحة المفضلة».

«ولن نتمكن من استعمال القوات الخاصة في الشمال. أمّا في الجنوب فهناك علامة استفهام على العمليات الخاصة. القضية هي مع عُمان، وعلينا أن نحلّها»، قال رامسفيلد.

وأعجبتْ الرئيسَ فكرةُ استعمال حاملة الطائرات يو إس إس كيتي هوك كمنصّة للعمليات الخاصة. «إن هذا يبيّن سيكولوجياً أن هذا نوع مختلف من الحرب، وإننا سنقوم بالأمور بشكل مختلف».

«بعد أن نتلقى الموافقة من عُمان على العمليات الخاصة»، أخبرهم رامسفيلد، «ستستغرق الأمور رغم ذلك عشرة أيام. غير أنكم تعرفون أن الأهداف في هذا الوقت ليست مثيرةً للعمليات الخاصة. ورغم ذلك فإنه من المؤسف أننا لن نستطيع أن نقوم بعمليات خاصة بالتزامن مع العمليات الجوية».

وكان رامسفيلد يخطط لمنع تسرّب الأخبار عن تفصيلات العمليات العسكرية بحيث لا يكون ضرورياً أن يعرف الصحافيون والجمهور ما هو أقلّ من الأفضل، وما ليس مفضّلاً، وحتى ما هو مؤسف.

وقال تينيت إن وكالة المخابرات المركزية توسّع أعمالها في الشمال وتبحث عن وسائل للعمل في الجنوب.

«لقد أرسلنا في طلب قوات خاصة من الشمال، وسيصلون اليوم. ونحن نبحث عن وسائل لإدخالهم إلى الجنوب»، قال رامسفيلد. وكانت فِرَقُهُ القوات الخاصة في مناطق تجمّع خارج أفغانستان، فلم يكونوا داخل البلد. وكان ذلك مصدر إحباط متزايد.

«ستكون الأهداف الأولى وسائل الدفاع الجوي وبعض الأهداف العسكرية والمخيّمات. ونرجو أن تظهر للعيان أهداف أخرى في الأيام التالية لليومين الأوّلين. وسوف تكون هناك معونات إنسانية ملقاة من الجو في اليوم الأول، وكلها في الجنوب، تحملها طائرات من طراز سي ـ 17. وستُلقى المعونات من علوّ مقداره أقل من 600 متر». وإنه يمكنهم أن يجعلوا هذه الطائرات بمنأىً عن أي من وسائل الدفاع الجوي التابعة للطالبان والتي تكون قد نجت بعد الضربة الأولى، ولكن يبدو أنه كان هناك بعض القلق من أن طائرةً قد تُسقَط.

وسأل الرئيسُ ـ وهو يركّز كعهده دائماً على عنصر العلاقات العامة ـ وزارة الدفاع أن تعمل مع كارين هيوز على «الموضوعات» التي كانوا سيستخدمونها في الإعلان عن العمل العسكري.

وأرسل رامسفيلد ذلك اليوم أمراً سرّيّاً جداً مؤلفاً من 15 صفحة إلى رؤساء الأقسام وقادة المقاتلين ووكلاء الوزارة، وكان عنوان الأمر «الحملة ضد الإرهاب: إرشاد استراتيجي لوزارة الدفاع في الولايات المتحدة».

إذا كان هناك التباسٌ في الوزارات الأخرى عمّا يريده الرئيس، فإنه ـ أي رامسفيلد ـ سوف يعمل للتأكد من أنه ليس هناك أي التباس في وزارته. وكانت ورقة الإرشاد ـ التي كان لها سلطة الأمر ـ تقول إن الرئيس قد أمر بحرب شاملة على الإرهاب. ويعني ذلك الحرب الشاملة على الإرهاب تماماً، وليس على

شبكة القاعدةَ وحسبُ أو على أفغانستان. وفي الفقرة عن «الوسائل» قال رامسفيلد: «كل الوسائل المتوفرة للسلطة القومية» ستستخدم في الحرب على الإرهاب العالمي. ويجب على الوزارة أن تتوقع العمليات العسكرية الكثيرة في ميادين عسكرية كثيرة.

وكان التركيز على المنظمات الإرهابية، والدول التي تكفل الإرهاب، بما في ذلك المنظمات التمويلية. وكان هناك نقطة تركيز أخرى موجّهة نحو أسلحة الدمار الشامل. وقالت الورقة بالذات إن الوزارة ستستهدف «المنظمات والدول التي تؤوي، أو تكفل، أو تموّل، أو تجيز، أو تساند بطريقة أخرى، تلك المنظماتِ أو الدُّوَلَ الداعمةَ لها في الحصول على أسلحة الدمار الشامل أو إنتاجها».

وكان آرميتاج، نائب پاول، قليل الاهتمام بالظهور على شاشة التلفاز في برامج المحادثات التلفزيونية. وعندما اتصل البيتُ الأبيض طالباً منه أن يقوم بجولةٍ على هذه البرامج اعتذر بلطف. إلاّ أنهم ألحّوا عليه.

وكان البيت الأبيض يريد أن يردّ على الاتهامات القائلة إن أمريكا لا تنال كل ما تريده من المملكة العربية السعودية وباكستان بسبب الضغوط السياسية في هذين البلدين.

وذهب آرميتاج إلى پاول وشرح له طلب البيت الأبيض. وقال لرئيسه: «أنظر، هذا ليس دوري».

«كلاّ، أنا مُهَمَّش ـ في الثلاجة»، قال پاول. ولعل ذلك بسبب قيامه بالحثّ على نشر ورقة بيضاء تبيّن بالتفصيل الأدلّة ضد بن لادن. «يجب علينا أن نخرج القصة إلى العلن، فاذهب وافعل ذلك»، قال پاول لآرميتاج.

ويوم 3 أكتوبر/ تشرين الأول ظهر آرميتاج على برنامج محطة الآي بي سي «صباح الخير أمريكا» وعلى برنامج محطة السي إن إن «على الهواء هذا الصباح».

وسُئِل في برنامج السي إن إن عما إذا كان هناك درجة من الخلاف بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، فقال: «حسناً، إن لكل أمةٍ جمهور سياسي في الداخل، إلاّ أنني لا أعرف أن هناك أية صعوبات رئيسية مع المملكة العربية السعودية. وقال في برنامج الآي بي سي إن الإدارة الأمريكية «قد تشجعت إلى حد بعيد لأن النشاط المضاد لأمريكا في باكستان كان ضعيفاً نسبياً».

وهكذا أُوصلتْ الرسالة من باب التحسس بالواجب: السعوديون يتعاونون، والباكستان ممسكة بزمام الأمور.

ويوم الأربعاء الواقع في 3 أكتوبر/ تشرين الأول، وفي داخل أفغانستان، مضى غاري باحثاً عن مدرج للطائرات ليُحضر الذخائر إلى أراضي الحلف الشمالي. ووجد الفريقُ مدرجاً واحداً في منطقة اسمُها قُلْبَهار، وكان البريطانيون قد استعملوه سنة 1919. وطلب غاري من عارف ـ رئيس مخابرات الحلف الشمالي ـ أن يمهّد منطقةً ويحوّلها إلى مهبط للطائرات، وناوله 200,000 دولار آخر. واشترى ثلاث سيارات جيب بمبلغ 19,000 دولار ودفع مبلغاً آخر مقداره 22,000 دولار لشراء شاحنةٍ لنقل البترول ووقودٍ للهليكوبترات. ووعد عارف أنهم سيشترون الشاحنة في دوشانبه ويقودونها عبر الجبال ثم يوصلونها لفريق وكالة المخابرات المركزية، لكن الشاحنة لم تصل أبداً.

وعمل فريق غاري تقييماً للخطوط الأمامية لقوات الطالبان والقاعدة، مستحصلاً على الـ Coorduates الجغرافية الدقيقة ـ القراءات الدقيقة بحسب نظام التمركز العالمي. وكان الكثيرون من الباكستانيين قد جاءوا إلى المنطقة والتحقوا بالطالبان. واستحصل غاري على قراءات دقيقة بحسب نظام التمركز العالمي عن أماكنهم.

إن الضرب الأمريكي بالقنابل، بالأسلحة الدقيقة، آتٍ. كان واثقاً من ذلك. لكنه كان قد عايش فترة الأشهر الخمسة ونصف الشهر التي تمّ فيها الحشدُ العسكري استعداداً لحرب الخليج، وكان يعرف أن الإعداد الدقيق

يستغرق وقتاً طويلاً. والضرب بالقنابل بدا بعيد الحدوث، ربما لأَشْهُر، ولم يكن قد وصلهم من مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية تحذيرٌ مسبق على نظام اتصالاتهم الأمين. ولذلك بدأت برقيات غاري تطلب المؤن الإنسانية للشعب الأفغاني ـ طعام وبطانيات وأدوية.

واجتمع الرؤساء في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الأربعاء.

وقال وولفويتز ـ حالاً محلّ رامسفيلد: «لقد حصلنا على الإذن بإنزال قوات البحث والإنقاذ في القتال من الأوزبكيين اليوم، ويمكن لهذه القوات أن تتمركز في الوقت المناسب».

ونقل الجنرال مايرز أنهم ما زالوا يحاولون إيجاد دورٍ للحلفاء الرئيسيين.

وقال پاول إنه يجب أن تكون هناك في كابول قيادة تمثّل الشعب الأفغاني كله بعد هزيمة الطالبان. وسيقوم ريتشارد هاس ـ مديره للتخطيط السياسي ـ بالذهاب إلى روما لزيارة ملك أفغانستان السابق. وكان الملك قد قال إنه سيساعد في إحداث الانتقال إلى حكومة ما بعد الطالبان، إلاّ أنه لا يريد أي دور رسمي في النظام الجديد.

«حتى مشرّف يريد أن يتحدث عن أفغانستان ما بعد الطالبان»، قالت رايس. «يجب علينا أن نستغلّ ذلك».

«إنه من المفيد على المدى القريب أن يكون حديثاً عن مستقبل الطالبان مبهماً»، اقترح تشيني، «لأجل استغلال الانشقاقات داخل الطالبان». أمّا على المدى البعيد ـ فإننا نحتاج أن ينهار الطالبان».

وسُرَّ تينيت. فمنذ 11 سبتمبر/أيلول كان يعتقد أن الطالبان والقاعدة مرتبطان معاً، ويجب معاملتهما كعدوّ واحد والتخلص منهما. إن الولايات المتحدة مُقْدِمة على تغيير النظام في أفغانستان. والانتقال إلى تلك السياسة ـ أو وَعْيُهم لذلك ـ قد حدث في هذا الاجتماع. ودفعُ القيادة من الشمال إلى

الجنوب سيكون ضرورياً للاستقرار في المستقبل. وكانت المشكلة أنه لم يتبيَّن بعد كيف يقوم بذلك.

«إن الرئيس لن يريد أن يستعمل الجنود في إعادة بناء أفغانستان»، حذَّر كارد. وكان بوش قد قال تكراراً خلال حملة الرئاسة الانتخابية: إن الجنود المقاتلين لن يعملوا في بناء الشعوب؛ إن العسكريين الأمريكيين لم يوجدوا من أجل هذا الهدف. وأعلن في المناظرة الثانية من المناظرات الرئاسية الثلاث: «كلاً مطلقاً. إن المراد من العسكريين الأمريكيين أن يقاتلوا وينتصروا في الحرب». إلاَّ أن بوش لان قليلاً في المناظرة الثالثة وقال: «قد تأتي لحظاتٌ نستعمل فيها جنودنا كقوات لحفظ السلام، ولكن ليس في أحوال كثيرة».

وكان جميع مَن في الغرفة يعرفون أنهم بصدد الدخول في مرحلة حفظ السلام وبناء الشعوب. وكان الدرس القاطع الذي تعلموه من التسعينيات في أفغانستان هو: لا تتركْ فراغاً. إن التخلي عن أفغانستان بعد طرد السوڤيات منها سنة 1989 قد خلق الأوضاع الملائمة لقيام الطالبان ولاستيلاء بن لادن والقاعدة عملياً على البلاد.

والآن يبدو أن الوجود الأمريكي في أفغانستان ـ في حال طرد الطالبان ـ سيكون عبارة عن آلاف من الجنود المقاتلين، ولعل معظمهم سيكون من الأمريكيين. كان رامسفيلد يعرف ذلك. وكان پاول يعرف ذلك. وقد كانوا في بعض الأحيان يحملقون في وجوه بعضهما بعضاً عبر الطاولة بالنسبة لهذا الموضوع. وكان رامسفيلد يريد خفضه إلى الحدّ الأدنى، فيما كان پاول يريدهم أن يواجهوه كأمر واقع.

* * *

واجتمع نواب الرؤساء في وقت لاحق من ذلك اليوم. وكان التركيز على إعادة بناء أفغانستان ما بعد الطالبان. واتفقوا على أن الولايات المتحدة يجب أن تقود الجهود لإحلال الاستقرار في أفغانستان ما بعد الطالبان، بما في ذلك

المساعدة على إنتاج الطعام، والصحة، وتعليم النساء، والمشاريع الهادفة إلى إقامة البنى التحتية على نطاق ضيق، وإزالة الألغام من البلاد. وما شأن البنية السياسية؟ وما شأن الخطة الأمنية؟ وما شأن الخطة لشرح هذه القضية للجمهور؟

وكان لدى هادلي لائحة عليها «ما يجب أن يُعْمَل»، وكانت اللائحة تحتوي على: خطة عمل للقوى الاقتصادية السبع الكبار وللبنك العالمي وغيره من المجموعات المالية الدولية؛ حَدِّدوا بعضَ البلدان التي تتعهد بتقديم عدة مليارات من الدولارات وأعلنوا ذلك للناس؛ الحاجة إلى الإعلان للناس عن مؤتمر دولي موضوعه المستقبل السياسي؛ جِدُوا مانحين يسدّدون حساب الأمم المتحدة لأجل أفغانستان؛ البرقيات التي ستُرْسَل إلى الحلفاء مُبَيِّنَةً المطالب منهم؛ حدِّدوا الحلفاء الرئيسيين الذين يوافقون سرّاً على المساعدة في شؤون الأمن فيما بعد الطالبان.

في ذلك اليوم اجتمع هانك ـ رئيس العمليات الخاصة لمكافحة الإرهاب ـ بالجنرال فرانكس في تامبا، في ولاية فلوريدا، للمرة الأولى. وفسّر هانك، مستعملاً خرائط لأفغانستان، كيف يمكن للفِرَق شبه العسكرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية والعاملة مع مختلف قوات المعارضة أن تحرّك تلك القوات. إن قوات المعارضة ـ وبشكل رئيسي الحلف الشمالي ـ ستقوم بمعظم القتال على الأرض. وإذا كرَّرَتْ الولايات المتحدة أخطاء السوفيات، وقامت باجتياحٍ بقواتٍ أرضية كبيرة، فإنه سيحكم عليها بالإخفاق.

ويمكن لِفِرَقٍ فرانكس من القوات الخاصة من بعدُ أن تنزل في أفغانستان وتحدّد بدقة الأهداف التي يمكن للطلعات الأمريكية أن تضربها بالقنابل بشدة. ويمكن للمخابرات البشرية الآتية من الأرض محدِّدةً الأهدافَ أن تزوّد القنابل الدقيقة بمعلومات معيّنة ودقيقة بشكل يفوق المعتاد.

وأوضحَ هانك ـ بناءً على تعليمات تينيت ـ أن الفرق شبه العسكرية سَتَعْمَلُ تحت إمرة فرانكس. وعلى ذلك، وبطريقة معاكسةٍ نوعاً ما للممارسات

السابقة مؤخراً، فإن وكالة المخابرات المركزية ستعطي فرانكس وقادة القوات الخاصة التابعة له هوياتٍ كل مصادر القوة المتوفرة لوكالة المخابرات المركزية في أفغانستان: إمكانياتها ومواقعهما وتقييم الوكالة لها. ويجب على العسكريين والوكالة أن يعملا معاً كشريكين.

ووافق فرانكس أساساً على الخطة. وأَفشَى أنّ حملة الضرب بالقنابل قد تقرّر أن تبدأ في أي وقت ابتداءً من 6 أكتوبر/تشرين الأول ـ بعد ثلاثة أيام.

وقال هانك إن المال ذو نفوذٍ في أفغانستان، وأنه لديهم الملايين المخصصة للعمل السرّيّ. ويمكن لوكالة المخابرات المركزية ـ على مستوى واحد ـ التزويد بالأموال لشراء الطعام والبطانيات وملابس الطقس البارد والأدوية، وهذه يمكن إسقاطها من الجوّ. وسيكون المقاتلون على الجانبين وعائلاتهم الذين يسافرون معهم معرّضين للبرد والجوع. وستكون المعونات الإنسانية لذلك في صالح الولايات المتحدة.

وقال هانكس إن الزعماء ومَن تحتهم من القادة الذين يقودون العشرات أو المئات من المقاتلين يمكن شراءهم بمبلغ نقدي قليل لا يزيد عن 50,000 دولار. وإذا قمنا بهذا العمل بصورة جيدة فإن بإمكاننا أن نشتري أعداداً من الطالبان تفوق الأعداد التي يتعيّن علينا قتلها.

حسناً، قال الجنرال فرانكس.

ذهب بوش إلى مدينة نيويورك صباح ذلك اليوم لحضور اجتماع حماسي حاشد قرب أرض الصفر، ولحضور اجتماع خاص مع كبار رجال الأعمال حول موضوع إعادة بناء المدينة. «إنني أعتقد بحقّ»، قال لرجال الأعمال المتنفّذين، «إنه سينتج عن ذاك نظامٌ أفضلُ في العالم ـ تقدمٌ حقيقي نحو السلام في الشرق الأوسط، واستقرارٌ في المناطق المنتجة للنفط».

وكان أقلّ تفاؤلاً بالنسبة للتهديد بهجمات أخرى. «لا أستطيع أن أخبركم ما إذا كان أولاد الحرام سيضربون مرة أخرى».

14

كان لدى الجنرال مايرز أخبار سارة لدى اجتماع مجلس الأمن القومي يوم الخميس الواقع في 4 أكتوبر/ تشرين الأول. «إن فرق البحث والإنقاذ في القتال ستكون واقفة على رجليها يوم الاثنين في أوزبكستان» ـ يعني أنها ستكون مستعدة للعمل. «وقد بدأت القوات الخاصة بالطيران إلى عمان. وستكون حاملة الطائرات كيتي هوك في المكان المناسب يوم 13 أكتوبر/ تشرين الأول، وهذا سيسمح للأمور بالتقدم في الجنوب. ولا أرى أنه من المستحيل وضع قوات العمليات الخاصة في الشمال». فبعد أيام من ابتداء الضرب بالقنابل يُصبح ممكناً أن تقوم قوات العمليات الخاصة بعمليّاتها على الأرض.

أمّا فيما يتعلق بأفغانستان ما بعد الطالبان، فقد تحدث وولفويتز ورايس عن الاستحصال على بلدان تقدم المال لإعادة البناء.

سأل بوش «مَن الذي سيُدير البلاد؟».

وخطر لرايس: كان علينا أن نفكّر بذلك. وكانت أسوأ اللحظات بالنسبة لها تلك التي يفكّر الرئيس فيها بشيء كان على الرؤساء ـ وخاصةً هي ـ أن يستبقوه إليه.

ولم يكن لدى أحد جواب حقيقي، ولكن رايس كانت قد بدأت تفهم أن هذا هو السؤال الحاسم. إلى أين كانوا يتّجهون.

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح ذهب الرئيس إلى وزارة الخارجية ليشكر موظفيها. وقُبَيْل انتهاء ملاحظاته دمعتْ عيناه. وتَعَجَّبَ أري فلاسشر، وهو في الصف الأمامي: لماذا اليوم؟

وفي البيت الأبيض أشار بوش إلى فلايشر بالقدوم إلى المكتب البيضوي. «لقد وصلنا تقرير هذا الصباح عن حالةٍ من الأنثراكس في فلوريدا»، قال بوش. «ولا نعرف مدى انتشاره. ولا نعرف إذا كان هناك أكثر من حالة. لا نعرف الكثير».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها فلايشر القلقَ في عيني الرئيس.

وكان بوب ستيفنز ـ وهو محرِّرٌ للصُوَر في الجريدة الشعبية المسماة «ذي صان» في فلوريدا. ويبلغ من العمر 63 سنة ـ كان مريضاً جداً إثر استنشاقه للأنثراكس، وهذا مرض مميتٌ طالما جرى ربطه بالحرب البيولوجية على وجه الاحتمال. وكانت البيانات الأولى تفيد أن حالته حالة منعزلة وأنها نتجت على الأرجح عن أسباب طبيعية، وأُنزلت قصته في الصفحات الداخلية من الجرائد.

وكانت الأخبار عن الأنثراكس في صدد الاستفحال.

وفي اجتماع خاص مع أمير قطر، أظهر بوش مدى تتبُّعه لإشارات المخابرات، خاصة فيما يتعلق ببن لادن. «نحن نعرف أن أسامة بن لادن كلّم أمه هاتفياً»، «قال بوش للأمير. وسيرتكب خطأً في يوم من الأيام، وسنقبض عليه».

يوم الخميس ظَهَرَ رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير أمام البرلمان وقدّم الأدلّة على أن شبكة القاعدة التابعة لأسامة بن لادن مسؤولة عن هجمات 11 سبتمبر/أيلول. وقام مكتبه بنشر وثيقةٍ غير محظورة على الإنترنت، أوضحتْ

القضية، بأكبر قدر من التفصيل حتى ذلك الوقت، إلاَّ أنها لم تكشف عن المخابرات البالغة التخصيص والحساسية.

وجاء نشرُ التقرير البريطاني بعد 12 يوماً من وعدِ وزير الخارجية كولن پاول بتقديم عرض علني للأدلّة، وسطَ دعواتٍ لذلك من حلفاء وقادة أجانب. ويوم الخميس أيضاً أعلنت وزارة الخارجية الباكستانية أن الولايات المتحدة قد زودتها بالأدلّة الكافية على تورط بن لادن في هجمات 11 سبتمبر/أيلول، وأنهم قد يُحضرون الاتهام إلى المحكمة. وكان التبني الواضح للقضية الأمريكية من جانب دولة مسلمة نعمةً.

وفي خلال يوم واحد، بات موضوع الورقة البيضاء ـ الذي كان موضع خلافٍ بين پاول ورامسفيلد ـ موضوعاً معوّماً.

* * *

على الصفحة السابعة من التقرير السرّي جداً البالغ 11 صفحة والذي عنوانه الشفري: مقياس التهديد ليوم الجمعة الواقع في 5 أكتوبر/تشرين الأول، كان هناك تقرير من مصدرٍ تابع لوكالة المخابرات الدفاعية اسمه الشفري «دراغون فاير». وقال دراغون فاير إن الإرهابيين قد يكونون حصلوا على سلاح نووي بمقدار 10 كيلو طن من المخزون الاحتياطي للاتحاد السوڤياتي السابق. وزعم المصدر أن هذا السلاح قد يكون متوجهاً صوب مدينة نيويورك. وإن تفجير أي جهاز نووي، حتى لو كان صغيراً، في مدينةٍ يمكنه أن يقتل عشرات الآلاف ويخلق ذعراً هائلاً. وكان ذلك السيناريو الكابوس الذي يقلق الجميع أكثر ما يقلقهم.

غير أنّ مقياس التهديدات اعتبر تقرير دراغون فاير «غير مصدَّق»، لأنّ فيه تفصيلات تكنولوجية خاطئة. وظهر بعدُ أن المصدر هو مواطن أمريكي قال إنه سمع بالصدفة بعض الأشخاص غير المحدَّدين يناقشون إمكانية تفجير سلاح نووي في كازينو في لاس ڤيغاس. كانت المسألة زائفة بكاملها، لكن الجوّ كان

يسمح بأن تملأ التقاريرُ المماثلةُ لزعم دراغون فاير مقياسَ التهديداتِ بشكلٍ منتظم. ولم يكن هناك أحد يرغب في عدم ذكر أي تهديد.

وكان الرئيس في المكتب البيضوي في وقت لاحق من ذلك اليوم، وكان يراجع خطاباً ألقاه رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون. وكان شارون لمّح إلى أن الولايات المتحدة بصدد تكرار أخطاء ميونخ سنة 1938، عندما تخلّى رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشيمبرلاين عن تشيكوسلوفاكيا لهتلر.

«لا تحاول استرضاء العرب على حسابنا»، قال شارون، موجّهاً كلامه إلى الرئيس الأمريكي. «إسرائيل لن تكون تشيكوسلوفاكيا».

«سنجيب على هذا، أليس كذلك؟» سألت رايس بوش.

«طبعاً سأجيب على هذا».

وتناقشوا في شنّ ردٍّ عنيف. وحذّر أَحَدُهم: «ستحصلون على عنوان في الصحف يقول: بوش ينتقد شارون بقسوة».

«سيدي الرئيس»، قالت رايس، «لقد سمّاكَ للتوّ نيفيل تشيمبرلاين. أعتقد أن الوقت قد حان لتقول شيئاً قوياً».

وفي وقت لاحق سمّى فلايشر تعليق شارون «غير مقبول»، في نفس الوقت الذي تحركت فيه الدبابات والهليكوبترات والطائرات المقاتلة والجرّافات والقوات الأرضية الإسرائيلية إلى أراضي الضفة الغربية التي يسيطر عليها الفلسطينيون.

استدعى بوش إلى المكتب البيضوي نيك كاليو، رئيس العلاقات مع الكونغرس في البيت الأبيض.

«نيكي»، قال بوش، «خذ هذه، خذ هذه إليهم الآن. لن. . .».

وظهر على وجه كاليو سيماء الارتباك.

«هل تعرف عن هذه؟» سأل بوش. وكان شديد الغضب بسبب التسرّبات إلى أجهزة الإعلام.

«هل يمكنني أن أراها؟» سأل كاليو، فيما أعطاه بوش ورقةً واحدة. وقرأ كاليو بسرعة. كانت مذكّرةً موجهةً إلى پاول وأونيل ورامسفيلد وآشكروفت وتينيت ومولر، مدير مكتب التحقيق الفيديرالي. الموضوع: «إفشاءات إلى الكونغرس». وكانت أمراً قد وقّعه بوش وفيه أن الثمانية الكبار فقط ـ قادةَ الجمهوريين والديموقراطيين في كلٍّ من مجلس الشيوخ ومجلس النواب، ورئيسَيْ لجنتي المخابرات وعضوَيْهما المقدَّمَيْن ـ يمكنهم تلقّي المعلومات المحظورة أو المعلومات الحساسة المتعلقة بتنفيذ القانون.

«كلا»، قال كاليو، مشيراً إلى أنه لم يكن قد رأى المذكرة.

«حسناً، كان من المفروض أن يخبروك»، قال الرئيس، مشيراً إلى آندي كارد أو محامي البيت الأبيض.

(وفي صباح ذلك اليوم نشرت جريدة الواشنطن بوست مقالة على الصفحة الأولى، عنوانها: «مكتب التحقيق الفيديرالي ووكالة المخابرات المركزية يحذّران الكونغرس من هجمات أخرى». وكنتُ قد كتبتُ هذه المقالة بالاشتراك مع سوزان شمدت. وركّزت المقالة على إعلام موجز محظور قام به موظفون من مكتب التحقيق الفيديرالي ووكالة المخابرات المركزية في الكونغرس في وقت سابق من ذلك الأسبوع. وقد نقلنا أن هناك ترجيحاً كبيراً لحدوث عمل إرهابي آخر، وقلنا إن أحد موظفي المخابرات أخبر الكونغرس أن هناك احتمالاً مئة بالمئة لحدوث هجوم في حال قيام الولايات المتحدة بالردّ بالقوة العسكرية في أفغانستان).

وحاول كاليو أن يشرح للرئيس أن مثل هذا الحصر في تلقّي المعلومات سيكون كارثة. إنه سيكون أشبه بقطع الأوكسجين عن 527 عضواً من أعضاء الكونغرس البالغ عددهم 535.

«لا يهمني ذلك. خذ الورقة إلى هناك. هذا ما سيحدث»، أَمَرَ بوش.

«حسناً»، قال كاليو، «ولكنني أريد فقط أن أقول لك إنه يمكنك أن تتوقع».

«أنا لا أدافع عنها»، قال بوش. «هل تفهم الوضع؟».

وهزّ كاليو برأسه.

«خذها إليهم هناك، موافق؟».

«حسناً»، قال كاليو.

«إن هذا خراء عسير المضغ»، قال الرئيس.

وتحدث بوش فيما بعد مع السيناتور بوب جراهام، الديموقراطي من ولاية فلوريدا، وكان يرأس لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ. وكانت تلك المحادثة أطول حوار جرى بينه وبين الرئيس، وقد سمع أثناءه سيلاً حقيقياً من تجديفات ولاية تكساس.

ثم أخذ كاليو على عاتقه ما هو أساساً ديبلوماسية المكّوك ـ على طريقة ديبلوماسية الشرق الأوسط ـ ساعياً بين بوش والكونغرس، ومحاولاً أن يجذب الجانبين إلى الوسط. وأخيراً وافق بوش على إلغاء الأمر. كان قد أرسل لأعضاء الكونغرس رسالة أنّ بإمكانه أن يقطعهم إذا شاء.

ظَهَرَ الوزير رامسفيلد في مؤتمر صحفي في طشقند، بأوزبكستان، يوم الجمعة مع الرئيس كريموف. وقال كريموف أن أوزبكستان ستمنح الولايات المتحدة حق استعمال مجالها الجوّي وأَحَد مدارجها للعمليات الإنسانية ولعمليات البحث والإنقاذ، وأن أوزبكستان مستعدة لزيادة التعاون في مجال تبادل المخابرات.

وسأل صحافي عمّا قدّمته الولايات المتحدة بالمقابل. وأجاب رامسفيلد: «لم تكن هناك تعويضات معينة، إذا كان هذا ما تبحث عنه».

وأضاف كريموف بسرعة: «أودّ أن أؤكد أنه لم يَجْرِ أي حديث عن تعويضات حتى الآن».

وقال رامسفيلد ـ وعينُهُ على المستقبل ـ ما أراد كريموف أن يسمعه. «إن همّ الولايات المتحدة أن تقيم علاقة تستمرّ مدة طويلة مع هذا البلد»، أكّد رامسفيلد للجميع، «وليس علاقة مركّزة على المشكلة الراهنة وحدها».

* * *

في اجتماع مجلس الأمن القومي صباح ذلك اليوم، اتصل الجنرال فرانكس بالحاضرين عبر الڤيديو الأمين من المركز الرئيسي للقيادة المركزية في تامبان.

«طومي، هل نحن مستعدون للانطلاق؟» سأل بوش.

«نعم، يا سيدي، نحن مستعدون للانطلاق».

قال الرئيس «إننا بحاجةٍ إلى ملخّصٍ بالأهداف».

ستكون ضربة اليوم الأول محدودة نوعاً ما ـ تستهدف نحو 31 هدفاً ككلٍّ فقط. وسيستعملون حوالى 50 صاروخ كروز، و15 قاذفة قنابل تنطلق من الأرض، وحوالى 25 طائرة ضاربة تنطلق من حاملات للطائرات. وسيهاجمون مخيمات التدريب التابعة لبن لادن، ونظام الدفاع الجوي التابع للطالبان، وأية تجمعات للقاعدة إذا أمكن تحديد أماكن أي منها.

وكانت وزارة الدفاع أيضاً تعيد تنظيف اللائحة المسمّاة «لا تُضرَب» ـ وهي لائحة بالأهداف التي يُفترض ألاّ تضرب: مولدات الكهرباء والمدارس والمستشفيات وخاصةً المساجد، وذلك ليظهر أن الهجوم ليس موجهاً ضد الشعب الأفغاني. وكانت اللائحة ستُحَدَّث كل يوم.

«علينا أن نناقش قوانين المعركة»، قال مايرز، واقترح أن يقوموا بذلك في اليوم التالي عبر الڤيديو الأمين.

وقال الرئيس إنه أخبر قائد الأكثرية في مجلس الشيوخ، طوم داشل، والمتحدث باسم مجلس النواب، ج. دنيس هاسترت، وقائد الأقلية في مجلس الشيوخ، ترينت لوت، عن الضربات العسكرية القادمة. وقال إنه سيخبر القائد الديموقراطي في مجلس النواب، ريتشارد غبهارت.

وعندما انتقلوا إلى موضوع تجميد موجودات الإرهابيين ـ أحد أدوات بوش المفضلة ـ قال پاول: «إن حزب الله وحماس سيوضعان على لائحة المنظمات الخاضعة للحرب المالية على الإرهاب».

واتخذ الرئيس موقفاً عدوانياً. «إن لدينا حملةً طويلة الأَجَل على الإرهاب»، قال بوش، «ولكن الأمور الأولى تأتي أولاً. وسنقبض على الآخرين في الوقت المناسب». وكان الانتظار والتأخير يؤثران فيه. ويجب أن تتلقى القاعدة وأفغانستان كل الطاقات الآن. وبعد أن فضفض عن نفسه بالحديث عن شعوره الأخير بالإحباط، ذكّر بوش الحاضرين بأنه، نَعَم، لن يتراجع. «إنني ملتزم بمجهود تكاملي في الحرب على الإرهاب».

وقال پاول إن بعض منظمات الإنعاش الدولية قلقة بشأن إسقاط الطعام إلى الطالبان وأنها تحاول تحديد القرى التي لا يسيطر عليها الطالبان.

وقال وولفويتز إن هناك تدفقاً جيداً باتجاه أوزبكستان. وقد وصلت حمولات تسع طائرات من أصل الحمولات الـ 67 الضرورية، وأنهم الآن مستعدون للعمل ابتداءً من 7 أكتوبر/ تشرين الأول، وهو اليوم الذي كانوا يرجون أن يبدأ فيه الضرب بالقنابل. وقال وولفويتز: «لدينا 33,000 شخص في الميدان، وكان لدينا 21,000 شخص في الميدان في 10 سبتمبر/ أيلول». إذن قد أُنزل 12,000 شخص حديثاً، وإنْ لم يكن هناك عسكريون داخل أفغانستان بعد.

وفي المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية، كان هانك قد علّق خارج باب مكتبه لافتةً مأخوذة من ملْصَقٍ إعلاني للتجميع كان المكتشِف

البريطاني إيرنست شاكلتون قد استعمله لبعثته إلى أنتاركتيكا (في القطب الجنوبي) سنة 1914.

وكان مكتوباً على اللافتة: «مطلوب ضباط لرحلة تنطوي على المخاطر. أُجور قليلة. برد قارس. شهور طويلة في ظلمة كاملة. خطر مستمر. العودة بالسلامة مشكوك فيها. شرف وتقدير في حال النجاح».

وداخل المكتب كان هانك يهمّ بإرسال أهمّ رسالة في حياته المهنية إلى الميدان. وكان تينيت وكوفر بلاك قد وافقا على الرسالة، وكانت موجّهةً إلى نحو 12 محطة وقاعدة في باكستان وطاجيكستان وأوزبكستان، وهي المحطات والقواعد التي تدير مصادر القوة السرية ومصادر المعلومات داخل أفغانستان، بما في ذلك الحلفاء القَبَليّون والحلف الشمالي. وقد أُرسلت الرسالة أيضاً إلى فريق كاسر الفلك التابع لغاري على الأرض، وإلى عدد من الفرق شبه العسكرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية والتي كانت تستعدّ للدخول إلى البلاد.

وكانت الرسالة المؤلفة من ثلاث صفحات بعنوان: «الاستراتيجية العسكرية»، وفيها قائمة بهذه النقاط:

1 ـ أعطوا تعليمات لكل الحلفاء القَبَليين بوضع كل طائراتهم على الأرض وتحديد هويتها حالاً.

2 ـ أعطوا تعليمات للقَبَليين بإيقاف كل التحركات العسكرية الهامة ـ بأن يتوقفوا ويلزموا أماكنهم أساسياً.

3 ـ تقضي الخطة المستقبلية بأن تقوم قوات المعارضة بالاندفاع لعزل قوات العدو، ولكن بأن تنتظر قبل التحرك.

4 ـ أعطوا تعليمات لكل مصادر القوة في أفغانستان كلها بالبدء بعمليات التخريب حالاً في كل مكان. وهذا يتضمن رمي القنابل اليدوية على مكاتب الطالبان، وإعاقة مرور قوافل الطالبان، وتوقيف الأشخاص الذين ينقلون المؤن

والذخائر الحربية للطالبان، وعلى وجه العموم أن يكونوا مزعجين بغيضين. (وسيكون ذلك أول استخدامٍ للقوة المركزة المميتة في حرب بوش على الإرهاب).

5 ـ إعلامهم جميعاً بأن الاقتحامات شبه العسكرية ستمضي قُدُماً في الجنوب، وستنضمّ إليها ضربات جوية أكثر تحديداً.

6 ـ على الجميع أن يحددوا الأماكن التي يجب ألاّ تُضْرَب ـ المستشفيات والمدارس.

7 ـ على كل الفئات القَبَلية والقادة أن يحددوا هوية الأهداف الرئيسية ويعيّنوا أماكنهم.

8 ـ يجب على مصادر القوة أن تحاول تعيين طرق الهرب الممكنة لبن لادن وقيادته من القاعدة من أفغانستان ـ وأن تحاول بعد ذلك إقامة آليات استطلاع لتلك الطرق بغرض منع الهرب.

9 ـ كونوا مستعدين لاستجواب السجناء واستغلالهم.

10 ـ قيِّموا الاحتياجات الإنسانية.

وأُعطيت لهم تعليمات بأن يُطلعوا الجنرال فرانكس على كامل نص الرسالة لأجل التأكد من أن هناك شفافية تامة مع القائد العسكري.

وختم هانك الرسالة، «إننا نقاتل من أجل أغراض مكافحة الإرهاب في الميدان الأفغاني، وهذا يقيم أهدافاً عالية في أرضٍ مُقَلْقَلَة متحركة، إلاّ أننا نحارب أيضاً من أجل مستقبل معركة مكافحة الإرهاب المتكاملة حول العالم من جانب وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع. وفيما سنرتكب أخطاءً ونحن نختطّ أراضٍ جديدة وننتهج منهجية جديدة، فإن أهدافنا واضحة وتصوّرنا للمشاركة سليم».

وجُهِّزت الأوراق الدعائية التي سيتم إسقاطها في أفغانستان، وكان عليها رسم فجّ لدبابة مقحمة بين بنايتين صغيرتين على الطراز الأفغاني.

وكان مكتوباً على الأوراق بلغتي الباشتو والداري وبالإنجليزية: «إن الطالبان يستعملون مناطق المدنيين لتخبئة معدّاتهم، وهذا يعرّض الجميع للخطر في تلك المناطق. اهربوا من أي منطقة فيها معدّات أو موظفون».

في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الجمعة الواقع في 6 أكتوبر/ تشرين الأول، كان الرئيس في كامب داڤيد يشارك في اجتماع مجلس الأمن القومي عبر الڤيديو الأمين. وكان التوتّر حول مقاطعة كشمير المتنازَع عليها يتسع.

«نحن نراقب الهند»، قال پاول. «ونحن ننتظر النص المكتوب لمحادثات بلير».

وكان رئيس الوزراء البريطاني قد وعد بأن يُجري محادثات هاتفية ليهدِّئ الوضع المتفاقم مع باكستان حول كشمير. «وقد أعطينا تعليماتنا لسفيرَيْنا بأن يذهبا إلى العاصمتين ـ وبعد ذلك نقرر ما إذا كان على الرئيس أن يُجري محادثةً هاتفية. وأضاف پاول وهو يقصد أن يصوّر الفكرة على نحوٍ أضعف مما تقضيه الحقيقة: «نريد أن نعترض سبيل هذا الأمر».

وفيما يتعلق بإسرائيل، أشار پاول إلى تصريح شارون أن إسرائيل لن تسمح لنفسها بأن تصير تشيكوسلوڤاكيا. «إن تصرّف شارون في الأيام القليلة الماضية يشرف على اللاعقلانية»، قال پاول، ظانّاً أنه قد يمكنه أن يقول ذلك عن القائد الإسرائيلي على نحوٍ منتظم.

ونقل رامسفيلد ـ وكان قد عاد من رحلته الدوّامية ـ أنه كان ناجحاً كديبلوماسي. وقال إن السعوديين كانوا مهذّبين ووَدُودِين، بل مُجاملين. وكانت النقطة السلبية الوحيدة قلقهم من أن الولايات المتحدة كئيبة، ولكنه هو ـ

رأي رامسفيلد ـ يعتقد أنه «دَكّ» تلك الفكرة. لكن من المؤكد أن السعوديين بحاجةٍ إلى اهتمامٍ على مستوى ذوي المقامات الرفيعة بشكل منتظم.

وفيما يتعلق بأوزبكستان، فإن الاتفاق على قضية الإذن بالدخول. «إن الأوزبكيين كانوا أشدّ تودّداً في آخر الاجتماع مقارنةً بأول الاجتماع».

وقال رامسفيلد إنه بحاجةٍ إلى رفع الحدّ الأعلى لعدد الاحتياطيين من مستواه الحالي، 50,000 احتياطي، إلى 300,000 احتياطي. «إننا بحاجة إلى فسحة خالية».

سأل بوش: «هل تريد أن تقوم بذلك يوم الاثنين؟».

«نعم»، قال رامسفيلد.

ورغم أن 80 بلداً قدمت عروضاً بالمساعدة، فإن البريطانيين وحدهم سوف يشاركون في الموجة الأولى من الضربات.

«إن قاذفات القنابل التي يجب أن تغادر ولاية ميسوري هي على وشك المغادرة»، استمر رامسفيلد. «وهذا سوف يُلاحَظ». وكانت قاذفات القنابل الستيلث من طراز بي ـ 2 التي تتفادى الرادار، والتي كانت ستشارك في الضربات الأولى في أفغانستان، قد أُنزلتْ في قاعدة وايتمان التابعة لسلاح الجو في ولاية ميسوري، وكان عليها أن تغادر القاعدة 15 ساعة أو أكثر قبل قيامها بالضرب، وهذا قد يشي ببدء العمليات.

«لتنطلقْ»، قال الرئيس. «حاولوا استعمال بعض التضليل الإعلامي».

«سنقول للناس إن الطائرات مليئة بالطعام»، قال رامسفيلد.

«متى سيتمّ إسقاط المعونات الإنسانية؟» سألت رايس.

«من الساعة الثانية والنصف حتى الساعة الثالثة والنصف بتوقيت

واشنطن»، قال مايرز، «بَعْدَ حوالى ساعتين من بدء العمل العسكري. وآنذاك سيكون التهديد للطائرات قد مضى». وكانوا يرجون أن ينسحق نظام الدفاع الجوي الهزيل التابع للطالبان في الضربات الأولى.

وقال الرئيس إنه سيعلن عن الهجمات في ظهورٍ وجيز على شبكات التلفاز القومية يوم الأحد. «من المؤكد أنه سيكون لدينا تصريح. وسنوزّعه على الرؤساء للمراجعة».

«إننا بحاجة إلى «انطلِقوا» للبدء بالعمليات»، قال رامسفيلد.

«انطلقوا»، قال بوش. «إن الأمر قد دُرِسَ بدقة. إنه العمل الصحيح».

15

في صباح يوم الأحد الواقع في 7 أكتوبر/تشرين الأول، كان كارل روف في بيته في شمال غرب واشنطن. ولم تكن الأيام منذ الهجمات الإرهابية أسعد أيامه. ورغم أنه كان يعرف بوش لمدة 28 سنة وكان مستشاره الاستراتيجي، فإنه أُقصيَ عن وزارة الحرب واجتماعات مجلس الأمن القومي. وكان بوش وتشيني قد اعتبرا أنه من المستحيل إشراك رجل سياسي مثير للخلاف في المناقشات حول الحرب. إن هذا يرسل رسالةً خاطئة.

وكان بإمكان روف أن يتفهم غرضهم، ولكن في الوقت نفسه كانت السياسة عنصراً مستمراً في الرئاسة حتى خلال الحرب، ولا يمكن تجاهلها. وكان بوش وروف كلاهما يعتقدان أن رئاسة بوش سوف يُحَكَّم عليها إلى حد بعيد بناء على تصرّفه وهو يعالج أحداث 11 سبتمبر/أيلول.

وفي يوم من الأيام بعد الهجمات، كان روف في المكتب البيضوي، وكان بوش قد قال له: إن جِيلنا الآن قد استُدْعِيَ، تماماً كما استُدعي جيلُ والدي في الحرب العالمية الثانية. وكان والد بوش قد سجّل نفسه في البحرية، وأقسمَ القَسَم كبحّار من الصف الثاني سنة 1942 يوم عيد ميلاده الثامن عشر. إنهما استُدعيا للخدمة وهما في الخمسينيات من عمرهما.

«أنا هنا لسببٍ»، قال بوش، «وهذا سيكون الطريقة التي يُحْكَم بها علينا».

وكان روف، البالغ عمره 50 سنة، قد نال الهتاف من الكثيرين، بما في ذلك بوش نفسه، على أنه المُخَطِّط والمنفّذ لانتصار بوش سنة 2000. وقُبَيْل 11 سبتمبر/ أيلول، كانت مجلة الويكلي ستاندرد ـ وهي مجلّة مطّلعة محافظة ـ قد نشرت مقالة غلافية بعنوان «المُنْتِج كارل روف مُنَسِّق البيت الأبيض التابع لبوش». وكان يجمّل الغلاف صورة كبيرة مثيرة للاحترام لروف، يظهر فيها مفكّراً عالِماً يحمل ملفّاً رئاسياً، وكانت هناك صورة مصغّرة لبوش، يظهر فيها أخرق، موضوعة في الجيب الصدري لجاكيت بوش.

وفي يوم الاثنين ذاك، كان مكتب المبادرات الاستراتيجية في البيت الأبيض ـ وهو مكتب يرأسه روف ـ قد وزع تحليلاً مؤلفاً من صفحتين لآخر المعلومات المستفادة من الاستفتاءات.

وكان ذلك كتاب الرايسنج فورم الخاص بروف، وكان يدرسه بشكل منهجي.

«إن تقديرات الاستحسان لعمل بوش هي أقوى من أي وقت». وكانت الأرقام تقع بين 84 و90 بالمئة.

«إن الزيادة في تقديرات الاستحسان الحديثة لعمل الرئيس لم يُسْبَق إلى مثلها، حتى تلك المعمولة في وقت الأزمات». وكان الاستحسان لعمل بوش حوالى 55 بالمئة قبل 11 سبتمبر/ أيلول، وكانت القفزة إلى 90 بالمئة في الاستفتاء الذي أجرته أخبار الآي بي سي مع جريدة الواشنطن بوست «لا نظير له في استفتاءات العصر الحديث». وكانت الأزمات المفاجئة في الماضي تُحدث زيادة فورية في استحسان عمل الرئيس. «ولكنّ متانة مثل هذه الزيادات تستمر مدة سبعة إلى عشر أشهر فقط عادةً»، يشير روف بذلك إلى أن الرؤساء يتراجعون إلى معدّلات الاستحسان الطبيعة بسرعة نوعاً ما.

وكان تقدير استحسان والد بوش 59 بالمئة قبل حرب الخليج، ولكنه قفز إلى 82 بالمئة في ذروة الأزمة. وبعد ذلك باثنين وأربعين أسبوعاً، رجع التقدير إلى 59 بالمئة.

وأخذ روف معلومات الاستفتاء إلى بوش. وشرح له أنه، إذا اتخذوا من التاريخ دليلاً، فإن لديهم نحو 30 إلى 40 أسبوعاً قبل أن تبدأ الاستفتاءات بالعودة إلى مستواها الطبيعي.

«لا تضيّع وقتي بهذا»، قال بوش لروف، متظاهراً بأنه غير مهتم بالمعلومات وأنه ينظر إليها فقط. وتَذَكَّر بوش فيما بعد مناقشاتهما لأرقام الاستفتاء التي قال إنها لقطة فوتوغرافية يمكن أن تصبح غير صحيحة بعد 24 ساعة. «إن وظيفتي تقتضي ألاَّ أقلق بشأن العواقب السياسية، وأنا لا أقلق»، أكّدَ الرئيس. كان ذلك عمل روف، وكان بوش يعرف أن روف يدير الحساب بقوةٍ وتفانٍ في أداء المهمة لا نظير لهما. هذا أمر من المؤكد أن شخصاً آخر لا يمكنه أن يعالجه بطريقة أفضل.

وفي الوقت نفسه، كان الرئيس يراقب موقعه السياسي باهتمام. وكان هناك لائحة لتسجيل الإصابات في هذا الأمر، شأنه في الأمور الأخرى.

وظلّ روف أيضاً على اتصالٍ بجهاز الحزب وبقادة المحافظين. ووصلت إلى روف رسالة خطّيّة سرّيّة يبدو أنها مهمة من أحد كبار أصدقاء بوش، فأخذها روف إلى المكتب البيضوي.

وقال روف للرئيس إن رودجر آيلز ـ مُرْشِد والد بوش لشؤون الإعلام ـ عنده رسالة. وكان من الضروري أن تكون الرسالة سرّيّة لأن آيلز ـ وهو رجل إعلام متنفّذ متوهج وغير موقّر ـ يرأس حالياً أخبار فوكس، وهي شبكة كابل تلفزيونية تميل إلى المحافظة وتتمتع بتقديرات عالية. فكان يُفترض على آيلز من موقعه ذاك ألاَّ يقدم النصح السياسي. وكانت رسالته الآتية من طريق خلفي: إن جمهور الأمريكيين يتحملون الانتظار وسيكونون صابرين ولكن فقط إذا كانوا

مقتنعين بأن بوش سيستعمل أقسى الإجراءات الممكنة. وأن التأييد سيتلاشى إذا رأى الجمهور أن بوش لا يتصرف بقسوة.

في حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحاً رنّ تلفون روف.

«أَقترح أن تكون في المكتب حوالي الساعة الحادية عشرة»، قال الصوت الذي يمكن تمييزه أكثر ما يمكن من كامب داڤيد ستحدث أمور. هل تفهم المغزى الذي أشير إليه؟ سأل الرئيس على الخط التلفوني غير الأمين. «إنني سأتحدث إلى البلاد بعد ظهر هذا اليوم. ولذلك، كُنْ هناك».

ووصل روف إلى البيت الأبيض حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً. وبما أنه كان مؤرخاً هاوياً، فإنه تلكأ هناك ومعه دفتر ملاحظاته.

وصعد روف إلى غرفة المعاهدات في الطابق الثاني من البيت الأبيض، حيث كان من المقرر أن يدلي بوش بإعلانه المتلفز. ونظر روف حوله. كان هناك على الناحية اليمنى، اللوحة التي أعطت الغرفة اسمها: الرئيس ماكنلي يراقب توقيع المعاهدة التي أَنهت الحرب الإسبانية الأمريكية في تلك الغرفة. وكانت اللوحة تحتوي على زاوية الغرفة التي أقيمت فيها الكرسي والكاميرات لأجل بوش.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر كان بوش جالساً في كرسيه مستعداً لمخاطبة الأمة. ودخل شخص لوضع الماكياج على وجه الرئيس. وبعد خمس دقائق أعلن شخص أن هناك تسرّب فإن إحدى شبكات التلفاز قد قالت إن هذه بداية الحرب.

قال بوش بصوت عالٍ: «إنهم لا يفهمون الأمور». «إن الحرب قد ابتدأت قبل الآن. إنها بدأت يوم 11 سبتمبر/ أيلول».

وكان كارد ورايس يتشاوران بعيداً على حده، وبدا الرئيس منزعجاً لعدم إشراكه في المناقشة. «ما هي القضية؟» صاح بوش.

وقال له كارد إنه البنتاغون. «إنهم يطلبون سلطة أوسع».

«لقد قلت لهم إن لديهم أي سلطة هم بحاجة إليها»، قال بوش، «طالما أنها تلتزم بقاعدة انخفاض الضرر المُصاحِب» وللقادة والطيارين حرية استنساب ضرب الأهداف طالما أنهم يتوقعون أن الضرب سيوقع الحد الأدنى من الضرر فقط بالمدنيين. وإن أي شيء يمكن أن يسبب ضرراً مُصاحِباً عالياً، أو أن يجعل الحرب تبدو على أنها حرب ضد المدنيين، يجب أن يُراجَع بشأنه رامسفيلد ثم بوش طلباً لموافقتهما.

وفي الساعة الثانية عشرة و40 دقيقة، بدأ الموظفون بإخلاء غرفة المعاهدة.

أين البطاقات التي عليها النصّ والتي تشكّل الدعم الاحتياطي للتيليبرومبتر؟ سأل بوش. وأحضر أحدهم له البطاقات، فقام بتجربةٍ للخطاب.

«إن توزيع الفقرات خاطئ»، قال بوش، وطلب تعديلات في مواضع الوقف بحيث تبدو طبيعية بشكل أكبر. وأحضر له أحدهم كوباً من الماء.

«لقد عملنا هذا من قبل»، قال بوش متبرماً لواحدٍ من أفراد طاقم التلفاز، وكان قد ميّزه. «لنعمَلْهُ».

واستمرت اللحظات الحرجة المرافقة للعدّ التنازلي. ونظر بوش حوله.

«أعلى علامة كبيرة!» قال لعميل الخدمة السرية الذي كان قد ركض معه. وكان بوش في إحدى ركضاته حديثاً قد سأل عن مكان العميل آنذاك.

سكوت.

وقال عميلٌ إنه ركض مسافة كيلومتر ونصف في خمس دقائق.

«هذا مثير للإعجاب». قال بوش، وأضاف أنه ركض ركضة ممتازة حديثاً، عمل فيها مسافة خمسة كيلومترات ونصف الكيلومتر في 21 دقيقة و6 ثوانٍ. وكان الكيلومتر الثاني أبطأها، والأول والثالث كانا جيدين، أضاف بوش.

سكوت.

«أين مجموعة الاختصاصيين؟» سأل بوش. وكانت شبكات التلفاز قد بلغها الإشعار بخطاب بوش قبل لحظات، وكان طاقم من الاختصاصيين بالكاميرا والصوت في الطريق إلى البيت الأبيض لإمداد الجميع بالڤيديو والصوت. وأخيراً، وفي الساعة 12 و50 دقيقة ظهر الاختصاصيون. وكانوا متهيّجين وقد تأخروا، فأسرعوا بالتجهز لإدراك الوقت المحدد. ولم يتمكن أحد أفراد مجموعة الاختصاصيين من إعداد جهازه.

«أوصله بالقابس الكهربائي»، قال بوش، مشيراً إلى المكان.

«يوماً سعيداً»، قال بوش في الساعة الواحدة بعد الظهر. «بناءً على أوامري، بدأت الآلة العسكرية للولايات المتحدة ضرباتٍ على مخيمات التدريب الإرهابية التابعة للقاعدة والمنشآت العسكرية التابعة لنظام الطالبان في أفغانستان».

إن الطالبان لم يلبّوا مطالبه. «والآن سيدفع الطالبان الثمن». ولم يذكر القوات الأرضية، ولكنه كاد يفعل. «إن عملنا العسكري يُراد منه أيضاً أن يفتح الطريق لعملياتٍ مستمرة متكاملة لا تلين لدحر الإرهابيين وإحضارهم إلى العدالة».

ووعد الرئيس بتقديم الطعام والأدوية إلى شعب أفغانستان. «وسننتصر في هذا النزاع بالتراكم الصابر للانتصارات».

«إنني أعلم أن الكثيرين من الأمريكيين يشعرون بالخوف اليوم»، اعترف الرئيس، متعهداً بأن تتخذ الحكومة كلها الاحتياطات القوية. وقال للرجال والنساء من العسكريين ما معناه في الواقع إن هذه لن تكون ڤيتنام. «إن مهمّتكم محددة؛ وأهدافكم واضحة؛ وغرضكم عادل؛ وتتمتعون بثقتي الكاملة؛ وسيكون لديكم كل وسيلة تحتاجون إليها للقيام بواجبكم».

وقرأ بوش رسالة كان قد تلقاها من بنتٍ في الصف الرابع كان أبوها في عِداد الحملة العسكرية. وكانت قد كتبتْ: «رغم أنني لا أريد بشدة أن يقاتل بابا، فإنني راضية أن أعطيك إياه».

في الساعة الثالثة إلاً ربع بعد الظهر، ظهر الوزير رامسفيلد والجنرال مايرز في غرفة الصحافة في البنتاغون. وعرض رامسفيلد في تصريح تقديمي طويل الضرباتِ العسكرية على أنها «متمّمة» للضغط الديبلوماسي والمالي وغيرهما. وشرح خطة مؤلفة من ستة أهداف: إرسال رسالة إلى الطالبان؛ والحصول على المخابرات؛ وتنمية العلاقات مع الجماعات المضادة للطالبان مثل الحلف الشمالي؛ وتصعيب الأمور بشكل متزايد على الإرهابيين؛ وتغيير الميزان العسكري بمرور الوقت؛ وتوفير المعونات الإنسانية. ولم يعطِ رامسفيلد أرقاماً أو جداول زمنية.

وأعطى الجنرال مايرز بعض التفاصيل: 15 قاذفة قنابل تنطلق من البرّ؛ و25 طائرة ضاربة تنطلق من حاملات الطائرات؛ و50 صاروخ كروز من طراز توماهوك تُطلق من سفن وغواصات أمريكية وبريطانية. وما لم يقله إنه كان هناك 31 هدفاً فقط على لوائح الضرب الخاصة بهم، وكلها تسبب قدراً قليلاً من الضرر المُصاحِب وتقع في مناطق نائية. وكانت هذه الأهداف: لواء تابع للقاعدة؛ وجهاز رادار الإنذار المبكّر؛ وبعض تسهيلات القيادة التي تستعملها القاعدة والطالبان؛ والطائرات العسكرية التابعة للطالبان؛ ومخيمات التدريب التابعة للإرهابيين، وكانت خالية إلى حد كبير؛ وعدة مواضع لصواريخ أرض - جو.

وسأل صحافي: «هل استُهدِفَ أسامة بن لادن في الغارة؟».

«إن الجواب هو لا بالنسبة له»، أجاب رامسفيلد، إلاَّ أنه لاحظ أن تسهيلات القيادة في أفغانستان قد استُهدِفَتْ.

وخفّض رامسفيلد التوقعات، وسمّى الحرب «تلك المسمّاة حرباً».

وعندما سئل رامسفيلد كم من الأهداف قد أصيب، أجاب: «ليس هناك من طريقة لمناقشة نتيجة هذه العملية». وكانت هناك طريقة، إلاَّ أنه لم يكن ليقوم بها علناً. وكان الإبهام حمايةً من التناقض الآتي لاحقاً، مُظهراً صغر العملية وإحباطاته هو نفسه.

وسأله صحافي آخر: «هل ستكون هناك مجازفة من جانبكم إذ تُصَوِّرون بأنكم تهاجمون الشعب الأفغاني وليس الأهداف العسكرية؟».

«أنت تعلم»، أجاب رامسفيلد، «إنك في عالمنا هذا عندما تستيقظ في الصباح هناك مجازفة بأن يكذب أحدُ الناس وأن يُسيء أَحَدُهُمْ تصويرَ ما تقوم به. وإن ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية هو بالضبط ما قلتُهُ». وكان ذلك دفاعاً ضد هؤلاء الذين قتلوا الآلاف من الأمريكيين والذين يهدّدون ويخوّفون ويرعبون العالم الآن. «شكراً جزيلاً لكم».

وأصدر بن لادن تهديده الخاص عبر شريط ڤيديو عرضته الجزيرة. وكان بن لادن في هذا الشريط يجلس في مكان صخري غير محدد، ويلبس سترته العسكرية، ويحمل مكبّراً للصوت مثل مغنّي الردهة. وقال: «ها هي أمريكا قد ضربها الله تعالى في أحد أعضائها الحيوية، فدُمِّرت أعظم مبانيها».

«إن الله قد بارك جماعة من المسلمين الطليعيين، طليعة الإسلام، لتدمير أمريكا».

ومنذ ما قبل الساعة 7 صباحاً من يوم الاثنين الواقع في 8 أكتوبر/تشرين الأول، ظهر رامسفيلد لفترات وجيزة في جميع البرامج الصباحية الخمسة لشبكات التلفزة، وأعطى تقديراً مكبوحاً يتجنب إعطاء جواب قاطع. وقال لتلفاز الآي بي سي متحدثاً عن الأهداف: «إننا نعرف أنها أُصيبتْ بنجاح من عدة وجوه».

وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، قال تينيت في اجتماع مجلس الأمن القومي: «إن الصورة تبيّن أن الأفغانيين هم ضد القاعدة في الشمال».

وكانت وكالة المخابرات المركزية تحاول أن تساعد في استهداف الشمال. و«الصورة في الجنوب ما تزال غير واضحة. وطائرات البريداتور تطير في الشمال».

وانتقل الجنرال مايرز إلى مشكلة الأهداف. ولم يكونوا يعرفون ماذا يضربون. «إن طائرات التاك التابعة لنا تتسكع، منتظرة ظهور أهداف تعيّنها طائرات البريداتور». وكانت تلك لحظة لا تُصَدَّق، ولا تكاد تُتَصوَّر في حوليّات الحرب الحديثة. فبعد يوم من الضربات كانت القوة الأمريكية المحمولة جوّاً قد أصبحت إلى حدّ ما عملاقاً دون حيلة يتحرك بتثاقلٍ في الجو - «يتسكع» بكلمات أرفع رجل عسكري في الأمة - منتظراً أهدافاً مناسبة.

وكان لدى رامسفيلد أخباراً جيدة: «لقد رجعت الطائرات كلها سالمة»، قال رامسفيلد، وأضاف: «بما في ذلك طائرات المعونات الإنسانية».

وكان لدى مايرز أخبار أشدّ قسوة عن تقدير الضرر الناتج عن الضرب بالقنابل، وهو التحليل الرئيسي لما بعد العمل العسكري الذي يُحدّد ماهية الضرر الذي أحدثته القنابلُ وصواريخُ كروز. وقال مايرز إن الكثير من الأهداف لم تدمَّر بالقدر الكافي. «وسنعود اليوم لضرب الأشياء التي فاتتنا».

وكان تقدير الضرر الناتج عن الضرب بالقنابل سوف يُعامَل على أنه محظور جداً، ولن يُقال الكثير للصحافة وللجمهور.

وقال بوش إن اعتراضات الاتصالات الأخيرة وغيرها من المخابرات تبيّن أن بعض كبار ضباط القاعدة - وحتى بما في ذلك بن لادن على وجه الاحتمال - هو في تورا بورا، وهي منطقة ذات كهوف طبيعية ومصنوعة تقع في الجبال البيضاء بمحاذاة حدود الباكستان قرب جلال أباد. وكما فعل المجاهدون خلال الاحتلال السوفياتي، فإن مقاتلي القاعدة والطالبان يستعملون كهوف التورا بورا غُرَفاً محصَّنة تحت الأرض، لا ينفذ إليها إلاَّ بالبغال، متخذينها مخابئ ومستودعات.

«أي أسلحة عسكرية سنضع في تورا بوار؟» سأل بوش.

وجذب جواب مايرز انتباه الجميع ـ 32 قنبلة منفردة وزن كل منها نحو 1,000 كيلوغرام.

«إننا لا نضرب عدداً من أهداف الطالبان العسكرية»، قال رامسفيلد، بسبب احتمال حدوث ضرر مصاحب كبير. والسؤال الذي يُطْرَح غداً، سأل رامسفيلد، هو إذا ما كنا سنهاجم أهدافاً عسكرية إضافية للطالبان، ومتى يكون ذلك.

«أنظروا»، قال بوش، «إننا سنقوم بسلسلة من الضربات، وبعد ذلك سنتمهّل. سننظر في استخباراتنا، ونرى ماهية الصورة، وبعد ذلك سنعود إلى الضرب مرة أخرى». وفي تلك اللحظة، بدا الرئيس مُظْهِراً لشيءٍ من الصبر، ومسروراً لابتداء الضرب بالقنابل أخيراً. ولكن الرئيس قال في مقابلةٍ فيما بعد أنه أدرك أنهم لا يقومون بقدر كبير ذي شأن من الناحية العسكرية. «إننا نضرب الرمل بالقنابل. إننا ندكّ الرمل»، قال بوش.

وكان ما زال متوتراً من مسألة الأنثراكس. فالضحية الأولى في فلوريدا قد توفي، وأصيب زميل له يعمل في المبنى نفسه. وقد فتح مكتب التحقيق الفيديرالي تحقيقاً كبيراً، وبات الأنثراكس موضوع أخبار الصفحة الأولى.

واجتمع الرؤساء في وقت لاحق من ذلك اليوم. وكان تينيت سعيداً. إن مشرّف قد عزل محمود، رئيس مخابراته، وعدداً من كبار ضباطه، وتلك إشارة مثيرة. إن الساحرة الشريرة قد ماتت. وكانت وكالة المخابرات الباكستانية على صلة حميمة بالطالبان ومصدراً للإنفاق عليهم، فكانت إزالة محمود تعني أن مشرّف يزداد جدِّيَّة.

وكان لدى الفرنسيين 30 طائرة يريدون نقلها إلى الميدان، وكانوا يريدون من الولايات المتحدة أن تدعمهم ديبلوماسياً مع الطاجيكيين والأوزبكيين لإيجاد مكانٍ يضعون فيه تلك الطائرات.

وقالت رايس: «سنراجع فرانكس في مسألة الحاجة إلى هذه الطائرات. وبعد ذلك يمكننا أن نناقش كيفية تسهيل المسألة ديبلوماسياً. أنا ممتنَّةٌ من أن طومي يسمح لشركائنا في التحالف بالمشاركة بطرقٍ مختلفة».

وانتقل رامسفيلد إلى الموضوع الحساس: تقدير الضرر الناتج عن الضرب بالقنابل في ضربات اليوم الثاني. «لقد دمّرنا 11 من 12 رادارات الصواريخ أرض ـ جو ـ 3. وضربنا 7 من 8 مدارج للطائرات. وضربنا نصف الرادارات البعيدة المدى، وسنهاجم الرادارات الباقية بطائراتنا. وضربنا تورا بورا بعنف، ولا نعرف النتيجة. وأصبنا ثلاثة أبراج للراديو. وقمنا بإسقاطات للمعونات الإنسانية. لقد استعملنا 70 طائرة هجوم قامت بـ 166 طلعة».

وانتقلت المجموعة إلى مشكلةٍ من أعصى المشكلات التي تواجههم: كيف يمكن للولايات المتحدة أن تردع بن لادن وشبكته عن استعمال أسلحة الدمار الشامل؟

ولم يكن لدى أحد أي فكرة عظيمة.

«إنهم قد لا يكونون ممن يرتدع»، قالت رايس، «ولكن يمكننا أن نثبط همة الآخرين الذين يؤيدون بن لادن في استعمال أسلحة الدمار الشامل ونقدم لهم الحوافز للانقلاب ضده».

لكن بن لادن كان قد أصبح معزولاً إلى حدّ ما، ويبدو أن لديه تأييداً محدوداً إلى جانب تأييد الطالبان، ولكن الولايات المتحدة أخفقت في جعل هؤلاء ينقلبون ضده.

خلال اجتماع في المكتب البيضوي ذلك اليوم، اقتُرح على الرئيس أن يزور البنتاغون.

«لن أذهب إلى هناك لأقول إن الطائرات كلها عادت سالمة»، قال بوش، «لأنه سيأتي يوم لا ترجع فيه الطائرات كلها سالمةً».

ابتدأ اجتماع مجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء الواقع في 9 أكتوبر/تشرين الأول. وافتتح تينيت الاجتماع بمعالجة المشكلة رقم 1 ـ الافتقار إلى أهداف عسكرية في أفغانستان بعد ثلاثة أيام من حملة الضرب بالقنابل. «نحن نركّز اليوم على العمل مع القائد الأعلى للقوات المسلحة لتوفير أهداف جديدة، خاصة في الشمال»، قال تينيت. وقد يساعد رجالُهُ شبه العسكريين من وكالة المخابرات المركزية الذين هم على الأرض في الشمال ـ كاسر الفكّ ـ في تحديد «أهداف آخذة بالظهور» وذلك بتوفير معلومات جديدة عن المنشآت وتجمعات الجنود. وأن طائرات البريداتور ـ وهي مركبات جوية دون طيارين ـ توفر هي أيضاً استطلاعات مرئية ممتازة. «إننا نستعمل المركبات الجوية دون طيارين لنتفحّص منطقة تورا بورا بعناية من أجل التثبّت من صحة الخرائط التي زودنا بها الحلف الشمالي».

«إن المجموعات القَبَلية في الجنوب لم تتحرك بعد. وقد أبقينا الحلف الشمالي في المكان الملائم، وهناك جدل حول متى سنطلعهم».

إذن الوضعُ على الأرض ما يزال ساكناً، وذلك يعود جزئياً إلى الأوامر العسكرية الأمريكية، فيما كان الجميع ينتظرون ليروا ماهية النتائج التي ستُحدثها حملة الضرب بالقنابل.

«في الجنوب ما زالوا مترددين. وهناك أشخاص في باكستان ـ وهؤلاء أنشط مجموعة في الجنوب»، قال تينيت، مشيراً إلى المقاطعة جنوب كابول التي تتضمن مدينتي غردز وخُسْت.

وكان هناك تطوّر واحد واعد يمكن أن يخبر الرئيس عنه وذلك هو التغيير في قيادة وكالة المخابرات الباكستانية. إن الرئيس الجديد لها آخذ بتفريغها من الأعضاء الموالين للطالبان. وكان ذلك شأن له وزن بالنسبة لوكالة المخابرات المركزية وحركة جريئة من جانب مشرّف. «وسنطلب منهم معلومات فيما بعد»، قال تينيت. وهو ما يزال يرتاب بوكالة المخابرات الباكستانية ولا يشركهم

في استخباراته، وأن تنمية المصادر التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية في الجنوب تتم بشكل مستقلّ عن الباكستانيين.

ونقل تينيت أيضاً أن التحوّل في الانحياز في أوساط الطالبان الأقلّ عنفاً قد ابتدأ. وكان هذا أمراً قد توقعته الوكالة. «إننا نحصل على بعض الارتدادات من جانب قادة من الطالبان في الشمال». وكان 35 إلى 40 قائداً من قادة الطالبان ونحو 1,200 رجل قد ارتدوا يوم الاثنين، فأعطوا الحلف الشمالي بذلك السيطرة على طريق رئيسي لإعادة التزويد بالمؤن يستعمله الطالبان ويقع شمال غرب كابول. وكان القادة قد اشترتهم أموال وكالة المخابرات المركزية.

«إن الطقس سيحدّ من عمل الحلف الشمالي»، قال تشيني. «فبعد شهر سَيُحْتَجَزون، ولذلك فإننا إذا كنّا جادّين في إطلاق الحلف الشمالي، فإن علينا أن نقوم بذلك عاجلاً». وبما أن هناك قيوداً زمنية، فإن تشيني لم يكن مقتنعاً أن كبح الحلف الشمالي هو أنسب استراتيجية. وكان عليهم أن يقوموا بأكثر من طحن العدو ببطء من خلال الضرب بالقنابل والارتدادات. «هل يركّز فرانكس على الأهداف التي ستيسّر تحرك الحلف الشمالي؟».

«علينا أن نشجّع الحلف الشمالي على أخذ كابول»، قال تشيني. «إننا بصفتنا قوة عظمى ـ يجب ألاّ نقع في ورطة». وكان تشيني قلقاً من أن لديهم دفاعاً ضعيفاً في الوطن وهجوماً ضعيفاً في أفغانستان.

«إننا بحاجة إلى انتصار»، قال بوش.

«إن الانتصار الوحيد بالنسبة للعالم قد يكون أخذ العاصمة»، أجاب تشيني.

«سنطلق العنان للاتحاد الشمالي يوم الخميس أو يوم الجمعة»، قال تينيت، «وسوف يضرب فرانكس أهدافاً في الشمال ليسهّل تحرّكهم». وكان مدير وكالة المخابرات المركزية يكاد يتكلم نيابةً عن القائد الأعلى للقوات

المسلحة ـ وفي ذلك انبهامٌ لخطوط العمليات بين وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع، وهذا جعل رامسفيلد متقلقلاً.

واستمر تينيت قائلاً: «لا يمكننا أن نمنعهم من محاولة أخذ كابول ـ والقضية الوحيدة هي ما إذا كانوا يقدرون على ذلك أو لا».

كيف يساعدنا أخذ كابول ضد القاعدة؟ سأل أحد الحاضرين. واتفق الجميع على أن أخذ العاصمة الأفغانية يمكن أن يشكّل خطوة رمزية نحو الأمام. وبما أن أفغانستان منقسمة بين فئات، فلعل ألاّ يكون لعاصمتها الأهمية السياسية التي لعواصم البلدان الأخرى.

وتناقش الحاضرون في مدى أهمية أن تكون الولايات المتحدة متنبهة رغبات باكستان، إذ كانت باكستان تخشى نفوذ روسيا وإيران على كابول يسيطر عليها الاتحاد الشمالي. ومع ذلك فإن ادّعاء النصر سيكون صعباً إذا احتفظ الطالبان بالسيطرة على العاصمة طوال الشتاء.

وسألت رايس عما إذا كان الاتحاد الشمالي يتلقى إخطارات متّسقة. هل يسمعون شيئاً من الولايات المتحدة، وشيئاً آخر من الروس، وشيئاً آخر أيضاً من لاعبين آخرين في المنطقة؟ ولم يجبها أحد. وانتقلت المجموعة إلى موضوع الشرق الأوسط، وأندونيسيا، والجدول الزمني لتوسيع اللائحة الإرهابية وراء نطاق القاعدة، وتجميد أموال جماعاتٍ إرهابية أخرى.

وأثار رامسفيلد مجدَّداً مسألة أعمال عسكرية ضد الإرهاب في ميدان يتجاوز أفغانستان. ولم يُبْدِ أحد اهتماماً بهذا الموضوع.

وأعلن رامسفيلد أخباراً سيئة إضافية. «إنه من غير المحتمل إنزال قوات خاصة في الشمال»، على الأقل على المدى القريب.

وقال مايرز: «إنه يمكننا أن نضع أحذية على الأرض في الجنوب في اليوم السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر من هذا الشهر». وكانت تلك التواريخ على بُعد أسبوع، ولكنها كانت شيئاً يُذْكَر.

«إننا بحاجة إلى أن يفهم الشعب الأمريكي أننا ننتصر دون تبجّح»، قال الرئيس.

«يمكننا أن نكون أكثر إيجابيةً الآن»، قال رامسفيلد. وكانت معظم مدارج الطالبان قد تضررت، وبإمكان الطائرات العسكرية الآن أن تقوم بضربات على مدار الساعة تقريباً.

«أعتقد أنني سأقول إن الرجال قد قاموا بما طلبنا منهم القيام به تماماً وإننا راضون على التقدم الذي أحرزوه»، قال بوش.

وأعطى مايرز تقدير الضرر الناتج عن الضرب بالقنابل لذلك اليوم، وهو سجلّ الإصابات السرّيّ جداً. «إننا نقوم بـ 70 طلعة فوق أفغانستان. وهناك 16 هدفاً من أصل 35 هدفاً ضُربت في اليوم الثاني علينا أن نُعيد تقييمها». وكان ذلك يعني أنهم أخفقوا في تدمير 50 بالمئة من الأهداف تقريباً. ولم يكن المؤتمر الصحافي الذي عقده البنتاغون يوم الاثنين قد كشف ذلك. «علينا أن نضرب طائرات النقل. إن لديهم صاروخ أرض جو ـ 3 واحداً ما زال يعمل إلاّ أنه لا يهدّد قواتنا». وكانت الولايات المتحدة قد أبادت مواضع اثنين من ثلاثة صواريخ أرض جو تشكّل دفاعات الطالبان الجوية. وكذلك أسقطوا أوراقاً دعائية و37,500 حصة يومية من المعونات الإنسانية على مناطق مصابة بالجوع.

«سنضرب غداً أهدافاً عسكرية للطالبان، الضررُ المُصَاحِبُ لها قليل»، قال رامسفيلد.

«سوف يحدث ضغط لضرب أهداف ذات ضرر مصاحب عالٍ»، قال الرئيس. «لقد نجحنا حتى الآن لأننا ركّزنا على الأهداف العسكرية التي يمكن إثبات أهميتها. ومن المهمّ المحافظة على هذا التركيز».

وسأل بوش عن الكهوف وعن ضرب المخيمات في الجنوب. وقال إنه سيعقد مؤتمراً صحافياً بعد ليلتين. «علينا أن نفكر في كيفية وصف الحملة

العسكرية وما نحاول أن ننجزه». وقال ـ ممتحناً بعض الأفكار ـ بأن المرحلة التالية للعملية العسكرية التقليدية ستستمر، ولكن بشكل متقطّع. «قد لا تشاهدون ضرباً بالقنابل في فترةٍ ما، ولن نقول لكم متى سنستأنف الضرب بالقنابل».

«أنت على حق»، قال رامسفيلد.

«إننا سنضرب في الوقت الذي نختاره، عندما يكون الضرب مستلزَماً لمهمتنا»، استمر بوش. «وقد لا يُقْبَضُ على أسامة بن لادن، ولكن ما نقوم به يظلّ مفيداً».

وقال الرئيس إنه سيطلب من الأطفال أن يتبرع كلٌ منهم بدولار واحد لصندوق الأطفال الأفغانيين. «وستحاول وزارة التربية أن ترعى تبادلاً بين مدارس ابتدائية هنا ومدارس ابتدائية هناك، كما نريد أن نقوم برَمْيَةٍ بشأن النساء المسلمات ونستميل النساء المسلمات». وكانت معاملة الطالبان القامعة للنساء واحدة من أكثر إهانات نظام الطالبان المتشدد المتطرف وضوحاً، وكان بوش يريد أن يُظهر أن الإطاحة به من شأنه أن يحرّر النساء.

وعاد تشيني إلى القضايا الصعبة التي كانوا يتجنبونها. «أين سنكون في ديسمبر/ كانون أول ويناير/ كانون الثاني ولم يُضرَب أسامة بن لادن، وقد أصبح الطقس سيّئاً وتباطأت العمليات؟».

«سنحاول أن نقوم بشيء في أنحاء أخرى من العالم ضدّ القاعدة»، قال رامسفيلد مجدّداً. وكان ما يزال يظن أنه إذا تعطّلتْ الحملةُ ضد الإرهاب في أفغانستان فإنّه يمكنهم دوماً أن يفعلوا شيئاً في مكان آخر. وذلك سيكون متّسقاً مع الطبيعة العالمية لحرب الرئيس ضد الإرهاب. وكان على رأس اللائحة لتوسيع الأعمال ضد الإرهاب الفيليبيين واليمن وأندونيسيا. والفيليبين شعب جَزَري أكثرُ سكانِهِ ـ البالغين 83 مليون نسمة ـ من الكاثوليكيين، وفيه متمرّدون مسلمون قد تجذّروا في الجنوب، وأبرزهم جماعة أبو سيّاف الإرهابية التي كان

لديها صلات مشبوهة بالقاعدة. وكانت اليمن تستمرّ في تنمية وجودٍ كبير للقاعدة بعد الهجوم الإرهابي في أكتوبر/تشرين الأول سنة 2000 على سفينة البو إس إس كول، وكانت البلاد مقرّاً لممثلين لحماس والجهاد الإسلامي الفلسطيني وغيرهما من المنظمات الإرهابية. وكان المسلمون المتطرفون في كل مكان في أندونيسيا.

إلاّ أن رامسفيلد كان يبدو وكأنه مُطَبِّل وحيد.

«إنني أفكّر كثيراً في نهاية اللعبة»، قال بوش، معيداً إياهم إلى أفغانستان. «وإذا تعطّلنا بسبب الطقس، فهل نكون في المكان الذي نريده؟».

«أنظروا، إن الضغط فعّال»، قال رامسفيلد، محاولاً أن يدير النقاش إلى الجماعات الإرهابية في العالم كله. «لنبدأ بشيء ضدهم في مكان آخر من العالم. لا يمكن أن يكون التركيز على أفغانستان وحدها».

وردّ تشيني بحدّة: «إذا كان أسامة بن لادن في كهف ووجّهنا له ضربة، فإن الناس لن يهتمّوا بما يجري في مكان آخر».

واستهلّ رامسفيلد نقاشاً عمّا يجب أن يقال علانيةً بشأن احتمال أن تستخدم الولايات المتحدة أسلحة الدمار الشامل في حال استعمل الطرف الآخر لهذه الأسلحة. وكانت تلك إمكانية مفرعة، ولكن كان لا بد من مواجهتها.

وردّ تشيني بسرعة: أنظروا، إننا بحاجة للقول فقط إننا نحتفظ لأنفسنا بحق استعمال أي وسيلة تحت تصرفنا للردّ على أي استخدام لأسلحة الدمار الشامل. إن هذه صيغة حرب الخليج ـ ما قيل في حرب سنة 1991 ضد العراق ـ وهذا ما علينا أن نقوم به. وفي خاتمة المطاف فإن استخدام مثل هذه الأسلحة هو قرار يتخذه الرئيس.

وكان كل من وزيرَيْ الدفاع السابق والحالي شديدي القلق بشأن الحرب النووية والبيولوجية والكيميائية، فمكثوا يناقشون الموضوع لبعض الوقت. إن

الولايات المتحدة في حالة حرب ضد عدو غير تقليدي، وكان عليهم أن يتفحصوا احتمال أن يكون لدى بن لادن أسلحة دمار شامل.

قال تشيني: «إن أسامة بن لادن قد لا يكون ممّن يرتدع».

«حسناً»، قال الرئيس، «إن الشعوب التي تكفل بن لادن، هؤلاء الذين يدعمونه، قد يكون لديهم نفوذ عنده. علينا أن نرسل بعض الرسائل، سرّاً أو علناً؟».

علينا أن نفكر في هذا الأمر أكثر، قال رامسفيلد.

وكانت مسألة امتلاك القاعدة لأسلحة الدمار الشامل مسألة كثير ما سمّاها رامسفيلد «المعلوم المجهول» ـ شيء لا يعرفونه، شيء محتمل وهام معاً ولكن ليس لديهم عنه أية مخابرات نهائية. وكانت المسألة وحدها توقع في الجسم قشعريرة. ولكنها كانت من بعض النواحي أقل إثارةً للقلق من «المجهولات المجهولة»، أي الأشياء التي لا تعرف الولايات المتحدة أنها لا تعرفها، المفاجآت البشعة على وجه الاحتمال.

وأعاد بوش النقاش إلى المشكلات المعروفة. «يجب علينا أن نفكر في كيفية الحصول على انتصارٍ ما قبل سقوط الثلج. وعلينا أن نفكر في كابول».

«هل نريد أخذها؟» سأل پاول. «هل نريد أن نحتفظ بها؟ إذا كنّا نريد الاحتفاظ بها، فماذا نفعل بها؟».

«أنتم لا تعرفون، أن الروس لم يأخذوا كابول أبداً»، قالت رايس. وكادت تلك العبارة أن تكون إيحاءً بأن ذلك سبب جيد لمحاولة أخذ كابول، إذ إنه كان يبدو أن السوڤيات قد عملوا كل شيء على نحوٍ خاطئ.

قال الرئيس: «ربما يجب على الأمم المتحدة أن تعالج كابول».

«نعم، إن الأمم المتحدة هي أفضل الطرق لمعالجتها»، قال پاول موافقاً. «على أنه إذا استولى الحلف الشمالي عليها فإنهم لن يتخلوا عنها». وكان

مسعود، القائد المقتول للحلف، قد قال إنه لن يحتلّ كابول وحده أبداً، لكن پاول كان يعتقد أن خَلَفَ مسعود، فهيم خان، لم يكن منضبطاً أو ميالاً إلى الديبلوماسية مثل مسعود.

وقال رامسفيلد إن الطقس في الجنوب لا يزال جيداً. واستغلّ الرئيس ذلك وأنهى الاجتماع بملاحظة تفاؤلية. «إن الجنود الأكثر ضعفاً هم في الشمال، ولذلك فإن الحلف الشمالي يمكنه أن يستولي على الشمال»، قال بوش.

في الساعة الواحدة والربع بعد الظهر ظهر رامسفيلد ومايرز في غرفة الموجزات الإعلامية في البنتاغون. وصرّح رامسفيلد أن الولايات المتحدة قد ضربت عدداً من مخيّمات التدريب التابعة للقاعدة وأوقعت الضرر بمعظم المطارات والرادارات المضادة للطائرات وأدوات إطلاق الصواريخ التابعة للطالبان. «إننا نعتقد أننا قادرون الآن على القيام بضربات على مدار الساعة تقريباً، كما نشاء.

ولم يقدم مايرز التقرير نفسه الذي قدمه لمجلس الأمن القومي ـ إنه يجب إعادة تقييم 16 هدفاً من أصل 35 هدفاً وقال: «إن قوات الولايات المتحدة ضربت 13 هدفاً أمس».

وعرض مايرز شرائح صور من أفغانستان تُظهر أهداف اليوم الأول واليوم الثاني. «لقد أحسنّا العمل في ضرباتنا الأولى مُوقِعين الضرر أو مدمّرين لنحو 85 بالمئة من المجموعة الأولى المؤلفة من 31 هدفاً». وكان غامضاً. ففي المصطلح العسكري، الفَرْقُ بين «إيقاع الضرر» و«التدمير» هو فرق ما بين الليل والنهار، وذلك مثل حالة السيارة التي يصيبها الضرر في حادثةٍ ولكنها قد تظل قادرة على العمل.

«ولكنك تقول يا سيدي الوزير إنك استنفدتُ الأهداف»، قال أحد الصحافيين: «سوف تستمرّ في ضرب ماذا؟».

«حسناً؛ أولاً: إننا نجد أن هناك بعض الأهداف التي نحتاج لإعادة ضربها»، أجاب رامسفيلد. وكان ذلك أكثر كشفاً لما كان مايرز قد قاله.

«ثانياً»، قال رامسفيلد، «إننا لم نستنفد الأهداف، وإنما أفغانستان تستنفد الأهداف».

وحدث ضحك. وكانت تلك العبارة تمثّل رامسفيلد في أحسن أحواله. إلاّ أنها تركت سؤالاً مفتوحاً: كيف تنتصر في حربٍ إذا كان العدوّ غير قادر على الضرب؟

وواصل صحافيون آخرون الأسئلة عن موضوعات ضرب تجمعات الجنود بالقنابل وتوفير الدعم الجوي المحكم وغير ذلك من وسائل الدعم المباشر لقوات الحلف الشمالي المستعدة للتقدم. وأجاب رامسفيلد ومايرز كلاهما بحذر، رافضَيْن التعليق على زمان إنزال القوات الأمريكية الأرضية، أو إذا كان ذلك الإنزال سيحدث، أو كيفية دعم الجماعات المضادة للطالبان. ولدى نقطة معينة، قدّم مايرز رؤيته لهذه الحرب الجديدة.

«أنتم تعلمون، أنه إذا حاولتم قياس ما نعمله اليوم بمقياس الحروب التقليدية السابقة، فإنكم ترتكبون خطأ كبيراً»، قال مايرز. «تلك طريقة قديمة في التفكير ولن تساعدكم في تحليل ما نقوم به... وهذا ما كنا نحاول أن نقوله لكم لمدة ثلاثة أيام. هذا صراع من نوع مختلف».

وتردّد رامسفيلد في الإجابة على سؤال حول المسؤولية التي قد تتحملها الولايات المتحدة في حال الإطاحة بالطالبان، وقال: «لا أظن أن ذلك يلقي علينا مسؤولية محاولة تقرير أي نوع من الحكومات يجب أن يكون في ذلك البلد»، مُضيفاً: «لا أظن أن هناك أناساً من بلدان أخرى أذكياء بما فيه الكفاية بحيث يقولون للبلدان الأخرى ما هو نوع الترتيبات الذي يجب أن يكون لديهم لحكم أنفسهم».

ولم يكن رامسفيلد يريد أن تلتزم الولايات المتحدة ببناء الشعوب.

* * *

في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الأربعاء الواقع في 10 أكتوبر/ تشرين الأول اجتمع مجلس الأمن القومي في غرفة المواقع في البيت الأبيض.

وأثار الرئيس قضية كم من المخابرات المحظورة والحساسة يجب أن يُشْرَك الكونغرس بها. «إنه من المهمّ أن يقوم دون وكولين بإعلام اللجنتين الخاصتين بهما»، قال بوش. «إننا نعطي الكونغرس إعلامات عن العمليات توازي الإعلامات التي نعطيها لمن هم في رتبة كولونيل. يجب أن نفعل ذلك على مستوىً أعلى».

إنهم يسترضون المشرّعين بإرسال رامسفيلد وپاول، وكلاهما يعرفان كيف يتحدثان بصراحة دون أن يشيا بشيء حَرِج. «أريد أن أُشبع حاجة الكونغرس دون أن أصرّح بمعلومات محظورة»، قال بوش. وكان ذلك مستحيلاً من الناحية العملية. فإن المعلومات المحظورة تقصّ قصة ما يحدث، وهذا ما كان الكونغرس يريده.

وانتقل المجتمعون إلى موضوع سوريا، وهي دولةٌ تدلّ الوثائق جيداً على أنها تدعم حزب الله. وكانت سوريا قد استنكرت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول.

«على سوريا أن تكون ضد الإرهاب كله»، قال پاول.

ووافق الآخرون، وأضاف رامسفيلد: «لا يمكننا أن نَدَعَ سوريا تساعد فيما يتعلق بالقاعدة ثم نشعر نحن بأننا مقيّدون في ملاحقتهم فيما يتعلق بدعمهم لإرهابيين آخرين».

«إننا بحاجة إلى إظهار بعض أُناسنا على الجزيرة»، قال بوش. «لنحصل على جداول الإظهارات، ولنُعْطِ إعلامات موجزة. إننا بحاجة إلى أُناسٍ يُلْقمونهم بعضَ المعلومات».

وأعطى رامسفيلد إعلامه العملياتي اليومي النَمَطي إلى حدٍّ ما عن الحرب.

«لقد قمنا بـ 65 طيراناً»، قال رامسفيلد، رغم أن المخطط كان يقضي بـ 70 طيران. الأهداف العسكرية كانت ذات ضررٍ مُصاحِبٍ منخفض. ونحن نصيب بعض الأهداف الآخذةِ بالظهور. ولم نُصِبْ كل الهليكوبترات وطائرات النقل والطائرات النفّاثة. وكان كل من رامسفيلد ومايرز قد قالا في اليوم السابق إن الولايات المتحدة تملك الأجواء فوق أفغانستان، وأنه لم يعد لدى الطالبان سوى عدد قليل من مصادر القوة الجوية.

قال بوش: «لنتأكدْ من أننا لا نضرب أي مسجد».

قال رامسفيلد: «لقد أصبنا بعض الكهوف، ونحن نضرب تورا بورا»، وهي تجمّع للكهوف يصعب الوصول إليه في الشرق.

وقال فرانكس إن لديه فريقاً من نوع آي يتألف من 12 رجلاً من القوات الخاصة، وهم ينتظرون النزول في أفغانستان.

«سنعمل مع مدير المخابرات المركزية لإدخالهم إلى أفغانستان»، قال رامسفيلد. وكان مهتاجاً للتقدم البطيء في إدخال فِرَق العمليات الخاصة إلى أفغانستان. والطقس الآن هو عذرٌ إضافي. وكان رامسفيلد قد أقنع الرئيس بفكرة وضع الأحذية على الأرض، وها هو ذا لا ينفّذ الفكرة.

وقال الرئيس: «نظراً إلى الطقس، فإن الآن هو الوقت المناسب للتحرك في الشمال. وما يزال عندنا خيارات فيما بعد في الجنوب، ولكن علينا أن نتحرك في الشمال».

وأبدى رامسفيلد ملاحظة عامة عن السياسة الأمريكية في شبه القارّة الآسيوية. «يجب علينا أن نتفادى الظهور بصورة تغيّر في الاتجاه نحو الباكستان»، قال رامسفيلد. وكان التحالف ضد الإرهاب مع باكستان يقلق الهند، مُنَافِسة الباكستان.

ووافق پاول. «يجب أن نتكلم عن الهنود كلما نتكلم عن الباكستانيين».

وقال رامسفيلد: «إن وزارة الدفاع مرتبطة ارتباطاً جيداً بوكالة التنمية الدولية» ـ وكالة المعونات الإنسانية. «نريد أن نتأكد من أننا نُطعم الناس الصحيحين».

قال پاول: «إننا نقدم 170 مليون دولاراً في السنة».

سأل بوش: «لمخيمات اللاجئين فقط؟».

«على الحدود وداخل أفغانستان على حدٍّ سواء»، أجاب پاول. وكان أكثر من مليوني أفغاني قد هربوا من بيوتهم خلال العشرين سنة الأخيرة، وكان الكثيرون منهم يعيشون في مخيمات في المناطق الحدودية في باكستان وإيران. وكان الكثيرون لا يزالون يتدفقون عبر الحدود كل يوم منذ بدء الضرب بالقنابل.

وقدّم رامسفيلد واحداً من أقواله المأثورة المدموغة بدمغته: «لا تقم بعملٍ صالح فلا يأتي أذىً منه». إن القيام بعمل صالح أمرٌ خَطِر. وعليهم أن يتوقعوا المصاعب والنقد بشأن معوناتهم الإنسانية. وسيقول المنتقدون أن المعونات ليست كافية، وأنها تُطعم الناس الغلط، ولكن هذا يجب ألاّ يعوّقهم.

«عند حدٍّ ما سنحتاج إلى القيام بعمل منظور في مكان آخر من العالم»، قال رامسفيلد للمرة الخامسة أو السادسة. وكانت تلك نقطة يحاول مناقشتها على مدى أيام، إلاّ أن الآخرين لم يكونوا ميّالين لها.

وعندما انتقلوا إلى مسألة إيجاد أهداف جديدة، حذّر الرئيس مرة أخرى: «فقط تأكّدوا من أننا لا نبدأ بضرب مسجدٍ».

وسأل الرئيس: «لماذا لا نستطيع أن نُطلق أكثر من طائرة بريداتور واحدة دون طيار في كل مرة؟» وكان قد أُعجب بالمخابرات الخام التي وفّرتها

البريداتور. وكانت البريداتور أداةً مفيدة قليلة الخطر ـ وكلفة الواحدة منها مليون دولار فقط، فهي صفقة رابحة بالنسبة للأسلحة والمعدّات العسكرية.

«سنحاول أن نشغّل اثنتين في وقت واحد»، قال تينيت.

«يجب أن يكون لدينا 50 من هذه الطائرات»، قال بوش.

وعاد پاول إلى موضوع الاستراتيجية العسكرية ككلّ. «يجب أن نحاول تعزيز الشمال والشرق قبل الشتاء»، قال پاول، «أن نستولي على مزار الشريف ونسيطر على الحدود والوديان».

«لقد طلبتُ من أناسٍ أن ينظروا في هذا الأمر»، قال تينيت. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد أشارت إلى أن كابول أيضاً قد تسقط قبل الشتاء، وكان تينيت يعلم أن هذا السقوط يطرح تحدّياً سياسياً أقسى من التحدي الذي يطرحه الاستيلاء على مزار الشريف. «إن الحلف الشمالي يريد أخذ كابول، وسيكون من الصعب السيطرة عليه»، حذّر تينيت مجدّداً. «إننا بحاجة إلى واحد من الباشتون من غير الطالبان يتعاون مع الحلف الشمالي بشأن كابول. ويجب علينا أن نربط تقديم المعونات الإنسانية بهذا التعاون». وقال تينيت إن الطعام قد يشكّل باعثاً لأحد الناس على التعاون. إلاّ أن استعمال الطعام كقوّةٍ فاعلة لم يكن ليتمشّى مع روح المعونة الإنسانية الواسعة الانتشار التي كان الرئيس يتصورها.

وبدا تشيني متقلقلاً، وأشار إلى أنه يرغب في إبعاد الرئيس عن مثل هذه المناقشات، في إعطائه القدرة على الرفض تقريباً. «إن قضية الاستراتيجية العريضة يجب أن يقررها الرئيس»، قال تشيني. «وأنه سيُحكم بما إذا كان علينا أن نحصل على نتائج ملموسة في أفغانستان. وأننا بحاجة إلى أن تقوم لجنة الرؤساء بالانكباب على هذا الموضوع ثم تأتي إلى الرئيس». إن لجنة الرؤساء هي المكان اللائق لمثل هذه المسألة التكتيكية، وليس مجلس الرئيس.

وقال الرئيس فيما بعد إنه كان قلقاً من عدم قيام الرؤساء بالمحافظة على تركيزهم. «أعتقد أننا بحاجةٍ إلى إدارة من نوع «أوّل بأوّل». وكانت أفغانستان الأمر الأول ذا المقام الأول.

وفي الاجتماع قال رامسفيلد عن أفغانستان: «علينا أن نغلق الأشياء بإحكام حتى لا يغادر أفغانستان عمر وأسامة بن لادن. نريد أن نبقي الناس محصورين».

«محصورين؟» قال پاول ساخراً تقريباً. «إنهم يستطيعون الخروج في سيارة لاند روڤر».

وكان پاول قد تعلّم ذلك الدرس الموجع قبل سنوات عندما كان رئيس الأركان المشتركة خلال الاجتياح الأمريكي لباناما في ديسمبر/كانون الأول سنة 1989. وكانت الولايات المتحدة قد أمضت أياماً وهي تطارد الجنرال مانويل نوريغا، رجل باناما القويّ. وكانت مساحة أفغانستان تبلغ ثماني مرات مساحة باناما، وكانت مناطقها الحدودية نائية لا تخضع لسلطة القانون ـ فالتفكير في أن الولايات المتحدة تستطيع أن تُبقي أي شخص محصوراً هو حماقة.

وعارض الرئيس رأي رامسفيلد. «إن جَعْلَ أسامة بن لادن يتحرك هو جزء من استراتيجيتنا، جَعْلُهُ يتحرك»، قال بوش. فإنه إذا كان بن لادن في حالة هروب، فإنه لا يستطيع التآمر والتخطيط. «ولم نكن نتوقع أن نمسك به في اليوم الأول. نريد أن نزعزع مأواه الأمين». «ولذلك هو في حالة هروب».

وبعد اجتماع مجلس الأمن القومي، قام بوش برحلةٍ قصيرة إلى المقرّ الرئيسي لمكتب التحقيق الفيديرالي في شارع پنسلڤانيا، وظهر هناك مع پاول وآشكروفت وموللر، وكشف النقاب عن لائحةِ «أشدّ المطلوبين من الإرهابيين» المؤلفة من 22 شخصاً، وهي لائحة تكمّل لائحة مكتب التحقيق الفيديرالي الرائجة والناجحة «أشد المطلوبين العشرة». «الآن هو الوقت لرسم الخط في الرمل ضد الأشرار»، قال بوش، فيما كانت تُعْرَض صور رؤوس الأشخاص

المسمّين. وكان على رأس اللائحة أسامة بن لادن واثنان من ضباطه الرئيسيين، وهما مصريّان: الدكتور أيمن الظواهري ومحمد عاطف.

وأخذ بوش نسخةً محظورة لنفسه عليها صور وتراجم قصيرة ووصف لشخصيات الرجال الـ 22. وعندما رجع إلى طاولته في المكتب البيضوي، دسّ اللائحة ذات الأسماء والوجوه في درجٍ، بحيث تكون جاهزةً: بطاقةً شخصية بلائحة الإصابات للحرب.

16

عبّر ستيف هادلي لرايس عن قلقه بشأن الوضع في أفغانستان. «لا أظن أننا نسيطر حقاً عليه. على الأقل أنا لا أسيطر عليه بالكيفية التي أريدها. وقد أفصحتُ عن ذلك. نوّاب الرؤساء وأنا سنذهب إلى وكالة المخابرات المركزية ونجلس مع جورج وجماعته».

وذهبت رايس معهم إلى لانغلي يوم الخميس ذاك. وطرح تينيت وبعض جماعته عدداً من الملاحظات:

إن إيران وروسيا قد دعمتا الحلف الشمالي بملايين الدولارات عبر السنين. والأرجح أن إيران هي المُسْهِم الأكبر، موفّرةً المال لدعم الآلاف من جنود الحلف. وما يزال البلدان نشطَين في الحلف. ويبدو أنهما موافقان على تعامل الولايات المتحدة ووكالة المخابرات مع الحلف، إلاّ أنه ليس هناك رسالة منسّقة.

إن لإيران نفوذاً كبيراً على إسماعيل خان ـ القائد الطاجيكي الشيعي الذي يسيطر على الأراضي حول هراة في غرب أفغانستان، قرب الحدود مع إيران.

القبائل كلها تريد الدعم الجوي الأمريكي والذخيرة الحربية والطعام إذا كانت ستتحرك ضد الطالبان والقاعدة؛ ولكن القبائل تريد أن تتحرك بنفسها.

إن أفغانستان تكون مستقرة فقط ضمن بنيةٍ لا مركزية. إنها ليست دولة حديثة ذات حكومة مركزية قوية، وقد لا تكون لها تلك الحكومة في المستقبل.

كل الناس، كل قبيلة وكل قائد، لا بدّ أن يكون لهم مقعد على الطاولة في كابول في الحكومة المستقبلية.

وبما أن الوضع شديد الميوعة، وبما أن الكثيرين من شيوخ القبائل في جنوب أفغانستان قد أبقوا على علاقاتهم بالطالبان، فإن تينيت ما زال غير مستعد لإرسال الفِرَق شبه العسكرية إلى الجنوب. إن الجنوب ـ بكل بساطة ـ ليس أميناً. كذلك ليس هناك في الجنوب خطُّ جبهةٍ محدّد كما هو الحال في الشمال.

لقد طلب رئيس المخابرات الباكستانية الجديد مخابراتٍ وتعريفاً إلى بعض الباشتون، بحسب قول أحد القائمين بالإعلام في وكالة المخابرات المركزية.

«إننا بحاجة إلى إجراء عمليات خاصة في الجنوب؛ وإننا بحاجة إلى تجريد الطالبان من قوتهم المقاتِلة؛ وإننا بحاجة إلى جعل الباشتون يعملون معنا؛ وإننا بحاجةٍ إلى طمأنة الباكستانيين»، قال تينيت ملخِّصاً الوضع.

وألحّ خبراء الوكالة المرّة بعد المرّة أنه يجب على الحكومة الجديدة أو إدارة كابول أن تكون منصفةً لجميع الفئات والقبائل. إن الرمزية المتضمنة في وجود الطاجيكيين والأوزبكيين عِزْقاً ـ وهم يشكّلون معظم أعضاء الحلف الشمالي ـ في كابول سيكون مشكلة حقيقية بالنسبة للباكستانيين والباشتون.

سألت رايس: «هل يجب عليكم أن تهزموا الطالبان؟».

نعم، وإلاّ فإنهم سيكونون مركزاً تلتفّ حوله العناصر الإرهابية.

«لقد كان لدينا استراتيجية لمكافحة الإرهاب، ونحن الآن بحاجة إلى استراتيجية سياسية»، قال تينيت. «إننا بحاجةٍ إلى إخبار القبائل الجنوبية ما هو

المخطط السياسي. إننا بحاجةٍ إلى رؤية. إننا بحاجةٍ إلى التوضيح أننا هنالك على المدى الطويل».

أمّا بالنسبة إلى ما يمكن إنجازه قبل حلول الشتاء، فإن تينيت وخبراءه قدّموا إجابةً مؤلفة من أربعة أقسام: 1 ـ تولّوا السلطة في الشمال. 2 ـ احصلوا على التزويد من أوزبكستان. 3 ـ اجعلوا كابول خاضعة للبنية التي ناقشوها. 4 ـ كوّنوا ممرّاً أميناً للمؤن والذخائر إلى الجنوب عبر باكتيا التي لديها مع باكستان حدود مشتركة تبلغ 240 كيلومتراً.

ويمكن للولايات المتحدة أن تجعل الباكستانيين يبلّغون الباشتون الاستراتيجية السياسية. ويمكن للقوات المضادة للطالبان أن تزحف إلى الجنوب، وتعوق الطالبان عن الحركة وتحيط بهم وتضربهم. وقدّم محلّلو وكالة المخابرات المركزية توصية: استمِروا بضرب الأهداف. وسيكون العثور على الأهداف في الشتاء أسهل بسبب الميزة التكنولوجية العالية للقوات الأمريكية. وأنّ تخفيض قدرة العدو على الحركة وإلزامهم أماكنهم قد يؤدي حتى إلى إحداث ارتدادات إضافية في صفوفهم.

وكرّر إعلاميّو وكالة المخابرات المركزية الحديث عن مدى أهمية تقديم الحوافز للباشتون حتى يسحبوا تأييدهم للطالبان. وماذا ستكون الرسالة؟ «انسحِبوا تُطْعَموا. إذا لم تنسحبوا فإنكم لن تُطْعَمُوا»، قال أحدهم. وكان ذلك الاقتراح موضع شكّ كبير. فإذا تدهور الوضع في الجنوب، فإن الولايات المتحدة يمكن أن تُتّهم بالإغراء بالمجاعة ـ وهو استعمالُ التجويع المنظّم كأداة سياسية ـ وهذا يعرّض الأرضية الأخلاقية الأمريكية السامية للشبهة.

وسوف يتضح في نهاية المطاف أن هذا الأمر لن يكون ضرورياً. فقد كان الطعام متوفراً بشكل كافٍ في الجنوب. أمّا النقص الخطير في الطعام فقد كان مركّزاً في المناطق التي يسيطر عليها الحلف الشمالي والمناطق المحيطة بها.

في الساعة الخامسة بعد الظهر، ركّزت لجنة نوّاب الرؤساء على موضوع

أنواع التهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة، وعلى ما يمكنهم القيام به الآن لمعالجتها. وكان أحد الهموم المتزايدة احتمال حدوث هجوم بسلاحٍ إشعاعي؛ ولكن كلما ازداد حديثهم عنه كلما وضح لهم أنه لا يمكنهم الاستعداد له حقاً. فأرجحية حدوث هذا الهجوم وأثره ـ السيكولوجي والمادي ـ مجهولان كبيران، وذلك جزئياً لأنه ـ حسب علمهم ـ لم يكن هناك جهازٌ مثل هذا قد جرى تفجيره أبداً. كان فكرةً وَحَسْبُ، وإن كانت بحد ذاتها تُقْلق. ولكن طبعاً، خَطْفُ طائرة ركّاب واستعمالها كصاروخ كان يبدو أمراً غير مرجح حتى عهد قريب.

«سأعقد مؤتمراً صحافياً هذه الليلة»، ذكّر بوش الحاضرين في بداية الاجتماع الصباحي لمجلس الأمن القومي الذي انعقد يوم الخميس الواقع في 11 أكتوبر/تشرين الأول. «سأُعيد تأخير الصراع وأضع التوقعات في مرتبتها الصحيحة». وكان بوش يطفح بالثقة. «سيكون الصراع طويلاً، ويجب أن يكون لدينا استراتيجية متروّية قوية مدروسة بشكل جيد. وسأناشد الشعب الأمريكي التحلي بالصبر. وسنلاحق المُضِيفين والطفيليين. إنها حرب أوسع. وإذا لم نقبض على بن لادن، فذلك لا يعني أن الحرب أخفقت».

وقال پاول إن منظمة المؤتمر الإسلامي قد أصدرت قراراً قوياً أدانت فيه الأعمال الإرهابية ضد الولايات المتحدة. وكان بيان المنظمة ـ الذي صدر في اليوم السابق ـ يقول إن هذه الأعمال تتعارض مع تعاليم الأديان السماوية ومع كل القيم الأخلاقية والإنسانية. وقال الرئيس إنه سيستخدم بعض ما جاء في قرار المنظمة في إجاباته تلك الليلة.

«إن قرار منظمة المؤتمر الإسلامي يوحي بأن التحالف متماسك»، قال پاول.

أمّا بالنسبة إلى المعونات الإنسانية، استمر پاول، «فإننا أدخلنا شاحنات من تركمانستان وطاجيكستان وإيران. وتَذَكّروا أن معظم الطعام توزعه منظمات

غير حكومية. هذه هي شبكة التوزيع. ونحن بحاجة إلى أن ينسّقوا أعمالهم فيما بينهم، وإلى أن ينسّقوا أعمالهم مع القيادة المركزية الأمريكية». إن أفغانستان منطقة حرب، ولذلك فإن الإشراف العسكري مهم لكي يظلّ برنامج المعونات منظماً ومأموناً.

وأعطى رامسفيلد تقريره اليومي عن العمليات. «لقد قمنا بـ 75 ضربة في أفغانستان أمس. ونحن نبحث عن أهداف آخذة بالظهور. ولقد أصبنا 31 طائرة من طائراتهم الـ 68؛ ولم نجد هليكوبتراتهم؛ وأصبنا 9 طائرات نقل من طائراتهم الـ 15. وشاهدنا مختبراتهم للمخدّرات ومخازنهم للهرويين، ولكننا لم نضربها بسبب الضرر المُصاحِب».

وكانت هذه تقييمات الضرر المفصلة التي تُصان في معظم الأحوال بتصنيفها على أنها «سري جداً / كلمة الشفرة» ـ وهذا أعلى تصنيف ممكن. ويُعتبر أي تسرّب موثوق نكسةً خطيرة. وأنه ليمكنهم تصوُّر عناوين الصحف: «الولايات المتحدة تدمّر 31 طائرة فقط من طائرات الطالبان الـ 68؛ لا يمكنها العثور على الهليكوبترات؛ تستبقي مختبرات المخدّرات خوفاً من الضرر المُصاحِب».

بعد اجتماع مجلس الأمن القومي، انطلق موكب سيارات الرئيس مسافةً قصيرة عبر نهر البوتوماك إلى البنتاغون لحضور صلاة تذكارية بمناسبة ذكرى مرور شهر واحد. وخاطب بوش جمهوراً مؤلفاً من 15,000 شخص كانوا قد تجمعوا على أرض استعراضٍ مُعْشِبة قرب مدخل المبنى المجلّل بالسواد على النهر.

«لقد جئنا إلى هنا لنقدم احترامنا لـ 125 رجل وامرأة ماتوا في خدمة أمريكا»، قال الرئيس. «ونتذكر أيضاً ركّاباً على طائرة مخطوفة ـ هؤلاء الرجال والنساء، والصبيان والبنات، الذين وقعوا في أيدي الأشرار».

وتكلم رامسفيلد عن الأصدقاء والأسرة والزملاء الذين فقدوهم. «لقد

ماتوا لأنهم ـ بكلمات التسويغ التي قدّمها مهاجموهم ـ كانوا أمريكيين»، قال رامسفيلد.

وقال رامسفيلد مشبّهاً الإرهابيين بأنظمة القرن العشرين الدكتاتورية المدحورة التي سَعَتْ إلى الحكم والقمع: «إن إرادة السلطة، الرغبة الملحّة في التسلّط على الآخرين. . . تجعل الإرهابيّ مؤمناً لا بلاهوتية الله بل بلاهوتية الذات وبكلمات الغواية الهامسة: (ستصيرون كالآلهة)».

«فباستهدافهم هذا المكان وهؤلاء العاملين هنا، أحسّ المهاجمون، الأشرار، بحقٍّ أن النقيض لكل ما هو إياهم وما يمثّلونه يُقيم هنا».

وبعد الخطابات، كرَّتْ على شاشات التلفاز الضخمة أسماء الموتى، فيما عُزفت موسيقى ترنيمة دينية. وأخيراً استبدّ الحزن برامسفيلد، وترقرقت الدموع في عينيه.

في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، اجتمع الرؤساء في غرفة المواقع في البيت الأبيض.

وكانت الذكرى الشهرية في ذهن كلّ منهم. وطرح تينيت السؤال: «ما هي أهدافنا؟» ثم بدأ بجواب طويل.

«إننا نرغب في أن ينهار الطالبان ككيانٍ عسكري». ثانياً: إنهم يريدون أن يسيطر الحلف الشمالي على الأراضي في الشمال، فتربطها بالحدود الطاجيكية والأوزبكية.

«أسامة بن لادن قُتِلَ، أو أُسر، أو هو هارب»، أضاف تينيت، مقرِّراً الهدفَ بشكل فضفاض جداً إلى درجة أنه بدا وكأنه أُنجز. «ولكننا بحاجةٍ إلى تنشيط السفن كلها في وقت واحد. والشمال في متناولنا بعد قليل، وليس هناك من داعٍ للذهاب إلى جنوب كابول».

وكانت موجزات وكالة المخابرات الأمريكية الإعلامية ما تزال تشغل بال

رايس: حتى إذا أرادوا أن يعملوا في الجنوب، فإنه ليس هناك الكثير مما يمكنهم القيام به. وكان الكثير من ملخّص تينيت إفراغاً لمادة قديمة في قالب جديد، وقد كشف أن الأمور تتحرك حقاً تحركاً ضئيلاً.

«إن الباشتون مضادّون للحلف الشمالي ـ ويمكن أن يكونوا مضادين للطالبان. إنهم ليسوا مضادين للولايات المتحدة»، قال تينيت. وبكلمات أخرى: إن ولاءاتهم تحتمل التفاوض ـ مثل ولاءات سائر الناس في أفغانستان. «إنهم يريدون فقط أن يسيطروا على الشورى الخاصة بهم»، مشيراً إلى المبدأ الإسلامي للحكم الذاتي. «علينا أن نعطيهم شيئاً أكثر من (اذهبوا واقتلوا العرب). علينا أن نحفّزهم».

«إن الحلف الشمالي ليس وحدةً متراصةً متناغمةً تناغماً كلياً. يمكنهم أن يتشظوا بسهولة، ويمكن أن يصارع بعضهم البعض الآخر ـ كما تعلمون ـ أن يتصدع الحلف ويقع فريسةً للتقاتل. علينا أن نكون منصفين في مساعداتنا».

«إن لدينا بُعْداً إيرانياً في الغرب ونفوذاً روسياً في الشمال»، قال تينيت، متحدثاً عن الحلف الشمالي. وقد كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية شريكاً صغيراً للحلف وواحداً من مؤيديه الخارجيين، وهي الآن تحاول أن تشتري العملية بأكملها وتسيطر عليها كشريك كبير.

وقال إنهم قد وضعوا قَدَرَهم في أيدي شيوخ القبائل الأفغانيين، وهؤلاء سيعملون في الوقت والمكان والسرعة التي يختارونها بأنفسهم، ولديهم قضاياهم الخاصة وتصوراتهم لنهاية اللعبة، وطموحاتهم، وصراعاتهم الداخلية على السلطة. إنهم قوة من المرتزقة ـ وليست تحت قيادة الولايات المتحدة. وكان ذلك هو ثمن القبول، عندما تقرَّر في نهاية المطاف أن القَبَليين ـ وليس العسكريون الأمريكيون ـ سيقومون بمعظم القتال على الأرض.

أمّا فيما يتعلق فئات الحلف الشمالي التي كانت تلتزم بالمطالب الأمريكية، قال تينيت، «فإنه عندما يأذن القائد الأعلى للقوات المسلحة لهم

بالانطلاق، نريدهم أن يأخذوا طالبان، ويعزلوا القاعدة، ويأخذوا مزار الشريف، ويغلقوا الثغرة في بغلان» ـ وبغلان مدينة رئيسية على الطريق من كابول شمالاً إلى قندز ـ «ويوقعوا القاعدة في الشَّرَك في الشمال».

وكان قد انقضى أسبوعان على وجود كاسر الفكّ في أفغانستان. وسيأتي الفريق شبه العسكري التالي التابع لوكالة المخابرات المركزية من أوزبكستان مع القوات الخاصة وسيلتحق بقائد الحلف الشمالي عبد الرشيد روستم جنوب مزار الشريف. والآن هناك فريق أمريكي عسكري من القوات الخاصة في أوزبكستان، وهو مستعد للانتشار في اليومين القادمين لدى إسماعيل خان الذي كان صامداً في هراة، على بعد نحو 1300 كيلومتر من الحدود الإيرانية.

«إن القائد الأعلى للقوات المسلحة ووكالة المخابرات المركزية متصلان عند الورك. والناس على الأرض يعملون على الأهداف لأجل القائد الأعلى للقوات المسلحة»، قال رامسفيلد.

«هل هم مسلّحون على نحوٍ كافٍ؟» سألت رايس، مشيرةً إلى الحلف الشمالي. وأجاب بعضهم أن لديهم أسلحة خفيفة في الميدان.

«لا نريد أن نأخذ كابول. يجب أن تكون أولويتنا مزار الشريف»، قال پاول. وإذا أُخذتْ مزار الشريف ـ وهي تبعد ما لا يزيد عن 64 كيلومتراً عن أوزبكستان ـ فهذا يجعل ممكناً فَتْحُ جسرٍ أرضي بين أفغانستان وأوزبكستان، فيشكّل ذلك الجسر طريقاً برّياً متصلاً يمكن أن تتدفق بواسطته المؤن الإنسانية والذخائر العسكرية. إن إسقاط المعونات الإنسانية من الجو عملية مُكْلفة وغير فعّالة. والتحدي الديبلوماسي لإصلاح كل الفئات سيتطلب المزيد من التفكير والوقت. «اعملوا الجسر. لا تأخذوا كابول».

وفيما يتعلق بكابول، قال پاول: «لتقمْ الأمم المتحدة بإدارتها، أو لعل منظمة العالم الإسلامي تقوم بإدارتها. اعملوا مركزاً للمعونات الإنسانية، واجعلوها موضع اللويا جرغا» ـ واللويا جرغا هي الاجتماع التقليدي لقادة

القبائل من البلاد كلها. وكان لدى پاول رؤية فخمة بل مغالية لمستقبل المدينة. «هذه هي كابول، المدينة الدولية، رمز أفغانستان الموحّدة». قال پاول. «احصلوا على انتدابٍ من الأمم المتحدة بالإضافة إلى قواتٍ من بلدٍ ثالث تحكم كابول». وكان پاول يعرف أن بوش يمقت استعمال الجنود الأمريكيين في بناء الشعوب.

«كيف يشعر التحالف الشمالي إذا سلّمتهم كابول إلى الباشتون؟» سأل تشيني.

«سنسلّمها إلى الإبراهيمي والأمم المتحدة»، أجاب پاول. وكان الأخضر الإبراهيمي ممثل الأمم المتحدة الخاص لأفغانستان.

«هل يمكننا أن نُظهر القدر الكافي من هذه الخطة التي رسمناها هنا قبل أن يصير الحلف الشمالي في كابول وينفّر الباشتون؟» سأل أحدهم. وكان السؤال حَرِجاً.

واقترح شخصٌ متخصص بالعمليات من وكالة المخابرات المركزية كان يحضر الاجتماع وما يزال يعمل سراً: «إذا تمكّنا من حمل الباشتون على التوقيع على هذه الخطة فإن روسيا ستوافق عليها».

وماذا سيكون موقف إيران؟

قال المتخصص: إنهم سيريدون دوراً من نوعٍ ما.

وكانت هناك قضية المَلِك. هل يستخدمونه، وكيف يكون ذلك؟ وقال رجل وكالة المخابرات المركزية أن جَعْله رئيساً للحكومة بالاسم فقط لن ينجح، ولكن يمكنه أن يدعو اللويا جرغا إلى الاجتماع ويتصرف كرئيس صوري.

وجرت مناقشة عن مدى حاجتهم إلى شخص في أفغانستان يحتلّ منزلةً مماثلة لمنزلة مسعود المغتال. هذا الشخص يستطيع أن يكبح أيَّ تحرُّكٍ للحلف

الشمالي لأخذ كابول، ويستطيع أن يكون مصدر قوة عظيماً لهم وهم يحاولون إيجاد حلٍّ لمرحلة ما بعد الطالبان.

وكان الشك ما يزال يساور پاول: «هل يستطيعون أخذ كابول؟».

نعم، قال رجل وكالة المخابرات المركزية. «إننا واثقون إلى حدٍّ ما أنهم يستطيعون الوصول إلى كابول في الأجَل القريب. ونقل أخباراً إيجابية عن مقاطعتين جنوبيتين فيهما مصادر قوة مدفوع لهما من قِبَل وكالة المخابرات المركزية». إننا نعمل معهم من إسلام أباد. إن هذا يشكّل انفصالاً إدارياً عن الطالبان. ولا نعلم إذا ما كانوا سيسمحون لنا بوضع ناسٍ هناك.

«ولدينا مصادر قوة نشطة في مقاطعَتَيْ لُگر ونَنگهار». وكانت مقاطعة ننگهار، التي تحاذي الحدود الباكستانية، موقع ممرّ خيبر، وهو مدخل استراتيجي على الطريق من جلال أباد إلى بشاور في الباكستان.

«نريد أن نسرّع هذا التحرك باتجاه الاستقلال الذاتي»، قال تينيت. «وعلينا أن نقدم معونات إنسانية. وحتى إذا كانوا لا يريدون أن يقاتلوا، فإننا نريدهم أن ينفصلوا عن الطالبان. علينا أن نقدّم رؤيةً لهذه القبائل الجنوبية».

«إن بعضهم يريد الرؤية وبعضهم يريد المال»، قال تينيت بفظاظة. «وعلينا أن نلبّي رغبة الفريقين». إن رؤية لصالح أفغانستان العام يشكّل جائزة غير محسوسة، ذكية، بعيدة أكثر مما ينبغي بالنسبة لبعض القبائل ـ ولكنهم يفهمون النقد ويقبلونه بترحاب. وكانت وكالة المخابرات المركزية ما تزال توزع الملايين. وقال تينيت إن الوكالة تسلّح الكثيرين. إن الأفغانيين يستجيبون «للأسلحة وللشعور بأنهم مع الطرف المنتصر».

وكرّر كارد سؤال پاول: «هل يستطيعون أخذ كابول؟».

«يمكنهم على الأقل أن يصلوا إلى المدينة»، قال تينيت.

وأضاف رجل وكالة المخابرات المركزية: «عندما يصل الحلف الشمالي

إلى مشارف كابول، فإن الطالبان سيذهبون إلى التِّلال باتجاه الجنوب». وكانت تلك أخباراً حسنة وإنذاراً. ولم يسأل أحد ما إذا كان لديهم خطة لمعالجة آلاف الهاربين.

«إننا بحاجةٍ إلى رؤيةٍ لكابول»، أعادت رايس القول. «إن وجود رؤية لكابول أمر هام لتفادي تنفير الباشتون». وتحسّروا مجدَّداً على غياب مسعود الذي كان قد قال إن بإمكانه حكم كابول من خارجها، عن طريق مختلف القبائل، بما في ذلك القبائل من الجنوب. أمّا فهيم ـ خليفة مسعود بالاسم، من حيث هو رئيس للحلف الشمالي ـ فإنه لم يكن لديه مهارات سَلَفِهِ السياسية.

«أنظروا، إنه لا يتحتّم علينا أن نأخذ كابول في الأول من ديسمبر/ كانون الأول حتى نُظْهِرَ نتائج لعملنا. إننا بحاجةٍ إلى أن نحلّ قضايا كابول والباشتون والحلف الشمالي»، قال تشيني.

«إلاّ أن الأولوية هي في الشمال»، أجاب پاول. «علينا أن نتحدث عن كابول، ونقول لهم ما هو الحل: توقفوا عند الحدود، ودَوِّلوها، ولا تنفّروا الجنوب، وأعطوا الجنوب دوراً في كابول. هذا سبيلٌ أكثر قيمةً من أخذ كابول. وهو يعطيني شيئاً أتحدث عنه مع الباكستانيين».

وفي خضمّ كل الحديث عن أخذ كابول أو عدم أخذها، أغفلوا مسألة هامة، وهي مدى تعرّض فِرَق وكالة المخابرات المركزية والقوات الخاصة للخطر وهم في الميدان من دون دعم. «إن الوضع خَطِرٌ، وقد يُوشَى بالفِرَق»، قال واين داوننغ، وهو جنرال بأربعة نجوم متقاعد، كان من قبلُ قائداً للعمليات الخاصة الأمريكية، وهو الآن نائبٌ من ضمن موظفي مجلس الأمن القومي. وسيتغير الوضع بأكمله في حال موت 10 أو 12 رجلاً أو في حال أسرهم.

وكانت تلك حقيقة غير مريحة؛ ولم يُجِب أحدٌ عليها.

قال تينيت: «إننا بحاجة إلى رؤية سياسية الآن».

«إن المسألة هي الطالبان»، قال تشيني، محاولاً إعادة توجيه الحوار. «هل لدينا برنامج نشيط بشكل متماثل ضد القاعدة؟».

وجرى بعض النقاش عمّا يمكن أن يشكّل انتصارات، لكن رايس عادت بسرعة إلى المشكلات السياسية. «إننا بحاجةٍ إلى استراتيجية لقندهار». وكانت قندهار ـ ويبلغ عدد سكانها 225,000 نسمة ـ المنزل الروحي للطالبان.

ووَصَفَ رجل وكالة المخابرات المركزية الطالبانَ: «إذا ربضوا في قندهار فيما يُحرز الحلف الشمالي تقدماً في كابول، فإن هذا سيحفز القبائل على الارتداد. وتذكّروا أنهم قد ينغلقون في المرتفعات الأكثر علوّاً، ولكننا قد نلاقي نشاطاً في السهول الأكثر انخفاضاً».

رتَلَقَّتْ وكالة المخابرات المركزية برقيةً من رئيس المحطة في إسلام أباد ذلك اليوم. وقالت البرقية ـ بناءً على مصادر كثيرة، بما فيها الرئيس الجديد للمخابرات الباكستانية ـ أن الضربات بالقنابل كانت حتى ذلك الوقت خيبة أمل سياسية كبيرة، وأنها لم تؤدِّ إلى إيقاع الشقاق في صفوف الطالبان. «إن قيادة الطالبان لا تزال موحّدة متحدّية ملتفّة حول ملاّ عمر، في حين أن قواد القبائل مصرّون على الحياد، وهم ينتظرون ليروا من سينتصر قبل أن يُلزِمُوا أنفسهم الانحياز إلى فَرِيقٍ دون آخر». بكلماتٍ أخرى، شَقُّ الطالبان هو وَهْم. وكان ذلك مدعاةً للصحو. لعل العدوّ أقوى مما كانوا يتصوّرون.

كانت التقارير عن التهديدات من الحدّة بحيث أنّ تينيت أوصى أن يقوم مكتب التحقيق الفيدرالي بخطوة غير عادية، وهي أن يُصدر تحذيراً على مستوى البلد كله عن إمكان حدوث هجمات إرهابية «خلال الأيام الكثيرة القادمة». وكان تينيت شديداً في توصيته إلى درجة أن مولر، مدير مكتب التحقيق الفيدرالي، لم يكن لديه خيار سوى أن يتصرف. وصدر التحذير في وقت متأخر من بعد الظهر. «هناك بعض المعلومات ـ رغم أنها غير محدّدة بالنسبة للهدف ـ تدعو الحكومة إلى الاعتقاد أنه قد تحدث هجمات إرهابية إضافية

داخل الولايات المتحدة وضد المصالح الأمريكية في الخارج خلال الأيام الكثيرة القادمة».

ولو كان موللر أهمل الاستجابة وحَدَثَ هجوم إرهابي، لما كان سيُصْفَح عنه. لكن التحذير كان يفتقد إلى التفاصيل لأن أياً من المخابرات الموثوقة لم يحتوِ على تحديدات مثل زمن حدوث الهجوم ومكانه وأسلوبه. وإنما أَطلقَ ردَّ فعل كثرةُ عدد الاعتراضات وتقاريرُ مخابراتية أخرى. وحيث أن ما حدث في 11 سبتمبر/أيلول قد حدث، فإن الزيادة في العمل أفضل من النقص في العمل.

وكان تشيني قلقاً من أن تكون وكالات المخابرات تحاول أن تتصرف بشكل يحول دون توجيه اللوم إليها، لكنه لم يتلفّظ بأي اعتراض.

وقاد الرئيس فيما بعد: «إن الإنذارات على مستوى البلد كله هي قضايا ممتعة، إذا فكّرتَ فيها. فمن الناحية الأولى، لم تصدر إنذارات على مستوى البلد كله من قبل». وكان قلقاً: «إلى كم إنذار نحتاج قبل أن تتخدّر النفس الأمريكية؟» وكانت التهديدات جدِّية. «إن تينيت شخص لا يفزع بسهولة»، قال الرئيس، ولكنه كشف أيضاً أنه كان هناك نوع من اللعبة الذهنية تُلْعَبُ مع بن لادن وإرهابييه.

«توصَّلْنا إلى خلاصةٍ في ذلك الوقت أن إصدار إنذار على مستوى البلد كله أمر هام لجعل العدوّ يعرف أننا نتتبعهم»، قال الرئيس. وبكلمات أخرى، فإنه إذا كان هناك شيءٌ قد خُطِّط له، ثم رأى الفريق الآخر أن مكتب التحقيق الفيدرالي قد أصدر إنذاراً على مستوى البلد كله، فإن هناك إمكانية ـ لعلها بعيدة ـ أن يؤخر ذلك الفريقُ مخططه أو أن يرتدع عنه على وجه الاحتمال. وقال بوش إن الإنذار كان «محاولةً للدخول إلى عقول الإرهابيين بقدر ما كان أي شيء آخر».

وكان الإنذار موضوعاً كبيراً في الأخبار، فيما حاول الأمريكيون أن يفهموا ما يعنيه.

وفي مساء ذلك اليوم، عقد الرئيس بوش مؤتمراً صحافياً متلفزاً، وكان ذلك أول مؤتمر يعقده في الساعات التي يرتفع فيها عدد مشاهدي التلفاز إلى أقصاه منذ أن تولّى الرئاسة. وألقى بوش كلمة افتتاحية قصيرة قبل أن يتلقى الأسئلة. وقد قال القليل مما يعتبر جديداً، لكنه أعطى الطالبان فرصة أخرى لتسليم بن لادن.

«سأقولها مجدّداً: إذا سلّمتموه وجماعَتَهُ اليوم، فإننا سنعيد النظر فيما نفعله لبلادكم»، قال بوش. «إنه لا يزال لديكم فرصة ثانية. أَحضروه وحسبُ، وأَحضروا قوّاده وضباطه وغيرهم من السفّاكين والمجرمين الذين معه».

وسألت آن كامبتون ـ من أخبار الآي بي سي ـ سؤالاً تردَّد في ذهن الرئيس بعد عشرة أشهر. «عمَّ يُفترض أن يبحث الأمريكيون فيبلغونه للبوليس أو لمكتب التحقيق الفيدرالي؟»

«حسناً يا آن، إنك إذا وجدتِ شخصاً لم ترَيْه من قبل يركب مذراراً لرشّ المحصولات» ـ وكان ذلك أحد أساليب الإرهابيين المشبوهة لنشر العوامل الكيميائية أو البيولوجية ـ «وذلك المذرار لا يخصك، بلِّغي عنه».

وانفجر الحاضرون في الغرفة ضاحكين.

* * *

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم الجمعة في 12 أكتوبر/ تشرين الأول، قال رامسفيلد إنه ليست هناك ضربات قد خُطِّطت لذلك اليوم «وهو يوم الجمعة الأول منذ بدء حملة القذف بالقنابل. ويوم الجمعة هو يوم الراحة لدى المسلمين. فالتوقف المؤقت يؤكد أن الولايات المتحدة ليست في حالة حرب مع المسلمين.

وأعطى هانك ـ رئيس العمليات الخاصة لوكالة المخابرات المركزية ـ تقريراً عن العمليات على الأرض. «إن وكالة المخابرات المركزية تقوم بدمج

العمليات الجوية للقائد الأعلى للقوات المسلحة مع العمليات الأرضية للحلف الشمالي. ولدى الحلف أمرٌ بلزوم أماكنهم. وسيقوم القائد الأعلى للقوات المسلحة بضرب أهداف خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة القادمة. وبعد ذلك سيُطلق الحلف الشمالي. عند ذلك سوف يكون عندهم ثلاثة أسابيع ونصف الأسبوع للتحرك قبل أن تسقط الثلوج على الجبال، ويمكنهم أن يعلموا في الارتفاعات المنخفضة حتى ديسمبر/ كانون الأول».

وتابع هانك لامه قائلاً: «إن بَغْلان سترتدّ، وسترتبط». وكانت بَغْلان مقاطعة ومدينة تبعد نحو 160 كيلومتراً إلى الشمال من كابول، بين قوات الحلف الشمالي في الشمال الشرقي وقوات الجنرال روستم التي كانت في الغرب. «سنربط قوات الحلف الشمالي، وسنفتح الجسر الأرضي من أوزبكستان إلى روستم عبر مزار الشريف. سيأخذون هراة، وبعد ذلك يكون لدينا قاعدة جوية، ونقيم قاعدة جوية في الجنوب».

قال هانك: «إن الحلف الشمالي يظنون أن بإمكانهم الوصول إلى كابول. وليس لديهم لا نيّة ولا قدرة على المضيّ إلى جنوب كابول».

وسأل بوش تينيت: «كيف تجعل الحلف الشمالي يقبل قبائل الباشتون؟».

«إدارة الأمم المتحدة».

قال بوش: «أنا موافق»، «ليس لدي مشكلة في أن تتسلم الأمم المتحدة كابول».

«علينا أن نعمل على سهول الشمالي شمال كابول»، قال هانك.

«أنظروا»، قالت رايس، «إننا نحتاج ليس إلى حلٍّ لكابول وحسبُ. بل علينا أيضاً أن نبدأ التفكير في الحكومة الأفغانية».

«إنهم سيعبرون سهول الشمال، وسيصبح لدينا بعض النفوذ فيما يتعلق بدخول كابول»، قال تينيت، مشيراً إلى قوات الحلف الشمالي.

سأل بوش: «هل نريد أن نعطيهم حرية التحرك إلى الجنوب ونُفْلتهم من العقوبة؟».

وأجاب تشيني: «ليس الحجةُ في أخذ كابول قويةً كما كان الحال في الأسبوع الماضي. المشارف تكفي بما أننا نقوم بأعمال أخرى».

«إننا داخل مقاطعتي لُگر ونَنگهار»، قال هانك، متحدثاً عن فريق وكالة المخابرات المركزية.

وناقش الحاضرون المخابرات التي تشير إلى أن نحو 100 شخص يذهبون يومياً من باكستان إلى أفغانستان للانضمام إلى الطالبان. وجرى بعض الحديث عن إغلاق الحدود. وبدتْ الفكرةُ مستحيلة وغير عملية بسبب المئات من الكيلومترات من الأراضي الجبلية الوعرة، وبعضُها أكثر الأراضي هولاً في العالم. والانتقال من مكان إلى مكان هناك ممكن مشياً على الأقدام أو على البغال أو على الخيول فقط.

وتحدثوا عن محاولة تشجيع الارتدادات في مقاطعتي باكتيا وباكتيكا.

«حتى إذا كانتا لا تريدان أن تقاتلا»، قال تينيت، «فإننا نريد أن نساعدهما في ضبط مقاطعتيهما. إن من شأن ذلك أن يحرم الطالبان من الأراضي ويضغط عليهم».

وعُولجَ موضوع إنزال فِرَق القوات الخاصة في أفغانستان، وهو موضوع مغيظ. لقد كان الروس قد توسطوا للمساعدة في إدخال فريق وكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان عبر طاجيكستان. لعلّ بإمكانهم المساعدة مجدّداً.

«أنظروا»، قال الرئيس، «إنني أعارض استخدام العسكريين في بناء الشعوب. حالما ينتهي عملنا، فإن قواتنا ليست قوات حفظ السلام. علينا أن

العمليات الجوية للقائد الأعلى للقوات المسلحة مع العمليات الأرضية للحلف الشمالي. ولدى الحلف أمرٌ بلزوم أماكنهم. وسيقوم القائد الأعلى للقوات المسلحة بضرب أهداف خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة القادمة. وبعد ذلك سيُطلق الحلف الشمالي. عند ذلك سوف يكون عندهم ثلاثة أسابيع ونصف الأسبوع للتحرك قبل أن تسقط الثلوج على الجبال، ويمكنهم أن يعلموا في الارتفاعات المنخفضة حتى ديسمبر/كانون الأول».

وتابع هانك لامه قائلاً: «إن بَغْلان سترتدّ، وسترتبط». وكانت بَغْلان مقاطعة ومدينة تبعد نحو 160 كيلومتراً إلى الشمال من كابول، بين قوات الحلف الشمالي في الشمال الشرقي وقوات الجنرال روستم التي كانت في الغرب. «سنربط قوات الحلف الشمالي، وسنفتح الجسر الأرضي من أوزبكستان إلى روستم عبر مزار الشريف. سيأخذون هراة، وبعد ذلك يكون لدينا قاعدة جوية، ونقيم قاعدة جوية في الجنوب».

قال هانك: «إن الحلف الشمالي يظنون أن بإمكانهم الوصول إلى كابول. وليس لديهم لا نيّة ولا قدرة على المضيّ إلى جنوب كابول».

وسأل بوش تينيت: «كيف تجعل الحلف الشمالي يقبل قبائل الباشتون؟».

«إدارة الأمم المتحدة».

قال بوش: «أنا موافق»، «ليس لدي مشكلة في أن تتسلم الأمم المتحدة كابول».

«علينا أن نعمل على سهول الشمالي شمال كابول»، قال هانك.

«أنظروا»، قالت رايس، «إننا نحتاج ليس إلى حلٍّ لكابول وحسبُ. بل علينا أيضاً أن نبدأ التفكير في الحكومة الأفغانية».

17

كان كاسر الفك لا يزال الوجود الأمريكي الوحيد على الأرض وداخل البلاد، وكان يحاول إيجاد أهدافٍ تُضرب بالقنابل. وكانت تأتيه من العسكريين الأمريكيين مكالمات في الليل: هل يمكنك أن تتحقق من هذا الهدف؟ هل جلتَ الإحداثيات؟ هل لديك عيون أمريكية على المرمى؟ ولم تكن قدرة فريق كاسر الفكّ كبيرة في الليل، وكانوا يستعملون خرائط روسية. وكان من الضروري ترجمةُ الإحداثيات الروسية إلى خرائط إنجليزية بالأقلام والمساطر. ولم يكن لدى الفريق معدّات من اللايزر لتعيين موقع الأهداف على نحوٍ مناسبٍ للقنابل الدقيقة. وكذلك لم يكن لديهم اتصالات مباشرة بقاذفات الطائرات الأمريكية. وكان من المفروض أن يقوموا بالتزويد بالمخابرات، لا أن يتصرفوا كمستطلعين. وكانوا يحاولون أحياناً ويقاومون أحياناً.

واستنتج غاري: ليست هذه الطريقة لإنجاز العمل.

«اضربوا لي الصفوف الأمامية فقط»، قال له الجنرال فهيم. اضربوا الطالبان والقاعدة على الناحية الأخرى. «إنني أستطيع أن آخذ كابول، وأستطيع أن آخذ قندز إذا كسرتم لي الصفَّ. رجالي مستعدّون». وكان فهيم قصيراً ممتلئ الجسم، ويشبه السفّاكين، ويبدو أن أنفه انكسر ثلاث مرات. وكانت

قواته تتزيّى بالبزات الجديدة، وهي تنتظر - افتراضاً - ابتداء الضرب الشامل بالقنابل حتى تتمكن من الهجوم.

وفي إحدى الليالي أرسل المقرّ الرئيسي للجنرال فرانكس رسالةً إلى غاري تقول أساساً: لقد قمتَ بتزويد مخابرات تفيد أن هناك موقعاً للعدوّ على الإحداثيات التالية. هل العدو حقاً هناك؟ هل هناك قوات صديقة في المنطقة؟

لا يمكننا التحقّق، أجاب غاري. لن نقول في أي المواضع الأهدافُ جيدة. ليس لدينا الإمكانات الكافية.

وحاول أن يستمر في التركيز على المهمة المخابراتية.

وكان عارف - رئيس مخابرات الحلف الشمالي - يوسّع اتصالاته في الناحية الأخرى من خط المعركة - الطالبان والقاعدة والمتعاطفون معهم. ووصلت معلومات تفيد أن الدكتور الظواهري - الرجل الثاني لبن لادن - في منطقة كابول.

وقال غاري: هناك مال كثير يمكن كَسْبُهُ إذا تمكنتم من نصب كمينٍ للظواهري، واعداً بالملايين نقداً. وزار غاري الجنرال التابع لفهيم والمسؤول عن سهول الشمالي. وكان هذا الجنرال أكثر حمقاً، وقال إن الحلف الشمالي يستطيع أن يأخذ كابول في يوم واحد إذا كَسَرَ الضربُ الأمريكي بالقنابل الصفوفَ الأمامية. وإن ضرب البلاد هنا وهناك بالقنابل لم ينجز شيئاً، قال الجنرال. وقد قام رجاله باعتراض بعض اتصالات الطالبان بالراديو، وتدل هذه الاعتراضات على أن الطالبان غير متأثرين. إن أَمَلَ الجنرال قد خاب. وأشار إلى صفوف الطالبان: أنظر، هناك مكان العدوّ. إن تفجير مخزنٍ في قندهار لم يعمل شيئاً ضدّهم.

واستخلص اري أن الضرب بالقنابل قد يُضفي الارتياحَ على سلسلة القادة هناك في واشنطن، لكنه ليس ناجحاً.

اجتمع مجلس الأمن القومي في التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين الواقع في 15 أكتوبر/ تشرين الأول. وكان جون ماكلوخلين يحلّ فيه محلّ تينيت. «إن لدينا الحقّ بالطيران فوق طاجيكستان دون قيود»، أعلن ماكلوخلين. «وسينضمّ فريق وكالة المخابرات المركزية الثاني إلى روستم». وسيذهب فريق الوكالة هذا ـ وقد لُقّب بـ «ألفا» ـ يوم الأربعاء إلى منطقة قرب مزار الشريف. وأنهم يرجون أن يُدخلوا بعضَ الفِرَق من نوع أي من القوات الخاصة إلى أفغانستان من أجل استطلاع الأهداف قريباً جداً. «وعندما يُطلق الحلف الشمالي»، قال ماكلوخلين، «فإنه سوف يحتاج إلى التوجيه ـ علينا أن نعطي توجيهاً للحلف الشمالي بشأن إذا ما كان عليهم أن يستولوا على كابول».

«هل لديهم العدد الكافي من الجنود في الشمال ليقاتلوا في الغرب والجنوب كليهما؟» سأل الرئيس. والجنوب يعني الاتجاه نحو كابول والغرب يعني الاتجاه نحو قندز.

«إن الحلف الشمالي يعتقد أن لديهم العدد الكافي من الجنود للقتال في المكانين كليهما في الوقت نفسه»، أجاب ماكلوخلين. «وسيبطئنا الشتاءُ في وادي بَنْجشِير، ولكن سوف نظل قادرين على القتال في سهول الشمالي».

وكان آرميتاج يمثّل وزارة الخارجية لأن پاول كان على سَفَرٍ إلى باكستان والهند. «في سنة 1996»، قال آرميتاج، «ساعدتْ السيطرةُ الطاجيكية الأوزبكية على أفغانستان في إشعال شرارة الطالبان. وقد تُحدث هذه السيطرةُ الآن حرباً أهلية. يجب علينا أن نطلب من الحلف الشمالي أن يتوقف عند حدود كابول».

إنّ بن لادن «يمكن أن يكون مختبئاً في كابول أو في منطقة جلال أباد»، قال تشيني. «يجب علينا أن ننزل في تلك المنطقة وننظفها».

وقال الرئيس مجدّداً: «قبل أن نعطيهم الضوء الأخضر للدخول إلى كابول، لنجعلهم يصلون إلى المشارف، وبعد ذلك نتخذ قراراً بحسب ما تبدو الأمور».

«إن ذلك يوحي للحلف الشمالي بأننا نريد أغراضنا فقط»، قال تشيني. وإن من المهمّ أن نُظهر أننا مهتمون بما يريدون هم إنجازه أيضاً.

«لماذا لا نجعلهم يتخذون من مشارف المدينة قاعدةً لهم»، ردّ بوش بسرعة، «ويمكنهم من ثَمَّ القيامَ بالمهمّات التي يريدونها في الداخل».

«لِنَرَ ما إذا كان بإمكاننا أن ننفّذ هذا الترتيب، فنجعلهم يتخذون من المنطقة خارج المدينة قاعدةً لهم، ونُدخل الباشتون. وسوف نرتب الأمور للسيطرة على كابول ونستعملها للمعونات الإنسانية»، اقترح ماكلوخلين.

«حسناً، كما تعلمون، لقد كان الجسرُ الأرضي والضغطُ على الطالبان لإخراجهم من الشمال غرضاً أوّلياً لنا. والآن نعتقد أنه بإمكاننا الضغط على كابول أيضاً»، قال بوش.

«سنضرب معظم ما نعتقد أنهم يملكونه»، قال رامسفيلد. «أمّا بالنسبة للأهداف، فإننا نضرب مزار الشريف وقندز. ولم نبدأ بعد بضرب سهول الشمالي بعد. والسبب في ذلك أننا لا نستطيع العثور على القوات المنتشرة هناك. وعندما يصير لدينا عناصر على الأرض، فقد يمكننا إذ ذاك العثور عليهم». ثم أعطى رامسفيلد ملخصاً عن الوقت الذي ستدخل فيه فِرَقةُ من القوات الخاصة إلى أفغانستان. سيدخل 12 شخصاً إضافياً مع فريق وكالة المخابرات المركزية الموجود هناك والعامل مع الحلف الشمالي، وفي خلال الأيام الأربعة القادمة، يُتَوَقَّع أن يدخل آخرون: فريق من القوات الخاصة مؤلف من 12 رجلاً، وفريق آخر من وكالة المخابرات المركزية ينزل جنوب مزار الشريف مباشرةً، ثم فريق ثانٍ وفريق ثالث من القوات الخاصة.

«هناك دلائل من القصص والحكايات أننا بدأنا نؤثّر في المعنويات»، قال الجنرال فرانكس. «لقد قمنا بما بين 110 و120 طلعة، وبعضها كان على سهول الشمالي»، قال فرانكس مُصَحِّحاً لرامسفيلد الذي كان قد قال للتوّ إنهم لا يضربون سهول الشمالي. وقد وجدوا عدداً قليلاً من الأهداف السانحة. «لقد

ضربنا مخيَّمَيْن، فيما نعتقد. واستخدمنا للمرة الأولى طائرات مقاتلة من طراز آي سي ـ 130». وكانت هذه الطائرات تطير ببطء، وهي مزوّدة بمدفع هويتزر تبلغ قذائفه 105 مليمترات وبرشّاش من طراز غاتلينغ يمكنه أن يرشّ 1800 طلقة في الدقيقة، وبذلك يطرح بساطاً مدمراً من النار يبلغ من الشدّة ما جعل الأفغانيين يقولون إنهم «يتنفّسون النار».

«إن الطائرات المقاتلة من طراز آي سي ـ 130 ـ وهي طائرات باف ذي ماجيك دراغون في ڤيتنام ـ أشد فعالية بكثير من خيّالة الحلف الشمالي»، تذكّر الرئيس فيما بعد. «إنها سلاح مُميت. وكان ردُّ فعلي: إذا كان لديكم فرصة للنيل من العدو، فاستعملوا أي وسيلة لديكم لأخذها».

«هل سيحدث تحرُّك في الأسبوع القادم على الشمال وكابول كليهما؟» سأل بوش.

«أظن أن ذلك محتمل»، أجاب ماكلوخلين.

وقالت رايس وآرميتاج إنهما قد طلبا من الأوزبكيين قاعدةً يمكنهم أن يتركوا فيها ربما ما لا يزيد عن 1000 جندي أمريكي خلال الشتاء.

كرّر بوش مجدّداً: «لا أريد بناءَ الشعوب بالجنود».

«يجب أن نركّز على أسامة بن لادن»، كرّر تشيني مجدَّداً.

«يجب أن نستمرّ بالكدّ فيما يتعلق بالجدول الزمني»، قال الرئيس. «إذا كان بإمكانهم التحرك جنوباً، فإننا نريدهم أن يقوموا بذلك قبل الشتاء، ولكن علينا أن نحاول التفكير في التجهيز». إنهم يفقدون التركيز، قال بوش. «لقد جرى نقاش أكثر من اللزوم عن أفغانستان بعد الصراع. لقد مضى أسبوع فقط على عملنا. وقد أحرزنا تقدماً كبيراً، ولدينا وقت. وقد يستغرق عملنا فترةً. وأن الاندفاع في استخلاص وضع لأفغانستان بعد أسبوع واحد أمر مبتسر. هذه صفقة من نوع مختلف. إننا نحرزُ تقدُّماً، ونحن نعزل ـ لقد جعلناه يهرب».

وسأل تشيني عن التقارير عن الارتدادات. «لقد ثبّتنا بعضها، ولكن في الجنوب على الأكثر»، أجاب ماكلوخلين. «وسنطلب من الاتحاد الشمالي أن يحاول تثبيت بعضها».

وكان هادلي يدوّن الملاحظات على دفتر للكتابة الاختزالية، وخطر له أنهم قد عقدوا عدداً من الاجتماعات أكثر من اللزوم. وبدأ الإرهاق يظهر عليهم. وخَنْقُ الآلة بالكامل لمدة تزيد على الشهر ليس أمراً جيداً. والناس قد بدأوا يفقدون قوّتهم. وفي اجتماع الرؤساء مساء ذلك اليوم من دون الرئيس، رجعت رايس والآخرون إلى موضوع كابول. ولم يصلوا إلى شيء معيّن، إلاّ أنه لا يمكنهم التخلي عن الموضوع.

وفي وقت باكر من ذلك الصباح، كانت شبكة التلفاز أن بي سي قد أعلنت أن مساعداً لتوم بروكاو ـ المذيع الرئيسي في الشبكة ـ قد دلّ الفحص الذي أجري له على إصابته إيجابياً بالأنثراكس الجلدي، وكان قد تلقى الأنثراكس في رسالة. ولكن أكثر التطورات ترويعاً ذلك اليوم كان الاكتشاف أن رسالة فُتحت في مكاتب طوم داشل، رئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ، قد فُحصت وتبيّن أن فيها آثاراً من الأنثراكس.

وكان العنوان الكبير في جريدة الواشنطن بوست في صباح اليوم التالي «فزع الأنثراكس يأتي إلى تلة الكابيتول».

كان تينيت في لندن لحضور مأتم تأبيني للسير داڤيد سبيدينغ، الرئيس السابق لخدمة المخابرات السرية البريطانية المعروفة بـ أم آي 6. وكان سبيدينغ معلم أحد معلّمي تينيت في عالم المخابرات. وكان تينيت يريد أن يقدم احتراماته، ولكن كان لديه أيضاً بعض العمل مع لاعبَيْن رئيسيَّيْن. الأول هو الرئيس الحالي للخدمة البريطانية، السير ريتشارد ديرلوف. وكانت وكالة المخابرات المركزية وخدمة المخابرات السرية البريطانية تتعاونان في بعض العمليات لمكافحة الإرهاب في ميدان أفغانستان وحول العالم. وكان اللاعب

الثاني هو الملك عبد الله، ملك الأردن، الذي كان أيضاً يحضر المأتم التأبيني. وكانت وكالة المخابرات المركزية تقدم العون المالي لخدمة المخابرات الأردنية بمقدار الملايين من الدولارات سنوياً.

بدأ ماكلوخلين اجتماع مجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم 16 أكتوبر/تشرين الأول بأخبار طيبة. «إنّ الفريق الثاني التابع لوكالة المخابرات المركزية سيدخل إلى أفغانستان اليوم، وسينضمّ إلى روستم».

وسأل رامسفيلد وآرميتاج عن كيفية إيصال الخردوات العسكرية إلى الحلف الشمالي. هل تستطيع وكالة المخابرات المركزية أن تقوم بذلك؟ هل تستطيع وزارة الدفاع أن تقوم بذلك؟

وكان هناك حدّة في صوت كل من رامسفيلد وآرميتاج. وكانت بينهما علاقة كريهة يبلغ عمرها عشرة أشهر، وكانت قد بدأت قبل أن تُملأ جميع الحقائب الوزارية الكبرى في الإدارة. وكان پاول يحثّ آرميتاج على أن يصير نائب رامسفيلد، ووافق رامسفيلد على إجراء مقابلة لآرميتاج. وبدأ رامسفيلد المقابلة بقوله إنه يعرف أن آرميتاج رجل صريح، ولذلك فإنه يريد أن يكون صريحاً معه. «إن حظك في أن تكون نائبي أقل من 50 بالمئة»، قال رامسفيلد:

«سيدي الوزير، إن حظي في أن أكون نائبك صفر»، أجاب آرميتاج.

وفي ذلك الصباح، نفّس رامسفيلد عن بعض شعوره بالإحباط بالنسبة للتأخيرات في إدخال فِرَق القوات الخاصة إلى أفغانستان. «إن وضع أناسنا على الأرض أمر هام»، قال رامسفيلد. «إن القائد الأعلى للقوات المسلحة والحلف الشمالي على اتصال. ويقول القائد الأعلى للقوات المسحلة إنه مستعدّ لوقف الضرب بالقنابل عندما يطلب الحلف الشمالي ذلك. ونحن نعتمد على ما يقوله الحلف الشمالي لوكالة المخابرات المركزية عن مسألة الاستعداد». وكانت الخطة تقضي بأن يتوقف الضرب بالقنابل عندما يكون الحلف الشمالي مستعداً للهجوم على الطالبان. فبهذه الطريقة لا تقع القنابل الأمريكية على قوات

الحلف الصديقة. «إن القائد الأعلى للقوات المسلحة قد قام بكل ما يمكنه القيام به حتى يعثر على معلومات أفضل عن الأهداف وحتى يتحرك الحلف الشمالي لإحداث الأهداف»، قال رامسفيلد.

أمّا الفكرة التي كان الحلف الشمالي يريدها، وهي أن تقوم الولايات المتحدة بضرب الصفوف الأمامية للطالبان قبل أن يتحرك الحلف، فهي فكرة يبدو أنها لم تَرْشَح فتصل إلى وزير الدفاع.

ولدى نقطة من النقاش انفجر إحباطُ رامسفيلد غضباً. «هذه استراتيجية وكالة المخابرات المركزية»، قال رامسفيلد، «هم طوّروا الاستراتيجية. نحن ننفّذ الاستراتيجية فقط».

وعارضه ماكلوخلين. «إن رجالنا يعملون مع القائد الأعلى للقوات المسلحة»، قال ماكلوخلين برفقٍ، وكان يعلم أن موقف تينيت دائماً هو أن الجنرال فرانكس هو الرئيس. «ونحن نؤيد القائد العام للقوات المسلحة. القائد العام للقوات المسلحة هو صاحب الشأن المسؤول».

«كلاّ»، جادل رامسفيلد، «رجالكم هم أصحاب الشأن المسؤولون. أنتم لديكم الاتصالات. ونحن نتبعكم فقط». وكان وزير الدفاع يُبْعِدُ نفسه. «إننا نذهب إلى حيث تقولون لنا اذهبوا».

«أعتقد أن ما أَسمعه هو م ب ي ت»، قال رامسفيلد.

لماذا؟ ماذا تعني؟ سأل الرئيس. وكان يعرف أن م ب ي ت تعني «منكوح بما يتجاوز التعرف؟»، وهو تعبير عسكري قديم يُفرد للظروف التي تصبح فيها الأمور خربانة.

«لا أعرف مَنْ صاحب الشأن المسؤول»، أجاب آرميتاج.

ورأى كارد أن الجميع يستجمعون قواهم. وكان هناك حجاب قاتم كثيف.

«أنا صاحب الشأن المسؤول»، قال بوش.

«كلا، كلا، كلا، كلا، سيدي الرئيس»، قال آرميتاج وهو يحاول العودة إلى وضع سليم، «لم يكن ذلك عنك. أنا أعرف مَنْ صاحب الشأن المسؤول هنا، لا شكّ في ذلك، سيدي الرئيس».

«أنا أريد أن أعرف من هو صاحب الشأن المسؤول هناك. القضية قضية مَنْ الذي يتحمّل المسؤولية على الأرض هناك»، قال آرميتاج.

«هذا هو النوع من النقاش الذي يصيبني بالإحباط»، تذكر الرئيس فيما بعد، «لأنني أحب الوضوح. ويمكنك أن تخطط نظاماً بحيث لا يكون أحد عُرْضَةً للمحاسبة». وقد شعر بالإحباط عندما سمع النقاش لأنه بدا وكأن وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية تتحدث إحداهما عبر الأخرى. «إذا حدث إخفاق، لا يظهر أحدٌ لأَجَل - إلى مَنْ تتطلّع لإصلاحه؟».

«وهناك أحياناً أشياء يُستحسن تركها دون تحديد، وَلْيُعيدوا مناقشتها على نحوٍ ما. وَلْيُخرجوا انفعالاتهم على نحوٍ ما... ومن العسير أن يعارض نائبٌ رئيساً في اجتماعٍ لمجلس الأمن القومي»، قال الرئيس.

«ونظرتُ إلى كوندي رايس وقلت: (أصلحي هذه اللخبطة)».

وكان بإمكان كارد أن يرى بندقيةً مشدودة بين العسكريين ووكالة المخابرات المركزية. ولم يتذكر أن أحداً قال: يا سلام، إننا نتشوق إلى هذا الترتيب الجديد.

وإذ استمرّ الاجتماع، قال بوش: «علينا أن نطلق عنان ثلاثة أشخاص. لا يمكننا أن نقوم بهذه المناقشة بعد أسبوع واحد من الآن».

«إنه ليس لنا وجود في أي مكان في الجنوب، وعلينا أن ننزل هناك»، قال رامسفيلد.

وقال بوش بصوت دال على الانفعال: «بعد خمسة أسابيع، لن يمنع

الثلجُ العملياتِ ضد كابول، ولكن الثلج يؤثّر في الشمال. لذلك يجب أن يكون الشمال أولويّةً».

«ما هي المعوّقات للجنود في الجنوب؟» سألت رايس.

وأجاب ماكلوخلين أنه ليس لوكالة المخابرات المركزية أفضلُ الاتصالات في الجنوب، ومن الصعب الوصولُ إليهم من باكستان. ليس هناك حلفٌ جنوبي.

«على وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية أن تُقَدِّما شيئاً بشأن الجنوب في اليومين القادمين أو الأيام الثلاثة القادمة»، قالت رايس بحزم.

«الأمور خَطِرَةٌ أكثر بكثير في الجنوب. ليس فيه هناك أراضٍ مطوّقة، وعلينا أن نكوّن هذه الأراضي»، قال ماكلوخلين.

«البديل هو أن نكوّن أرضاً مطوَّقة ـ أن نبني مدرجاً للطائرات. وعندي مكان أرشّحه لذلك في ولاية هلام»، قال رامسفيلد. وكان ذلك المكان إلى الغرب من قندهار. «يجب أن أطلب من فرانكس أن يلقي نظرة عليه».

وبعد الاجتماع، أشارت رايس إلى رامسفيلد بالدخول إلى المكتب الصغير الذي يستعمله مدير غرفة المواضع.

«دون»، قالت رايس، «إن هذه عملية عسكرية ويجب عليك حقاً أن تكون صاحب الشأن المسؤول». وكانت استراتيجيتهم تقاطعاً بين العمل السرّيّ والعمل العسكري، ولكن عند نقطة محددة تنتقل الاستراتيجية من كونها سرِّيَّة في الأغلب إلى كونها عسكرية في الأغلب. وكانت تلك النقطة الآن.

«أعرف ذلك»، أجاب رامسفيلد، «ولكنني لا أريد أن أُظهر مغتصباً لما تحاول وكالة المخابرات المركزية القيامَ به. إن العملية عملية جورج أيضاً».

«يجب أن يكون هناك شخص واحد مسؤول عن العملية، وذاك الشخص هو أنت».

«فهمتُ»، قال رامسفيلد.

وفي مناقشةٍ لاحقة مع الرئيس، شرحت رايس ما كانت تحاول القيام به مع رامسفيلد. يجب أن تكون وكالة المخابرات المركزية والعسكريون مندمجَيْن كامل الاندماج على الأرض. ويجب أن يدير الأمور شخص واحد. وكانت تلك حالة كلاسيكية من حالات وحدة القيادة. ولم تكن مجرد تسليم ـ نقلٍ للكرة من وكالة المخابرات المركزية إلى العسكريين ـ لأن الوكالة سوف تبقى وتكثّف وجودها. وكانت رايس والرئيس كثيراً ما يتكلمان بتشبيهات منتزعة من الألعاب الرياضية.

«سيدي الرئيس»، قالت رايس، «لا بد أن يكون لديك ظَهير رُبْعي لهذه العملية».

«ألَسْتُ الظهير الربعي؟» سأل بوش.

«كلا، أعتقد أنك المدرّب الرياضي».

بعد ذلك بعدة أيام، جرى اجتماع ثانٍ من نوع م ب ي ث، لم يكن فيه بَعْدُ واضحاً مَنْ صاحب الشأن المسؤول. وفكّر تسيف هادلي أن رامسفيلد يفصل تكراراً أكثر من اللزوم بين خطته العسكرية وبين عمليات وكالة المخابرات المركزية وعملائها على الأرض. وأن رامسفيلد لم يَرَ الوكالة كأداةٍ مُتاحة. فالمسألة لم تكن مسألة مَنْ صاحب الشأن المسؤول؛ بل كان الأمر الحاسم أن تتوفر استراتيجية واضحة بيّنة توحّد الوظائف العسكرية ووظائف وكالة المخابرات المركزية. ورغم أن هادلي كان نائباً وحسبُ لمستشارة الأمن القومي، فإن رايس شجّعته على التكلم مباشرة مع رامسفيلد.

«سيدي الوزير»، قال هادلي إذ خرج الرجلان من اجتماع حوالي هذا الوقت. «يجب أن يقوم أحدٌ بالتقاط هذه المسألة وبتخطيط استراتيجية لها. وبكل صراحة، المسألة في متناولك».

«إذن سأتناولها»، قال رامسفيلد.

وتوسط پاول فيما بعد من رامسفيلد. وكان بإمكان وزير الخارجية أن يرى أن وكالة المخابرات المركزية تشتري طريقها من جانبٍ إلى آخر في أفغانستان ـ على الأقل تحاول أن تفعل ذلك ـ وهي توزع الأرزّ والبنادق والنقد. وأخبر پاول رامسفيلد أن الرئيس يتوقع أن يحدث شيء، وعلى رامسفيلد أن يجد طريقة للإحاطة به. إن رامسفيلد هو صاحب الشأن المسؤول، سواء شاء أم أَبَى.

ولم يستجب رامسفيلد مباشرة ولكنه استُثير. وعاد إلى الپنتاغون، وأعطى توجيهاتٍ لورشته لشؤون السياسة ـ وكان يرأسها مساعد وزير الدفاع دوغلاس فيث ـ أن يكتبوا مسوّدةَ دراسةٍ تُحدّد معالمَ استراتيجيةٍ شاملة لأفغانستان. وهو يريدها في خلال ستّ ساعات. وفي اليوم الواقع في 16 أكتوبر/ تشرين الأول، كانت الأوراق من فئة السرّي والمحتفظ به تتطاير في مكتب فيث، بما في ذلك دراسة مؤلفة من ست صفحات ـ «مسوّدة للنقاش» ـ عنوانها «استراتيجية الولايات المتحدة في أفغانستان». وكان عنوان دراسة أخرى ـ وهي تعكس ضرورة السياسة ومزاج رامسفيلد كليهما ـ «كيف تُدخل أناساً أكثر إلى أفغانستان».

* * *

عندما رجع تينيت، استدعى هادلي لتقدير الأمور.

«كيف تسير الأمور؟» سأل تينيت.

«ليس بشكل جيد حقاً»، قال هادلي. «جون»، قال، مشيراً إلى ماكلوخلين، «ألحّ بشكلٍ ما على موضوع مَنْ يتحكّم في الأمور، والرئيسُ مشوَّش، وهذا ليس جيداً».

وقال تينيت إنه كان قد عبّر عن نفسه بأسلوب توكيدي أن فِرَقَةُ شبه العسكرية تعمل للقائد الأعلى للقوات المسلحة.

أَجَل، قال هادلي موافقاً، ولكن الشخص الوحيد الذي يبدو أنه لا يفهم

ذلك هو دون رامسفيلد. وكان الأمر غير الواضح هو حافز رامسفيلد. هل كانت هذه طريقته في دعوة وكالة المخابرات المركزية إلى العمل معه؟ أم أنها كانت طريقته لتحويل اللَّوْم؟ ولم يكن واضحاً أيضاً ما إذا كان رامسفيلد يريد دور وكالة المخابرات المركزية، أو ما إذا كان يعرف كيفية دمج القوات. وعلى كل حال، فقد اقترح هادلي أنه يجب على تينيت أن يفرز الأمور.

وبالنسبة لرامسفيلد، فإن الصعوبة الحادثة توضح الأهمية الحاسمة لوضع الأحذية على الأرض ـ أحذية عسكرية أمريكية، أحذيته هو. ولم يكن هو قائداً لِفِرَق وكالة المخابرات المركزية شبه العسكرية، ولم يكن لديه فِرَقٌ خاصة به. وزاد رامسفيلد الضغطَ على كل الناس المتعلّقين بسلسلة القيادة. وكان لا يلين في طَرْح بساطِهِ المدمِّر من النار الخاص به. ووضع كبار الجنرالات رؤوسهم على الطاولات يأساً. وأُجهضت محاولتان لإنزال فريق من القوات الخاصة في أفغانستان بسبب سوء الطقس. إن الأمر الأسوأ من عدم الوصول إلى هناك حدوثُ تحطّم طائرة.

رَأَسَ نائب الرئيس تشيني اجتماع مجلس الأمن القومي يوم 17 أكتوبر/تشرين الأول لأن بوش كان مسافراً إلى آسيا. وفي اليوم السابق، كانت طائرة هورنيت نفاثة من طراز «أ ـ 18 قد ضربتْ بالقنابل بعضَ مستودعات المؤن التي تستعملها اللجنة الدولية للصليب الأحمر في كابول. وشرح رامسفيلد أن الولايات المتحدة قد ظنّتْ أن المستودعات مستودعات عسكرية تابعة للطالبان. وقال إن اللجنة الدولية للصليب الأحمر قد أعطت الإحداثيات الخاطئة لمستودعاتها.

ومرّ رامسفيلد بإيجاز على موضوع دخول فِرَق القوات الخاصة إلى أفغانستان. وتكلم تينيت عن فِرَق وكالة المخابرات المركزية التي هي فعلاً على الأرض. لقد وصل فريقه الملقب بـ «ألفا». «اجتمع الرجالُ مع روستم هذا الصباح ومع عدد من قوّاده. وقد طرحنا مقداراً وافراً من المال».

«لدينا 120 طنّ من الذخيرة في ألمانيا هذه الليلة. وسننقل 60 طنّاً إلى

الشمال. وسنحاول أن نجهز مدرجاً للطائرات خلال 48 ساعة. وقد قال روستم إنه سيكون في مزار الشريف بعد أسبوع»، قال تينيت.

«إننا نحاول أن نجعل إسماعيل خان وخليلي يقابلان روستم». وكان كريم خليلي قائداً للحزب الثاني ـ من حيث القوة ـ المعارض للطالبان. وكان يسيطر على جيوبٍ من الأراضي في وسط أفغانستان، قرب باميان. وكانت وكالة المخابرات المركزية حريصة على إيصال الذخيرة والدعم إلى روستم وعلى النسيق بين الرؤساء النازعين إلى تأييد الولايات المتحدة.

«كيف نُدخل أناساً إلى الجنوب؟» سأل رامسفيلد.

وذكر تينيت قائداً قَبَليّاً صغيراً من الباشتون كان للوكالة صلةٌ به. وكان اسمه حامد كرزي. وكان كرزي لطيف المظهر، ذا لحية مختلطة البياض والسّواد، ويبلغ من العمر 44 سنة، ويتكلم الإنجيلزية بشكل تام. «كرزي يعمل حول ترين كوت. وهي رأس جسر ساحلي ـ يمكننا إدخال فريق تابع لوكالة المخابرات المركزية. وأننا نحاول أن نُلقي هناك قدراً كبيراً من الطعام والذخيرة. ووضعُ المملكة المتحدة ليس أفضل من وضعنا».

وانتقلوا إلى الموضوع الساخن: الأنثراكس. وكان المسحوق الذي وُجد داخل الرسالة المرسلة إلى مكتب السيناتور داشل قد تَبَيَّنَ أنه فعّال، وهذا ما دعا الرسميين إلى الاقتراح أن مصدره يحتمل أن يكون اختصاصياً قادراً على إنتاج هذه البكتيريا بكميات كبيرة. وقال تينيت: «أعتقد أن المصدر هو القاعدة. أعتقد أن دولةً ترعى الإرهاب متورطة. فهذا الأمر قد أُنعم النظر فيه أكثر من اللزوم، والمسحوق مكرَّر أكثر من اللزوم. وقد يكون المصدر العراق، وقد يكون روسيا، وقد يكون عالِماً مرتداً»، لعله هو من العراق أو روسيا.

وقال سكوتر ليبي ـ وهو رئيس موظفي تشيني ـ إنه هو أيضاً يعتقد أن الهجمات بالأنثراكس من عمل دول ترعى الإرهاب. «يجب علينا أن نكون حَذِرين فيما نقوله». وإنّ من المهمّ عدم إلقاء المسؤولية على أحد. «إذا قلنا إن

هذا من عمل القاعدة، فإن دولةً ما ترعى الإرهاب ستشعر بالأمن ثم تضربنا، ظانّةً أن لديها مخرجاً لأننا سنلقي اللوم بشأنه على القاعدة».

«أنا لن أتحدث عن دولة ترعى الإرهاب»، أكّد لهم تينيت.

«إنه أمرٌ جيّد ألاّ نفعل»، قال تشيني، «لأننا لسنا مستعدّين للقيام بأي شيء تجاه هذا الأمر».

في اليوم الواقع في 18 أكتوبر/تشرين الأول، نقل تشيني إلى مجلس الأمن القومي أن جهازاً للإنذار في البيت الأبيض قد انطلق، معلناً وجودَ عوامل إشعاعية كيميائية أو بيولوجية. وكل من كان هناك قد يكون تعرّض للإشعاع. وكان تشيني يبدو قلقاً، ولكن لم يكن أحد يعرف ماذا يقول. وفي وقت لاحق تقرّر أن الإنذار كان كاذباً.

في حوالى الساعة 10,20 من مساء يوم الجمعة الواقع في 19 أكتوبر/تشرين الأول، كان فريق غاري كاسر الفكّ في أفغانستان يحدّد منطقةً لحطّ الطائرات في سهول الشمالي. وكان أولُ فريقٍ من القوات الخاصة الأمريكية من نوع فريق ـ آي ـ الفريق 555، أو «الخمسة ستات المثلّثة» ـ في طريقه أخيراً إلى هناك بعد تأخيرات متعددة ناتجة عن الطقس. ولكن الطائرتين المروحيتين من طراز م هـ 53 جـ بايف لو ـ وهي أكبر ما في سلاح الجو من المروحيات ـ أخطأتا المنطقة المستهدفة وحطّتا بعيداً إحداهما عن الأخرى. وقفز داڤيد دياز ـ وهو رئيس الترخيصات الضابط في الجيش، وقائد الفريق من نوع فريق ـ آي المؤلف من 12 شخصاً ـ وكان غير متأكد قلقاً من أن يكون الوضع سيّئاً.

أيها الرجال، كيف حالكم؟ سأل غاري. أهلاً وسهلاً في أفغانستان. وَعَرَّفَ بنفسه ـ نعم، هو من وكالة المخابرات المركزية. ضعوا حاجاتكم في الشاحنة. لدينا شاي حار وأرزّ ودجاج، وهي تنتظركم. وغرفتكم جاهزة؛ كل شيء ما عدا رقم تلفون البّواب.

ودُهش دياز ورجاله، فقد كانوا يتوقعون أن يضطروا إلى السكن في الخِيَم. وكانت «العيون على الأهداف» الأساسية التي يحتاج إليها الطيّارون الأمريكيون لضرب الصفوف الأمامية بالقنابل. وكان كل رجل مسؤولاً عن حوالى 150 كيلوغراماً من العدّة والمؤن، بما في ذلك المعدات الضرورية لتحديد الأهداف باللايزر.

وفي الوقت نفسه كان فريقان من القوات الخاصة ومن جوّالة الجيش يقومان بهجمات على مطارٍ ومجمّعٍ قرب قندهار كان مّلا عمر قد استعمله. وكانت هذه الهجمات إلى حد بعيد غزواتٍ استعراضية، وقد نُظِّمتْ لتظهر مدى قدرة أمريكا ولجمع المخابرات. وقد خلّف الجنود الأمريكيون ملصقات تُظهر صُوَرَ أطفائيي نيويورك يرفعون العَلَمَ الأمريكي على مركز التجارة العالمي وصُوَر العمّال وهم يرفعون علماً على القسم المدمَّر من الپنتاغون.

كان الرئيس بوش لا يزال في وسط رحلته لمدة خمسة أيام لحضور اجتماع القمة للمؤتمر الاقتصادي لآسيا والباسيفكي في شانجهاي، ولكنه بقي على اتصالٍ في الأُمسيات من خلال الاجتماعات المتلفزة عبر الڤيديو الأمين.

واجتمع الرؤساء لمدة تزيد على الساعة بقليل يوم السبت الواقع في 20 أكتوبر/ تشرين الأول. وأعطى رامسفيلد موجزاً عن العمليات الحربية. هناك مخطَّط لنحو 90 إلى 100 طلعة، وبعضها سيكون موجهاً لدعم قوات المعارضة. وكان قادراً على أن ينقل على الأقلّ: «لدينا قوات خاصة في الصف الأمامي، وقد بدأنا بالحصول على مادة جيدة. ولدينا فريق ثانٍ يبعد 48 كيلومتراً عن الجبهة، وفريق ثالث سيدخل مع فهيم».

«سوف أؤكد أن فريقاً أو أكثر من القوات الخاصة قد دخلت إلى أفغانستان»، قال الوزير. فقد حان الوقت للإعلان أن الحملة قد تحركت بما يتجاوز الضرب بالقنابل، وأن القوات الأمريكية هي على الأرض. وكانت هناك ضربات مخطّطة لمزار الشريف، قال رامسفيلد.

«هل نقوم بضرب الطالبان المدافعين عن كابول في سهول الشمالي؟» سأل تشيني. وكان تشيني قد ظلّ على اطلاع حسن على المخابرات التي تحتوي على تقارير من كاسر الفك، وهي تقول إن فهيم ينتظر ضربَ صفوف الطالبان الأمامية بالقنابل.

«إن ذلك على جدول الأعمال»، قال رامسفيلد. «سنعمل عليها اليوم. والمشكلة بالنسبة للفريق من نوع آي وفهيم أن الفريق ليس على الخط الأمامي، وإنما يبعد عنه مسافةً بين 48 و64 كيلومتراً».

وقال تينيت: «إن لإسماعيل خان صلات بسلاح الحرس الجمهوري الإيراني، ولكننا نريد أن ننزل فريقاً يوم الأربعاء». وكانت صلات إسماعيل خان بسلاح الحرس الجمهوري الإيراني معروفة، ولكن كان لديه مجموعة كبيرة من الأتباع في القسم الغربي من أفغانستان، وكان يرغب في المساعدة على هزيمة الطالبان والقاعدة هزيمة منكرة في مناطق بعيدة من البلاد.

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي يوم الاثنين الواقع في 22 أكتوبر/ تشرين الأول، قال تينيت وهو يطفح بالتفاؤل أنهم مستعدّون لإطلاق القَبَليّين.

«لقد كانوا مُطْلَقين طوال الوقت»، ردّ رامسفيلد بحدّة. «لقد قال فرانكس إن باستطاعتهم التحرّك». والوضع الراكد على الأرض يعود إلى امتناع الحلف الشمالي عن العمل. ولم يكن فرانكس كابحاً لهم. إن فهيم يلعب بهم ـ يجلس وينتظر قاذفاتِ القنابل الأمريكية لتقوم بعمله.

حتى في وسط أجواء الشك والتوتر عما يحدث أو لا يحدث على الأرض، كانت لا تزال هناك لحظاتٌ من المرح. فلدى نقطةٍ معيّنة، سأل الرئيسُ الجنرال فرانكس: «طومي، كيف حالك؟».

«سيدي»، أجاب فرانكس، «أنا أحسن حالاً من الشَّعْر على ظهر ضفدعة». وفي وقت لاحق من الاجتماع، قال آرميتاج ـ وكان يتكلم باسم

وزارة الخارجية: «سيدي الرئيس، إن ديبلوماسييك ليسوا أحسن حالاً من شعر الصفدعة، ولكنهم أخبث من الصَّدَأ وأقسى من شفتي نَقّار الخشب».

ولكن الجوّ كان بشكل عام جوّ مراعاةٍ للسلطة، خاصةً من جانب فرانكس تجاه رامسفيلد. وفي اجتماع آخر، قال رامسفيلد شيئاً، وسأل الرئيس فرانكس: «طومي، ما رأيك؟».

«سيدي، ما أراه هو ما يراه الوزير تماماً، أو ما رآه الوزير في أيّما وقت مضى، أو ما سيراه الوزير في أيّما وقتٍ آتٍ، أو ما ظَنّ أنه قد يراه».

لكن رغم المراعاة، كان فرانكس وموظفوه يجدون الوسائل للالتفاف حول سيطرةِ رامسفيلد المتصلّبة واستعمالِهِ شبكةَ «الشباب» غير الرسمية المؤلفة من ضباط عسكريين قدامى وحاليين، من أجل إبقاء پاول وآرميتاج مُطَوَّقَيْنَ مُبْعَدَيْن عن الخطط التي قد تؤثر في وزارة الخارجية. وقد سمّى آرميتاج تلك الطريقة «تحت البطانية». وكان يحبّ أن يتلقى آخر المخابرات أو القيل والقال، فينقلها فوراً إلى پاول، ويقول لمُخْبِرِيهِ: «أطعموا الوَحْش».

من أراضيكم، كانت المسألة تصبح صعبة. وكان هناك أيضاً قضية الافتقار إلى أهداف جيدة، وقضية رئيسٍ مُصرٍّ على أن الضرب بالقنابل يجب ألاّ يكون لأجل المظاهر وحسب، وذلك يعني مواجهة مأزق كيفما تقلبت الأمور. ولم يكن الپنتاغون بقادر على أن يقول كيف سيكون شكل الساعات الـ 24 أو الـ 48 الأولى قبل أن يحصلوا رصف لحقوق إقامة القواعد. ولم يكن الوضع يبدو كئيباً، فكّرت رايس؛ إنه كان كئيباً.

18

يوم الثلاثاء الواقع في 23 أكتوبر/تشرين الأول اجتمع الرئيس بوش مع أعضاء مجلسه للأمن القومي في غرفة المواضع. وكان ذلك اليوم هو اليوم الرابع عشر منذ ابتداء الضرب بالقنابل.

وقال هانك إن الفريق الأول من نوع آي من القوات الخاصة يبعد الآن 500 متر عن الخط الأمامي للطالبان. ولكن لم يكن أي شيء يتحرك. وكان فهيم الزئبقي خارج أفغانستان، يقوم بزيارةٍ إلى طاجيكستان في الشمال، ولكنه كان يريد أن يقوم فريق القوات الخاصة بتوجيه ضربات جوية مكثفة ضد الصفوف الأمامية للطالبان.

«إن عدم وجود هجوم جوي على الطالبان يشجع الطالبان»، شرح هانك بلهجته الجنوبية، «ويُضعف معنويات قوات الحلف الشمالي. ولن يحدث شيء حتى يرجع فهيم».

وكانت الأسلحة والذخائر في طريقها إلى قوات فهيم المؤلفة من عدة آلاف، قال هانك. ووكالة المخابرات المركزية مستمرة في توزيع الملايين من الدولارات نقداً. وعلى العكس من ذلك، قال هانك، فإن روستم ـ الذي يبلغ عدد قواته ثلث عدد قوات فهيم ـ يقود هجوماً بالخيّالة على مزار الشريف، وهي مدينة شمالية يبلغ عدد سكانها 200,000 نسمة.

خيّالة في القرن الحادي والعشرين؟ وكان بوش والآخرون مندهشين.

سألت رايس: «كيف تقيّم تَقَدُّمَنا باتجاه أهدافنا».

«حسناً»، قال هانك، وأضاف ـ مشيراً بشكل كئيب نوعاً ما إلى آخر الخرائط الملوّنة بحسب النظام الشفري والمسمّاة «دليلٌ إلى التحكُّم الأرضي في أفغانستان» والمصنّفة «سرّي جداً» ـ: «إننا نتلقى اللون الأصفر في كل مكان، ويجب أن يكون اللون أخضر في الشمال إلاّ أنه ليس كذلك».

و«اللون الأصفر في كل مكان» يعني أنه لم يُحْرَز أي كسبٍ في الأراضي.

«يجب أن نرى قَدْراً من الفعالية»، قالت رايس، «فهذا يخفّض 50 بالمئة في الرُّتْبَة من خلال الضرب بالقنابل والارتدادات». وبالتعبير العسكري، يعني التخفيضُ في الرتبة بمقدار 50 بالمئة أو أكثر أنَّ قوّة ما أو وحدةً ما تُعْتَبَرُ غير فعّالة. فاللون الأصفر يخفي الإخفاق في التخفيض في الرتبة. وإمّا أن يكون الحلف الشمالي مسيطراً على أرض أو لا يكون. «إننا لا نرى ذلك ـ إننا لا نرى ما نعمله هناك»، قالت رايس.

وكانت وزارة الحرب قد أجرتْ مناقشات مكثفة عن الثقافة الأفغانية، وكانت النكتة المميتة المتداولة هي: «أنك لا تستطيع أن تشتري أفغانياً ولكن يمكنك أن تستأجره». إنه عَالَمٌ ليس فيه وَلاءات دائمةٌ ولا حتى شبه دائمة. والقادة فيه يلاحقون المال والنصر، وتجتذبهم الجهةُ المنتصرة، ويمكن أن يتبدّلوا في لمحة بَصَر. وفي الوقت الحالي، هناك الكثير من المال ولكن ليس هناك دلالةٌ على النصر يمكن قياسُها. فالمال والإحساسُ بحتمية النصر ضروريٌّ أن يعزّز أحدُهما الآخر من أجل التوصل إلى الفعالية.

وقد اعتبر پاول الأسابيعَ التي تَلَتْ بداية حملة الضرب بالقنابل في أفغانستان فترةً مظلمة ومشوّشة. وكان غيرَ واضحٍ أكثر من المعتاد ما هو حقيقي، خاصةً على الأرض في أفغانستان ـ عمليةٌ تكمن فيها كارثة من نوع

«اصرفْ المالَ واحمله». ولكن بما أن پاول كان رجلاً عسكرياً فيما مضى، فإنه وجد أن من الأفضل أن يحاول «البقاء في طريق سَيْره»، بحسب تعبيره، وأن يهتمّ بدوره ككبير الديبلوماسيين، وأن يمتنع عن المنافسة في التخمينات العسكرية.

ولكن پاول لم يتمكن من المقاومة. ما هو الهدف، إضافةً إلى الضرب بالقنابل وحده؟ تساءل پاول. وكان يرتاب ـ شأنَ رجال الجيش ـ بالقوة الجوية، ويؤمن بمبدأ تكثيف القوة على هدف واحد.

«هل نكثّف في مكان واحد؟» سأل پاول، منحرفاً عن طريقه. «هل نركّز على مزار الشريف؟» يستولون عليه، وبعد ذلك يمكنهم أن يقوموا بأشياء أخرى.

«ليس على مزار الشريف»، أجاب هانك، «بل ركّزوا على سهول الشمالي». وكانت هذه منطقة تقع في شمال كابول العاصمة، وكان فيها أكبر حشد لقوات الحلف الشمالي التابعة لفهيم وأكثرها تنظيماً فيما يبدو.

«أنظروا»، اعترض الجنرال مايرز، «يمكننا أن نقوم بالأمرين».

قال الرئيس: «يجب علينا أن نقبض على أسامة بن لادن وقيادته».

وأراد تشيني أن يعالج الموضوع الجوهري: «هل ننتظر الحلف الشمالي، أم أن علينا أن نتورط بأنفسنا، وهذه مسألة مختلفة تماماً؟» وكان تشيني يعلم أن رامسفيلد يحضّر سرّاً مخططاتٍ محتملة لوضعِ نحوِ من 50,000 إلى 55,000 جندي على الأرض ـ إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للنصر. وكانت الأَمْرَكةُ الصريحة للعملية العسكرية الأرضية أكثر القضايا حساسيةً. وكانت الرهانات على الحرب من الأهمية بحيث كان عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار كل الخيارات المتوفّرة.

وفي اجتماع الرؤساء في وقت لاحق من ذلك اليوم، ناقش الحاضرون

مدى خيبة أملهم جميعاً بفهيم الذي كان قد وعد بالتحرك ثم عجز عن التقدم. ونقل هانك أن قوات الطالبان المواجهة لخطوط قوات فهيم قد ازدادت زيادة مذهلة بمقدار 50 بالمئة. وقد أظهرتْ المخابراتُ الآتية من الأقمار الصناعية وغيرها منذ أسابيع فقط أن قوات الطالبان على الجبهة تبلغ ما بين 6,000 و10,000 مقاتل. والعَدَدُ الآن ما بين 10,000 و16,000 مقاتل.

وكان تشيني وپاول وغيرهما يعلمون أنهم خلال حرب الخليج سنة 1991 أرادوا أن يخفّضوا في رتبة القوات الأرضية العراقية بمقدار 50 بالمئة عن طريق الضرب بالقنابل قبل إطلاق الحملة الأرضية. فبدلاً من أن يكون الطالبان قد انخفضوا في الرتبة بمقدار 50 بالمئة، ها هم قد ارتفعوا في الرتبة بمقدار 50 بالمئة! ماذا كان يجري؟

وأَدركتْ رايس أنه سيكون عليها أن تعالج هذه القضية. وفي الحالات الاعتيادية، كانت تعتبر أن وظيفتها مؤلفة من شِقّين. الأول: تنسيقُ عمل وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وغيرها من الوزارات والوكالات لأجل التأكد من أن أوامر الرئيس تُنَفَّذ. والثاني: أن تعمل كمستشارة ـ أن تعطي الرئيسَ تقييمها الشخصي للأمور، إذا طلب الرئيس ذلك منها بالتأكيد، وربما إذا لم يطلبه. بكلمات أخرى، كان عليها أن تكون حلاّلة العُقَد للرئيس. وكان الوضع الذي يواجهونه الآن عُقْدة.

بعد ذلك بيومين، مساء يوم الخميس الواقع في 25 أكتوبر/ تشرين الأول، اتصلت رايس هاتفياً بسكرتيرة الرئيس الشخصية آشلي إستس.

«يجب أن أتكلم مع الرئيس»، قالت رايس. هل يمكن لآشلي أن تسأل الرئيس إذا كان يوافق على حضورها إلى منزله لبضع دقائق؟ وكانت حرّيّة الدخول إلى منزل الرئيس تشكّل امتيازاً خاصّاً وكان بوش لا يمنحه إلاّ لكبار موظفي البيت الأبيض. وكان ذلك الوقت نهاية يوم عملٍ عادي للرئيس، في الساعة السادسة والنصف مساءً.

وكان الرئيس قد تعمّد أن ينظّم البيت الأبيض خلال رئاسته بشكلٍ يمكّن رايس وغيرها أن يأتوا لمواجهته عَفْوَ اللحظة، قال بوش في مقابلةٍ. «يجب ألاّ تمرّ السلطةُ كلها من خلال شخصٍ واحد إلى المكتب البيضوي». وكان قد تعلّم ذلك من خلال مراقبته لرئاسة والده، خاصة في السنوات الثلاث الأولى، عندما كان جون سنونو، رئيس أركان موظفي البيت الأبيض أيام بوش الأب، يتحكّم في حرِّيّة الدخول إلى منزل الرئيس بقبضة حديدية شديدة إلى درجة أن حاملي الأخبار السيّئة كانوا في أحيان كثيرة لا يتمكنون من الدخول. «أعتقد أن الرئيس يجب أن يعطي الناس حرِّيّة الدخول»، قال بوش أيضاً، «أعتقد أن القدرة على التحدث مع الرئيس على انفراد جزء من الرضى الذي يشعر به موظف في البيت الأبيض».

وكان لي آتواتر، المخطِّط السياسي لوالد بوش، قد قال لبوش: «إن حرِّيّة الدخول سلطة». وقال بوش إنه تعلّم ذلك مباشرة سنة 1988، عندما كان والده ـ نائب الرئيس آنذاك ـ مرشحاً للرئاسة. «يمكنني أن أتذكّر أنني كنت أذهب إلى منزل نائب الرئيس، فيما كانوا يستعدّون لاستقبال فريق الحملة الانتخابية. وكنت أتواجد في ذلك المنزل ـ أنت تعلم ـ قبل قدوم أفراد الفريق بعشرين دقيقة لكي يروني مع بابا. ولم يكن عندهم أي فكرة. وكنا على الأرجح نتحدث عن مباراة لرفع عَلَم البطولة الرياضية، أو ـ أنت تعلم ـ عن أخٍ أو أختٍ. ولم يكونوا يعرفون ذلك. كانوا يعرفون أن لديّ حرِّيّة الدخول عليه، إنني وهو فقط متواجدان على انفراد. كان ذلك درساً ممتعاً. وقد وجدتُ مكانتي تكبر كلما ازدادت حرِّيّتي في الدخول».

وكان بإمكان تشيني ورايس وكارد وهيوز وفلايشر أن يتوقّفوا ـ وهم في طريقهم إلى مكان آخر ـ ويسألوا آشلي إذا ما كان لدى الرئيس خمس دقائق أو أي شيء قد يحتاجون إليه. وقال الرئيس إن الأمور تعمل أيضاً بشكل معاكس. «إن قدرتي على حرية الوصول إلى عدد كبير من الناس تجعل مهمتي أيسر

بكثير»، وذلك من أجل الحصول على الانطباعات وردود الفعل. «وكان كثيراً ما يحدث على وجه الاحتمال أن تدخل كوندي أو ديك تشيني فأقول: «بِمَ تفكّران الآن؟»».

وكانت رايس بالذات كثيراً ما تلحّ عليه. «إنها شخص مجتهد جداً، وهي تُعْنَى بمصلحتي»، قال الرئيس.

وكان أسلوب القيادة الذي انتهجه بوش يشرف على أن يكون متعجّلاً. إنه يريد العمل والحلول. وما أن يسلك مسلكاً ما، فإنه يوجه طاقته للاستمرار فيه، وقلما ينظر إلى الوراء، ويسخر - بل يهزأ - من الشك ومن أي شيء يحوز على أقل من 100 بالمئة من الالتزام. وكان يبدو أن القليل من الندم يكمن فيه - إن كان يكمن فيه أي ندم. وكان من الممكن أن تبدو تصريحاته القصيرة متهوّرة.

«أنا أعلم أنه من الصعب عليك أن تصدّق، ولكني لم أشكّ فيما نقوم به»، قال بوش في مقابلةٍ لاحقة. «إنني لم أشكّ. . . ليس هناك في ذهني شكّ أننا نقوم بعمل صائب. لم يكن لدي شك واحد».

وكانت رايس تعرف هذه الخصوصية. ومع ذلك فإنها فكرتْ أن الشك خادمٌ للسياسة السليمة. وإعادة النظر الدقيقة هي جزء ضروري من أي عملية من عمليات اتخاذ القرار. وكانت رايس ترى أن مهمتها تقضي برفع رايات التحذير - بل حتى الأضواء الحمراء إذا اقتضت الضرورة ذلك - لتحثّ الرئيس على إعادة النظر.

وكان أفضل القرارات يحتّم في بعض الأحيان بنقض القرار السابق. والأحداث الآن هي نفسها رايات تحذير. والوضع الراكد في أفغانستان قد يشير إلى خللٍ كبير. وعلاوةً على ذلك، كانت وسائل الإعلام تثير تساؤلات عن التقدم والاستراتيجية والجدول الزمني والتوقعات. وكانت مجلة نيوزويك قد استعملت كلمة الـ «م» المخوفة - مستنقع - مستحضرةً صورة ڤيتنام. وقبل ذلك بعدة أيام، كانت جريدة الواشنطن بوست قد نشرت مقالة في صفحة الرأي

عنوانها «خطة العمل الخاطئة»، صاحبها هو روبرت أ. بايب، وهو خبير في شؤون القوة الجوية في جامعة شيكاغو. وجاء في مطلعها: «إن الاستراتيجية الجوية الأمريكية الأولى ضد أفغانستان غير ناجحة».

«ماذا حدث؟» سأل بوش رايس عندما وصلتْ إلى غرفة المعاهدة. وكان بوش قد انتهى من القيام بروتينه الرياضي اليومي وما يزال يرتدي ثياب التريّض. ولم يكن ينصبُّ عَرَقاً، ولكنه كان قد ابترد ـ فلعلّ الوقت كان الوقت الصحيح لإجراء حوار معه ـ إن كان هناك وقت صحيح قطّ.

إن الجنوب من أفغانستان جافّ، والشمال لا يتحرك، قالت رايس. «وقد ضربنا بالقنابل كل ما يمكننا التفكير بضربه، ومع ذلك فإن لا شيء يحدث».

وجلس بوش.

«أنت تعلم، سيدي الرئيس»، قالت رايس، «إن مزاج الرؤساء ليس حسناً جداً، والناس قلقون مما يجري». وقالت إن هناك قَدْراً من لَوْي الأيدي.

وانتفض الرئيس إلى الأمام. لَوْي الأيدي؟ إنه يكره، يكره بكل معنى الكلمة هذه الفكرة بذاتها، خاصة في الأوقات العصيبة. وكانت وصلته بعض التقارير من هيوز وروف عن القصص التي أوردتها وسائل الإعلام، وليس ليس أكثر من ذلك بكثير.

«أريد أن أعرف ما إذا كنتَ قلقاً بشأن مسألة عدم تحرك الأمور»، سألت رايس.

«طبعاً أنا قلقٌ بشأن مسألة عدم تحرك الأمور!».

«هل تريد أن تشرع في التفكير باستراتيجيات بديلة؟».

«بأية استراتيجيات بديلة سوف نفكر؟» سأل بوش، وكأنّ احتمال ذلك لم يكن قد خطر بباله.

«هناك دائماً الفكرة أنه يمكنك استخدام أمريكيين أكثر في هذا الأمر. إنه

بإمكانك أَمْرَكَةُ هذا الأمر صراحةً». وقد يعني ذلك قواتٍ أرضية كثيرة ـ عدة فِرَق من الجيش أو من المارينز. وكانت الفرقة تتألف عادة من نحو 15,000 عسكري إلى 20,000 عسكري.

وكان بوش يعي أنه في هذه الغُرَف نفسها، ومنذ نحو 35 إلى 40 سنة، واجَهَ الرئيسان كينيدي وجونسون قراراتٍ مماثلة. لقد كانت ڤيتنام سابقةً.

«لم يمضِ عليه وقت طويل إلى هذا الحد»، قال الرئيس، مشيراً إلى الوقت الذي بدأ فيه العمل العسكري.

«هذا صحيح».

«هل تظنين أنه ناجح؟».

ولم تُجِبْ رايس حقاً.

«لدينا خطة جيدة»، قال الرئيس. «هل أنت واثقة منها؟».

نعم بشكلٍ ما ـ ربما، أجابت رايس. وكان يعلم، وهي أيضاً كانت تعلم، أن اللون الأصفر وليس أخضر.

وبحث الأمور جيئةً وذهاباً. وتعمّدت رايس المراوغة، ولم تتخذ موقفاً حازماً، إذ كانت قلقةً من أن ذلك قد يحدّ المناقشات الإضافية ويسدّ باب الخيارات. بالإضافة إلى ذلك، كانت رايس غير متأكدة. وكانت تشعر بأقصى الارتياح عندما كانت تعرف بدقةٍ بما يفكّر الرئيس، ولذلك فإنها كانت تسبره. ولكن الرئيس كان ماضياً في طريقه المختار ولم يكن قد فكّر في تغيير الاستراتيجيات.

وقالت رايس للرئيس إن الأمر المهمّ حقاً هو أن يقوم بجسّ نبض الرؤساء في اليوم التالي، وإذا كان ملتزماً بالاستراتيجية فعليه أن يُعلم الناس بذلك لأنه لا يريدهم أن يبدأوا بالتراجع.

أن يبدأوا بالتراجع؟ مَن هم الخائفون؟ مَن هم القلقون؟ أراد الرئيس أن يتلقى أسماءً.

الجميع قلقون، قالت رايس، مؤتمنةً الرئيس على سرّ. وليس هناك أحد شديد التفاؤل أو رخيّ البال. ولدى كلٍّ منهم هموم عمّا يحرزونه وما قد يتمكنون من إحرازه. وكان لدى الرئيس بعض هذه الهموم؛ وكانت رايس قد سمعت قدراً أكبر منها. إنه سيكون ملزماً باتخاذ بعض القرارات العسيرة في وقت قريب إلى حد ما ـ قرارات عما إذا كانوا سيبقون في طريقهم أو سيحاولون القيام بتعديلات.

وذكرت رايس أن مجلس الأمن القومي سيجتمع صباح اليوم التالي، وذلك هو الوقت المناسب لتأكيد الخطة أو النظر في تغييرها. والشتاء آتٍ إلى أفغانستان، وستكون الأوضاع قاسية، وستتزايد صعوبةُ إحرازِ المكاسب العسكرية على الأرض.

«أظن أنه يُستحسن أن تعبّر عن ثقتك بهذه الخطة، أو ـ إذا كنتَ لا تشعر بذلك ـ علينا أن نقوم بشيء آخر». هل هم بحاجةٍ إلى استراتيجية بديلة؟ إن الأمر المهم، قالت رايس، أن يقوم الرئيس بالتفكير في هذه المسألة قبل اجتماع مجلس الأمن القومي صباح اليوم التالي. وبعد ذلك يمكنه أن يعطي وجهة نظره في الاجتماع. وقالت رايس في نهاية اجتماعها مع بوش الذي استغرق من 15 دقيقة إلى 20 دقيقة: «يجب عليك أن تتحدث عن هذا الأمر».

«سأهتمّ به»، قال الرئيس.

بالنسبة إلى بوش، كان نقاشه مع رايس جديراً بأن يُذْكَر. لقد كانت وظيفة رايس أن تخبره عن الأمور. وكان هو في بعض الأحيان يحب أن يسمع هذه الأخبار، وفي أحيان أخرى لا يحب أن يسمعها. ورأى بوش أنه من الممتع أن النقاش جرى في غرفة المعاهدة، فكملتْ بذلك الدائرة، إذ إنه قام

في هذه الغرفة، قبل 18 يوماً، بإعلان بداية العمل العسكري. ولكنه كان يعرف ما يريد فعله في صباح اليوم التالي.

«أولاً»، تذكر بوش فيما بعد، «على الرئيس أن يكون الكالسيوم في العمود الفقري. فإنني إذا ضعفتُ، فإن الفريق بكامله سوف يضعف. وإذا كنت شاكّاً، فإنني أؤكد لك أن سيكون هناك الكثير من الشك. وإذا انخفض مستوى ثقتي في قدرتنا، فإن ذلك سيرسل تموّجاتٍ في أثناء المنظمة كلها. أعني أنه من الضروري أن نكون واثقين مصمّمين موحَّدين».

وكان الرئيس يريد الشيء نفسه من كل شخص في فريقه. «إنني لا أحتاج أُناساً غير وطيدي العزم حولي. . . وإذا اتخذ الناس موقفاً من لَوْيِ الأيدي - بشكل ما - عندما تكون الظروف عصيبةً. فإنني لا أحب ذلك».

وعَزَى بوش القلقَ إلى غرفة الصَّدَى في وسائل الإعلام. وكان يعيرها اهتماماً جانبياً وحسب. «إنني لا أقرأ صفحات الرأي. أنا لا - التَّهْوية المفرطة التي تميل إلى الحدوث على محطات الكابل التلفزيونية، وكُلُّ خبيرٍ وكل كولونيل سابق، كل ذلك هو ضَجَّة خَلْفية». لكن بوش كان يعلم أن أعضاء وزارته للحرب كانوا يعيرون ما تقوله وسائل الإعلام اهتماماً. «إن لدينا هؤلاء الناس الأوفياء جداً في مجلس الأمن القومي، وهم يتأثرون بما يقوله الناس عنهم في الصحافة».

«إذا كان هناك إحساسٌ باليأس»، قال بوش، «فإنني أريد أن أعرف مَن يشعر باليأس ولماذا يشعر باليأس. إنني أثق بالفريق، وهو فريق. وإنني أثق بهم لأنني أثق بآرائهم، وإذا كان الناس بصدد إعادة النظر في آرائهم، فإنني بحاجة إلى أن أعرف هذه الآراء، وعليهم أن يضعوها على الطاولة».

ولم يكن أي عضو في وزارة الحرب قد جاء إلى الرئيس بشكل سرّيّ للتعبير عن أي قلق. وقبل اجتماع مجلس الأمن القومي صباح اليوم التالي، تحدث بوش مع نائب الرئيس تشيني عما جاءت به رايس إليه.

«ديك»، سأل الرئيس، «هل هناك أي ارتياب في نفسك في تلك الاستراتيجية التي طوّرناها؟ لقد قضينا وقتاً طويلاً في إعدادها».

«كلا، سيدي الرئيس»، أجاب تشيني.

* * *

في صباح اليوم التالي، يوم الجمعة الواقع في 26 أكتوبر/تشرين الأول، وصل بوش إلى غرفة المواضع في البيت الأبيض لحضور اجتماع مجلس الأمن القومي. ولم يكن أحد من الرؤساء، بمن فيهم آندي كارد، يعرف ما أثارته رايس معه في مساء اليوم السابق. وقرّر بوش أن يدع الاجتماع يسير باطّراد، فَتُقَدَّم فيه العروض الروتينية. ولكنه نقل أنه تكلم لتوّه هاتفياً مع ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبد الله.

«لقد قال ولي العهد إنه يجب علينا ألاّ نضرب خلال رمضان». وسيبدأ الشهر المقدَّس لدى المسلمين بعد بضعة أسابيع. «وسوف أكتب رسالة إليه أقول فيها إننا سنستمرّ في الضرب لأن القاعدة تستمرّ في تهديد الولايات المتحدة، وهم سيستمرون في القتال سواءً أضربناهم بالقنابل أو لم نضربهم». وأضاف، ملمّحاً إلى مزاجه، «وذلك في نهاية المطاف ما هو حاسم».

«هناك قلقٌ بشأن الروس»، قال تينيت. «إن الروس يزوّدون الحلف الشمالي بالأسلحة. هذا جيد. ولكننا نريد أن نتأكد أن الروس لا يحرّكون العداوة بين الطاجيكيين والأوزبكيين. إن روسيا ما تزال تريد أن يكون لديها نفوذ ـ إن لم نقل سيطرة ـ على الجمهوريات الانفصالية. ويجري هناك الكثير من التمركز، وعلى الولايات المتحدة أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار. «والروس أكثر تركيزاً منّا على نهاية اللعبة».

ونقل تينيت أن لديهم فريقاً شبه عسكري من نوع ألفا تابع لوكالة المخابرات المركزية في أفغانستان وهو يعمل مع روستم، القائد في الحلف

الشمالي؛ وهم في صدد إنزال فريق يعمل مع عطا محمد، وهو قائد آخر في الحلف الشمالي. وروستم وعطا كلاهما في جنوب مدينة مزار الشريف. وسينعقد اجتماع مع القادة في الشمال من دون موافقة فهيم خان. «وفهيم لا يزال لا يتحرك، ولذلك فإن وكالة المخابرات المركزية سوف تنطلق من دونه. وقال تينيت أيضاً أنه يرجو أن يُنزِل فريقاً مع كرزي، القائد في جنوب أفغانستان». أعتقد أن الجزء الجنوبي قد بدأ بالنموّ.

«هناك مقدار من الطعام يزيد على الحاجة في المنطقة»، قال پاول. المشكلة أن الطعام يوزّعه الأفغانيون جنسيةً. «وهذا غير ناجح».

قالت رايس: «علينا أن نقوم بعقد اجتماع لتصوير معوناتنا الإنسانية بشكل مسرحي».

ونقل رامسفيلد إنهم قاموا بستّين طلعة فقط أمس الأول لأن الطقس كان سيّئاً. والطقس أفضل اليوم. «وضربنا أمس مناطق في سهول الشمالي ومزار الشريف» ـ المكانين اللذين كان الجنرال مايرز قد قال إنهما قد يكونان موضعَيْ تركيزهم. وقد ضُربتْ بعض الثكنات في هراة، المدينة الشرقية. وهم يخططون لتركيز الضرب بالقنابل على الخطوط الأمامية دعماً للقبائل، وليس على الأهداف الثابتة مثل طائرات الطالبان. ونصف الخطوط الأمامية في سهول الشمالي ونصفها في هراة ومزار الشريف.

وقال رامسفيلد: «لقد أنزلنا فريقاً ثالثاً، وبالإضافة إلى ذلك لدينا بعض الاتصالات مع جماعة فهيم».

«لدينا 5 فرقٍ في أوزبكستان، وهم ينتظرون لأجل الدخول إلى أفغانستان»، أضاف رامسفيلد بشيء من الإحباط. وكان هناك فريقان في فورت كامبل في الولايات المتحدة.

والآن حان الوقت لكي يعالج الرئيس نصيحةَ رايس.

«أريد فقط أن أتأكد من أننا جميعاً قد اتّفقنا على هذه الخطة؛ أليس كذلك؟» قال بوش. ونظر حول الطاولة وجهاً لوجه.

ويظهر على بوش سيماء الإلحاح ـ على طريقة مدرّب فريق البيسبول أو الأخ في الأخوية ـ في مثل هذه اللحظات. إنه يُحني رأسه إلى الأمام ثم لا يحرّكه، وينظر إلى عيني الشخص الذي أمامه ويُبقي نظره مركّزاً عليهما، وكأنه عملياً يقول: أنتَ تعمل مع الفريق، أنت معي؛ أليس كذلك؟

وكان بوش يسأل: أَلَسْنا على حق؟ هل ما زلنا واثقين؟ وكان يريد تأكيداً دقيقاً من كل شخص ـ تشيني وپاول ورامسفيلد وتينيت ورايس ـ وحتى من أصحاب الصفوف الخلفية ـ هادلي وسكوتر وليبي. وكان يطلب منهم تقريباً أن يؤدوا قَسَماً.

وأكّد كلٌ منهم ولاءه للخطة والاستراتيجية.

«هل لدى أيٍّ منكم أفكار يريد أن يضعها على الطاولة؟».

وجاءت إجاباتٌ «كلاّ» من جميع مَن حول الطاولة.

وكانت رايس تعتقد أن الرئيس يُجيز المناقشة، ويصغي: ولكن إذا أراد أحدهم أن يناقش، فإنه يجب أن يكون لديه حجة جيدة، بل حَلٌ، على وجه التفضيل، أو على الأقلّ إصلاح مقترح. وكان من الواضح أنه لم يكن لدى أي واحد ممن كانوا حول الطاولة فكرةٌ أفضل.

والحقيقة أن الرئيس في الواقع لم يفتح الباب فتحةً ضيقة لأجل أن يقوم أحد بإثارة الهموم، أو ليعالج أية إعادة للنظر. ولم يكن يصغي في الواقع. كان يريد أن يتكلم. وكان يعلم أنه يتكلم زيادة عن اللزوم في بعض الأحيان، لينفّس عن نفسه فقط. وكان يعلم أن تلك عادة غير جيدة.

«هل تعرفون؟ يجب أن نكون صبورين»، قال بوش. «إن لدينا خطة جيدة».

واستمرّ بوش قائلاً: «أنظروا، إننا مُقْدمون على دخول مرحلة صعبة. وستسعى الصحافةُ للعثور على انقسامات بيننا. وسيحاولون فرضَ استراتيجية علينا لا تتماشى مع النصر». وفي سرّيّة الغرفة، عبّر الرئيس عن استنتاج من استنتاجاته: إن وسائل الإعلام ـ أو على الأقل بعض عناصرها ـ لا تريد النصر، أو أنها على الأقل تتصرف وكأنها لا تريد النصر.

«لم ينقضِ على هذا الأمر سوى 19 يوماً. لا تسمحوا للصحافة بإرعابنا. إن الصحافة ستقول إنهم بحاجة إلى استراتيجية جديدة، وأن الاستراتيجية الحالية استراتيجية مخفقة. وهو يعارض ذلك. «قاوِموا التباري في التخمين. كونوا واثقين ولكن كونوا صابرين أيضاً. وسنستمر في ذلك العمل خلال رمضان. يجب علينا أن نكون رابطي الجأش موطدي العزم. وسينجح كل شيء».

وفَكَّرَ هادلي أن التوتر تلاشى فجأةً من الغرفة. لقد قال الرئيس إنه واثق، وعليهم أن يكونوا واثقين. واعتقد هادلي أن بعضهم ـ في أعماقهم ـ لا بدّ تساءلوا ما إذا كان الرئيس قد بدأ يفقد الثقة بهم. ذلك أن الثقة الرئاسية ما أن تُمْنَح حتى تصبح ضرورية ضرورةً حيوية لهم جميعاً في عملهم. وأي تلميحٍ إلى ما هو أقلّ من الثقة الكاملة يكون مُهْلكاً. إنهم يخدمون بحسب مشيئته. ويمكن أن يرحلوا أو يُحَجِّموا في لحظة. إن بوش لم يعلن الثقة باستراتيجيتهم وحسب. ولكنه ـ وهذا أهمّ في رأي هادلي ـ أعلن الثقة بهم.

وأراد تينيت أن يقف ويهتف. ورجع إلى لانغلي وأخبر قيادته العليا بما قاله الرئيس. وكان ما يعنيه قول الرئيس بسيطاً: استمروا بالعمل.

واعتقدتْ رايس أن تلك اللحظة كانت من أهمّ اللحظات فلو أَتَاحَ الرئيسُ الفرصةَ للبدائل، لكانت وزارة الحرب قد فَقَدَتْ التركيز على محاولة إنجاح الاستراتيجية الحالية، ولاندفعت كالسهم من أجل التفكير في البدائل. وكانت

رايس ترجو أن تؤدي إعادة الالتزام من جانب الجميع إلى مضاعفة جهودهم في تنفيذ الخطة التي قد باركها بوش لتوّه بشكل كامل.

ونقل رامسفيلد لبعض كبار مساعديه أن الرئيس كان قوياً بشكل خاص ذلك اليوم، ولكنه لم يزودهم بالتفاصيل.

واعتبر پاول الوضع في أفغانستان مقلقاً، ولكنه لم يعتقد أنهم في مستنقعٍ بَعْدُ.

ومساء ذلك اليوم قام مذيع الأخبار في شبكة آي بي سي التلفزيونية، بيتر جيننجر، بإجراء مقابلةٍ مع الرئيس مشرّف ـ صديقهم ـ وسأله جيننجز عفواً ما إذا كانت الولايات المتحدة تواجه مستنقعاً.

«نعم»، صرّح الرئيس الباكستاني، «قد يكون مستنقعاً».

19

كان فريق كاسر الفكّ يقترب من الذكرى الشهرية الأولى لمكوثهم في سهول الشمالي. وكان قد انقضى أسبوع على التحاقِ الفريق من نوع آي ـ 555 التابع للقوات الخاصة بهم، مع ما لهذا الفريق من أدوات التعيين باللايزر. وقد حقق هذا الفريق من نوع آي بعضَ النجاح أول الأمر عن طريق استدعاء سلاسل من الضرب بالقنابل، إلاّ أن غاري كان يستطيع أن يرى أن ما يتلقونه هو مجرد بقايا ـ قاذفات قنابل أمريكية مكلفة بضرب أهداف ثابتة أخرى؛ فإذا لم تجد هذه القاذفات هدفها، أو إذا لم تستنفد ـ لسببٍ ما ـ ذخائرها، فإنها تصبح متوفّرةً لتأتي إلى الخطوط الأمامية وتهاجم مقاتلي الطالبان هناك. إذن كان هناك ازدياد في الضرب بالقنابل. ولكن غاري كان قد شاهد مناسباتٍ كثيرة زيادة عن اللزوم اكتشف خلالها الفريقُ من نوع آي قوافلَ من الشاحنات التابعة للطالبان أو للقاعدة ـ ومرةً كان هناك 20 شاحنة ـ فاتصل الفريقُ مرةً بعد المرة للحصول على قاذفة للقنابل ولكنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها. لقد كانت الطائرات ما تزال مركّزةً على أهداف ثابتة معيّنة من قبل.

وكانت أرض المعركة في سهول الشمالي مسطحة بشكل غير عادي. وكانت مسافةٌ قدرها نحو 56 كيلومتراً تفصل ما بين قوات الحلف الشمالي البالغ عددها نحو 3,000 مقاتل وقوات المتطوّعين من الطالبان والعرب والباكستانيين

البالغ عددها نحو 7,000 مقاتل. وقد رسم هؤلاء خطوطَ المعركة في الخنادق والغرف المحصّنة تحت الأرض والتحصينات وغيرها من المواضع العسكرية المعدنية التي تحميها بعض حقول الألغام. وكانت الغيوم الحاملة للأمطار تعبر الجبالَ التي تقع على طرف السهول، وكانت تلك الغيوم نذيراً بالشتاء وبالثلج الآتي.

وجلس غاري إلى أحد الكومبيوترات العشرة التي كان يملكها فريقه في مساكنهم المغبّرة، وكتب برقية إلى المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية. إذا لم نغير النمط، سنخسر هذا الأمر، كتب غاري. إن الطالبان لم يُضْرَبُوا بالقنابل بشدة قطّ؛ ولم يتأثروا كثيراً؛ ويعتقدون أن بإمكانهم النجاة بعد هذا الأمر. الحلف الشمالي مستعدّ؛ إنهم يريدون الانطلاق، وهم مستعدون بقدر ما سيكونون مستعدين، إلاّ أنهم بدأوا يفقدون الثقة؛ إنهم يعتقدون أن ما يرونه الآن هو كل ما نقدر على القيام به. إذا ضربنا هؤلاء الطالبان ضرباً متواصلاً بالقنابل على مدى ثلاثة أو أربعة أيام، فإن الطالبان الشباب سوف ينكسرون. وهؤلاء معظمهم من المجنّدين، وقد التحقوا بالطلبان لأن هذا ما كان الناس يفعلونه، وهم يعتقدون أنهم مع الجهة المنتصرة. اضربوا عَرَبَ القاعدة هنا أيضاً، فيرى ذلك الطالبان ـ وهم أكثر شباباً ـ فتنشقّ صفوفهم. وكل ما نحن بحاجة إليه هو ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر. وعند ذلك تنهار الصفوف الأمامية.

إن معظم الطالبان قد جاؤوا من الجنوب، وسيكونون راغبين في المغادرة والعودة إلى الجنوب. ولكن هناك عدد قليل فقط من الطُرُق يمكنهم أن يسلكوها، ويمكن للحلف الشمالي ـ بمؤزارةٍ من الضرب بالقنابل من القوة الجوية الأمريكية ـ أن يسيطر على هذه الطرق. إذ ذاك يجد الطالبان أنفسهم في فخّ، وسرعان ما يصبح شمال البلاد بكامله، حتى كابول ـ لكن باستثناء عدد صغير من الجيوب حول مزار الشريف وقندز ـ في يد الحلف الشمالي.

وأرسل غاري برقية مؤلفة من صفحتين فقط. وقرّر تينيت أن يأخذها إلى البيت الأبيض في اليوم التالي.

وجرت محادثة هاتفية أمينة بين رامسفيلد والجنرال فرانكس في الصباح الباكر من يوم السبت الواقع في 27 أكتوبر/ تشرين الأول. وخلال المحادثة أراد رامسفيلد أن يتأكد من أنهم يخطّطون ويفكرون للمدى البعيد جداً ـ حتى باسوأ السيناريوهات، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

افرضْ أن المعارضة الأفغانية والحلف الشمالي والقوة من المرتزقة الذين تدفع لهم وكالة المخابرات المركزية لم يستطيعوا القيام بالمهمة؟ إن عليهم أن يفكروا في الاحتمال أنهم قد يضطرون إلى أمْركة الحرب وإلى إرسال أعداد كبيرة من القوات الأرضية الأمريكية.

وكان بيتر بايس، الجنرال في المارينز ونائب رئيس الأركان المشتركة، يدوّن الملاحظات في دفتر أبيض فيه زنبرك لولبي. وكتب: «كونوا على استعدادٍ للدخول ـ حرب أرضية كبيرة ـ إمّا وحدنا أو مع شركاء من التحالف. . . عمليةُ التنظيم للحرب ستكون مفيدةً جداً جداً. . . سيصبح الأمر مرئياً، وسيعرف الناس أننا لا نمزح، إننا قادمون؛ وإذا لم تنتقلوا الآن من الجهة التي توالونها إلى الجهة الأخرى، فإننا سوف نستمرّ في العملية».

واتفق رامسفيلد وفرانكس على زيادة ضرب صفوف الطالبان الأمامية بالقنابل، كما أراد الحلف الشمالي. وذلك سيكون ممكناً بسبب وجود الفرق الأولى من نوع آي داخل أفغانستان الآن. إلاّ أن الوزير والقائد الأعلى للقوات المسلحة كليهما كانا شاكّين في الحلف الشمالي والجنرال فهيم، إذا بدا أنهم متباطئون في التحرك بمفردهم.

كان من المفترض أن يستقبل الرئيس بوش والسيدة الأولى أصدقاءهما من شرق تكساس للعب البوكر وحضور حفلة في مركز كينيدي خلال عطلة نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، وكانت زيارة هؤلاء الأصدقاء قد أعيد تعيين

موعدها. غير أن تقدير التهديدات كان يشير إلى أنها في ازدياد لا في انخفاض، ولذلك اتصل بوش هاتفياً بأقرب أصدقائه في المجموعة، إلتون بومر، وكان مفوّض التأمين في ولاية تكساس عندما كان بوش حاكماً للولاية. «إلتون، إنني بكل بساطة لا أستطيع أن أدعكم تأتون»، قال الرئيس لبومر. «إنني مجرد قلقٌ أكثر مما ينبغي، فالتقديرات تبدو سيئة أكثر مما ينبغي، وأنا بكل بساطة لا أريدكم أن تخاطروا».

وبدلاً من استقبال الأصدقاء ذهب آل بوش إلى كامب داڤيد، وانضمّ الرئيس إلى الاجتماع عبر الڤيديو المتلفز الأمين في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم السبت.

ونقل تينيت أنه عيّن موعداً لذهاب فريقين إضافيين شبه عسكريين تابعين لوكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان في الأسبوع القادم. وكان يراهن رهاناً كبيراً على فِرَقِهِ شبه العسكريين. وباستثناء فريقين أمريكيين عسكريين من نوع آي من القوات الخاصة في أفغانستان، لم يكن هناك بَعْدُ أي وجود أمريكي مباشر آخر داخل البلاد.

وكان تينيت لا يزال يزحف في جنوب أفغانستان. وحدثتْ نكسةٌ في الجنوب، وذلك أن الطالبان قبضوا للتوّ على عبد الحق وقتلوه. وكان عبد الحق قائداً من الباشتون يبلغ من العمر 43 سنة، وقد حارب الاجتياح السوڤياتي بنجاح من سنة 1979 حتى سنة 1989. وفي سنة 1987 عندما كان عمره 29 سنة، فقد عبد الحق رجله اليمنى بسبب لغمٍ أرضي. وقد قام الطالبان بعد ذلك بقتل زوجته وابنه.

وكان عبد الحق قد رجع إلى أفغانستان مع مجموعة مؤلفة من 19 شخصاً لتعزيز التأييد ضد الطالبان والقاعدة بين الباشتون في الجنوب. ولم يكن عبد الحق مصدراً للقوة لوكالة المخابرات المركزية يأخذ تعليمات منها، ولكن الوكالة كانت قد اتصلت به. وقد حثّته على إعداد خطة احتياطية

وعرضت عليه عُدَّة للاتصالات. لكن عبد الحق قال إنه يظن أن جهاز الاتصالات سيمكّن وكالة المخابرات المركزية من التجسّس عليه، فرفض عُدَّة الاتصالات.

وقبض الطالبان على عبد الحق وعذّبوه وأعدموه. وفي الدقيقة الأخيرة، أرسلتْ وكالةُ المخابرات المركزية طائرةً من طائرات بريداتور دون طيار، فأطلقت الطائرةُ النارَ على بعض قوات الطالبان التي كانت تحيط بعبد الحق، لكن الأوان كان قد فات. وقد عبّر رئيس مخابرات الطالبان علناً عن شعوره بالارتياح الظافر.

وبما أنه لم يكن لدى تينيت سوى 12 مصدر قوة مدفوع لهم في الجنوب، فإنه كان لا يزال لا يحرز تقدماً في تلك المنطقة الحاسمة.

ونقل پاول أنه تحدث مع مشرّف، فقال مشرف إنه بحاجة إلى المزيد من المعونات الاقتصادية. والمظاهرات التي قامت في مدينتين باكستانيتين هما كبرى المظاهرات حتى الآن. لقد كان مشرف مستمراً في القيام بعملية من أكبر عمليات التوازن السياسي في التاريخ.

وبالنسبة للعملية العسكرية، قال رامسفيلد إن «70 بالمئة من مجهودنا اليوم سيكون لدعم المعارضة». وقال رامسفيلد إن التركيز مستمرّ على مكان واحد، وهو منطقة تورا بورا خارج جلال أباد، ويُعتقد أنها ملاذ لمقاتلي القاعدة والطالبان.

ونقل الوزير أيضاً أن الإسقاطات الإنسانية والإسقاطات للمعلومات لا تزال مستمرة.

وقال تينيت: «سنتحرك قُدُماً دون انتظار فهيم». وكان ذلك القرار هائلاً لأن فهيم كان القائد العام لمجموعة من قوات القواعد في الحلف الشمالي.

ولم يعترض أحد.

«سنرسل رسالةً إلى الحلف الشمالي»، قال رامسفيلد، «بأننا نريدهم أن يقوموا بالمزيد من العمل». وتجاهُل قائدهم ليس رسالة رقيقة.

وقال تشيني أن هناك تقارير صحافية تشير أن الحلف الشمالي قد يغلق أبوابه في رمضان.

وقال تينيت إن وكالة المخابرات المركزية يجب أن تقيّم احتمال حدوث ذلك.

وازدادت الأخبار سوءاً. إن وكالة المخابرات للدفاع ـ وهي خدمة ممتدة كوّنها وزير الدفاع السابق روبرت ماكنمارا لدمج جهود المخابرات في الپنتاغون ـ قد طُلِبَ منها أن تقوم بعمل تقييم بديل عن التوقعات على الأرض. ولمّحتْ الوكالة في مذكرة سرية جداً أنّ لا مزار الشريف ولا كابول ستسقطان قبل حلول الشتاء.

ولامتْ المذكرةُ إلى حد بعيد الجنرالَ فهيم، معتبرةً إياه في الأساس رجلاً بليداً يتكلم ويتكلم ثم لا يظهر عند المعركة. ولم يكن فهيم أبداً: مستعداً، وكان دائماً يعلن عن حاجته إلى المزيد من المال والمزيد من السلاح.

وكان ذلك مُزعِجاً: فهيم ضعيف، وليس هناك توقُّعٌ لأخذ مدينةٍ بحلول الشتاء. وقد بدأ الحديث عن مستنقع في وسائل الإعلام بعد ثلاثة أسابيع من الضرب بالقنابل، ولذلك لم يكن من الصعب تَصَوُّرُ ما سيقال بعد أَشْهُرٍ من التورط الظاهر.

وقال تشيني مشيراً إلى مذكّرة وكالة المخابرات للدفاع: «إنها تثير سؤالين. هل نقوم بكل ما في وسعنا لإنجاز شيء قبل حلول رمضان؟» وكانت العطلة ستبدأ بعد ثلاثة أسابيع.

«وثانياً»، استمرّ تشيني، «أيُّ العمليات العسكرية يمكن القيام بها خلال

الشتاء؟» إن عليهم أن يصبحوا واقعيين بشدة، لا مجرد أن يحصلوا على غرض محدد لأسباب عسكرية جليّة بل لأسباب سيكولوجية. «نريد أن نخلق إحساساً بالحتمية حتى يعبر الناس إلى جهتنا». وعوضاً عن ذلك، تصوّروا الطالبان جالسين في أفغانستان على مدى أشهر، ومستمرين في تزويد بن لادن وإرهابييه بالملاذ. ولم يكن على تشيني أن يقول شيئاً عن الأثر المرجّح لذلك.

وكان تشيني قلقاً أيضاً من أنهم إذا لم ينجزوا شيئاً قبل حلول الشتاء، فهل يتمكن الطالبان من إعادة تجميع صفوفهم؟ هل يتشجعون بَعْدُ إذ لم ينهزموا بسرعة؟

«هل هناك أي شيء يمكن للولايات المتحدة أن تقوم به بين الآن والشتاء، كإقامة قاعدة أمريكية للعمليات في الشمال؟» سأل تشيني. فذلك يكون على الأقل شيئاً على خشبة المسرح. «إنني قلق من ألاّ يكون لدينا أي شيء محسوس نشير إليه على أنه إنجاز». وعندما يأتي الثلج والبرد القارس في الشهر القادم، ستكون قوات الحلف الشمالي في مواقع غير ملائمة ـ يعني أنها ستكون غير قادرة على التحرك على مدى أشهر.

«ما هو الإنجاز الذي نهدف إليه قبل الثلج؟».

وتفحّص الحاضرون بعض المخابرات الحساسة الجديدة، وكانت مثيرةً للكآبة أكثر. إن الحلف الشمالي لا يزال متوقفاً، وهذا يعزّز إلى حدٍّ بعيد الفكرةَ أن ليس هناك احتمال بالوصول إلى مزار الشريف أو كابول في وقت قريب جداً.

وكانت رايس تعلم أن الرؤساء لا يرغبون في المجادلة أمام الرئيس، وكان الرئيس قد قال القليل جداً. «على الرؤساء أن يراجعوا هذه القضية يوم الثلاثاء»، قالت رايس، مشيرةً إلى الاجتماع القادم من دون الرئيس حيث يمكنهم أن يناقشوا الأمور مليّاً.

«علينا أن نفكّر في بعض الأهداف المحدودة»، قال تينيت، ملتقطاً النقطة التي أثارها تشيني، «مثل مزار الشريف؛ أهداف يمكننا تحقيقها ويجب أن نركز عليها مجهودنا».

ولم يبدُ أن أحداً كان يعرف على وجه التأكيد.

وفي اليوم التالي الواقع في 28 أكتوبر/ تشرين الأول؛ ظهر رامسفيلد في جلسات المحادثة التلفزيونية ليوم الأحد.

«هل الحرب لا تسير مساراً حسناً تماماً كما كنتم ترجون لها أن تسير في هذا الوقت؟» سألت كوكي روبرتس رامسفيلد في جلسة المحادثة التلفزيونية «هذا الأسبوع» على شبكة آي بي سي.

«كلا، بل على العكس من ذلك تماماً»، قال رامسفيلد. «إنها تسير كثيراً جداً بحسب الطريقة التي توقعناها عندما بدأت... وقد كان التقدم ممكناً قياسُهُ. إننا نشعر أن الجو ـ الحملة الجوية فعّالة».

كان مقياسُ التهديد السري جداً والمشار إليه بالكلمة الشفرية ـ لصباح يوم الاثنين الواقع في 29 أكتوبر/ تشرين الأول مليئاً بالعشرات من التهديدات، الكثيرُ منها جديدٌ وجدير بالتصديق، وهي تلمح إلى حدوث هجوم في الأسبوع القادم. وكانت مختلف الأنواع من الإشارات المخابراتية تُظهر أن الكثيرين من ضباط القاعدة أو عملائها المعروفين يقولون إن شيئاً كبيراً سوف يحدث في وقت قريب.

وكانت اللائحة طويلة. وقال بعضهم إن أخباراً طيبة سوف تأتي، ربما في خلال أسبوع، أو أن الأخبار الطيبة ستكون أكبر وأفضل من 11 سبتمبر/ أيلول. وكشفتْ بعضُ الاعتراضات عن نقاش حول جهاز إشعاعي ـ وهو استعمال المتفجرات التقليدية لنشر المادة الإشعاعية. وذكرتْ نقاشاتٌ أخرى معترَضَة «جَعْلَ الكثيرين من الناس مرضى».

وهناك منظّمة غير حكومية في باكستان تُدْعَىٰ امّة تمير ناو، يمكن أن

تكون في صدد إقامة بنيةٍ تصل أعضاءً كباراً في القاعدة بعدة علماء باكستانيين في الذرّة كانوا قد اشتركوا في تطوير قنبلتهم، بحسب ما جاء في مخابرات أخرى.

وكان جليّاً ـ عند وضع هذه المعلومات معاً ـ أن شيئاً ما سيحدث على الأقل بالنسبة لجهاز إشعاعي. وأشارت الاعتراضات إلى أن هجوماً آخر سيحدث؛ وبما أن القاعدة كانت تميل للعودة إلى الأهداف التي يمكن أن تكون قد فاتتها، فإن واشنطن والبيت الأبيض معرّضان للهجوم بشكل خاص.

فالمحصّلة النهائية كانت قلقاً متساوقاً ـ وإن غير موثّق ـ بشأن سلاح إشعاعي، وبعض القلق من أن ذلك السلاح قد يكون متوجهاً إلى واشنطن أو نيويورك. وقد تكون هذه محاولة أخرى لقطع رأس الحكومة.

وعُرِضَ ذلك كله على الرئيس في الإعلام الصباحي الوجيز صباح يوم الاثنين.

«هؤلاء السفّاكون سيجدونني هنا تماماً»، قال الرئيس. «وإذا أصابوني فإنهم سوف يصيبونني هنا بالضبط».

أواه! فكرت رايس.

«إن هذا الأمر لا يتعلق بك»، قال تشيني للرئيس. «إنه يتعلق بالدستور». وكان تشيني يركّز على مسؤوليتهم بالنسبة لتأمين الاستمرارية في الحكومة إذا حدث شيء لبوش». ولذلك سأذهب إلى موضع أمين لا يُكشف عنه، «قال تشيني». ولم يكن يطلب الإذن. كان ذاهباً.

ووجد كارد ذلك أمراً يستدعي الصحو. إن تشيني على حق.

وتذكّر الرئيس: «بدأنا نتلقى إشارات خطيرة بأن مخططات ومواد نووية كانت تُنقَل من باكستان إلى خارجها. كانت تلك هي الذبذبات الصادرة عن كل الذين راجعوا الأدلّة».

وسألت رايس بوش: «هل تظنّ أنّ عليك أن تغادر أيضاً؟».

ورفض بوش. «لو أنّ الرئيس قرّر أنه ذاهب أيضاً، لكان لديك نائبٌ للرئيس ذاهب في اتجاه ورئيسٌ ذاهب في اتجاه آخر، ولكان الناس يقولون: (وماذا عني أنا؟) لم أكن ذاهباً. ولعلي كنتُ قادراً على الذهاب، ولكني لم أكن سأذهب».

وأُبْقِيَ أشدُّ أجزاء العمل إثارةً سِرّاً. فقد أُرسلتْ 4 فرقٍ للمراقبة سرية خاصة تعمل من سيارات قادرة على اكتشاف وجود المواد النووية، قال موظف من أكبر موظفي الإدارة. «وجعلنا الفرقَ تطوف حول المدينة» ـ واشنطن دي سي. «وكان لدينا فريق في نيويورك. وكان ذلك الوقت وقت قلق عظيم». وأُرسل إلى ستّ مدن أخرى 6 فرق خاصة يمكنها اكتشاف العوامل البيولوجية والكيميائية التي يمكن استعمالها في الحرب.

كان رأي تينيت أن إرهابياً ما يمكنه أن يعيث فساداً في الولايات المتحدة في هذا الوقت إذا قام بهجوم. وكان وَقْعُ ضربةٍ ثانية كبيرة مما لا يمكن قياسه ـ وإذا حدث بسلاح إشعاعي أو نووي فإنه لا يمكن تصوّره. وحيث أنه لا وكالة المخابرات المركزية ولا مكتب التحقيق الفيديرالي هما «داخل الخطة»، كما كان تينيت يحبّ أن يقول، فإنه كان يعتقد أن شكلاً جيداً من أشكال الردع يتمثل في محاولة إعطاء الإرهابيين الفكرة أن الولايات المتحدة واعية للأمور التي هي في صدد التخطيط. وحيث أن الإرهابيين لم يكونوا يعلمون ما الذي تعرفه الولايات المتحدة وما الذي لا تعرفه، فإن الرادع المحتمل يتمثل في إيجاد طريقة «لتقول لهم إننا نعرف» أساساً. فإن ذلك يرغمهم على القلق، ويجعل مناخ العمليات على وجه التأكيد أشد عسراً بالنسبة لهم.

وفي صباح ذلك اليوم، يوم الاثنين الواقع في 29 أكتوبر/ تشرين الأول، قال تينيت لمولر إن الوضع من الخطورة بمكان ـ وأن الفوائد المحتملة من

إحداث ضجّة من العِظَم بمكان ـ بحيث أنه من الضروري إصدار تحذير عالمي ثانٍ إلى الجمهور.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم بدأ مولر والمدّعي العام الجنرال جون آشكروفت بالتحضير لإعداد الإعلان.

واجتمع مجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والربع صباحاً. وقال تينيت إنه سيجتمع بوزير المواصلات نورمان مينيتا والمدير الجديد للأمن القومي طوم ريدج، الحاكم السابق لولاية بنسلڤانيا. وسيكون الموضوع: «كيف نغيّر موقفنا بالنسة للأمن». وكان ذلك يعني القيام بالأمور بشكل مختلف في المطارات وغيرها حتى يواجه الإرهابيون المحتملون إجراءات مختلفة وتختلط عليهم الأمور بالنسبة لما قد يرونه. وقال تينيت إنه يريد أن يتأكد من أنهم متناسقون في «كيفية محاولة تعطيل أي شيء يمكن أن يحدث وردعه».

ولخّص تينيت التقارير عن التهديدات. تُبيِّن المخابرات أن القاعدة تخطط لاستعمال طائرة من أجل الهجوم على مجمع نووي ـ إمّا على مصنع للطاقة النووية أو ـ وهذا أسوأ ـ على أماكن تخزين الأسلحة النووية أو على مجمعات أخرى للأسلحة النووية.

وإذ كانت صُوَر أبراج مركز التجارة العالمي وهي تحترق لا يزيد عمرها على سبعة أسابيع، فإن إمكانية وقوع مرادفٍ نووي ألزَمَ المجموعةَ الصمتَ.

«إن ديك تشيني سيظل غائباً لفترة»، قال الرئيس. وكان نائب الرئيس قد انطلق إلى مكان أمين يبعد مسافة كيلومترات كثيرة.

وقال تينيت مشيراً إلى المخابرات: «إنها توحي إليّ بأن هناك تهديداً عالمي النطاق. يجب أن نُحْكِمَ إغلاق سفاراتنا ومجمعاتنا العسكرية في الخارج، ويجب أن نضع موضع التنفيذ الأشياء التي تحقق الاستمرارية في

الحكومة». وكان ذلك يعني أن على كلٍّ من الرؤساء أن يتأكد بقدر الإمكان أنه ليس مع نائبه في مكان واحد.

«إن تحالفنا متماسك بشكل جيد نوعاً ما»، قال پاول. «إنهم ليسوا في حالة هستيرية كما توحي به الصحافة. ولكن هناك مستوى من النرفزة منعكسة في الشارع العربي». وكان مقاتلون قد قتلوا في اليوم السابق 16 شخصاً في كنيسة رومانية كاثوليكية في باكستان.

وكان تحمُّل عناوين الصحف عن الضرر المُصاحِب من جرّاء حملة الضرب بالقنابل أصعب. وجاء في الصفحة الأولى من عدد يوم السبت من جريدة النيويورك تايمز: «طائرات الولايات المتحدة تضرب موقعاً للصليب الأحمر بالقنابل». وكان ذلك خطأً قد وقعت الولايات المتحدة فيه مرّتين. ولم يُقتل أحد، ولكن مستودعاتٍ مليئةً بالمؤونات الإنسانية التي يحتاج الناس إليها بشدة دُمِّرت. وتحدث پاول بتحفّظ: «إنه بقدر ما يكون هناك ضررٌ مُصاحبٌ نتيجةً للعمليات الأمريكية، فإن ذلك يؤجّج الوضع». ولكنه بعد ذلك صوّب كلامه باتجاه البنتاغون: «إن هذه مشكلة. يجب أن نضاعف جهودنا لتفادي الضرر المُصاحِب».

وشعر رامسفيلد أنه قد أوصل جهوده لتفادي مثل هذا الضرر إلى حدها الأقصى من قبل، إذ أصدر أوامر لم يُسْبَق إليها، بل هي شديدة القسوة، بعدم إطلاق النار أو قذف القنابل إلاّ إذا كانت هناك مخابرات محددة عن الأهداف، مع الاتجاه إلى تفضيل أن تكون عيونٌ أمريكيةٌ قد وثّقت الهدف.

ووثب بوش مدافعاً. «حسناً، علينا أن نلقي ضوءاً قوياً على أن الطالبان يقتلون الناس ويقومون بعملياتهم الترويعية الخاصة. فأحضروا قدراً قليلاً أكبر من التوازن عما عليه الوضع». وقفز بوش إلى الأمام وأضاف أن عليهم أن يركزوا على أفغانستان ما بعد الطالبان، ويتأكدوا من أن القبائل في الجنوب «ترى نفسها في أفغانستان ما بعد الطالبان»، على حد تعبيره.

واستمر بوش قائلاً: «إننا بحاجة أيضاً إلى حملةٍ من العلاقات العامة تركّز على الطالبان. إننا نحتاج إلى مؤتمر للمانحين»، يعني بذلك كل البلدان التي تقدم المعونات الإنسانية إلى أفغانستان، «إننا نحتاج إلى شخص ينظم الأمور كمقابلٍ لرمضان. إننا بحاجة إلى ـ كيفية إعطاء التحالف شيئاً يتكئون عليه عندما نستمرّ في الضرب بالقنابل خلال رمضان. إننا بحاجة إلى تقديم المعونات الإنسانية خلال رمضان بشكلٍ لم تشاهد مثله أفغانستان من قبل قطّ. ونحن بحاجة أيضاً إلى مبادرة سياسية في هذه الفترة الزمنية».

وقال رامسفيلد: «لقد كانت المكالمات الهاتفية التي أجراها الرئيس مع ولي العهد الأمير عبد الله نافعة»، مشيراً إلى القائد الفعلي للملكة العربية السعودية. وكان بوش مستمراً في إجراء المكالمات الهاتفية مع القادة العرب لكي يحضّرهم لقراره بأن الضرب بالقنابل لن يتوقف خلال رمضان. وكان الكثيرون من القادة العرب قد قالوا للرئيس سرّاً إنهم سيكونون مضطرين لانتقاد ذلك القرار علانيةً ولكنهم يتفهّمون موقفه.

«يجب على فرانكس أن يحثّ الشعب الأفغاني على ضرورة الاختيار ـ إمّا الحرية لهم أو الاستمرار في العيش في ظل نظام الطالبان غير الشرعي»، قال رامسفيلد. وكان يريد من الجنرال أن يساعد في المهمة السياسية المنطوية على تحفيز الأفغانيين. وقال رامسفيلد أن 70 بالمئة من الضربات سوف تكون دعماً للمعارضة اليوم. وفهيم لا يزال متوقفاً، ولكنه قال إنه قد تلقى الرسالة بالتركيز على دعم المعارضة. «سنقوم بإعادة تزويد روستم اليوم وخليلي غداً. وسنحاول إيصال مادة إلى كرزي غداً. وما زلنا نعمل على فِرَقِنا».

«إننا سنقسم حملتنا الجوية بنسبة 60 إلى 40 بين مزار الشريف وسهول الشمالي في وقت لاحق من هذا الأسبوع. هذه هي الخطة». ورغم الاقتراحات من پاول وغيره بأن يكثفوا العمل في نقطة واحدة، فإن الوزير قال: «لا نستطيع أن نركز العمل في مكان واحد. إذ ليس هناك ببساطة أهداف كافية». وكان

رامسفيلد يحبّ الاستهداف المخطَّط له سابقاً، ولكن الأهداف المهمة حقيقةً كانت ستُعَيَّن على أرض المعركة من جانب فِرَقِهِ من القوات الخاصة.

وكان لدى الرئيس سؤال: «كيف نتأكد من أن فِرَقنا قوية بشكل كافٍ بحيث تتلافى أن يدهسها الطالبان؟».

وكانت الفرقُ التابعة لوكالة المخابرات المركزية وللقوات الخاصة، والمؤلفة من عدة عشرات من الرجال، هنالك في أماكن وعرة نوعاً، وهم وحدهم. وكان من الممكن أن يُهاجموا أو يُدهسوا أو يذبحوا أو يخطفوا أو يؤخذوا رهائن. لم يكن ذلك العمل للخنوعين. افرضوا أن واحداً من الفِرَق لقي مصير عبد الحق؟

إن لدى رامسفيلد وتينيت خططاً لتهريبهم إذا وقع فريق في ورطة.

«هل هم أقوياء البنية بشكل كافٍ بحيث يستطيعون الدفاع عن أنفسهم؟» سأل بوش.

وكانت الإجابة نعم ولا.

«إنه يمكن أن يصيبهم العدوُّ أو النارُ الصديقة»، قال رامسفيلد.

«إن الناس يُشْتَرَوْن»، ذكّر تينيت الحاضرين. «وإن جماعتنا في خطر. يجب أن ننظر في قدرتنا على انتزاعهم. علينا أن نتأكد أننا نستطيع حماية جماعتنا».

وكانت أكبر حماية للفِرَق الراديوهات التي يمكن أن تُستعمل في استدعاء الضربات المحددة على عدوٍ مهاجم.

كانت الأمور شديدة الكآبة.

استدعت رايس هادلي إلى مكتبها، وأغلقا الباب الكبير الثقيل الغامق.

هل توافق على العمل على أرض الصفر بشكل محتمل مرجَّح؟

نعم، قال هادلي، لكنه يرجو أنه إذا حدث شيء فإنه يكون شيئاً لا يصيب عائلته ويصيبه هو فقط. هل هي مرتاحة؟

«نعم. كما تعلم»، قالت رايس، «أنا ابنة قسيس. وقد روّضتُ نفسي على قبول ذلك منذ وقت طويل».

واتفقا على أنه يجب عليهما التكلم مع موظفي مجلس الأمن القومي، وأنجزا الترتيبات للقيام بذلك في إحدى الليالي. وكان هؤلاء الموظفون يتألفون على الأكثر من موظفين في السلك الديبلوماسي أو من ضباط عسكريين كانوا قد خدموا في أجزاء خطرة من العالم. ولم يرد هؤلاء الموظفين أن يُنقلوا.

* * *

وفي اجتماع الرؤساء ليل يوم الاثنين من دون الرئيس، جرى الكثير من التصارع حول ما يقومون به. إذا كانوا سيحاولون الاستيلاء على مزار الشريف، فماذا يفعلون إذ يضربون سهول الشمالي بالقنابل؟ واستمرّ رامسفيلد في الإصرار على أنه ببساطة ليس هناك أهداف كافية إلاّ إذا ذهبوا إلى ما يتجاوز الأهداف في مزار الشريف.

وكان پاول قلقاً مرّة أخرى من أن الضرب بالقنابل يُعْمَل لأجل الضرب بالقنابل، وأنه لا يرتبط بغرضٍ عسكري. لقد كان ضابطاً صغيراً في الرجّالة في ڤيتنام ويعرف شخصياً حدود القوة الجوية. وكان قلقاً أيضاً من أن الولايات المتحدة تلعب دور قوةٍ عظمى مُتَنَمِّرة، وتحاول أن تحرّك قوات المعارضة ـ الحلف الشمالي ومختلف القادة ـ على رقعة الشطرنج وكأنه ليس لدى هؤلاء حصة في هذه الحرب. وعند نقطةٍ معيّنة، سأل: «هل لديهم هم أفكار عمّا يريدون القيام به» مقابل ما نظن نحن أن عليهم القيام به؟

ولبثت مسألة الغرض السياسي تراوح مكانها. مَن سيحكم أفغانستان إذا عُزل الطالبان؟ ما هي الإدارة لنوع ما من الديموقراطية في بلد تهيمن عليه

الفئات القَبَلية؟ إن الخبراء متفقون إلى حد بعيد على أن الخطأ الذي حدث بعد اندحار السوڤيات سنة 1989 كان أن الولايات المتحدة انصرفتْ. كيف يرتبط الغرض السياسي ـ كائناً ما كان ـ بالغرض العسكري؟ هل هما متمازجان؟

«لا نتحمّل أن نخسر»، قالت رايس. «إن الطالبان قد برهنوا على أنهم أصلب مما كنا نظن».

وقال تينيت إنهم أسقطوا المؤن لروستم وعطا، لكن في الجنوب الشخص الوحيد الذي يقوم بعمل ملموس ـ وحتى هذا لم يكن كثيراً ـ هو كرزي، ولديه من 400 إلى 500 مقاتل.

وقدّر رامسفيلد على أن لدى الطالبان في مزار الشريف ضعف ـ وربما ثلاثة أضعاف ـ قوات الحلف الشمالي.

وتسلّم پاول الحديث لكي يجادل ضد أمركة الحرب. «إنني أَستبعد أن تلاحق الولايات المتحدة الأفغانيين الذين مضى على وجودهم هناك 5,000 سنةٍ». ونقلُ القوات الضرورية قد يتطلب كامل القدرة المتوفرة للعسكرية الأمريكية على النقل الجوي. والطالبان سيكونون متملّصين إلاّ إذا كان بالإمكان اعتراض اتصالاتهم. «إنهم لن يكونوا هناك عندما تصلون إلى هناك»، قال پاول. «إنه خلل في تفكيرنا. ولقد توقعنا أكثر مما ينبغي من المعارضة. وأنا لا أعرف ما إذا كان بإمكان المعارضة أخذ مزار الشريف، فضلاً عن كابول. وما لدينا هو قوة جوية من العالم الأول يضارعها جيشٌ من العالم الرابع». ومن الأفضل أن نعزّز معارضة الحلف الشمالي خلال الشتاء ليصبح لديه على الأقل قدرةُ قوةٍ من العالم تستعملها القوة الجوية الأمريكية فيما بعد.

وعادت رايس إلى المشكلة العسكرية الحالية على الأرض، واقترحت على الحاضرين أن يرجعوا ويحاولوا تفحّص ثلاثة خيارات: 1 ـ اذهبوا إلى مزار الشريف؛ 2 ـ اذهبوا إلى كابول؛ 3 ـ ماذا يحدث إذا لم يكن باستطاعتهم أخذ المدينتين؟

في مساء اليوم التالي، يوم الثلاثاء الواقع في 30 أكتوبر/تشرين الأول، طار الرئيس إلى نيويورك لرمي رمية الكرة الأولى التشريفية في اللعبة الثالثة من المباراة البطولية للعبة البيسبول بين فريقي اليانكيز النيويوركي وديامونِدباكس الأريزوني. وفي الملعب، ذهب الرئيس إلى ناحيةٍ ليتمرن؛ لقد كان الرميُ صعباً بسبب الصدرة التي لا يخترقها الرصاص التي كان قد وافق على لبسها، وكان يريد أن يبقي ذراعه ليّنة.

«هل سترمي الكرة من المطّاط أم من قاعدة المتراس؟» سأل ديريك جيتر، وهو نجم فريق اليانكيز المسؤول عن تغطية الموقع بين القاعدة الثانية والثالثة. وكان المطّاط ـ وهو أعلى نقطة في المتراس ـ يستعمله رماة الكرة المحترفون، ولكنه كان يبعد نحو 20 مِتْراً عن الهدف ـ رميةً طويلة.

وقال بوش إنه على الأرجح سيرمي من قاعدة المتراس ـ وهو أقرب بمسافة مترين أو ثلاثة أمتار. إنه لا يريد أن يرمي رميةً جامحة.

«إذا رميتَ من قاعدة المتراس»، قال جيتر، «فإن الناس سوف يطلقون أصوات الاستهجان. يجب عليك من غير ريب أن ترمي من المطاط».

هل تظن أن المتفرجين من أنصار اللعبة سيطلقون أصوات الاستهجان، سأل بوش ـ الرئيس، وهو في خضمّ حرب، حرب شُنَّتْ بعد هجومٍ هنا؟

«أي نعم»، قال جيتر. «هذه هي نيويورك».

«حسناً. سأرمي من المطاط».

وذهب بوش إلى المخبأ، وكان المذيع يوشك أن يعلن عنه، إذ جاء جيتر من ورائه. «لا تنسَ، سيدي الرئيس؛ إذا رميت من المطاط وارتدّت الكرة، فإن الناس سيطلقون أصوات الاستهجان».

وظهر الرئيس وهو يرتدي سترة قصيرة من الجلد من سترات سرِّيَّة إطفاء نيويورك. ورفع ذراعه وأعطى إشارة الموافقة للجمهور الجالس ناحية القاعدة

الثالثة من الملعب. ورمى 15,000 من أنصار اللعبة المتفرجين على الأرجح بأذرعهم في الهواء مقلّدين حركة الرئيس.

وبعد ذلك رمى ضربةً من المطّاط؛ وانفجر الملعب.

وكان كارل روف يراقب من مقصورة جورج ستاينبرينر، صاحب الملعب؛ وفكّر روف: إن هذا يشبه التواجد في مهرجان نازي.

20

كانت رايس والآخرون منفعلون فيما كانت الإدارة تُذْبَحُ في وسائل الإعلام وفي وقت سابق من ذلك الأسبوع، كان محلّلٌ عسكري ظَهَرَ في برنامج «الساعة الإخبارية مع جيم ليرر» قد وَجَّهَ الانتقادَ الأكثر جرحاً للشعور من بين الانتقادات كلها، قائلاً إن بوش يمارس «طريقة بيل كلينتون تجاه الحرب. . . مفكّراً على نطاق ضيق».

وصباح يوم الثلاثاء، شنَّ مُحافِظان بارزان ـ من حلفاء بوش في العادة ـ هجوماً عنيفاً على المجهود الحربي في صفحة الرأي من جريدة الواشنطن بوست. فقال ويليام كريستال: «إن هناك خللاً في الخطة» بسبب عدد كبير أكثر مما ينبغي من القيود المفروضة ذاتياً». وقال تشارلز كراوتهامر إن الحرب تُقاتَلُ «بأنصاف الإجراءات».

ويوم الأربعاء الواقع في 31 أكتوبر/تشرين الأول، قرأ بعض أعضاء وزارة الحرب تحليلاً بقلم ر. و. آبل جونيور في جريدة النيويورك تايمز.

«هل يمكن أن تصبح أفغانستان ڤيتنام أخرى؟ هل تواجه الولايات المتحدة مأزقاً في الناحية الأخرى من العالم؟ قد تكون الأسئلة سابقةً لأوانها بعد ثلاثة أسابيع من بدء القتال. إلاّ أن هذه الأسئلة ليست غير معتدلة».

وكان رامسفيلد قد كشف لتوّه علناً أن وحدات صغيرة من القوات الخاصة العسكرية الأمريكية تعمل في شمال أفغانستان لتوفّر الاتصال «بعددٍ محدود من مختلف عناصر المعارضة». ولذلك كتب آبل: «يبدو أن دَوْرَهم يبدو شبيهاً بشكلٍ مُرِيب بدور المستشارين الذين أُرسلوا إلى ڤيتنام في أوائل الستّينيات». ولاحظ آبل أن الاتحاد السوڤياتي السابق «مع دبابات جيدة بأعداد كبيرة قد وقع رغم ذلك في مأزق ثم انهزم في نهاية المطاف على يد القوات الأفغانية المتمردة».

في اجتماعه صباح يوم الأربعاء مع كبار موظفيه، عَبَّرَ بوش عن استيائه من وسائل الإعلام.

«إنهم لا يفهمون الأمور»، قال الرئيس. «كم مرة يجب أن تقول لهم إن هذه الحرب سوف تكون نوعاً مختلفاً من الحروب؟ ثم لا يصدّقون ذلك. إنهم يبحثون عن تَوَجُّهٍ تقليدي. وليس ذلك ما سيشاهدونه هنا. لقد تحدثتُ عن الصبر. إن مدى سرعة الناس لنسيان ما تقوله أمرٌ مذهل، على الأقل هنا في واشنطن». وكانت القصص عن المستنقع غير مفهومة إلاّ قليلاً بالنسبة له. إن لديهم خطة جيدة. وقد وافقوا عليها. «لماذا نشرع بالارتياب في تخمينها في هذه المرحلة المبكرة منها؟».

«إننا نخسر حرب العلاقات العامة»، ابتدأ الرئيس كلامه في اجتماع مجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والنصف صباحاً. «إننا لا نحصل على الاعتراف بالفضل لما نقوم به من أجل الشعب الأفغاني. إننا بحاجة إلى عقد مؤتمرٍ إنساني للمانحين ونحن نتجه نحو رمضان. وعلينا أن ندعو الطالبان للسماح للشاحنات بالمرور»، للقوافل التي تأتي بالطعام والمعونات الأخرى. «فإذا لم يفعلوا، فإن ذلك يشكّل انتهاكاً لمبادئ الإسلام».

وكان آندرو ناتسيوس، رئيس وكالة التنمية الدولية، قد أحضر خريطة تُبيّن مناطق سوء التغذية والجوع والحرمان في أفغانستان. وكانت معظم هذه

المناطق في الشمال، حيث كان هناك قحط على مدى سنوات. وقد بيّنتْ الخريطة أن هناك قدراً كافياً من الطعام في الجنوب ـ في المنطقة التي يهيمن عليها الباشتون. وحيث جذور الطالبان أقوى ما تكون.

«المسألة صعبة»، قال ناتسيوس. «إن مواقعنا ليست ملائمة. ونحن نحصل على تعاون جيد من القيادة المركزية». وكان بوش قد جعل العسكريين الأمريكيين يوصلون السِّلع لكي يرسل رسالةً سياسية. «لكن آثار أقدامنا وقدرتنا على إيصال المعونة إلى الشمال محدودة. إن لدينا مطاراً واحداً في تركمانستان، ومطاراً واحداً في أوزبكستان، ولكن ليس لدينا ذلك النوع من الجسور التي نحتاج إليها».

«قبل المؤتمر»، قال بوش، «علينا أن نُظهر للعالم الحقائقَ عن الوضع كما وجدناه، وما نقوم به لمواجهة هذا الوضع».

وجرت مناقشة طويلة عن دور الأمم المتحدة وعن مسألة مَن قد يقود أفغانستان بعد الطالبان.

وانتقل بوش بعد ذلك إلى مناقشة عدة قضايا حسّاسة مع أعضاء وزارته للحرب.

أولاً: أراد تشيني أن نناقش تحليلاً لوكالة المخابرات المركزية تَوَصَّلَ إلى استنتاج أن القوة الجوية الموجهة ضد الطالبان غير وافية. «هل نحتاج إلى طلعات إضافية؟» سأل بوش.

لقد شاهدوا ازدياداً مفاجئاً في الأهداف المتوفّرة عندما وَصَلَتْ فِرَقُ القوات الخاصة إلى داخل أفغانستان، قال رامسفيلد. ولكنه في الواقع كان مضطرباً اضطراباً جدِّيّاً. إن الفِرَقَ لا تدخل أفغانستان. «لدينا 8 فِرَق تنتظر. ولم يدخل أي فريق أمس».

«ما يبقيهم في الخارج؟» سأل تشيني. هل هو عدم الرغبة في المخاطرة؟

هل هو الطقس؟ «إذا ضُرِبْنا مجدّداً، هل نظهر بمظهر الخائفين أكثر مما ينبغي؟».

وقال رامسفيلد إن الطقس جزء من المشكلة، والأوزبكيون كانوا يسببون تأخيرات أيضاً. وفي حالة واحدة، أثار فهيم اعتراضات على فريق آخر.

وشُدهَ معظمُ الآخرين في الغرفة.

«يجب أن يضع فرانكس خطة مفصّلة للشتاء»، قال الرئيس.

إن رامسفيلد يعمل عليها.

«كلما طال الزمن على وصولنا إلى القاعدة»، قال تشيني، «كلما كانت المجازفة علينا أكبر. إلاَمَ نحتاج لضرب 50 كهفاً خلال 48 ساعة؟» وإذا كان أحد لم يفهم رسالته، إنه يريد أن يقتل عدداً أكبر من الناس. «ما يمكننا القيام به إذا كانت لدينا قوات أكثر؟».

وقال رامسفيلد إنهم قد زادوا عدد القوات عدة مرات، ولكننا سنتفحص الأشياء الإضافية التي يمكن القيام بها. لقد صادفوا حَظّاً سيّئاً وتعقيداتٍ مُعَوّقة. ففي مجهودٍ لإعادة تزويد فهيم، لم تنفتح نصف الباراشوتات، وهذا أدّى إلى كارثة.

«كل هذا سوف يستغرق وقتاً»، ذَكّر الرئيس جميع الحاضرين. «ليس بوسعنا أن يكون لدينا توقّعات كاذبة عن مدى الزمن الذي سيستغرقه هذا. علينا أن نكيّف الأمم المتحدة بحيث تكون صبورة. إن مفتاح النجاح سيكون مدى قوّتنا في الزمن الحسن والرديء، وعما إذا كان باستطاعتنا أن نبقى مركزّين. إنكم تُبقون التحالفَ متماسكاً بكونكم واضحين أننا سوف ننتصر. وإن تصميم الولايات المتحدة سيكون المفتاح. ولا يمكننا أن نجعل العالم يتشكّى ويتبكّى لأننا قد هوجمنا اليوم».

وقال الرئيس، وكأنه يتكلم مع جمهورٍ غير مطّلع بدلاً من وزارته

للحرب، «هذه حرب تُشَنُّ على جبهتين. إن أمريكا قد هوجمت. وعلينا أن نحارب الحربَ في الوطن من خلال الأمن القومي. وعلينا أن نحارب الحرب في الخارج من خلال جَلْب الحرب إلى الأشخاص الأشرار».

وقال بوش إنه كان يتحدث مع قائد أوروبي، فقال له القائد إن السّبيل إلى المحافظة على التحالف هو القيام بالمشاورات المكثفة، وهو قيام الولايات المتحدة بإظهار التجاوب وأَخْذ آراء الآخرين بعين الاعتبار وفَهْم تفكيرهم.

«حسناً»، قال الرئيس، «هذا ممتع جداً. لأنني أعتقد أن أفضل السُبُل التي تمكننا من جعل الحلف متماسكاً هو أن نكون واضحين بالنسبة لأهدافنا وأن نكون واضحين في أننا مصمّمون على بلوغ هذه الأهداف. إنك تُبقي التحالف متماسكاً من خلال قيادة قوية، وهذا ما ننوي أن نوفّره».

وكان ذلك كله متسقاً مع اعتقاد بوش أنه أداة للتغيير ـ أنه يجب عليه أن يحدد وُجْهةً أو سياسةً استراتيجية جديدة من خلال القيام بخطواتٍ جريئة واضحة. وبما أن ذلك سوف يكون سياسة الولايات المتحدة ـ القوة العظمى الوحيدة ـ فإن سائر العالم سوف يتحول، وسوف يتكيّف مع الوقت.

فكّرت رايس أن بوش كان مقتنعاً بأنه لم يأتِ إلى هنا ليترك العالم في نفس الوضع الذي وجده عليه. ففي محادثات خاصة مع بعض رؤساء الدول ـ وآخرهم رئيس الوزراء الياباني كويزومي ـ كان بوش يرسم مخططاً لرؤيةٍ أوسع لمسؤوليته تجاه الإقدام على العمل. «التاريخ سيكون حَكَماً»، قال بوش لكويزومي، «ولكن التاريخ لن يُحسن الحكم على شخصٍ لا يُقدم على العمل، على أي شخص يتحيّن الفرصة المناسبة فقط».

وتوصلت رايس إلى استنتاج أن بوش لا يريد أيضاً أن يقوم بأعمال ضئيلة التأثير. إن البلاد يمكنها أن تجثم على سلطانها المنقطع النظير وتوزع جرعات صغيرة منه، أو يمكنها أن تلعب ألعاب قوةٍ استراتيجية كبيرة من شأنها أن تغيّر ميزان القوى بشكل جوهري. وقد ثبّت بوش نفسه في معسكر الرُؤيَوِيين.

«سأنتهز الفرصة لتحقيق أهداف كبيرة»، قال بوش في مقابلة. «وليس هناك شيء أكبر من تحقيق السلام العالمي».

وكان قد أصبح مؤمناً بأن على الرئيس ألاّ يخزن رأس المال السياسي، وأن الرئيس يحصل على المزيد إذا صَرَّفه.

وكانت رايس معجبة بما قام به الرئيس ترومان ووزراء خارجيته بعد الحرب العالمية الثانية: مبدأ ترومان، وخطة مارشال، وسياسة الاحتواء كانت استعمالات ذكيّة وفعّالة لرأس المال السياسي.

وعندما سألتُ بوش في وقت لاحق عن الألعاب الاستراتيجية الكبيرة، أشار بوش إلى الحرب الأهلية وحرب ڤيتنام. «إن وظيفة الرئيس أن يوحّد الأمة لإحراز الأهداف الكبيرة. وقد فهم لينكولن ذلك، وكانت بإزائه أصعب مهمّة على الإطلاق لتوحيد الأمة». وعلى العكس من ذلك، كانت ڤيتنام بشعة ومسبِّبةً للخلاف والشقاق، وتبدّد كل ما كان لدى جونسون ومستشاريه من رأس المال. «لم يستطيعوا تحقيق أهداف كبيرة».

كان رامسفيلد قد قضى عدة أسابيع وهو يعمل على دراسة سرية جدّاً توضح الخطوط العريضة لاستراتيجية لأفغانستان. وكانت الاستراتيجية مخطّطةً بشكل يجعل تفاديهم الوقوعَ في مستنقع أمراً مؤكداً بقدر الإمكان. وأملى مذكرةً سرية جداً ـ متكتمة موجهة إلى وولفويتز ومايرز ونائب الرئيس بايس ونائب الوزير لشؤون السياسة فيث. وكانت المذكرة تتألف من عشر فقرات مرقّمة مكتوبة على صفحتين ببنط 13 الكبير الذي كان رامسفيلد يفضّله لأن قراءته كانت سهلة.

الموضوع: «أفكار لتغذية مختلف فقرات الدراسة عن استراتيجية أفغانستان». وكان يريد أن يتأكد من أنهم يعالجون قضايا المخابرات والمعونات الإنسانية، وأنهم يُشركون منظمة حلف شمالي الأطلسي، وأنهم يحاولون فتح الجسر الأرضي إلى أوزبكستان.

«إنه من المُلِحّ» ـ أملى رامسفيلد، مستعملاً توكيداً قلما يستعمله، «إدخال وحدات القوات الخاصة». وكان تباطؤهم في وضع الرجال على الأرض يجنّنه، إذ كان ذلك هو التعهّد الكبير ورمز الحرب الجديدة الذي كان الرئيس وهو مصمّمين على تحقيقه.

وكانت نقطة أخرى معلمة كما يلي: «التخطيط للطوارئ. ماذا نفعل إذا كابدنا نكسة؟».

وكان رامسفيلد قد صرّح علناً ذلك اليوم أنه يتابع التعليقات الإخبارية عن المأزق أو المستنقع المزعومَيْن في أفغانستان. «يجب أن أقول إنني كثيراً ما أجد هذه الاختلافات في الرأي مُسعِفةً وممتعةً ومثقّفةً وتعليمية»، كان قد قال في جلسة إعلام البنتاغون العادية، وهو يحاول تفادي النبرة الدفاعية.

وكان مرةً في حديثه مع كبار موظفيه قد أشار إلى المؤلّفين والرؤوس المتكلّمة على التلفاز بقوله إنهم «معلّمو شارع ك»، يعني بذلك الموظفين السابقين في الحكومة والمتلبّثين الذين يحتلّون ممرّ شارع ك في وسط واشنطن، ذلك الممرّ الذي كانت فيه مقرّات المؤسسات الاستشارية والفكرية التي تبدو دون نهاية. وكان شارع ك بالنسبة لرامسفيلد مأوى منحّلاً لهؤلاء الذين لم يتمكّنوا من الحصول على وظائف حقيقية، أو الذين ليس لديهم الاستقلال الروحي الذي يحفزهم على مغادرة واشنطن بعد انتهاء صلتهم بها.

«طبعاً هذا ما يقولونه»، كان رامسفيلد قد قال. «إن مدى انتباههم يوازي مدى انتباه بعوضة». إن تجارة الأخبار تولّد الإلحاح والتوقّع. وكان متأكداً بأن الجمهور أكثر واقعية وأكثر صبراً.

وكان يقوم ببعض البحث لصياغة القرينة التاريخية لموضوعٍ من آثر الموضوعات لديه: بيرل هاربور والحرب العالمية الثانية.

كان ذلك المساء عيد البربارة. وكان نائبُ الرئيس تشيني وزوجته لين

مختبئين في مكان غير معلن عنه، ولكن تشيني كان يحضر اجتماعات طوال اليوم. وبعد 37 سنة من الزواج، كانت لين تشيني ـ التي تحمل دكتوراه في الأدب الإنجليزي وكانت رئيسة للمؤسسة القومية للعلوم الإنسانية لا تزال تتعجب من ذلك الشيء الصغير داخل رأس زوجها الذي يسمح له بالتركيز على ما هو مهمّ. وفي تلك الأيام كان تشيني قلقاً عما لا يقلّ عن مستقبل العالم.

وكان تشيني وزوجته قد أحضرا معهما أحفادهما الثلاثة، وأعمارهم سنتين وثلاث سنوات وسبع سنوات. وكانوا جميعاً قد نقروا يقطينات ـ ليس زوجها طبعاً، ولكن هي والأولاد. ولبس الأولاد الأزياء المناسبة لعيد البربارة، ولكن لم يكن هناك محلّة يزورونها لطلب الحلويات، فأرسلتهم السيدة تشيني للدقّ على أبواب الموظفين في الغرفة المحصنة تحت الأرض. ورفع عميلٌ من الخدمة السرية سترته فوق رأسه وزرّرها بحيث يبدو مثل هيدلس آجنت. وبعد ذلك أومضَ الأضواءَ فاتحاً ثم مغلقاً إياها بشكل متسارع. وكان ذلك هو أكبر تسلية استطاعت انتزاعها من أجل الأطفال ذلك المساء. وجدت ذلك الوقت باعثاً على الكآبة. وعندما كان زوجها يعمل في البيت الأبيض أيام الرئيس فورد، أو في الكونغرس، أو عندما كان وزيراً للدفاع، كانت تقول له في الليل: «أخبرني بكل شيء». لكنها لم تعد تقول له ذلك. وفي الواقع لم تكن تريد أن تسأل.

21

«مساء الخير»، قال رامسفيلد، وهو يخطو أمام وسائل الإعلام في غرفة الإعلام بالپنتاغون للتحدث في الجلسة المتلفزة مع وسائل الإعلام في اليوم التالي، يوم الخميس الواقع في 1 نوڤمبر. «فكرتُ في بعض الأسئلة التي طُرِحَتْ في الجلسة الإعلامية الأخيرة عن السرعة أو التقدم، وفي الأسئلة عن مدى صبر الشعب الأمريكي إذا لم يحدث شيء فوراً».

وألقى رامسفيلد بعد ذلك درساً في التاريخ، واضعاً المسألة بشكل صراعٍ بين الصحافة ـ التي لا تفهم الحرب الحالية ـ والجمهور ـ الذي يفهم تلكَ الحرب. «اليوم هو الأول من نوڤمبر. إذا فكرتم في ذلك، فإنكم تدركون أن الدخان في هذه اللحظة نفسها ما يزال يتصاعد من مركز التجارة العالمي، أو من أطلاق مركز التجارة العالمي كما يجب أن أقول. ومع كون هذه الأطلال ما تزال تحترق وتدخن من غير لهب، ومع كون الدخان لم ينجلِ، فإنه يبدو لي أن الأمريكيين يتفهّمون جيداً أننا لا نزال في المراحل المبكرة جداً جداً من الصراع، على الرغم من الإلحاح في الأسئلة التي طُرحتْ في الجلسة الإعلامية الأخيرة».

«فكِّروا في بعض المنظورات التاريخية». وكانت نبرة رامسفيلد تُشرف على التعالي. «بعد الهجوم على بيرل هاربور في 7 ديسمبر/كانون الأول سنة

1941، استغرق ردّ الولايات المتحدة على ذلك الهجوم أربعة أشهر وذلك بغارة دوليتل في أبريل/ نيسان سنة 1942 على طوكيو. ولاحظ أن أشهراً ثمانية انقضت قبل الهجوم الأرضي الأول على غوادالكنال. وقد ضُربتْ اليابان بالقنابل مدة ثلاث سنوات ونصف السنة قبل أن تستسلم، وضُربتْ ألمانيا بالقنابل مدة خمس سنوات، ذكّرهم رامسفيلد.

وقال رامسفيلد إنه عندما بدأت حملة الولايات المتحدة بالضرب بالقنابل يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول، كان قد حدّد أهدافهم المحدودة وأصرّ على ألاّ يتوقعوا «احتمال النصر العاجل أو النجاح العاجل».

ووضع رامسفيلد لائحة بستة أهداف يراد منها تغيير ميزان القوى العسكرية في أفغانستان مع مرور الزمن ـ ليس في هذا الشهر، وليس في السنة القادمة بالضرورة ـ وهي أهداف محدودة جداً ومصرَّح بها على نحو أضعف بكثير مما تقتضيه الحقيقة. «الآن: هذه هي الأهداف التي أعلنتُها يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول ـ أي منذ 24 يوماً ـ منذ ثلاثة أسابيع؛ وليس ثلاثة أشهر؛ وليس ثلاث سنوات، بل ثلاثة أسابيع وثلاثة أيام. وقد أنجزنا تقدماً يمكن قياسه تجاه كلٍّ من هذه الأهداف العائدة إلى 7 أكتوبر/ تشرين الأول.

«وفي خاتمة المطاف، أن الحرب ليست مسألة إحصاءات أو مواعيد أخيرة أو آماد قصيرة من الانتباه أو دورات إخبارية على مدى 24 ساعة. إن الحرب مسألة إرادة، مسألة إسقاط للإرادة، مسألة التصميم الواضح غير الملتبس من جانب رئيس الولايات المتحدة ـ دَعْهُ لا يكن هناك شك في ذلك ـ ومن جانب الشعب الأمريكي على مواصلة هذا الأمر حتى النصر المؤكد».

وأن التاريخ يقف بجانبهم، قال رامسفيلد. «ففي حروب أمريكية سابقة، تَوَصَّلَ قوادُ العدو إلى الشكّ في مدى الحكمة في الاضطلاع بمواجهة قوة هذا الشعب وسلطته وعزم أهله. وأنني أتوقع أن يكون هناك في كهفٍ ما في أفغانستان قائدٌ إرهابي يفكر في هذه اللحظة بالشيء نفسه تماماً».

وكان هناك قدرٌ من العِداء في الجو. وسأل صحافي: «إن عبارتك الافتتاحية اليوم لم تكن عن متابعة الحرب. إنها تبدو بشكل متزايد عن بَيْع الحرب، عن إخبار الشعب الأمريكي لماذا تستغرق الحرب هذا المقدار من الوقت، وعن التحلي بالصبر. ما هو حَجْم ذاك الجزء من عملك المخصَّص لمجهود البيع؟ وما هو مقدار الزمن الذي تخصصه لذلك؟ هل تخصص له مقداراً من الوقت أكثر مما ينبغي؟ وهل يشتري ذلك الناسُ الذين تتكلم معهم؟».

وقال رامسفيلد، متحدثاً من خلال أسنانٍ مطبقة بعض الشيء، إنه يصرف أقل من ساعتين من أصل 1/2 ـ 13 ساعة عمل يومياً وهو يجيب على أسئلة وسائل الإعلام. «فمن حيث هو نسبة مئوية، هذا المقدار من الزمن متواضع نسبياً».

* * *

«من المهمّ أن نُظهر نتائج قبل حلول الشتاء»، قال تشيني يوم 1 نوڤمبر في اجتماع الرؤساء في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر. «من المهمّ أن يكون لدينا شعور بالإلحاح».

وقال رامسفيلد إن تحديد الأهداف من جانب فِرَق القوات الخاصة بستغرق وقتاً، وذَكَّرَ الحاضرين باستمرار الإشكالات في إدخال المزيد من الفِرَق.

وقال پاول إنهم سيتمكّنون خلال الشتاء من تدريب الحلف الشمالي على القتال في حرب تقليدية. فمثلاً، يمكن أن يدرّبوا بَعْضَهم على أن يصبحوا مراقبين جويين متقدمين يمكنهم استدعاء الضربات من طائرات أف ـ 15 بأنفسهم.

«إن لديّ إحساساً بالإلحاح»، قال تشيني، يعني بذلك أنه لا يرى هذا

الإحساس لدى الآخرين. «سيكون هناك مستوى متدنٍّ من التحمّل بعد الضربة التالية». وكان تشيني يتصور حدوث انفجارٍ سياسي في الولايات المتحدة إذا وقع هجوم آخر، وإذا كانت الإدارة لم تقم بكل ما يمكنها القيام به.

وقالت رايس إن عليهم أن يتحدثوا مع فرانكس ومع الرئيس عن مسألة الإلحاح.

وقال پاول إن عليهم أن يركّزوا على مزار الشريف.

وقالت رايس إنه من المجازفة التركيز على مكان واحد. «ماذا علينا أن نعمله إذا تَوَجَّبَ علينا أن نأخذ مزار الشريف في مدة شهر؟».

وقال تشيني إنه لا بأس من التركيز على مزار الشريف. «ولكننا إذا لم نتغلب عليهم فإنهم سوف يتغلبون علينا». وكان يعتقد أنه يجب عليهم فعلاً أن يقتلوا عدداً أكبر من هؤلاء الناس. لعله يجب عليهم أن يرسلوا فِرَقاً من «الصيّادين ـ القاتلين» لمطاردة الإرهابيين في أفغانستان.

ووعدت رايس بأنهم سوف يعالجون قضية الإلحاح مع الرئيس في اليوم التالي.

وقال پاول إنه طالما هم يضربون القوات والأهداف العسكرية فقط فإنهم يحافظون على دعم المجهود الحربي في معظم بلدان العالم الإسلامي.

«حسناً، هناك غمغمة في الصحافة»، قال پاول في افتتاح اجتماع مجلس الأمن القومي في اليوم التالي، يوم الجمعة الواقع في 2 نوڤمبر. وكانت كلمة «غمغمة» تُصَوِّرُ الوضعَ على نحوٍ أضعف مما تقتضيه الحقيقة، وكانت تستدعي نصف الضحكات الخافتة حول الطاولة. «إن البلدان التي في التحالف ما تزال معنا»، أضاف پاول بشيء من الثقة.

«لدينا 410 شاهناك في شمال أفغانستان، وعندهم جرّافات للثلج. وما

زال لدينا نحوٌ من شهر آخر لجلب الطعام». فعندما يبدأ الثلج بعد بضعة أسابيع يصبح جلبُ الطعام إلى الشمال أشدّ صعوبةً.

«إننا بحاجةٍ إلى مجهود من المعونات الإنسانية قبل رمضان»، قال الرئيس.

وطُمئنَ الرئيسُ أن الجهود جارية، لكن جَذْبَ انتباه وسائل الإعلام والناس أمرٌ صعبٌ بسبب التهديدات والتحذير الدولي للإرهاب والأنثراكس وحملة الضرب بالقنابل.

وبشأن الأمن القومي، قال رامسفيلد: «سنقيم تسع دوريات جوية مقاتلة من يوم الأربعاء إلى يوم السبت. وعدّد ثلاثة أهداف محتملة في الولايات المتحدة يجب على الدوريات الجوية المقاتلة أن تحميها: 1 ـ المفاعلات الذرية؛ 2 ـ المواضع التي تخزن وتصنع فيها الأسلحة الذرية؛ 3 ـ المعالم ذات الأولويات العالية، من البيت الأبيض إلى وول ستريت، إلى المباني العالية في مدن أخرى مثل شيكاغو، إلى مُدُن ملاهي ديزني.

«إننا نحتاج من أجل طائرات الدوريات الجوية المقاتلة»، قال بوش، «إلى بعض المساحات التي يُمنع الطيرانُ فيها، تكون كبيرة بما فيه الكفاية بحيث يتوفّر لطائراتنا الوقتُ لتأمين الدفاع». كان يريد مراقبةَ قطعٍ كبيرة من المجال الجوي ـ المسمّاة بالمناطق التي يمنع الطيران فيها ـ حيث لا يمكن للطائرات أن تطير.

«يمكننا توفير ذلك في بعض الأماكن وليس في غيرها»، أجاب رامسفيلد. فحركة المرور الجوية تتألف من آلاف الطائرات عبر البلاد كلها، ولذلك لم يكن واقعياً تواجدُ مناطق كبيرة بما فيه الكفاية يُمنع فيها الطيران، فتوفّر للدوريات الجوية المقاتلة الوقتَ الكافي لاعتراض الطائرات التي تدخل تلك المناطق دائماً.

وسأل بوش عن الجهود لإعادة تموين الحلف الشمالي.

«لقد أوصلنا الكثير من المؤن إلى روستم وفهيم»، أجاب رامسفيلد. «وحصل كرزي وعطا على الذخائر والطعام أمس، وسيحصلون عليها مجدَّداً اليوم». إنهم بحاجة إلى قاعدةٍ للمعونات الإنسانية في الشمال. والرئيس قال إنهم بحاجةٍ إلى أكثر من قاعدة واحدة. «إننا نحتاج إلى واحدة في مزار الشريف وواحدة في كابول».

وأعطى فرانكس تقييمه لاجتماعاته من كبار القوم في ستة بلدان. وقال إن الاستقبال الحار الذي لقيه من السعوديين فاجأه. وقد فهموا أن ذلك سيكون مجهوداً طويل الأمد. وقد واجَهَ بعض المقاومة البيروقراطية فيما دون المستويات العليا في المملكة العربية السعودية، وهذا يعني أن بعض الاحتكاكات ستحدث، ولكننا سنعالجها، قال فرانكس.

وفيما يتعلق بقَطَر قال فرانكس: «لقد تلقينا بعضَ الطلبات منهم. وهم يعالجون طلباتنا».

«مشرّف هادئ واثقٌ ملتزم. ويجب علينا أن نُقِرّ أن ما نقوم به في باكستان يخلق مشكلات له في شارعه، وعلينا أن نكون حسّاسين لذلك»، قال فرانكس. ونقل أن القائد الباكستاني قد قال له إنه يرغب في أن ينتهي الأمر في أفغانستان سريعاً. وقال إنه أجاب قائلاً لمشرف: «إن ذلك سيتوقف عليك أكثر من توقفه عليّ».

إن باكستان مسمار دولاب العملية.

وأن أوزبكستان بحاجة إلى المزيد من العمل. وأَوصى فرانكس بأن يذهب رامسفيلد لرؤية كريموف.

وقال فرانكس أن لديه فريقاً للتقييم بعمل في القاعدة الجوية في طاجيكستان.

والولايات المتحدة بحاجة إلى أن يكون لديها امتداد أكبر وأفضل في الشؤون العامة. وعلينا أن نقوم بذلك في الداخل، قال فرانكس. «إننا بحاجة إلى إيصال الرسالة إلى وسائل إعلام البلدان في الخارج. ونحتاج إلى أن نكون مرئيين حيث نريد أن نكون مرئيين، وغير مرئيين حيث نريد أن نكون غير مرئيين». وكان يبدو أنه يقول إن من المهمّ أن تكون آثار أقدامنا خفيفة بقدر الإمكان.

«إنهم يفهمون على وجه العموم أن مجهودنا لن يكون قصير الأمد»، قال فرانكس. «ومن المهمّ جداً أن نُظهر العزم».

«ما زلنا نُدخل إلى الميدان مصادر القوة التي نحتاج إليها لمتابعة الحرب بالطريقة التي يجب أن تُتابَع فيها هذه الحرب»، أضاف فرانكس. إنهم يرسلون طائراتهم البريداتور الخاصة للمراقبة الجوية، ولكن نسخة العسكرية الأمريكية من هذه الطائرات دون طيار لم تكن مسلّحة بصواريخ هلغاير، على العكس من نسخة وكالة المخابرات المركزية منها.

وسيقوم فرانكس بنقل طائرات من طراز غلوبال هوكس ـ وهي طائراتُ مراقبةٍ بعيدة المدى من دون طيار تطير على علوٍّ مرتفع ـ ونظام رادار للمراقبة المشتركة ومهاجمة الأهداف، وهو نظام يكتشف التحركات الأرضية للدبابات أو غيرها من المركبات على مدى مساحات واسعة. وهذا النظام يؤدي بالنسبة للأرض ما يؤديه نظام آواكس بالنسبة للمراقبة الجوية. «إننا في هذا الوقت ننقل هذه الأنواع من مصادر القوة التي سنحتاج إليها حقاً عندما يبدأ هذا الأمر بالتصاعد»، قال فرانكس.

وقال فرانكس إنهم لم يزيدوا عدد الفِرَق على الأرض منذ الأسبوع الفائت. «روستم هو أفضل من لدينا. وهو مُتْعَبٌ ويفتقر إلى المعدّات الطبّية والملابس والذخائر. على أنّ إعادة التجهيز ستتمّ خلال سبعة أيام. وعلى وجه

الإجمال، قال فرانكس، عليهم أن يحسّنوا عملهم بالنسبة لإيصال المعدات إلى كل قوات المعارضة. «يجب علينا أن نكون على نار متقدة».

وقال بوش إنه يوافق على ذلك.

وقد تَبَيَّنَ أن الروس مستعدون لإرسال الأسلحة إلى الحلف الشمالي، ولديهم بعض شبكات التوزيع، إلاّ أن جهةً ما يجب أن تدفع ثمن الأسلحة. وفي نهاية المطاف تَقَرَّرَ أن وكالة المخابرات المركزية ستدفع. إنهم سيعطون عدوّهم السابق عشرة ملايين دولار. وستتعامل رايس مع وزير الدفاع الروسي لعمل الترتيبات النهائية.

وكان فرانكس يُعِدُّ لائحة بالكهوف والأنفاق التي يمكن أن تكون مخابئ لبن لادن والقاعدة والطالبان. وكان لديه بين 150 و160 مكان على لائحته. وقال إن 75 من هذه الأمكنة قد ضُرِبَتْ. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان لدى القائد الأعلى للقوات المسلحة لائحة بمواقع يُشْتَبَهُ أن فيها أسلحة دمار شامل - وهو يتفحّصها واحداً واحداً.

«والآن، سيدي الرئيس»، قال فرانكس، «لأُخْبِرَكَ بالمشكلات المحددة التي سأعمل عليها في الأيام السبعة القادمة. وأنه يريد إعطاء بوش إحساساً عملياتياً بالتفاصيل. هناك مشكلة أن القوات من المملكة المتحدة تواجه متاعب في الدخول إلى باكستان، ويحاول القائدُ الأعلى للقوات المسلحة أن يتأكد من أن ذلك سيحدث. «إنني أحاول التأكد من أنه بإمكاننا وَضْعُ طائرات» - وحدّد نوعاً معيناً من الطائرات - «في القاعدة في أوزبكستان. وأنني أحاول أن أجلب معدات الطقس البارد - خِيَم وملابس -» وقد حصل على بعضها من الروس. «ولديّ فريقان إضافيان من القوات الخاصة أحتاج إلى أن أُدْخلهما إلى أفغانستان هذا الأسبوع. أحتاج إلى أن أُقيم نظام الرادار للمراقبة ومهاجمة الأهداف وأُشغّله في المحيط هناك. وعليّ أن أسوّي علاقاتي مع قَطَر».

وكان تشيني صامتاً على الأكثر كعادته، يستمع باهتمام، ورأسه مائلٌ بين الفينة والفينة. «أعتقد أن الوقت في صالحنا من الناحية العسكرية في أفغانستان»، قال نائب الرئيس، «ولكن في المحيط الأوسع، نحتاج إلى إلحاحٍ أكبر. كلما طال الزمن على بقاء أسامة بن لادن طليقاً، كلما ازداد خطر ضربةٍ هنا في الوطن».

وفكّر تينيت أن مسألة بقاء بن لادن طليقاً قد تزيد الخطر أو لا تزيده. فإنه إذا كان طليقاً فقد يأمر بهجوم آخر. ولكن إذا قُبِضَ عليه أو قُتِلَ، فإن أفراداً آخرين في القاعدة قد يقرّرون أن يُقدموا على العمل من باب الانتقام أو اليأس. ولكن تينيت لم يقل شيئاً.

«قد يكون لديهم أسلحة ذرية»، قال تشيني، طارحاً الاحتمال الأسوأ. «وقد يكون لديهم أسلحة كيميائية أو أسلحة بيولوجية. إن وجود الحلفاء في المنطقة هو مسألة هَشَّةٌ بالنسبة لنا. والعواقب الاستراتيجية لتغلُّب المتطرفين على السلطة في باكستان أو المملكة العربية السعودية ستكون ضخمة. وثالثاً، إن درجة الصبر في الولايات المتحدة سوف تتبدّد إذا ضُرِبْنا مرة أخرى».

«ولذلك»، قال تشيني، موجهاً كلامه إلى فرانكس ورامسفيلد، «قد نحتاج إلى التفكير في إعطائكم موارد أكثر، وبرنامجاً زمنياً مختلفاً، وقوات أكثر، وإيقاعاً أسرع للعمليات». وسأل تشيني فرانكس عما إذا كان بحاجة إلى المزيد من التوجيه بشأن القيام بمخاطر أكبر في الميدان.

«القضية هي ما إذا كنا سنستخدم البدائل أو سنستخدم دوراً أمريكياً أكثر مباشرة»، قال فرانكس. «وعليّ أن أعرض ذلك عليكم. ولستُ راضياً بعد عن قدرتي على عرضه عليكم».

وكان فرانكس وموظفوه ورؤساء الأركان المشتركة يُجبرون أنفسهم على مواجهة الاحتمال أنهم سيضطرون إلى إرسال قوة أرضية كبيرة من الجنود

الأمريكيين إلى أفغانستان. وذُكِرَ رقمٌ يتراوح بين 50,000 جندي إلى 55,000 جندي. وكان هذا الرقم مذهلاً، وهو يشير إلى نوع من الحرب الأرضية أملى التاريخُ العسكري أنه يجب تفاديه في آسيا مهما كلّف الأمر.

وكان الرئيس على علم بالرقم موضوع البحث. وقد تَذَكَّرَ في مقابلةٍ فيما بعد أنه عالج «المخطط حيث قد نحتاج إلى وضع 55,000 جندي هناك».

«ما مدى قدرة قوات المعارضة؟» سأل پاول. «هل علينا أن ندرّبهم؟» وكان پاول قد وجد خلال سِنِيِّهِ الـ 35 في العسكرية أن التدريب قد يأتي بنتائج جيدة. ولم يكن پاول ولا أي شخص آخر مستعداً لجواب فرانكس.

«إنني لا أضع أيّ ثقة في المعارضة»، قال القائد. أمّا بالنسبة إلى السؤال عما إذا كان ممكناً تدريبُ الحلف الشمالي، فإن فرانكس قال: «لا أعرف». وكان مكتئباً بشأن فهيم، لأن فهيم كان ذا ميزةٍ ولم يكن يتحرك في الواقع. وعلى العكس من ذلك، فإن روستم كان عدوانياً من على ظهر حصان ـ مثل الجنرال باتون. «إن روستم يركب من 16 إلى 24 كيلومتراً في اليوم، خلال العواصف الرملية أو العواصف الثلجية، مع أناسٍ تنقصهم الأرجُل. وهم يذهبون لتفجير مخفر أمامي للطالبان، ويتلقون الإصابات رغم علمهم بأنه ليس لديهم معونة طبّيّة».

«ولذلك»، قال فرانكس، فرغم أنه قد فقد ثقته بقوات المعارضة، فإنه سيستمر في الاستراتيجية المالية، «فيما يقوم في نفس الوقت ببعض التخطيط ليرى ما إذا كنا بحاجةٍ إلى التمكّن من القيام بنوع من الأشياء التي وصفها نائب الرئيس».

ولم يكن الرئيس يعرف أن تشيني سيثير هذه القضايا، ولكنْ ما إن سأل تشيني الأسئلة حتى وجد الرئيسُ أن الأسئلة تستحق الإنصات. وأنه يريد أن يأخذ فرانكس هذه الأسئلة وأخذ الجدّ. وسأل فرانكس: «متى يمكنك إعطائي بعض الخيارات على النمط الذي يتحدث عنه نائب الرئيس؟».

«في خلال أسبوع»، قال فرانكس، «ولمجموعة صغيرة جداً».

وكان بوش قد سأل فرانكس من قبلُ أيُّ الردود ممكنةٌ إذا ضربتْ القاعدةُ أرض الولايات المتحدة مجدّداً بطريقة ضخمة، وإذا أراد الرئيس أن يأمر بالتصعيد. «أنا مدين لك أيضاً بالخيارات عما نقوم به إذا ضُرِبنا مجدداً»، قال فرانكس.

وبعد الاجتماع اتصل تشيني بليبي هاتفياً، وكان ليبي قد حضر الاجتماع. «لم يقل أحدٌ قطّ أن هذه الوظائف سهلة»، قال نائب الرئيس.

22

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم السبت الواقع في 3 نوفمبر/ تشرين الثاني عَبْر الفيديو الأمين، نقل ماكلوخين أنّه كان الآن لدى وكالة المخابرات المركزية أربعة فرق شبه عسكرية داخل أفغانستان. وكانت الخطة تقضي بأن يُدْفَع فريق دِلْتا التابع للوكالة ـ والذي كان قد انضمّ لتوّه إلى خليلي على بُعْد 160 كيلومتراً تقريباً غرب كابول ـ للالتحاق بكاسر الفك وفَهيم شمال كابول ومن ثَمّ الاندفاع جنوباً نحو العاصمة.

أمّا الفريقان الآخران فإنّهما سيندفعان شمالاً إلى مزار الشريف، فريق ألْفا مع روستم وفريق بْرافُو مع عطا.

ثمّ قال ماكلوخلين للحاضرين: «إنّ الأشرار يبحثون عن أخبار جيدة في الأيام القليلة القادمة». وكانت التقارير عن التهديدات تتصاعد مرةً أخرى.

وكانت الأخبار سيئة عن الجبهتين كلتيهما ـ تقدُّمٌ ضئيل على الأرض في أفغانستان، واحتمال كبير لهجوم آخر في الوطن. وكان من المُحْتَمَل أن يكون ذلك الهجوم قد بدأ بالفعل عندما أُرسلتْ أبواغ الأنثراكس عبر البريد. وكان بوش قد أشار في اليوم السابق إلى «حرب على جبهتين».

وكان وُلْفُوويتز يحلُّ محلّ رامسفيلد ـ الذي كان في رحلة قصيرة مدتها

أربعة أيام إلى روسيا وطاجيكستان وأوزبكستان والباكستان والهند ـ وكانت لديه أخبار مُخَيِّبة للآمال أيضاً. «إنّ الطقس رديء. ولقد فقدنا طائرة بريداتور ثانية بسبب الجليد. وبقي لدينا 16 طائرة. ونحن في صَدَد إنتاج المزيد من «الطائرات».

«وماذا عن الغزو الوشيك لمزار الشريف؟» سأل الرئيس. «هل قال أحدٌ بأنّه سيحدث في الخامس من نوڤمبر/تشرين الثاني؟» وكان هذا على بُعد يومين.

نعم، لقد كانت هذه هي الخطة. ولكنّهم لم يكونوا واثقين أنَّ بإمكانهم الاعتماد عليها.

وكان لدى الجنرال مايرز شيء إيجابي. «إنَّ لدينا الآن فريقاً عسكرياً ثالثاً من القوات الخاصة مع خليلي». وكان ذلك الفريق يعمل مع فريق دِلْتا التابع لوكالة المخابرات المركزية ومع خليلي بالقرب من باميان.

وسأل الرئيس: «إذن بقي عليك إدخال أربع أو خمس فِرَق، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم الاثنين الواقع في 5 نوڤمبر/تشرين الثاني، حاول ولفوويتز أنْ يُظْهِر أنّهم كانوا يضغطون بشدة. فأعلن أنَّ «90 بالمئة من طلعاتنا الآن هي لمساندة المعارضة» ـ وهي أهداف تستدعيها الفرق من نوع أي التابعة للقوات الخاصة، وضرب الخطوط الأمامية للطالبان والقاعدة وتجمّعات قوّاتهم.

ثم قال: «إنَّ مُعَدَّل طلعاتنا تَصَاعَدَ بنسبة 20 إلى 30 بالمئة. ونحن نستخدم طائرات ف ـ 16 وف ـ 15 التي تنطلق من الكويت. وهذه مسافة كبيرةٌ. وكانت الكويت ـ التي كانت الولايات المتحدة قد حرّرتها خلال حرب الخليج سنة 1991 ـ مستعدةً للسماح بشنّ الضربات المعادية من أرضها، ولكنّها كانت تبعد مسافة 1,600 كيلومتراً عن أفغانستان.

ثم أعلم ولفوويتز أنّ قائداً من الشرق الأوسط كان قد أخبر الجنرال فرانكس بأنّه ليس هناك من داعٍ لقيام الولايات المتحدة بالتوقف عن القتال خلال رمضان وأنّه في 37 سنة من السنوات الـ 54 الأخيرة حدث قتال خلال رمضان ـ وأغلبية هذا القتال كان بين عربي وعربي.

وطبعاً كان الرئيس قد قرّر مسبقاً أن يضرب بالقنابل خلال الشهر الإسلامي المقدّس.

ولكن، أضاف ولفوويتز، نفس القائد قال إنّ على الولايات المتحدة أن تخفّف من الضرب خلال أوقات الصلاة. فأصبحت هذه الصيغةَ التي تبنّوها.

«ما هي قوة العدو في الشمال؟» سأل الرئيس. فتقارير المخابرات المعمولة حسب قطاعات البلاد كانت مبعثرة. ومع أنّه لم يُفصح بهذا، فإنّ تينيت كان يعلم أنّ أفضل ما يمكن وكالة المخابرات المركزية أن تقدمه حقاً هو التخمين البحت من غير أية بيّنة.

وتابع بوش: «هل أعطينا رجال القبائل مهمة مستحيلة؟» ذلك أنه كان لفهيم في الشمال الشرقي تفوّق عددي ولكنه لم يكن يتحرّك. أمّا رُوستم، الذي كان مُتَفَوَّقاً عليه عددياً بطريقة ساحقة، فإنه كان يحاول أن يتحرّك.

فقال ولفوويتز بأنّ الطالبان كانوا يحصلون على تعزيزات، ولكن فرانكس اعتقد بأنّ لهذا الخبر جانب جيد ـ إنّ هذه ستكون أهدافاً جديدة.

قال بوش: «أُريد أن أسمع المزيد عن هذا من دون».

بعد ظهر اليوم نفسه التقى الرئيس بوش بالرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة. والجزائر أكبر دولة في أفريقيا، وكانت وكالة المخابرات المركزية تُقدّم عوناً مالياً ضخماً لخدمات المخابرات فيها، مُنْفِقةً الملايين للحصول على مساعدتهم في الحرب ضدّ القاعدة.

فالقبض على أحمد رسّام ـ وهو عميلٌ إرهابي جزائري ذو مستوى متدنٍّ ـ

في ديسمبر/كانون الأول من سنة 1999 لم يكن قد ساعد في تفريق المؤامرة الإرهابية في الذكرى الألفية فحسب، ولكنّه أشار أيضاً لوكالة المخابرات المركزية إلى وجود شبكة جزائرية للقاعدة مكوّنة من إفريقيين سود. وكانت النتيجةُ مضاعفةَ العدد المعروف من أعضاء القاعدة في العالَم، وهو اكتشاف هامٌ ومقلق. واعتبر تينيت هذا تحذيراً بأنَّ على وكالة المخابرات المركزية تَفَقُّدَ ليس فقط الوجوه العربية ولكن الوجوه الإفريقية أيضاً في عمليات مكافحة الإرهاب.

ووعد بوش الرئيس الجزائري أنّ الولايات المتحدة ستُكْمِل عمليتها وتعود إلى وطنها. «إنّ أكبر مشكلة نواجهها هي فيلق صحافي نافد الصبر. إنّهم يريدون أن تنتهي الحرب البارحة. إنّهم لا يفهمون الوضع».

في الموجز الصحافي للپنتاغون ظُهْرَ يوم الثلاثاء الواقع في 6 نوڤمبر/تشرين الثاني، قال رامسفيلد إنّه يعتقد أنّ معالجة الطالبان والقاعدة سيستغرق أشهراً.

واستسفر صحافي: «ما الذي دفعك إلى هذا الاستنتاج؟».

«إنّه واضح أنّ هذا تقدير»، أجاب رامسفيلد. «فأنا لم أقترح شهراً أو شهرين أو ثلاثة أشهر: أنا قلت أشهراً لا سنوات. وهذا يعني أنّه قد يكون طول المدة 23 شهراً».

وضحك الصحافيون.

«إنّ لديّ نطاقاً كاملاً من واحد أو اثنين إلى 23. وفكّرتُ في نفسي عندما سُئلتُ ذلك السؤال، وأَجَبْتُ تلقائياً حسب مقدرتي وقلت: هم، أراهنكم بأنها أشهر لا سنوات. هل من الممكن أن أكون مخطئاً؟ هذا جائز. هل أعتقد أنني مخطئ؟ كلاّ.

المزيد من الضحك.

وفي مجلس الأمن القومي صباح يوم الأربعاء الواقع في 7 نوڤمبر/تشرين

الثاني، نقل تينيت أنّ وكالة المخابرات المركزية لا تزال تحاول إيصال الفريق شبه العسكري تشارلي إلى إسماعيل خان في الغرب.

ثم قال معذِّباً الجميع: «يبدو أنّ هناك تقدّماً حول مزار الشريف». ولكن الصورة الكاملة لساحة القتال كانت كالعادة غير واضحة بشكل مقلق.

فقال رامسفيلد: «إنّ هناك أربعة فرق أخرى من القوات الخاصة عليها الدخول ـ بل هي في قيد الدخول». وكان هذا يعني بأنّها لم تكن قد دخلت بَعْدُ ـ أي أنه لم يكن قد تغيّر شيء منذ يوم السبت. «إنّنا نقوم بإعادة تزويد روستم وعطا وخان. ونحن مستمرّون في العمل على الكهوف».

«إنّ قصة الكهوف مهمّة»، قال الرئيس. لقد كان يُتابع عن كثب المخابرات بما في ذلك التسجيل التلفزيوني من السماء من قِبَل طائرات البريداتور. «فإنّها تُظهر بوضوح المشكلةَ في هذه الحرب»، قال بوش، ثم أضاف بسرعة. «ولكنّها تظهر أيضاً بوضوح تصميمَ الولايات المتحدة». إنّ البحث عن الطالبان والقاعدة في شبكات الكهوف كان صعباً ومملاً وخطراً.

وفي وقت لاحق من نفس اليوم ـ 7 نوفمبر/تشرين الثاني ـ جاء طوني بلير بطائرة الكونكورد لزيارة بوش. فالتقيا لمدة قصيرة في المكتب البيضوي. ثم عقدا مؤتمراً صحافياً مشتركاً حاولا فيه دعم بعضهما البعض ودَعْمَ القضية ضد الإرهاب، ثم تناولا العشاء مبكراً مع بعض المساعدين، ومن ثم صعدا إلى الطابق الأعلى للتشاور وَحْدَهما.

وأراد بوش أن يُفضي بهمومه وأن يتحدّث عن الأمور بجدِّيّة مع نظير له. مع رئيس دولة آخر. وكان يُريد قضاء بعض الوقت على انفراد مع حليفه الرئيسي. إن بوش وبلير متورطان في هذه القضية معاً ـ فكلاهما كانا قد خاطرا بمنصبيهما ومستقبليهما وسُمْعتيهما بإقدامهما على المشروع الحالي.

ولم يكن الوضعُ سعيداً كما كانا يظهرانه علانيةً. لقد كان هنالك عجز

عن التقدم في أفغانستان وكانت الأسئلة كثيرة. متى سيقنعون الأوزبكيين بالموافقة على إعطاء الحقوق الكاملة لإقامة القواعد؟ إنّ الأوزبكيين كانوا يتلاعبون بهم. وماذا عن مزار الشريف؟ وهل كانت كابول في خطر من استيلاء الحلف الشمالي عليها، وبذلك يُستثنى أي فردٍ عادي من الباشتون من إحراز أي كسب فيها؟ وكيف كان بإمكانهم سحب الباشتون من الطالبان؟ وما هو الإغراء الذي يمكن عَرْضُهُ؟ المزيد من المال والأمن والشعور بأن الولايات المتحدة وبريطانيا هما مع الجانب المنتصر؟ إنّ عليهم أن يلبّقوا فكرة النصر المحتوم.

ولأول مرة بدا وكأنّ الوضع في الشرق الأوسط كان له تأثير على استراتيجية الرئيسين في التعامل مع أفغانستان. فبالنسبة لبلير، كان لا يزال من الممكن جَعْلُ القائد الفلسطيني ياسر عرفات يقوم بخطوات تتعلق بالأمن وبناء الثقة مع الإسرائيليين مهما صغرت هذه الخطوات. فكان عرفات يبدو شراً ضرورياً. أمّا بوش فكان يعتبر عرفات بشكل متزايد شراً محضاً.

وعاد بلير بالطائرة في تلك الليلة بعد قضاء ست ساعات تقريباً في الولايات المتحدة.

«إننا قد نستولي على مزار الشريف في خلال 24 إلى 48 ساعة»، أخبر تينيت بعض الزملاء الشاكّين في اجتماعٍ للرؤساء يوم الخميس الواقع في 8 نوفمبر/ تشرين الثاني. فروستم وعطا كانا منهمكين في تطويق المدينة. «إن أحدهما على بُعد سبعة كيلومترات والآخر على بُعد 15 كيلومتراً من المدينة». وقال إنّه سيضغط على الباكستانيين ليستخدموا صِلاتِهم القَبَلية في جنوب أفغانستان ليحضّوا الجنوب على الثورة. «ليس لدينا أي شيء يسير بنجاحٍ في الجنوب، وليس عندنا شيء نضعه على الطاولة».

وكان لدى تينيت خبر سيّئ آخر. «من الجائز أنّ الإيرانيين قد غيّروا جانبهم وأنّهم بدأوا بمناصرة الطالبان». وكانت إيران أحد أكبر المساندين للحلف الشمالي قبل 11 سبتمبر/ أيلول ـ بالإضافة إلى الولايات المتحدة وروسيا

والهند ـ ولكنّها باتت الآن قلقة من أنّ الولايات المتحدة قد تحصل على موطئ قَدَم من نوعٍ ما في أفغانستان. وأظهرت المخابرات الحسّاسة أنّ الحرس الثوري الإيراني ـ وهو العنصر المتطرف الذي بيده السلطة الحقيقية ـ كان يرسل الأسلحة إلى الطالبان وأنّه كان يحاول الاتصال بالقاعدة. وكان بعض أعضاء القاعدة يستخدمون إيران كنقطة عبور من أفغانستان إلى أماكن كاليمن.

وكان الجانب الإيجابي الوحيد هو أنّ الوضع كان يوحي بأنّ الحلف الشمالي كان أقرب إلى النصر مما كان يعتقده الجميع.

وكان لدى رامسفيلد فكرة بالنسبة إلى الإغراءات. «يجب علينا أن نخبر الجماعات القَبَلية في الجنوب أنهم إذا انضموا إلينا وأمدّونا بالمساعدة فإنّنا سنقبل أن يكون لهم دور في الحكومة. والاختيار سيكون إذا ما كانوا سيتصرفون الآن ضد القاعدة والطالبان». فكان رامسفيلد يقترح نوعاً من برامج العفو العام ـ انضموا الآن وستُنْسَى ارتباطاتكم الماضية. وكان هذا ضرورياً لأنّ جميع القبائل في الجنوب كان لديها بعض العلاقات مع الطالبان. فمنعهم من الاشتراك في الحكومة الجديدة لن يعطيهم أي حافز للمساعدة الآن.

«أنا أوافق»، قال پاول، متفقاً على نحو غير عادي مع رامسفيلد. «إنّ ذلك هو الاختبار الصحيح». فكان هذا البرنامج يمثّل نوعاً من الصفقات العمليّة التي كانت تعجب پاول. إنّ الصفاء لن ينجح. أمّا هذا البرنامج فإنه سياسة عمليّة.

ذهب هانك إلى أفغانستان ليُعاين الخطوط الأمامية مع بعض الفرق شبه العسكرية التابعة للوكالة. وكانت الملايين من الدولارات التي كانت الفرق توزّعها في عمليات سرية تعمل العجائب. وقد حَسَبَ هانك أنّ الآلاف من الطالبان كان قد تم شراؤهم. وكان الحلف الشمالي يحاول أن يحثّ على الارتداد من صفوف الطالبان أنفسهم، ولكن وكالة المخابرات المركزية كان بإمكانها الحضور وعرض الأموال. وكانت يد الوكالة غالباً مخفية لدى بدء

المفاوضات ـ 10,000 دولار لهذا القائد الأدنى ولعشرات المقاتلين تحت إمرته، و50,000 دولار لهذا القائد الأكبر مقاماً ولمئات المقاتلين تحت إمرته.

وفي إحدى الحالات. عُرِضَ مبلغ 50,000 دولار على قائد ليرتدّ، فقال القائد: دعوني أفكر في الأمر. فقام الفريق من نوع أ من القوات الخاصة بتوجيه قنبلة محدّدة من نوع جاي ـ دام إلى خارج مركز قيادة هذا القائد تماماً. وفي اليوم التالي أعادوا الاتصال بالقائد. ما رأيك بـ 40,000 دولار؟ فقبل.

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم الجمعة الواقع في 9 نوفمبر/ تشرين الثاني، نقل الجنرال فرانكس: «إنّنا نقوم بـ 90 إلى 120 طلعة يومياً؛ و80 أو 90 بالمئة منها هي لدعم المعارضة. ونحن نركّز على مزار الشريف». ثم قال إنّهم يزوّدون خمسة من القادة القبليين الرئيسيين العشرة. «إنّنا نزوّدهم بالعُدّة للطقس البارد وبالذخيرة. ونحن نقوم بإعداد الرُزَم في تكساس، وبعدها تُجَهَّز للإرسال في ألمانيا. ونَقْلُ هذه الرُزَم إلى ألمانيا يستغرقُ يومين، ومن ثَمَّ نوزّعها بعد يومين أو ثلاثة». لقد بدأوا بالحصول على سلسلة لوجستية يمكن الاعتماد عليها.

«مع نهاية هذا الشهر ستكون لدينا سلسلة في حالة جيّدة حول مزار الشريف. ونحن نعمل لحضّ فهيم وخان على التحرّك».

ثم انتقل فرانكس إلى ذلك النوع من الموجز المفصّل الذي كان قد بدأ بتزويد الرئيس ووزارة الحرب به.

«هنالك سبعة أشياء أقوم بالعمل عليها في هذا الأسبوع. إنني أُحاول أنْ أجعل المملكة المتحدة مقبولةً لدى الباكستانيين؛ وأحاول إدخال المزيد من الطائرات المقاتلة إلى أوزبكستان؛ وأحاول أنْ أُسوِّي أمور القواعد والإقلاع من طاجيكستان؛ وأحاول أن أُوصل عُدَداً للطقس البارد إلى المعارضة؛ وأعمل مع فرق القوات الخاصة السبع التابعة لي ـ وسأُدخل فريقاً آخر مع إسماعيل خان،

وستدّخل وكالة المخابرات المركزية في هذه الليلة، وسيدخل العسكريون في اليومين أو الثلاثة أيام القادمة؛ وبحوزتي جهازان من الأجهزة المتقدّمة للمراقبة الأرضية؛ وأقوم بإحضار المزيد من مصادر القوة».

ثم قال الجنرال فرانكس منتقلاً إلى العمليات الحاليّة: «إنني أقوم بمهاجمة القيادة؛ وأقوم بدعم المعارضة؛ وأقوم بمساندة عمل جنودنا العسكري المباشر ضد الأشرار؛ وأعمل على الكهوف والأنفاق. وهناك 450 كهفاً بين قندهار وكابول والحدود الباكستانية، وسيتصاعد ذلك الرقم إلى 1,000. وهذه مناطق نعتقد أنّ بعض الفئات قد تكون موجودة فيها. وقد أعطبنا فوق المئة من هذه الكهوف».

ثم ختم فرانكس تقريره قائلاً: «علينا أن نُبقي توقعاتنا منخفضة».

ثم استفسر الرئيس: «طومي، هل تحصل على ما أنت بحاجة إليه؟» وكان هذا سؤالاً يسأله تكراراً.

«أنا سعيد»، قال فرانكس. «وأنا أحصل على ما أريد. والحرب تسير بشكل رائع».

وقال بوش: «إننا بحاجة إلى استراتيجية محدّدة للشتاء نزوّد بها الرئيس ووزير الدفاع».

«إننا لن نتوقف في الشتاء»، ردّ رامسفيلد. «فنحن نستطيع أن نستمر بالقيام بمعظم ما نقوم به الآن طوال الشتاء».

«دعونا لا نتكلم عن استراتيجية للشتاء»، قال باول. فالألقاب الموسمية قد تُفَسَّر على أنها تغيير في الاستراتيجية. «فلنتكلم فقط عن استراتيجية معيّنة».

فقال الرئيس: «رائع». ولكن مهما كان اللقب فإنّ هذا لم يقلّل من مشكلة الاتصال. «نحن نحتاج إلى عدد من النقاط لِدَحْضْ الفكرة، إنّ حلول الشتاء يعني أنّنا قد أخفقنا».

«ما هي المهمة بالنسبة لكابول؟» سأل كارد. «هل هي مهمة سياسية؟ هل هي مسألة عسكرية؟».

«لا أحد يريد أن يرى الحلف الشمالي في كابول»، قال پاول، «ولا حتى الحلف الشمالي». إن الحلف أدرك أنّ القبائل الجنوبية سيُجنّ جنونها إذا رأت منافسيها في العاصمة.

وسار تشيني ـ الذي كان يقيم خلال هذه المدة في موقع غير مُعْلَن عنه ـ إلى الخارج لدى نقطة معيّنة وقال لمساعدٍ له: «إن الوضع ليس ظريفاً، ولكنّه يتقدّم».

كانت وكالة المخابرات المركزية وفِرَق القوات الخاصة مُركّزة حول مزارِ الشريف، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها 200,000 نسمة، وتقع على سهل مُغْبَرّ يبعد 56 كيلومتراً من الحدود الأوزبكية. وفي الأسبوع السابق لذلك، كان لوتننت كولونيل من القوات الخاصة قد تَسَلَّل إلى المنطقة مع خمسة رجال آخرين لتنسيق عمل الفرق من نوع أ. وكانت الفرَق تُوَجّه إطلاق نار مدمّر من الجو على الحلقتين من الخنادق الدفاعية للطالبان المحيطة بالمدينة القديمة.

وكانت إحدى الفِرَق قد انقسمت إلى أربع وحدات متراصّة للمساندة الجويّة منتشرة على مسافة تزيد على 80 كيلومتراً من الأراضي الجبلية الوعرة. وكان عدم وجود أهداف ثابتة قد حرّر قاذفات القنابل الأمريكية للقيام بهجمات موجّهة من قِبَلِ الوحدات المختلفة، فاستطاعت استخدام القنابل وكأنّها مدافع. وكان الفرق الكبير هو دقة الذخائر وحجمها. وكان وزن هذه القنابل 227 كيلوغراماً. وكانت خطوط الإمداد للطالبان وخطوط اتصالاتهم قد قُطِعَتْ نتيجة الضرب الشامل بالقنابل، ودُمِّرتْ المئات من مركباتهم ومن مواقعهم المحصّنة تحت الأرض، وقُتِلَ الآلافُ من الطالبان أو أُسِرُوا أو كانوا قد فَرُّوا.

ووافق أحدُ قادة الطالبان في الخطوط الأمامية مع عدة مئات من الرجال

على تبديل جانبهم وعلى السماح لقوات الحلف الشمالي بالعبور، مُضْعفين بذلك الخط الدفاعي.

وفي لحظة معيّنة، قاد روستم ـ وهو يمتطي فرساً داكن اللون ـ هجوماً بالخيالة مؤلفين من 600 فارس تقريباً. وهاجم عطا في نفس الوقت. وأُسْقِطَتْ قنبلتان من نوع بي إل يو ـ 82 ـ وهو النوع المعروف باسم «ديزني كارتر» ـ تزن كل واحدة منهما 6800 كيلوغراماً، فتركتا شعاعاً من الدمار طوله 548 متراً، وقتلتا الكثيرين ومزّقتا رئات وطبلات آذان مَن لم يُقْتل.

لقد نُسِّقَ أخيراً العنفُ العظيم الذي كان بإمكان الولايات المتحدة إحداثُهُ.

وبعد الغداء بمدة، دخل الليوتننت كولونيل في الجيش طوني كروفورد ـ وهو اختصاصي في المخابرات ومساعد تنفيذي لرايس ـ إلى مكتب رايس الواقع في ركن من الجناح الغربي.

«إنّ مزار الشريف قد سقطت». قال كروفورد. «إنّ التقارير تصلنا بأنّ مزار الشريف قد سقطت».

«ما معنى ذلك؟» سألت رايس بارتياب. «هل هم في وسط المدينة؟ ما معنى (إنّ مزار الشريف قد سقطت)؟».

فقال كروفورد بأنّه سيذهب ليكتشف مغزى التقارير.

وعاد كروفورد بعد مدة وجيزة ليُعلن أنّ جنود روستم كانوا بالفعل في وسط المدينة. وكان السكّان المحليّون ينزعون ثياب الطالبان التي كانوا يرتدونها. وكانوا يحتفلون، وكانت الخرفان تُضَحّى. وكانت النساء يلوّحن بأيديهنّ ويهلّلن ويصفّقن.

ماذا تفعل مستشارة الأمن القومي في حالة مثل هذه؟ أدارت جهاز

التلفزيون على قناة سي أن أن، فأكّدت القناةُ التقارير. ثم اتصلت رايس برامسفيلد لتعلمه الخبر.

«حسناً»، ردّ رامسفيلد، «سوف نرى».

ففي رأيه أن التقارير الأولى خاطئة تقريباً كل مرة، وكان يبدو أنّ التقارير عن مزار الشريف خاطئة. لعلّها سقطت اليوم، ولعلّها لن تكون قد سقطت غداً.

وسارت رايس لتخبر الرئيس. وكان قد سمع الخبر من قبل. «هذا جيّد». قال الرئيس، وهو يكبح حماسته.

ولاحظت رايس أنّه لم يُخرج سيجاراً ليمضغه ـ وكانت هذه علامة اعتيادية على الاحتفال الحقيقي.

وتذكّر الرئيس بعدها بثمانية أشهر: «إن الشيء الذي أتذكّره هو اتحاد فلان من الحلف الشمالي مع علاّن، وسيرهما عبر الوادي أيّاً كان اسمه».

ولكن في ذلك الوقت سأل بوش رايس: «حسناً، تُرَى ما بعد ذلك؟».

وفي الساعة الرابعة وخمس دقائق من بعد ظهر ذلك اليوم، استقبل الرئيس وزير الخارجية السعودي الأمير سعود ـ وهو عالم بالاقتصاد ورجل أعمال متخرج من جامعة برنستون ـ في لقاء خاص. فأخبره سعود: «علينا أنْ نُظهر التضامن لنتخلّص من الإرهابيين في أفغانستان».

فقال بوش: «أنا أعتقد أنّ أسامة بن لادن يكرهكم أكثر مما يكرهني».

فأجاب الأمير: «إنّه لشرف أنْ نُكرَه من قِبَلِ شخصٍ مثله». لقد كان خمسة عشر من خاطفي الطائرات الـ 19 سعوديين. وكان السعوديون يعتقدون أنّ بن لادن اختار خاطفين سعوديين على وجه الخصوص ليُحدث انشقاقاً بين الولايات المتحدة وبينهم.

وقال سعود: «نحن لن نفعل أي شيء للإضرار بالاقتصاد الأمريكي». لقد كان السعوديون يزوّدون 8 بالمئة تقريباً من النفط المُسْتَهلَك يومياً في الولايات المتحدة وكان بإمكانهم تخفيض الإنتاج وجعل الأسعار ترتفع كثيراً.

وفي يوم السبت، سافر بوش بالطائرة إلى مدينة نيويورك لإلقاء خطاب صباحي أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة ودعا لتكوين دولة فلسطينية.

وفي جناح الوالدورف تاورز ـ وهو المسكن التقليدي للرؤساء ـ جرى أول لقاء لبوش مع الرئيس الباكستاني مشرّف.

«أنت في موقف حرج للغاية»، قال بوش، «ولكنّك قمتَ بالخيار الصحيح».

«نحن معكم»، قال الرئيس الباكستاني. «ونحن سنبذل جهدنا مهما تطلّب ذلك الجهد من الوقت».

فقال بوش: «أنا أُريد أن تنتهي الأمور بسرعة». وكان بذلك يتعرّض لأحد أكبر هجوم مشرّف. «فإنّه من المهمّ أن نجد العدو وأن نستخدم جميع الموارد». ولكن بوش أضاف بُعْداً جديداً. لقد كان الرئيس قد سُحِرَ بمقدرة وكالة الأمن القومي باعتراض المكالمات الهاتفية والاتصالات الأخرى حول العالَم. فإذا فازوا بمكالمات هاتفية أساسية، فإنّ الإرهاب في المستقبل قد يوقّف، وبدون شك سيتقلّص. ثم قام بوش بتلخيص استراتيجيته: «اسْتَمِعْ إلى كل مكالمة هاتفية وأَطبق عليهم واحمِ الأبرياء».

وقال مشرّف إنّه على الرغم من الأدلة والهموم، فإنّه لم يكن يعتقد بأنّه كان في حوزة بن لادن والقاعدة أجهزة نووية. وكان يُقلقه أنّ الحلف الشمالي ـ وهم مجموعة من السفّاكين القَبَليين ـ قد يسيطر على أفغانستان.

فقال بوش: «أنا أفهم قلقك تجاه الحلف الشمالي بشكل تام».

ثم قال مشرّف بأنّ أكبر خوف يعتريه هو أنّ الولايات المتحدة ستتخلّى

عن الباكستان في نهاية المطاف، وأنّ مصالح أخرى ستدفع بالحرب على الإرهاب جانباً.

فحدّق بوش في عينيه. «أخبر الشعب الباكستاني أنّ رئيس الولايات المتحدة قد نظر إلى عينيك وأخبرك أنّ الولايات المتحدة لن تفعل هذا».

وتكلّم مشرّف عن مقال في مجلة النيويوركر للصحافي المحقّق سيمور هيرش يدّعي فيه بأنّ البنتاغون ـ بمساعدة وحدةٍ إسرائيلية للعمليات الخاصة ـ لديه خطط للطوارئ للاستيلاء على أسلحة الباكستان النووية إذا ما غدت الأوضاع غير مستقرة في الباكستان.

فردّ بوش: «إنّ سيمور هيرش كذّاب».

وبعد الساعة السادسة من ذلك المساء، ذهب بوش ومشرّف إلى غرفة الإمبراطورية في فندق الوالدورف ـ إستوريا للإدلاء بتصريحاتهما وللإجابة على بعض الأسئلة من الصحافيين.

ماذا عن احتلال الحلف الشمالي لكابول؟

«إنّنا سنشجّع أصدقاءنا للتوجه إلى الجنوب عبر سهول الشمالي ولكن ليس إلى داخل مدينة كابول»، قال بوش.

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم الاثنين الواقع في 12 نوڤمبر/تشرين الثاني، وصف هانك التحركات على الأرض بواسطة خارطة. «إنّ قوات الطالبان في الشمال محصورة الآن في قندز ولكنّها لا تزال تقاتل. ونحن قد أعلمنا الروس، وهم سينشرون قوّاتهم على الحدود الطاجيكية لمنع الطالبان إذا ما سعوا إلى الدخول إلى طاجيكستان». إنّ عشرات الآلاف من الجنود الروس كانوا قادمين سراً للمساعدة. وكان بوش مسروراً جداً. وكان بوتين سيزور الولايات المتحدة في اليوم التالي.

«أمّا في باميان، فإنّ هناك فريقاً مشتركاً من القوات الخاصة مع خليلي»،

قال هانك. «وقد احتلّ خليلي باميان. وهو يتقدّم نحو وردك، وبعد ذلك سيتقدّم نحو كابول. وقد احتلّ إسماعيل خان هراة».

وقال هانك إنّ المفاجأة الحقيقية كانت كابول. فإنّ 10,000 إلى 12,000 جندي كانوا يتقدّمون نحو العاصمة في مجموعات يتكون كل منها عن 500 جندي. وكانت المقاومة ضئيلة. «وهناك خطر بأنّ الطالبان سيقصفون كابول من سلسلة من الجبال إلى الجنوب».

«إنّ هذا هدف جيد لهجماتنا الجوية»، قال الرئيس. وكان الرئيس قد أدرك أنّ الهجمات الجوية قد تُغيّر مسار الحرب وأن الأرض قد بدأت بالتحرك.

وكان أحد قادة الباشتون قد انضمّ إلى قائد الحلف الشمالي فهيم مع 4,000 مقاتل للزحف على كابول. «إنّه سيقوم بالاندفاع إلى الجنوب، ثم سيقوم بالتقاط بعض قادة الباشتون وسيتحرّك إلى الجنوب من كابول»، قال هانك. «وإنّ إسماعيل خان مستعد للسير على الطريق الدائري نحو قندهار».

«والذي يحصل في الجنوب هو كالتالي: لدينا كرزي، وهو مرتبط مع بعض الشيوخ في محافظة أُرُزْگان». وهم يعملون مع قواد مستقلين تحت إمرتهم عدد قليل جداً من المقاتلين، ومع بعض الشبكات الأكبر، وحتى مع بعض رجال القبائل بالقرب من معقل الطالبان في قندهار. وقال هانك إنه بالنسبة إلى القبائل الأقرب إلى الحدود الباكستانية في خوست وباكتيا، «نحن على ارتباط مع مكتبنا في بشاور ليقوم بالاتصال بهم».

وقال هانك إنّهم يحاولون تعجيل الاتصالات مع الجنوب بما أنّ الشمال كان قد بدأ بالتحرك. وكان من المهم إبقاء التوازن بين الشمال والجنوب ليكون لجميع العناصر حقٌّ مشروع للمطالبة بالاشتراك في حكومة ما بعد الطالبان.

وقال نائب وزير الداخلية للحلف الشمالي بأنّ لديه 500 رجل داخل كابول، لقمع انفجار للعنف على ما يقال. ولكنّ المقاتلين الأشدّاء كانوا في المقاطعات الشرقية بالقرب من تورا بورا ومن الحدود الباكستانية.

وكان هذا تحوّلاً مذهلاً في الأحداث ـ الحلفُ الشمالي وعددٌ كافٍ من القادة الجنوبيين قد انضمّ بعضهم إلى بعض ليُعيدوا الاستقرار إلى كابول ـ على الأقل على المدى القريب.

وقال رامسفيلد: «في مزار الشريف تسيطر قواتُ الحلف الشمالي الآن على المدينة حتى جسر الصداقة». وكان من الممكن أن يفتح هذا الجسر طريقَ التزويد البرّي. وكان الأوزبكيون ـ الذين أغلقوا الجسر في سنة 1996 عندما استولى الطالبان على السلطة في أفغانستان ـ قد قالوا إنّهم لن يفتحوا الجسر حتى يصبح الطرف الجنوبي منه آمناً. ولأول مرةٍ الآن كان هناك قَبَليون وُدّيُّون بالضبط على الطرف الجنوبي من الجسر.

وقال رامسفيلد: «إن هذا الوضع سيفتح الجسرَ للمعونات الإنسانية». إن بإمكان ملايين الأطنان من الطعام والمؤن الطبية والملابس وغيرها من المساعدات أن تتدفق على أفغانستان.

«إنّ الحلف الشمالي قد أخذ طالقان. وقد استسلمتْ، وليس هناك مقاومة كبيرة. وهنالك فريقان يتكوّن كل واحد منهما من 28 شخصاً على الأرض في أربع مركبات جنوب قندهار. وهما يقومان باعتقالات ويمتعان ويعطّلان وينشران الفوضى. ونحن سندخلهما لعدة أيام ثُمَّ سنخرجهما. إنّ هذا يخلق ضرراً كبيراً».

وتابع رامسفيلد قائلاً: «إن القائد الأعلى للقوات المسلّحة يريد من الباكستانيين أن يُغلقوا نقاط العبور بين أفغانستان وباكستان ليسدوا كل ما يذهب إلى الداخل وإلى الخارج».

فقال بوش: «علينا أن نضغط على مشرّف ليقوم بذلك». ولم يُخْفِ الرئيس دهشته لتحوّل الحوادث: «إنّه لعجيب كيف تغيّر الوضع بسرعة. إنه شيء مذهل، أليس كذلك؟».

فوافق الجميع. وكان الوضع جيداً أكثر من اللزوم تقريباً ـ أكثر مما تتحمله الحقيقة.

ثم تحوّلوا إلى مسألة إشراك دول أخرى، وذلك بالضغط على بريطانيا والأردن وفرنسا وتركيا للقيام بالمساعدة.

«ما هي احتمالات إدخال أحد هذه البلدان إلى مزار الشريف؟» سأل رامسفيلد. «ونحن نودّ أن تدخل ثلاث أو أربع دول. ليس الأمم المتحدة وليس حلف شمال الأطلسي بل قيادة موحّدة. وسيكون غرضُ هذا الدخول التأكّدَ من أنّ الناس يتصرّفون تصرّفاً حسناً ـ وفي الدرجة الأولى روستم وعطا وأولئك القوم ـ «والإمساك بالمطار، وربما القيام بمجهود كبير للنجدة جوّاً من قِبَل حلف شمال الأطلسي. وقد تكون نوعاً من التحالف المكوّن من الدول الراغبة».

فقال بوش: «نحن بحاجة إلى استراتيجية قد تستخدم كنموذجٍ لمدن أخرى».

«سيعمل فرانكس على إيجاد حل لكل هذا عن طريق البعثات للعلاقات المتبادلة»، قال رامسفيلد، مشيراً إلى الدول التي كان لديها ضباط كبار في مركز قيادة فرانكس في تامبا».

واستمرّ رامسفيلد قائلاً: «هناك ثلاث نقاط إضافية: هل نريد أن نستولي على كابول؟ إنّ القائد الأعلى للقوات المسلحة يجب أن يشارك في تقرير مثل هذه المسائل، وفي ما إذا كانت المدن ستؤخذ. إنّنا بحاجة إلى صوته وتوصيته قبل كل شيء». وفجأة كانت أفكار فرانكس أكثر أهمية.

ثم أضاف رامسفيلد نقطة ثانية: «علينا أن نكون جميعاً على نفس الصفحة. إن الناس في الداخل إمّا جائعون أو مقتولون ـ وهذا هو الخطر إذا بقينا خارج المدن».

«بالإضافة إلى ذلك، إذا بقينا خارج المدن فإنّ هذا يوحي بوجود سيطرة نحن لا نملكها». فحصار المدينة والبقاء على مشارفها قد لا يكون كافياً.

فقال الرئيس: «فيما يتعلّق بكابول، إنّ هذه عملية عسكرية». وكان يريد أن تؤخذ كابول. «ومن ثَمَّ فإننا بحاجة إلى بنية سياسية بعد أخذها. وعلى طومي أن يقرّر كيفية تأمينها. أمّا من الناحية السياسية، فعلينا أن نرسل إشارة بأنّ الحلف الشمالي لن يحكم أفغانستان ما بعد الطالبان. فبعد أن نستولي على كابول ـ على القادة أن يقرِّروا كيفية فِعْل هذا، وعلى طومي فرانكس أن يقرّر كيفية فعل هذا ـ فإن كابول ستُحْكَم من قِبَل مجموعةٍ تُمَثّل الناس تمثيلاً واسعاً. وكذلك سيُحْكَم سائر البلاد».

ثم قال الرئيس: «يجب أن يكون لدينا التوزيع الصحيح للقرارات بين العمليّة العسكريّة والسيطرة السياسية».

واجتمع الرؤساء لاحقاً في ذلك اليوم لبحث أمر كابول.

وقال تينيت بأنّ بسم الله خان ـ وهو أحد القواعد الأَذْنَون لفهيم ـ سيكون على مشارف المدينة مع حلول الغد. وكان فهيم قد اتصل بفريق كاسر الفكّ للحصول على توجيهات.

وكان تينيت وفرانكس يعتقدان أنّ على بسم الله خان البقاء على مشارف المدينة. «إنّ التقارير توحي بأنّ الطالبان يغادرون المدينة»، قال تينيت. «وبأنّهم سيحاولون التحرّك إلى الجنوب أو إلى الشرق. ونحن لم نتمكّن من التحقّق من العدد الذي تحرّك خارجاً من المدينة أو متوجهاً إلى سلسلة الجبال جنوب المدينة، حيث توجد مشكلة في القَصْف. وما تزال هناك جيوب من العرب في المدينة».

«سيكونون بحاجة إلى قوة جوية غداً»، قال رامسفيلد. «فقد يصلون إلى مشارف المدينة مع حلول مساء الغد. أنظروا، إنّ هدفنا هو القبض على

القاعدة. وذلك هو هدفنا العسكري، ويجب على توجيهاتنا إلى الحلف الشمالي أن تعزّز هذه الأهداف».

وكان رامسفيلد يحاول أن يقدّم تعديلاً للحديث السياسي عن تأثير أَخْذ كابول على حكومة أفغانستان. وكان يقول إنّ المسألة الحقيقية هي كيف سيؤثر أَخْذُ كابول على مهمة مطاردة القاعدة والأشرار الآخرين. «إنّ فرانكس يريد أنْ يستعمل القوة الجوية الأمريكية ولكنّه يطلب من الحلف أنْ يُمسكوا عن احتلال المدينة. وإلى الدرجة التي يفرّ العسكرُ فيها من المدينة، فإنّه مصمّم على ملاحقتهم».

«أنا قلقٌ من وجود فراغ في كابول»، قال تشيني، «هل لدينا الرفاهية للتقدّم إلى طرف المدينة؟»

فأجاب رامسفيلد: «إننا نريد إدخال قوة مشتركة إلى كابول قريباً».

«يجب علينا أن نركّز على أسامة بن لادن وعلى القاعدة»، قال پاول. «ولست متأكداً من الوضع في المدينة. فإلى أن نفعل ذلك، علينا أن نركّز على القاعدة وعلى أسامة بن لادن، وعلينا أن ندمّر الطالبان فيما هم يتوجّهون إلى الجنوب. وعلينا أن نتفادى كابول، فهي ستمتصّ كل القوة البشرية المتوفرة لدينا».

«ما هو الوضع الإنساني؟» سألت رايس. «لا نعلم»، أجاب تينيت.

«يجب أن تكون منظّمات الإغاثة على علمٍ به»، قاطعه پاول. «سنجسّ النبض ونكتشف الوضع».

ثم سألت رايس: «هل سيفرّ الطالبان من المدينة أم أنهم سيصعّبون الأمور علينا؟».

ولم يكن هناك أي جواب في المتناول.

وقال پاول: «أنا أوافق أنّه يجب أن يكون لدينا قوة مشتركة على أُهبة

الاستعداد للدخول». وكان سيحاول الاتصال بالأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان لحثّه على بذل طاقة إضافية لتشكيل تلك القوة المشتركة.

وقالت رايس: «إذن. أنا أرى» أنّ موقفنا كالآتي: «سنتمسّك بمشارف كابول، وسنراقب ما سيحصل في المدينة، وسنجهّز إدارة عسكرية، وبعد ذلك سيكون لدينا بنية سياسية أشمل من ذلك تدخل المدينة».

وذكّرهم رامسفيلد: «نحن لا نزال في حالة حرب».

«هل على القوات الأمريكية أن تتدخّل؟» سأل تشيني.

فقال رامسفيلد: «إنّ هذه المسألة تُبْحَث».

فقال پاول: «علينا أن نأخذها بعين الاعتبار». فإنّ وجوداً من هذا النوع قد يؤدي إلى استقرار الأوضاع.

فقال رامسفيلد: «إنّ تكوين قوة مشتركة سيستغرق أسبوعاً». ولم يكن رامسفيلد يريد أن تدخل قوّاته وحدها. «إذا أردنا الدخول بسرعة، فعلينا إرسال القوات الخاصة الأمريكية والبريطانية».

«إن هذا سيكون جهداً يتطلّب عدداً مكثّفاً جداً من المشاة»، لاحظ پاول.

وسأل تشيني: «إنّ الفرقة العاشرة للجبال موجودة في أوزبكستان، أليس كذلك؟» وكانت هذه فرقة تابعة للجيش، ولكنها كانت تتضمّن 1,000 جندي تقريباً من قواتها فقط.

«نعم»، قال رامسفيلد، «ولدينا أيضاً المارينز بعيداً عن الشاطئ».

وقال الجنرال مايرز: «بإمكاننا الانتقال إلى قاعدة بغرام الجوية ومن ثَمّ نجعل كابول قاعدة لنا». وكانت القاعدة الجوية على بُعد 48 كيلومتراً شمال العاصمة.

«حسناً»، قال رامسفيلد، «نحن نريد قوات أخرى مع القوات الأمريكية».

لقد كان يريد أن يتجنّب ما قد يبدو بناءً للشعوب تقوم به قوات أمريكية مقاتلة. «علينا أن نتحرّك بسرعة»، وافق رامسفيلد «وسنستخدم أيَّ شيء يشعر فرانكس بالاطمئنان إليه».

«إذن، سنستعمل قوتنا الجوية، وسنسمح للحلف الشمالي بالتقدم نحو مشارف المدينة، وسنقول لهم أن يُمسكوا عن دخول المدينة نفسها». وقال رامسفيلد إنه إذا حاول أيٌّ من عساكر الطالبان أن يغادروا «فسوف نضربهم».

«حسناً»، قالت رايس. «على فرانكس أن يخبرنا عن نوع القوة التي يريدها إذا قمنا بالهجوم على كابول».

فقال رامسفيلد إنَّ على فرانكس أن يخبرهم ما قد يحتاج إليه بادئ الأمر، ثمّ ما قد يحتاج إليه لاحقاً بشكل دائم.

«إذا كنّا سنتقدّم إلى أطراف كابول»، قال پاول، «سنقرّر لاحقاً ما نقوم به بعدُ بناءً على جميع الأدلّة. وبعد ذلك سيكون بمقدورنا أن نقرّر طبيعة القوة العسكرية التي سنضعها هناك، ومن ثمّ طبيعة الإدارة المدنية التي ستحلّ محلّها».

لقد كان الرؤساء يتلمّسون الطريق ويحاولون أن يتدبّروا الوضع على الأرض من واشنطن. وقد يكون هناك شكٌّ، ولكن ذلك لم يكن يعني أنه لم تكن لديهم أفكار.

وفي 11 نوڤمبر/تشرين الثاني، قامت الفرقة من نوع أ الأولى من القوات الخاصة، تريبل نيكل، بتحويل إطلاق النار إلى قاعدة بغرام الجوية. وفي مدة قصيرة من الزمن استدعت 25 هجمة جوية. وقد أحصوا 2,200 إصابة في صفوف العدو وتدمير 29 دبّابة وستّة مراكز للقيادة. وبذلك تمكّنَ الحلفُ من التحرك نحو كابول بحرية.

وصلت الأخبار الصباحية يوم الاثنين الواقع في 12 نوڤمبر/تشرين الثاني

بسرعة إلى البيت الأبيض بأنّ الرحلة رقم 587 لأميريكان إيرلاينز قد تحطّمت خارج مدينة نيويورك في لونغ إيلاند بعد إقلاعها. فكانت ردّة الفعل: «يا إلهي! إنها تحدث مرة أخرى». وأُغلِقَتْ الأنفاق والجسور المؤدية إلى نيويورك على الفور. وحُظرت حركة الطيران الجوية بكاملها في قطاعٍ مُعيّن حول نيويورك. وأعطى أميريكان إيرلاينز توجيهاتٍ لجميع الطائرات الداخلة إلى نيويورك والخارجة منها بالهبوط.

واتصل الرئيس برودي جيولياني رئيس بلدية نيويورك. وقال بوش واعداً جميع المساعدة الممكنة: «إنّ سجيّتك تُمْتَحَن إلى أقصى حدّ».

ثم تبيّن بعد وقت قصير بأنّ سبب تحطّم الطائرة كان خللاً ميكانيكياً وليس الإرهاب.

* * *

في اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد يوم الثلاثاء الواقع في 13 نوفمبر/ تشرين الثاني، أعلن تينيت: «إنّ بسم الله خان خارج كابول. وهناك اضطراب داخل كابول. وقد دخل بسم الله خان لتهدئة الأوضاع في المدينة». وقد وضع أيضاً قائد الباشتون عبد الرب رسول سيّاف من 400 إلى 500 خَفَر في العاصمة. «وفي نيّتهم الانسحاب ما أن يأتي شخص ما لتولي إدارة المدينة».

«علينا تدبير الدعاية هنا»، قال بوش. «علينا أن نشدّد على الجرائم الشنيعة التي ارتكبها الطالبان بجبن فيما هم يغادرون المدينة».

وقدّم پاول تقريراً حول الجهود لتشكيل حكومة في أفغانستان.

«إنّ السر هو إظهار الحركة»، قال الرئيس، «وإنّه لدينا عملية يمكن تنفيذها تؤدي إلى هدف معيّن».

«على الأمم المتحدة أن تدخل في وقت مبكر نسبياً»، قال پاول.

فكرّر بوش: «ولكن عليهم أن يدخلوا بسرعة».

وقال رامسفيلد: «علينا أن نتحلّى بالصبر. فإنّ هذه بلاد عسيرة ـ ما نحن بصدد تكوينه».

«إنّهم يتحرّكون من مزار الشريف إلى هرمز. وقد استسلم عدة الآف في قندز. وهنالك بعض الأشرار في باميان. وباميان مُحاطة ولكنّها لم تسقط بعد. وفي قندهار كانت هنالك هجمات على المطارات؛ ونحن لا نعلم مَن قام بها. وقد سقطت هراة. وهنالك 2,000 من قوات الحلف الشمالي في كابول يعملون كشرطة. ورجالنا معهم. والمجموعتان من الحلف الشمالي الموجودتان في المدينة تتعاونان معنا. . . وأنّ هذا الرجل، سيّاف مستعدّ للذهاب إلى جلال أباد. ونحن بالفعل لا نريده في كابول. فإنّه سيوقع الفوضى. ونحن نريده أن يتحرّك شرقاً».

«هل نستطيع استخدام القوات الخاصة لزعزعة انسحاب الطالبان؟» سأل الرئيس.

«هذا سؤال جيد»، قال رامسفيلد. «دعني أستفهم عن ذلك. إنّنا نحرّك أُناساً إلى مطار بغرام لتشكيل قوة كبيرة نسبياً لمطاردة القاعدة في الشرق».

«إنّ القوات الأمريكية لن تبقى في أفغانستان»، قال الرئيس. «نحن لا نقوم بعمل الشرطة. ونحن بحاجة إلى مجموعة رئيسية لتكوين تحالُف الراغبين» ـ مُتَبَنّياً عبارة رامسفيلد التي قالها قبل عدة أيام ـ «وبعد ذلك سننقل هذه المهمات إلى آخرين. وأن لدينا عملاً نريد إنجازه مع القاعدة. وعلينا أن نبحث عن أهداف لأسلحة الدمار الشامل».

ثم أضاف الرئيس: «إنّ هناك معملاً للسماد يسبّب لنا بعض القلق. فعلينا أن نعرف المزيد عمّا نتعامل معه». وكانت الشبهة بأنّ المعمل قد يكون مختبراً لصنع أسلحة الدمار الشامل.

بعد ذلك ركّز بوش على النقطة المفقودة في كل هذا. «هل بإمكاننا

استخدام قواتنا الخاصة لزعزعة المواكب في الشمال الشرقي حيث يتحرّك أسامة بن لادن على ما يبدو؟».

وكانت هنالك بعض الإيماءات من حول الطاولة.

«تفقّدوا جميع السيارات من نوع إس يو ڤي التي تتحرّك في هذه المنطقة»، أَمَرَ بوش. «طارِدوهم ولاحقوهم. اخفروا الطرق».

«إنّ الجنوب سيكون صراعَ عصاباتٍ كلاسيكياً ضد الطالبان أكثر من كونه احتفاظاً بمواقع على الأرض»، قال تينيت. «وسيشكّل تحدياً لعمليات التزويد. ونحن نريد أن نحاول توحيد استراتيجيتنا الجنوبية اليوم. فهناك بعض القَبَليين المستعدّين لمطاردة القاعدة لحسابنا. ونحن بحاجة إلى قناةٍ للاتصالات وإلى طريقة لتنسيقها».

وسألت رايس عن باكستان.

«إن طومي يقول إنّ الأولوية الأولى هي إغلاق الحدود»، قال رامسفيلد. «فإنّ مفهومنا هو ـ».

«إذا تحرّك إلى مكان آخر»، قاطعه الرئيس، «فإننا سنتمكّن منه هناك».

الخـاتمـة

قامت الفِرَق شبهُ العسكرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية والحلف الشمالي باعتراض بعض الاتصالات اللاسلكية للطالبان والقاعدة، فيما بدأت القنابل الأمريكية بالسقوط على تجمعات قواتهم. وكان من الممكن سماعُ صوت الانفجارات والجزع. وأكثر ما تذكّره الكثيرون منهم هو الصراخ.

وكان هناك هوائي تلفاز فوق تلة صغيرة في كابول، وكان هدفاً مفضّلاً للسوفيات، رغم أنهم لم ينجحوا في إصابته. وحاول الحلف الشمالي أيضاً وأخفق. واندفعت طائرة نفاثة أمريكية، وبقنبلة واحدة اختفى الهوائي. وانتشر الخبر في العاصمة: الأمريكيون سينتصرون؛ هذا الصراع قد انتهى.

في يوم الاثنين الواقع في 12 نوفمبر/ تشرين الثاني، أخبر الجنرال مايرز الرئيسَ الأمريكي بأنّ للحلف الشمالي الآن قواتٍ في نصف أفغانستان تقريباً، فيما كان يُسيطر على أقل من 15 بالمئة من البلاد قبل ثلاثة أيام. وكانت أفغانستان قد قُسِمَت إلى قسمَين، وكان الشمال تحت سيطرة الحلف. وكانت قندز وهراة وباميان قد سقطت.

والأهمُّ من هذا: كانت كابول قد هُجِرَتْ، وكان الآلاف من الطالبان وعناصر القاعدة يفرّون جنوباً إلى الحدود الباكستانية وشرقاً إلى منطقة تورا بورا. ووصلت أخبار سقوط كابول إلى رايس من غرفة المواقع؛ وكانت هذه

الأخبار مبنيّة أولاً على تغطية وسائل الإعلام. وليس على استخباراتهم. وعندما قامت بتقديم الأخبار إلى الرئيس قال: «إنّ هذا الأمر يتقوّض عليهم. إنّه ينهار». وسرعان ما كانت هناك صور تحريرٍ حقيقي - كانت النساء في الشوارع يقمن بكل تلك الأشياء التي كانت ممنوعة سابقاً. وشعرت رايس بأنهم كانوا قد استقلّوا رغبة الشعب الأفغاني المكبوتة بالتعرّض للطالبان.

وكان نقاش مجلس الأمن القومي حول أخذ كابول وكيفية أخذها، وما إذا كان من الواجب إقصاء الحلف الشمالي عنها، وما إذا كان يجب الضرب بالقنابل خلال شهر رمضان - كان كل ذلك قد تجاوزته الأحداث. فالحلف وعدد من التابعين لقبائل مختلفة من الباشتون قد احتلّوا المدينة. وكان هناك توازن غير مستقر، ولكن لم تحدث مجزرة.

وشرح قائد الطالبان مُلاّ عمر سبب الانسحاب لقواته: «إن الدفاع عن مدن مع جبهات قتال متقدمة يمكن استهدافها من الجوّ سيكبّدنا خسائر فادحة». فالمواجهة كانت قد تحوّلت من مأزق كلاسيكي لقوة ضدّ قوة أخرى إلى استغلالٍ استثنائي للقوة الأمريكية. وتذكر الرئيس الأمريكي فيما بعد: «بدا وكأنّ تكنولوجياتنا كانت متطوّرة جداً حتى استطعنا أن نجعلها متكافئة مع الأحوال في ميدان المعركة». أمّا الآن، فإنّ الفِرَق شبه العسكرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية والقوات الخاصة وقاذفات القنابل جعلت من المُحال على الطالبان والقاعدة التمسّك بأيّ منطقة أو حتى الاجتماع بأعداد كبيرة.

وفي موجزه لوسائل الإعلام يوم 27 نوفمبر/ تشرين الثاني، اتخذ رامسفيلد موقفاً زعم من خلاله بأنّ هذه النتيجة كانت مؤكّدة طوال الوقت: «أعتقد أنّ ما كان يحدث في المراحل الأولى كان يطابق المخططات تماماً». والاقتراحات التي زعمت بأنّ الأمور لم تكن جيدة في البداية غير مطّلعة. «بدا وكأنّ شيئاً مما يحدث. وفعلاً، بدا وكأنّنا كُنّا في» - وطلب من الصحافيين الانضمام إليه - «الجميع معاً: في ورطة».

فضحك الصحافيون ضحكة خافتة.

وفي السابع من ديسمبر/كانون الأول، سقطت قندهار، المعقل الجنوبي للطالبان، وبهذا تُرِك البلد فعلياً تحت سيطرة الحلف الشمالي وحلفائهم من الباشتون والولايات المتحدة. وكانت هذه أخباراً للصفحة الأولى، ولكن لم يكن هناك أيّ احتفال كبير. ولم يكن بوش قد وعد باستعراض للمواكب ولا باحتفالٍ لتوقيع الاستسلام. وكان محقّاً. فلم يكن معنى ذلك واضحاً.

وإجمالاً، كان التزام الولايات المتحدة بالإطاحة بالطالبان متعلقاً بنحو 110 ضباط من ضبّاط وكالة المخابرات المركزية و316 موظفاً من القوات الخاصة، بالإضافة إلى قوة جوية هائلة.

كان على پاول أن يُساعد في إقامة حكومة جديدة في أفغانستان بالتعاون مع الأُمم المتحدة. فعَيَّنَ جيمس ف. دوبنز ـ وكان ديبلوماسياً محنّكاً في التاسعة والخمسين من عمره ومساعداً سابقاً لوزير الخارجية ـ لترؤّس المفاوضات مع مجموعات المعارضة الأفغانية من أجل البحث عن قائد.

وكان دوبنز يعلم أنّ توزيع العمل على المنطقة كان منقسماً بشكل هزلي بين ثلاث دوائر لوزارة الخارجية. فدائرة جنوب آسيا كانت مسؤولة عن أفغانستان وباكستان والهند؛ والدائرة الأوروبية كانت مسؤولة عن أوزبكستان وبقية «الستانات»؛ ودائرة الشرق الأدنى كانت مسؤولة عن إيران.

وقام دوبنز بجولةٍ على وكالة المخابرات المركزية، حيث ذكر عدّةُ موظفين اسمَ الرجل الباشتوني المعتدل حامد كرزي، ووصفوه بأنه قائد يروق لفئات كثيرة. وقد كان كرزي وزيراً ثانوياً مع الطالبان، ثم ارتد قبل عدة سنوات وانضم إلى المعارضة. وقد أوصى الجنرال فرانكس به أيضاً.

وانضمّ دوبنز إلى مؤتمرٍ في بون في ألمانيا كان منعقداً بوساطة الأمم المتحدة، وكانت أحزابُ المعارضة الأفغانية تحاول فيه أن ترى إن كان

بإمكانهم الاتفاق على قائد. وقال الرئيس الجديد للمخابرات الباكستانية بأنّ كرزي كان مرشّحاً محتملاً، وأخبر المندوب الروسي دوبنز: «نعم، قد جاء إلى موسكو، ونحن نعرفه جيداً، ونظنّ أنّه شخص جيّد».

وعارض ممّثلو وزارة الدفاع الأمريكية في بون استشارة الإيرانيين، ولكن پاول أخبر دوبنز بأن يتقدّم ويستشيرهم.

«أي نعم»، قال نائب وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف لدوبنز عند ذِكْر اسم كرزي. «إنّه قد عاش في إيران لفترة ونحن نحسن به الظن».

وفي بون تناقش الأفغان في جلسات استغرقت طول الليل. ولذلك كان دوبنز يقابل ظريف وقت الإفطار وهما يهمّان بالنوم. «أتعلم إنني قرأت البارحة في الصحف بأنّ وزير خارجيتكم أدلى ببيان حول كيفية معارضة إيران لقوةٍ لحفظ السلام»، قال دوبنز ذات صباح. «لماذا يقول هذا، وأنتم هنا تلحّون علينا بأنكم تحبّذون قوةً لحفظ السلام؟».

فأجاب ظريف: «حسناً، يمكنك اعتبارها إيماءة تضامنٍ مع دون رامسفيلد».

ووجد دوبنز الأمر مسلّياً: فحتى ظريف كان يعلم بأنّ رامسفيلد كان يُعارض قوات حفظ السلام.

«أتعلم يا جيم»، أضاف ظريف، «في هذه اللحظة كلانا، أنت وأنا، قد تخطى التعليمات المعطاة لنا بكثير، أليس كذلك؟».

وكان دوبنز يبني شعباً وقد وجد أنّ كرزي كان يملك مهارةً جيدة في الكلام وقدرةً على فهم الآخرين وتكوين علاقات شخصية بسرعة. فاختار الحلف الشمالي والباشتون كرزي قائداً جديداً لهم، وأقسمَ هو اليمين الدستورية في كابول في 22 ديسمبر/ كانون الأول فكان تغيير نظام الحكم قد تمّ بعد 102 يوماً من الهجمات الإرهابية في الولايات المتحدة.

في ديسمبر/ كانون الأول بدأت معركة في تورا بورا في الجبال البيضاء ـ ويبلغ ارتفاعها 5,000 متر تقريباً ـ حيث هرب إليها الكثير من جماعة القاعدة والطالبان، بما في ذلك بن لادن على ما يُظَنّ. فتسلّل ثلاثة رجال من القوات الخاصة ورجلان من وكالة المخابرات المركزية إلى داخل تورا بورا، وخلال أربعة أيام تقريباً قاموا باستدعاء الضربات الجوية مستخدمين مؤشرات الليزر. وفي لحظة معيّنة، قام الخمسة رجال بتوجيه ضربةٍ من طائرة ب ـ 52 وقعت على بعد حوالى 1650 متراً من موقعهم.

وكانت القوات الباكستانية منتشرة على طوال طَرَفهم من الحدود لمنع الإرهابيين الفارّين، وقد استطاعت أن تقبض على المئات منهم. وكان من المفروض أن تقوم القبائل الأفغانية بمثل ذلك العمل من جانبهم، ولكن هانك استنتج بأنّ عملهم كان يؤسف له. بالإضافة إلى ذلك، كان هنالك تنسيق ضعيف مع الباكستانيين، ولم تكن هناك أي خطة ب. وبناءً على المخابرات المتيّسرة. اعتقد هانك أنه في حوالي السادس عشر من ديسمبر/ كانون الأول سار بن لادن على قدميه أو راكباً بغلاً إلى باكستان مع مجموعةٍ خاصة مكوّنة من اثني عشر راكباً مرافقاً تقريباً؛ والأرجح أنهم ساروا عبر باراجينار ـ وهي قطعة أرض تابعة لباكستان على شكل إصبع ناتئ إلى داخل أفغانستان ويبلغ عرضها نحو 32 كيلومتراً.

وكانت البطاقة الشخصية للرئيس الأمريكي التي كان يُسجّل عليها أسماء أعضاء القاعدة المقبوض عليهم أو المقتولين تُظهر نتائج ضئيلة. وكان بوش قد وضع إشارة X كبيرة على صورة محمد عاطف، الذي كان القائد العسكري لبن لادن والمخطِّط الأول لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول. وكان عاطف قد ثبت موته في الضرب الشديد بالقنابل خلال الشهر السابق.

وحملتْ التقاريرُ الأولية القائلة بأنّ الزميل الأول لبن لادن الدكتور الظواهري قد قُتل ـ حملتْ بوش على الذهاب إلى دُرجه في المكتب البيضوي،

وإخراج بطاقته لتسجيل الإصابات ووضع إشارة X على صورة الظواهري. ولكن وكالة المخابرات المركزية سرعان ما قرّرتْ أنّ مقتله لم يكن من الممكن التحقّق منه. فمحا بوش إشارة الـ X لشعوره بالواجب. وإجمالاً، كان 16 من 22 قائداً أعلى لا يزالون مطلقي السراح، بما في ذلك بن لادن.

وكان تينيت فخوراً جداً بما أنجزته الوكالة. لقد حرّكتْ الأموالُ التي أمكن الوكالة توزيعها دون مراقبة النفقات التقليدية للقبائلّ. وفي بعض الحالات، تحدث المقاييس للأداء: تَحَرَّكَ من النقطة أ إلى النقطة ب وستحصل على عدة مئاتٍ من آلاف الدولارات. إن أكداس المال على الطاولة لا تزال لغة عالميّة. وكانت فِرَقُهُ شبه العسكرية وضباط الحالات داخل أفغانستان وحولها قد جعلت ذلك الأمر ممكناً ـ وهذا عائدٌ ضخم بعد سنواتٍ من الاستثمار في المخابرات البشرية.

وكانت وكالة المخابرات المركزية وفِرَقٌ تدعمها الوكالة تقتحم خفيةً أماكنَ حول العالم للحصول على معلومات تفصيلية عن أماكن وجود إرهابيين مشتبه بهم. فجُمِعَ المئاتُ ثم الألوف من المشتبه بهم وأُخذوا إلى السجون وتعرّضوا لاستجواب من قِبَلِ أجهزة المخابرات وشرطة أجنبية متعاونة.

ولقد كان كوفر بلاك محقاً: كان لا بد أن يموت البعضُ ففي الخامس والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني، قُتِل جوني «مايك» سْبان ـ وكان ضابطاً في الفرقة شبه العسكرية ألفا التابعة لوكالة المخابرات المركزية والتي قامت بأخذ مزار الشريف ـ قُتِل عندما ثار 600 سجين من الطالبان والقاعدة داخل قلعة للسجناء خارج المدينة. وكان سبان أوّل ضحية أمريكية في الحرب لاقت نحبها في الميدان. وعلى نحو معاكس لتقاليد وكالة المخابرات المركزية، صرّح تينيت بمعلومات عن سبان. وكانت تلك المعلومات أخبار الصفحة الأولى في كل جريدة تقريباً.

وكان سبان قد خدم عشر سنين في المارينز قبل أن ينضمّ إلى جهاز المخابرات الأمريكية. وقد رُفِضَ طلبُ دفنه في مقبرة آرلنغتون، إذ كان الحيّز

فيها يكاد ينفد. فاتصل جون ماكلوخلين بآندي كارد وأخبره: «إنّنا سنقدّم له نجمة المخابرات، التي تعادل النجمة الفضية، وهذا عادة هو العائق الذي يجب اجتيازه للدخول إلى آرلنغتون». فأخذ كارد القضية إلى الرئيس الأمريكي، فوافق الرئيس على أن يدفن سبان في مقبرة آرلنغتون.

وفي وقت لاحق، أُضيفت النجمة 79 على الحائط الرُخامي على مدخل المركز الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية، وهو الحائط الذي يُشَرَّف عليه عملاءُ الوكالة الذين قدّموا حياتهم في سبيل الواجب.

وقد قَدَّرَتْ وكالةُ المخابرات المركزية أنهم أنفقوا 70 مليون دولار فقط كنفقات نقدية مباشرة على الأرض في أفغانستان، وكان بعض ذلك المبلغ قد استُخدم للإنفاق على المستشفيات الميدانية. ولقد اعتبر الرئيس ذلك إحدى أكبر «الصفقات» في التاريخ. وفي المركز الرئيسي، كانوا قد قاموا بابتكار ما يُسَمّى بالخريطة السحرية، وهي خريطة تكشف بطريقة إلكترونية العشرات من مصادرهم ومُخبريهم داخل أفغانستان، بحيث كان بالإمكان تنبيههم بالتحرك بعيداً عن مواقع القصف. وقد وُجِّهت هذه المصادر في أكثر من مئة مناسبة، ولم يُقتل منهم شخص واحد خلال المرحلة الأولى من الحرب.

وفي النهاية، كان تينيت يعتقد أنّهم سيكتشفون رعايةً من قبل دولة ما لهجمات 11 سبتمبر/أيلول. إن هذا هو جزء من التكوين المبرغل للإرهاب؛ لم تكن هناك سلطة معيّنة أو توجيه أو سيطرة، بل عناصر ـ كمّيّة قليلة من المال، تدريب، معدّات، اتصالات، أماكن للاختباء. وكان تركيزه أول الأمر على إيران. وكان يعتقد أنّهم في خاتمة المطاف قد يجدون آثاراً إيرانية في أحداث 11 سبتمبر/أيلول. فللحرس الثوري الإيراني شبكة معقّدة من الاتصالات، ولديهم الحافز والمقدرة معاً. إنّهم انتهازيون. والمخططات السياسية الطويلة الأمد لإيران في الشرق الأوسط كان يلائمها ذاك النوع من عدم الاستقرار الذي كان بن لادن يحاول خلقه.

وكانت القاعدة تشتري الخدمات أينما وجدتها. ولذلك فإنّ المثال الكلاسيكي للدعم والسيطرة المباشرين للإرهاب لم يكن من الممكن تطبيقه. فكان عند تينيت كل شيء ما عدا البرهان على وجود رعاية من قبل دولة.

ولعدة سنوات كانت وكالة المخابرات المركزية تظن أنّ سوريا مسؤولة عن انفجار طائرة البان آم، الرحلة رقم 103، فوق لوكربي في اسكوتلندا سنة 1988. ثم استغرق قرابة العشر سنين لتبيين أنّ المسؤولية تقع على ليبيا. وقد اعتقد تينيت أنَّ مَن لم يكن قد مرّ بأحد هذه التحقيقات المعقّدة لعمليةٍ إرهابية عليه أن يتهيأ لمهمة شاقة. فإنّ وكالة المخابرات المركزية كانت ستكشف عن أدلّة وتذهب إلى أماكن لم تكن تبدو ممكنة في البدء.

وعرض تينيت كل ذلك على بوش خلال مجرى تقديمه لموجز المخابرات الصباحي في الساعة الثامنة. نعم، ستكون هنالك موسيقى مزاج إيرانية في هذا الأمر؛ وعلى الأرجح، وبنفس الطريقة الملتفّة غير المباشرة، ستكون هناك في النهاية موسيقى مزاج عراقية. وأخبر الرئيس: «عليك أن لا تقلّل من أهمية أي شيء».

فقال بوش: «سنتابعها أينما أخذتنا».

واعتقدَ تينيت بأنّه كان قد تعلّم درساً خاصاً حول ثمن التردّد والخمول. لقد كان بوش أقلّهم استعداداً للهجمات الإرهابية. وفيما هو جالس مع الرئيس لمدة تتراوح بين 15 و30 دقيقة كل صباح تقريباً. أدرك تينيت الدافع الذي يحفزه: إنّ الرئيس سيتصرّف. فهناك دائماً مئة سبب لعدم التصرف وعدم الحركة. ومَنْ يتملّكهم الخوف لا يتصرّفون. أمّا مَنْ لا يخافون فإنهم يجتازون جميع المشكلات التي تظهر. إنَّ المشكلات تغمر بعض الناس، وهؤلاء يأتون بـ 50 سبب ليعلّلوا كونها لا تُحَلّ. بوش لم يكن كذلك. وفجأة كان لوكالة المخابرات المركزية روح جديدة ـ لا عقاب على المجازفة أو ارتكاب الأخطاء. لقد وهبهم إياها بوش.

وقد كان تينيت نفسه كثير الخوف والتردّد قبل 11 سبتمبر/ أيلول، وكان يخشى كثيراً القيامَ بأي مجازفة. وكان قد صرخ وصاح بشأن الخطر الذي يشكّله بن لادن على مدى عدة سنوات. ففي مُذكّرة كُتِبَتْ في سنة 1998. أعلن «الحرب» على بن لادن، ولكنّه لم يتقدّم مباشرة إلى كلينتون أو بوش ليقترح: «هيّا، لنقتله». وكان كلينتون قد استجاب للمذكرة بزيادة الدعم المالي، فأتاح ذلك لوكالة المخابرات المركزية إعادةَ ترسيخ وجودٍ سري في أفغانستان، ولكن لم يعطها صلاحية الإماتة. ومع أنّ بوش كان سريعاً في الردّ بعد 11 سبتمبر/ أيلول، فإنّه لم يلاحق خطر بن لادن بالشدة الكافية خلال الأشهر الثمانية الأولى لتولّيه الحكم.

* * *

في التاسع من يناير/كانون الثاني سنة 2002 ذهبتُ مع دان بالز ـ وهو صحافي يعمل في جريدة الواشنطن بوست ـ إلى مكتب رامسفيلد لإجراء مقابلة صحافية معه لسلسلة مقالات صحافية كنّا نكتبها عن الأيام العشرة الأولى التالية لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول. وحسب عادته، أراد رامسفيلد أن يتعامل مع مفاهيم استراتيجية عامة وليس مع التفاصيل، وكان قد دوّن باختصار 12 مفهوماً على قطعة من الورق ـ تغطي كل شيء من ضرورة استباق الهجوم على الإرهابيين إلى فرصة إعادة ترتيب العالم.

وكنّا نريد أن نتحدّث عن لحظات معيّنة، وسأله بالز عن اليوم التالي للهجمات عندما أثار رامسفيلد مسألة: هل هناك حاجة لمجابهة العراق بالإضافة إلى بن لادن؟

«ماذا فعلوا بحقّ الجحيم!» انفجر رامسفيلد: «لقد قاموا بإعطائكم معلومات سرّيّة ملعونة. . . اقتطع هذا من. . . ».

فألححتُ عليه بألاّ يقلق.

«لم أقل هذا»، صرح رامسفيلد. ثم حاول أن يتظاهر بأنّ شخصاً آخراً قد صاح. وأشار إلى لاري ديريتا، مساعده المدني الخاص. «لاري، كُفَّ عن الصياح من فوق كتفي، هلاّ فعلتَ رجاءً؟».

فقلت بأنّنا قد نضع فجوة لمدة 18 ثانية ونصف الثانية في شريطنا.

«الآن جئتَ بالحقّ»، قال رامسفيلد.

في النسخة طبق الأصل التي أصدرتها لاحقاً وزارة الدفاع عن المقابلة، والتي بلغ طولها 19 صفحة، حُذِفَ انفجاره و«الجحيم» و«الملعونة».

بعد ذلك بشهرين، في التاسع عشر من مارس/آذار سنة 2002، كنت في البنتاغون لإجراء مقابلات عندما اصطدمتُ برامسفيلد داخل المدخل الرئيسي. كان يمشي بسرعة لابساً سترته، وكانت ربطة عنقه غير محكمة. وكانت على مؤخّرة عنقه ضمادة كبيرة ثقيلة حيث استؤصل وَرَم. (وكانت الناطقة بلسانه توري كلارك قد وضعت مسودّة لإعلان صحفي قصير جاء فيه أنّه قد استؤصل منه «ورم دُهني». فشطب رامسفيلد كلمة «دهني»).

فاستوقفتُه لأسأله سؤالاً. في بداية أيامه كوزير للدفاع كان رامسفيلد قد توقّع بوضوح أن تفاجأ الولاياتُ المتحدة باعتداءٍ ما، ربما بهجوم مشابه لـ 11 سبتمبر/أيلول ـ أمر غير متوقع بتاتاً. كيف استطعتَ التوصل إلى هذا؟ استفسرتُ منه.

فأجاب بأنّه عندما كان يترأس وكالة الصواريخ البالستية، كان قد فحص المخابرات المتوفرة عند الأجهزة الأمريكية حول ثلاثة «أحداث» هامة أو تطورات في الأسلحة في أقطار رئيسية. فاكتشف أنَّ المخابرات الأمريكية علمت بحصول الأحداث بعد مدة تتراوح بين 5 سنوات و13 سنة. ثم قال: «لقد كنّا نؤخذ على حين غرة، ولكننا لم نعلم ذلك إلاّ بعد عدة سنوات!» ثم انفعل جداً حول هذا الموضوع، واندفع في خطبةٍ مطوّلة عن مفهومه بأنّ

«المجهولات المجهولة» هي القاتلة الحقيقية: الأوقات التي لم تكن المخابراتُ الأمريكية تعلم فيها حتى ما لم تكن تعلمه.

لقد كنّا متقاربَيْن بحيث كنت أستطيع أن أرى العدسات ثلاثية الأطوال البؤرية لنظارته. وكنا واقفَيْن مباشرةً داخل المدخل فيما كان يمرّ بجانبنا موكب مكوّن من مَدَنيين وعسكريين وعسكريات في زيهم الرسميّ.

ثم رامسفيلد: التهديدات «المعلومة ليست داعية للقلق». وفي إحدى المناسبات كان قد سأل عن عدد التحذيرات قبل الهجوم على السفينة الحربية الأمريكية يو اس اس كول في اليمن في سنة 2000. فكان الرد: الآلاف.

«هل تصدّق هذا!» قال رامسفيلد. إنّ بحر التحذيرات يغدو خالياً من المعنى. وقال إنّ أحداً لم ينتبه بجدّ، وإنّ الولايات المتحدة ستُطْرَدُ من أماكن كاليمن إذا اتخذت إجراءات ردّاً على كل تهديد.

وسألته: كيف تسير الحرب؟

فقال: «هناك الحرب المرئية والحرب غير المرئية». وكان جوابه مصاحَباً بحركاتِ يدٍ مناسبة ـ الحرب هنا في الأعلى جلّيّة ومرئية والحرب هناك في الأسفل سرّيّة وغير مرئية.

«سيضربوننا مرة أخرى»، قال رامسفيلد بنبرة واقعية. «لقد أخللنا بتوازنهم». ثمّ وخز وسط صدري بثلاث أصابع، فملْتُ إلى الوراء فاقداً توازني بعضَ الشيء.

وظننتُ أنها كانت حركة مصارعة جيدة، ولكن بعدها تحرّكتُ إلى الأمام آخذاً الطُّعم، وقلتُ إنّ ذلك لم يكن كافياً لأنني استرجعتُ توازني بسرعة نوعاً ما.

فخلّى رامسفيلد عن إحدى ابتساماته الكبيرة المبتهجة الممتلئة حيوية التي كانت تملأ وجهه وتستبدّ به. لقد شرح وجهة نظره. ثم تحدثنا بضع دقائق

أخرى، وسأل عن عنواني وعن رقم للفاكس حتى يتمكّن من أن يرسل لي بعض المواد حول عمله في وكالات الدفاع. ثم ابتعد وهو مليء بالحيوية والنشاط. رجل في حالة حرب؟ لم يكن يبدو كذلك. لقد كان مرتاح البال جداً ويعبق بالثقة بالنفس. ولم أدرِ إن كان واثقاً من نفسه أكثر من اللازم.

في الربيع، وبعد أن اجتاز العسكريون الأمريكيون أفغانستان لمدة خمسة أشهر تقريباً، اكتشفوا كمياتٍ هائلة من الذخائر التي كان الطالبان والقاعدة قد أخفوها في الكهوف. ووجدوا في أحد هذه الكهوف مليوني طلقة نارية؛ ووجدوا في كهوفٍ أخرى مدافع هاون وصواريخ وحتى بعض الدبابات. لقد كان نظاماً تحت الأرض كاملاً للمساندة. وقد كان محرجاً للغاية اكتشافه في هذا الوقت المتأخر من اللعبة.

«هل ستدمّرون كل هذا؟» سأل بوش رامسفيلد.

«كلا». أجاب رامسفيلد. «سنحتفظ به لتسليح الجيش الأفغاني الجديد».

فقالت رايس مازحةً إنّه سيُطلق عليه اسم «خيّالة رامسفيلد».

وتساءل رامسفيلد لِمَ لا يمكنهم ترك القادة الأفغان يكوّنون جيشاً بأنفسهم. فبيَّنَ پاول ووزارة الخارجية أنّ كرزي كان رجلهم، وأنّهم بحاجةٍ إلى حكومة مركزية قويّة حتى لا تصبح أفغانستان مرةً أخرى ألعوبة في يد قوى كبرى تحاول من خلالها جميعُ الفئات المتهمة اقتطاعَ أراضٍ أو مناطق نفوذ.

وكان رامسفيلد قد أصبح نجماً في وسائل الإعلام بعض الشيء، وذلك من خلال موجزه اليومي الذي كان يبث على التلفاز. وفي يوم الأربعاء الأول من مايو/أيار سنة 2002، كان رامسفيلد والجنرال بايس، نائب رئيس الأركان المشتركة، قد قاما بالإجابة على الأسئلة لمدة نصف ساعة، إذ سأل أحد الصحافيين عمّا أنجزه رامسفيلد. فانتصبَ.

«لقد شكّلنا استراتيجيةَ دفاعٍ جديدة. ونحن نعتقد بأنها استراتيجية أكثر

ملاءمة للقرن 21 مما سبق لنا. ونحن مقتنعون، نحن مقتنعون بالإجماع ـ القيادة العُليا المدنية والعسكرية»، قال رامسفيلد.

ثم عدّد تنظيمات جديدة ومخططات للإرشاد ومشروعات واختيار لربما اثني عشر ضابطاً جديداً بأربعة نجوم. وقال: «لقد كنّا منهمكين في حرب عالمية ضد الإرهاب». وقد كان عليه أن يتعامل مع إجراءات الوزارة التي قد تستغرق سنتين. «إنّ قطار الشحن يسير على الخطّ ويُعبّأ هناك بعيداً، وإلى أن يصل إلى النهاية لا تستطيع أن ترى ما بداخله. وكل مرة تحاول أن تمدّ يدك إلى الداخل، كأنّك وضعتَ يدك في علبة تروس. لأنّ هذا يعتمد على ذاك، وذاك اعتمد على هذا، وكل قطعة اعتمدتْ على شيء آخر. وأنت تعتقد أنّك تتخذ قراراً حكيماً إذا أمسَكْتَ بوسطها. ولكن في الواقع إذا لم يُعاد توجيهُ جميع الطبقات المؤدية إلى تلك الأشياء، فإنّك تتوصّل إلى وضع ذي طابع مؤقت ومرتجل بعض الشيء. إنّه ـ إنه قرار مسؤول ومنعزل تماماً، ولكن اتخذتَ سلسلةً من هذه القرارات، فإنّها تغدو عشوائية، وتغدو دون أي ارتباطٍ منطقي. إذن كلُّ هذه الشهوة لقتل هذا، أو لفعل ذلك، أو للبدء بذلك، فإنّ موقفي هو: أنظر، سنعمل أفضل المستطاع. وعندما أنظر إلى الماضي فإنني أقول لنفسي «لا بأس».

ثم حاول صحافي أن يسأل سؤالاً آخر.

«كلا، كلا، كلا. تلك الخاتمة أعجبتني. أنا ـ (ضحك). إذا كنتم تظنون بأنني سأُفسد ذلك الجواب فإنّكم مخطئون! كلا. يا سيدي! أنا خارج من هنا!».

وكانت إحدى أكبر الصعوبات بالنسبة لپاول أنّه كان عليه أن يتظاهر علانيةً بعدم وجود فروق حادة في وزارة الحرب. وكان الرئيس لا يجيز أي خلاف علني. وكان پاول مقيّداً أيضاً من جانب مبادئه ـ الجندي يطيع.

ولربما كان بوش يُصدر الأوامر: أحضروا السلام! أحضروا خيلي! ـ كل

مظاهر الرجولية المرتبطة بتكساس والألامو التي كانت تضايق پاول. ولكن پاول كان يؤمن ويرجو أن يكون الرئيس أكثر حكمةً وأنجه سيدرك أن طريقة التقدم الفردي لا تصمد أمام التحليلات الإضافية. وكان يأمل أن تكون الحرب الأفغانية قد وفّرتْ القالبَ لذلك المفهوم.

ومن وجهة نظر پاول، كان رامسفيلد وتشيني الشّبّحَان في الآلة. فهما كثيراً ما كانا يُسارعان إلى السلاح والخيل أكثر من اللازم.

* * *

في ربيع سنة 2002 اشتدّ الصراعُ الإسرائيلي الفلسطيني عنفاً حتى أنه هدّد أن يغمر الحرب ضد الإرهاب. وتصاعدت العمليات الانتحارية الفلسطينية. وفي 27 مارس، قَتَلَ انفجارٌ انتحاري 29 شخصاً وجرح 140 شخصاً في سدر عيد الفصح اليهودي. وقام رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون بشنّ حرب مصغّرة في المناطق والمدن الواقعة تحت الحكم الفلسطيني في الضفة الغربية، وسمّى هذه الحرب عملية الدرع الواقي.

وكان هناك مجموعة متزايدة في الخارج تلحّ بأنّ على الولايات المتحدة أن تتدخل. وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي قال بوش إنه يريد أن يرسل پاول ليرى إذا كان بإمكانه تهدئة الأوضاع واستئناف عملية السلام. وكان پاول كارهاً لذلك، وقال إنه لا يملك الكثير لتقديمه، وكان لديه نفوذ قليل مع كلا الطرفين، ولا يمكن أن تكون الولاياتُ المتحدة أكثر توقاً للسلام من الطرفين نفسيهما: إسرائيل والسلطة الفلسطينية.

وحتى رامسفيلد احتجّ بأنّه ليس من الجائز استخدام پاول لمحاول إيقاف النزيف وحسب. فلا يجوز استخدام وزير الخارجية فقط وإلقائه في معركة دبلوماسية دون جدول أعمال إيجابي أو نص مكتوب. إنّ الإخفاق سيكون ضربةً خطيرة لهيبته وللولايات المتحدة.

نحن في ورطة، قال الرئيس لپاول. «إن عليك أن تبذل بعض رأس المال السياسي. ولديكَ منه الكثير. إنني أقتضي منك أن تقوم بهذا».

«نعم، يا سيدي».

وفيما هما يخرجان من غرفة المواقع، التفت بوش إلى پاول. «إنّني أعلم مدى صعوبة هذا، ولكن لديك مكانة وافية في المنطقة ومع الأطراف، ومجرد منصبك يمكّنك من تحمّلها».

والمغزى الذي فهمه پاول من ذلك كان: إنّك تستطيع أن تفقد ثلاث طبقاتٍ من الجلد، إذ لديك طبقات تحتها.

وكان الرئيس سيلقي كلمةً يحدّد فيها سياسةً لاستئناف المفاوضات. وكان على عرفات أن يستنكر الإرهاب بشكل قاطع، وكان على شارون أن يبدأ بالانسحاب.

أتدرك ما أنت قائلٌ للإسرائيليين؟ سأل پاول بوش عليك أن تنظر في عيني شارون ثم تقول له: أخرج.

فقال بوش إنّه يدرك ذلك.

وفي الرابع من أبريل/ نيسان، ألقى بوش كلمةً من حديقة الورد دعا فيها الفلسطينيين إلى إنهاء الرعب. «أنا أطلب من إسرائيل أن تُوقف غزوها للمناطق التابعة للحكم الفلسطيني وتبدأ بالانسحاب من تلك المدن التي قامت باحتلالها مؤخراً». وسيذهب پاول إلى المنطقة في الأسبوع التالي ليلتمس التأييد.

وقال بوش بعد يومين وهو في كروفورد مع طوني بلير: «كلماتي لإسرائيل اليوم هي نفسها كما كانت قبل يومين: انسحبوا دون تأخير». ولكن بوش غيّر موقفه فيما بعد. وكان يبدو أنّ هواه مع الإسرائيليين.

وكان پاول وهو في الشرق الأوسط يتلقّى أوامر توجيهية من البيت

الأبيض ـ اذهب إلى اليسار، اذهب إلى اليمين، عَدِّل مجراك هذا العدد المعيّن من المدرجات.

فأوّلاً أَعْلَمَ كل من تشيني ورامسفيلد پاول من خلال رايس أنّ عليه ألاّ يلتقي مع عرفات. «ياه، إنّ عرفات قوة خامدة. اتركه وحده». قال رامسفيلد.

وكان پاول يعلم أنه من السخف محاولة المفاوضة دون الالتقاء بكلا الجانبين. ولكن الجميع في واشنطن كانوا قلقين على إسرائيل، وكان هناك ضغط متزايد من قِبَل الجمهوريين والديموقراطيين كليهما لدعم شارون.

وكان على پاول أن يقلق من نحو 300 مليون عربي حانق قد بدأوا بإحراق السيارات في الأماكن المخصصة لوقوف السيارات التابعة للسفارات. وجَرَتْ مظاهرات في أماكن لم يكن التظاهر معهوداً فيها من قبل، مثل البحرين، التي كانت معقلاً للمناصرة الأمريكية. وقد اعتقد پاول أنّ عرفات وشارون كانا رجلين سيئين، ولكن لم يكن في وسعه تجاهلَ أحدهما. فشرع قُدُماً. وكان اللقاء الأول مع عرفات لا بأس به فحسب، ولكن اللقاء الثاني كان أسوأ بكثير.

وبعد عشرة أيام، وإذ كان لم ينجز إلاّ القليل من التقدم. كان پاول يحضّر تصريحاً لرحيله يقترح فيه انعقاد مؤتمر دولي ومفاوضات أمنية.

واتصلَتْ رايس بآرميتاج في وزارة الخارجية، وطلبت منه أن يُخبر پاول بأن يشذّب تصريحه وبأن يقلّل من التعهّد حول مفاوضاتٍ في المستقبل. فقد كان هناك قلق فعلي بأنّ پاول قد تمادى كثيراً.

وفي واشنطن، كان آرميتاج شبه مقيّد في مكتبه ليتمكّن من التحدّث إلى پاول في الفترات بين اجتماعاته. وكانت الساعة الثانية عشرة ليلاً، السابعة صباحاً في القدس، عندما شرح آرميتاج هموم رايس.

وجُنَّ پاول. وقال: الكلّ يريدون أن يضعوا العلامات على البحوث! لا

يريد أحد أن يتقدّم وأن يواجه الواقع! إنهم يريدون مساندة إسرائيل وتَرْكَهُ حاملاً الحقيبة الفلسطينية وحده. لقد أرسلوه في مهمةٍ مستحيلة تقريباً.

«إنّني أكبح البوّابات الملعونة هنا»، أخبره آرميتاج. «إنّهم يأكلون الجبنة فوقك». ـ وكان هذا تعبيراً عسكرياً قديماً معناه الاستمتاع بمضايقة شخص. وقال آرميتاج إنّ أشخاصاً في وزارة الدفاع وفي مكتب نائب الرئيس كانوا يحاولون إهلاكه وكان قد سمع من مصادر إعلامية موثوقة أنّ وابلاً كان سَيُلْقَى على پاول. فإنّه كان يميل أكثر من اللزوم إلى عرفات. والبيت الأبيض سيشذّب أشرعته. وهو لا بد سيخفق. وقال آرميتاج إنه لم يكن بمقدوره التأكد من هوية مُسَرِّب هذه الأخبار، ولكن لديه أسماء أشخاصٍ كبار في وزارة الدفاع وفي مكتب تشيني.

«هذا لا يُصَدّق». قال پاول. «لقد سمعتُ للتوّ نفس الشيء». وكان پاول قد شرب مشروباً مع بعض الصحافيين المسافرين معه، فأخبروه أنّ مصادرهم في مكتب تشيني كانوا يصرّحون بأنّه قد تمادى كثيراً، وأنه ابتعد من مكانه المحدّد، وأنه يُوشك أن يُكْبَح.

وقال آرميتاج: «إنّهم بالفعل يُلقون أمورك في الشارع».

واتصلت رايس بپاول وقالت إنّ الآخرين جميعاً يعتقدون أنه من الأفضل ألاّ يضيف شيئاً آخر، وأن يقول إنه عائد إلى واشنطن للتشاور مع الرئيس.

وانفجر پاول، الذي كان منهمكاً في تنقّلٍ مرهق. هل من المفروض عليه فقط أن يقول: شكراً جزيلاً لضيافتكم. وداعاً!

فقالت رايس إنها تخشى أن پاول يجعل الرئيس والإدارة ملتزمين التزاماً أعمق مما يرغبون فيه جميعاً.

أتدرين؟ ردّ پاول. إنهم متورطون بالفعل. إنه لا يمكنهم طرحُ مبادرة

لخطاب رئاسي ذي طابع عالٍ كذلك، ثم لا يتوقعون اقتراحَ خطةٍ ما أو متابعةٍ ما. ولكنّه وافق على تشذيب تصريحه بعض الشيء.

واتصلت رايس بآرميتاج مرة أخرى. وكانت تبدو قلقة. لقد كان عليها أن تظهر في برنامج تلفزيوني حول هذا الموضوع. ماذا كان پاول يفعل؟ ماذا سيقول؟

سيكون على خير ما يرام، وعدها آرميتاج. إننا نعرف المخطط العام، ولكن ليست عندي الكلمات لأنه كتبها بنفسه.

وظلّ پاول مستيقظاً حتى الثالثة صباحاً تقريباً يكتب ملاحظاته وهو يعلم بأنّه قد وُضِعَ على نهاية عصا طويلة.

وفي السابع عشر من أبريل/ نيسان ألقى تصريحَ مغادرته في القدس. وكان التصريح يتألف من 20 فقرة بقلم پاول وهو في أحسن أحواله ديبلوماسياً ـ سلساً، ومبتهجاً. وحتى فصيحاً. وقد استطاع أن يزيّن التصريح وأن يشير إلى مستقبل للمفاوضات. وفي الوقت نفسه تفادى ذكر إخفاقه في الحصول على وقف لإطلاق النار.

ولم يُحدث التصريحُ ضَجّةً. فلم يكن پاول قد حلّ مشكلة الشرق الأوسط، ولم يَحْدُث أيُّ تقدمٍ باهر. ولكن التصريح قام بتهدئة بعض الأمور مؤقتاً، وفيما بعد شَكَرَ الرئيسُ پاول.

وكان الرئيس يريد بشكل يائس معاهدةً موقّعة مع الروس للحدّ من الأسلحة النووية الاستراتيجية. وكان يريدها أن تكون بسيطة وشاملة. وكان الاتفاق سيشكّل إشارة إلى العلاقة الجديدة مع الروس. وسيُظهر أنهم ليسوا العدو الرئيسي كما كانوا في السابق. وكان بوش سيظهر أيضاً بأنّه أنقذ بوتين.

وغمر رامسفيلد الرؤساء بنحو اثنتي عشرة مذكّرة سرّيّة عَبَّر فيها عن اعتراضه على معاهدةٍ مكتوبة للحدّ من الأسلحة النووية مع الروس؛ وكثيراً ما

كان يُطلَق على هذه المذكرات بازدراء اسم «راميغرامات» أو «رقاقات الثلج». وراقب پاول الأمورَ دَهِشاً فيما قام رامسفيلد بتقديم عدة مطالب: أن تكون المعاهدة غير مُلزِمة قانونياً، وأن لا تحدّد أعداد الأسلحة النووية، وأن تحتوي على مادة تسمح للولايات المتحدة بالانسحاب بإشعار فوري، وأن توفّر المرونة، وأن تتطلب التحقّق، وأن تشمل الأسلحة النووية التكتيكية الصغيرة.

فإذا كان الروسُ أصدقاءنا الآن، وهم حليفٌ جديد، اعترضَ رامسفيلد، فلماذا نحن بحاجة إلى معاهدة؟ ما الفارق الذي ستكوّنه قطعة من الورق؟

وكان الجواب إنّ الرئيس يريد قطعةً من الورق. فخسر رامسفيلد كلياً. وفي 24 مايو/ أيار سنة 2002، وقّع بوش وبوتين «المعاهدة الأمريكية الروسية للحدّ من العدوان الاستراتيجي» في موسكو. وكان طولها صفحتين. واتفقت الدولتان على إنقاص الرؤوس الحربية النووية الاستراتيجية إلى ما بين 1,700 و2,200 رأس قبل سنة 2012. ووعدت المعاهدة بالصداقة والشراكة والثقة والانفتاح والتوقّع.

عندما كان الأمر يتعلّق بمحاربة الإرهاب، كان الرئيس يُريد من رؤساء العالم أيضاً أن يُعادلوا مصالحهم الوطنية مع المصالح الأمريكية. وكان البعض منهم يتعاون معه عندما كانت مصالحهم وأهدافهم تتوافق تقريباً مع مصالحه وأهدافه، ولكن عندما لم تكن تتوافق. كانوا يمتنعون عن التعاون معه. ولم يكن حدوث هذا الأمر يُعجب بوش، وفي بعض الأحيان كان يعتبره موقفاً شخصياً منه.

في وقت مبكر من السنة، كان بوش يجتمع مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، عندما تبيّن له أنّ اليمن لم تكن تتعاون معه إلى الدرجة التي يحسبها ضرورية. فصالح كان يراوغ. وكانت اليمن أضعف المناطق بالنسبة لنشاط القاعدة. إذ كان الإرهابيون يتسرّبون إلى ومن السعودية عبر حدودهم المشتركة مع اليمن والبالغ طولها 11,200 كيلومتر. وقد اقترحت بعض التحليلات لوكالة

المخابرات المركزية أنّ اليمن قد تكون المكان الذي تقوم القاعدة فيه بإعادة تشكيل نفسها.

وكانت اليمن قد سمحت لوكالة المخابرات المركزية بتحليق طائرة البريداتور من دون طيار لتعقب آثار القاعدة في عمليةٍ غاية في السرية. ولكن صالح كان يحجز العملية ويضع قيوداً عليها. وكان هذا مثالاً لاختلاف المصالح الذي كان يغيظ بوش. وكان هذا يوحي إليه بأنّ اليمن في الواقع ضدّه.

ولم تكن المسألة مسألة اليمن فحسب. فبوش لم يُقنع الجميع بقبول رؤيته المعادية للإرهاب مئة بالمئة. ولم يكن هناك مَن سيلتزم التزامه بها. وبعد رحلته إلى أوروبا وروسيا في أواخر مايو/ أيار سنة 2002، دعا الرئيس إلى اجتماع لمجلس الأمن القومي.

«لقد خسرنا أفضليتنا». قال للحاضرين «أريدنا أن نتذكر بأنّ علينا أن نكون في الطليعة». لقد كان هناك بعض التكاسل في حلقته نفسها، ولم يكن ليرضى بذلك. إنه يطالب بموقفٍ ذهني من التركيز التام والاستحواذ.

ولكن الظروف كانت قد تغيّرت. وكانت الازدواجية المضطربة للحياة في الأسابيع والشهور التالية للهجمات قد استقرّت. وكان بإمكان بوش أن يُلحّ ويتكلّم، ولكن الحياة في الولايات المتحدة كانت قد عادت إلى طبيعتها أكثر فأكثر.

وتأجّجت مسألة العراق إلى درجة عالية. وكادت تكون الامتحان التالي ـ وربما أعظم امتحان ـ لقيادة بوش ودور الولايات المتحدة في العالم.

وكانت تأتي مع العراق أعباءٌ كثيرة. وكانت رايس عندما وافقتْ بادئ الأمر على أن تكون مستشارة بوش للسياسة الخارجية قبل الحملة الانتخابية للرئاسة في سنة 2000، قد قامت بطرح قضية العراق معه. فأخبرها بوش أنّه يُعارض مَنْ يظنّ أنّ والده قد أنهى الحرب ضد صدام سنة 1991 بسرعة زائدة.

فآنذاك كان بوش الأكبر ووزير الدفاع تشيني ورئيس هيئة الأركان المشتركة باول قد اتفقوا جميعاً على إنهاء الحرب بعد إنجاز الهدف المُعْلَن عنه في قرار الأمم المتحدة: طرد جيوش صدام من الكويت. فالولايات المتحدة لم تكن ستهجم على بغداد للإطاحة بصدام. ومطاردة الجيش العراقي المتراجع قد تبدو كمجزرة. وكان نصف جيش صدام قد دُمِّر. وكان قد هُزِم إحدى أكبر الهزائم العسكرية المذلة في التاريخ الحديث. فمن غير ريب كان أمره قد انتهى. وتنبأت وكالة المخابرات المركزية وعدد من القادة العرب بأنّه سيُخلع عن قريب، وبأن عقيداً أو لواءاً في الجيش العراقي سيضع فيه رصاصة أو يقود انقلاباً.

وبقي صدام فيما هُزم والد بوش في انتخابات سنة 1992 من قِبَل كلينتون. وفي سنة 1998، عندما قام صدام بإيقاف تفتيشات الأمم المتحدة لمرافق يُشتبه أنّها تصنع أسلحة للدمار الشامل. أمر كلينتون بعملية ثعلب الصحراء. فشُنَّ على العراق ما يُقارب الـ 650 طلعة من قاذفات القنابل والصواريخ في مدة ثلاثة أيام، ولكن صدام لم يسمح لمفتشي الأمم المتحدة بالرجوع إلى العراق.

ورغم ذلك دافع بوش عن والده ومستشاريه. «لقد فعلوا الصواب وقتها»، أخبر رايس إن والده كان مقيّداً من قِبَل قرار الأمم المتحدة الذي كان يفوّض استخدام القوة فقط، لإخراج صدام من الكويت. ووافقت رايس وأشارت إلى أنّه كثيراً ما أخطأ بعض الرؤساء في التاريخ وأنهم سمحوا لنجاحٍ تكتيكي قصير الأجل بتغيير أهدافهم الاستراتيجية. أمّا الذهاب إلى بغداد لإرغام صدام على الخروج من السلطة فقد يكون أمراً مختلفاً تماماً. وقالت إن احتمال سهولة أمرٍ ما عسكرياً لا يشكّل سبباً للقيام به.

وبعد قرار بوش الأولي بعدم الهجوم على العراق مباشرةً بعد الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر/ أيلول، استمرت المسألة في النفوذ في وزارة الحرب -

بطريقة فعّالة بالنسبة لتشيني ورامسفيلد، وبطريقة سلبية بالنسبة لپاول الذي لم يكن تواقاً لحرب أخرى.

وعندما ألقى الرئيس أول خطاب له عن حالة الاتحاد في 29 يناير/كانون الثاني سنة 2002، كان العنوانُ الرئيسي الكبير إعلانَهُ أنّ العراق وإيران وكوريا الشمالية تشكّل «محور شرّ». ولكنّه كان قد قال بأنّ الخطر الحقيقي والكارثة المحتملة التوفُّر المتزايد لأسلحة الدمار الشامل للإرهابيين أو لهذه الحكومات.

وكان بوش قد فكّر في عرض هذا الخطر في خطابه أمام الكونغرس تسعة أيام بعد الهجمات الإرهابية، ولكنّه أجّل ذلك معتقداً بأنّ صراحةً من هذا النوع قد تكون فوق طاقة الشعب في ذلك الوقت.

وفي خطابه عن حالة الاتحاد قال: «لن أنتظر الأحداث». ملمحاً إلى أنه سيتصرف بطريقة مسبقة ـ وهي استراتيجية عبّر عنها في وقتٍ لاحق بطريقة أكثر مباشرة.

وكإحدى أولى الخطوات ضد صدام، وقّع الرئيس بعد ذلك بقليل على أمرٍ جديد للمخابرات موسِعاً نطاقَ العملية السرية لوكالة المخابرات المركزية على نحوٍ أكبر للإطاحة بصدام. فخصّص من 100 مليون إلى 200 مليون دولار من الأموال للعمليات السرّيّة ـ أكثر بكثير من الـ 70 مليون دولار التي أنفقتها وكالة المخابرات المركزية في أفغانستان. وزاد الدعم للمعارضة العراقية، ونشّط من جمع المخابرات داخل العراق، واستعدّ لإمكانية نشر فِرَقٍ شبه عسكرية تابعة لوكالة المخابرات المركزية وقوات خاصة أمريكية مشابهة لتلك التي استخدمت في أفغانستان.

وقد حذّر تينيت الرئيس بأنّ العراق ليست أفغانستان. فالمعارضة العراقية أضعف بكثير، وصدام كان يحكم دولة بوليسية. وكان من الصعب اكتشاف موقعه إذ كان يستخدم أشخاصاً يشبهونه بغرض الخديعة. وأخبر تينيت الرئيس

بأنه من دون نشاطٍ عسكري مُصَاحِب وضغوط أخرى، كانت تُقَدَّر فرصة نجاح وكالة المخابرات المركزية بـ 10 أو 20 بالمئة فقط.

ورغم ذلك استنتج بوش أنَّ عمليةً سرِّيَّة أكبر ستساعد في الإعداد لضربة عسكرية، وذلك بزيادة تدفّق المخابرات والاتصالات بدرجة كبيرة، وهذه قد تكون هناك حاجة إليها في وقت لاحق.

وفي أبريل/ نيسان بدأ الرئيس بالتصريح علانيةً عن سياسة تغيير النظام في العراق. وفي يونيو/حزيران صرّح رسمياً بأنّه سيشنّ هجمات مسبّقة ضد دول يُعْتَقَد أنّها تشكّل خطراً جسيماً على الولايات المتحدة.

ولم يكن پاول قد عدّل علاقته مع الرئيس بعد. وخلال النصف الأول من سنة 2002، كان آرميتاج قد حصل على تقارير موثوق بها بأنّ رامسفيلد كان يطلب ويحصل على لقاءات خاصة مع بوش على نحوٍ دوري. ولم يكن پاول قلقاً بشكل خاص لأنّه كان بإمكانه عادةً معرفة ما قد حدث من خلال رايس، رغم أنّها كانت هي نفسها قد واجهتْ بعض الصعوبات في معرفة ذلك في بداية الأمر.

واقترح آرميتاج على پاول: «يبدو لي أنّه عليك أن تطالب ببعض الوقت مع الرئيس. فاللقاء وجهاً لوجه أمرٌ حيوي، وكانت هذه علاقة لم يكن پاول قد برع فيها.

وقال پاول إنّه يتذكّر وقته كمستشارٍ للأمن القومي لريغان عندما كان الجميع يحاولون دائماً رؤية الرئيس. ولم يكن يريد أن يتطفّل. فإذا أراد بوش أن يراه في أي وقت أو أي مكان فإنّه في المتناول. فكان يرى بوش دائماً في الاجتماعات، وكان في مقدوره إبداءُ آرائه.

وقال آرميتاج: «عليك أن تبدأ بالقيام بذلك». فإنّه وزير الخارجية الملعون، ولن يكون عمله تطفلاً. والعلاقات الأفضل ستساعد في جميع المعارك، وستساعد الوزارة بأجمعها.

وفي أواخر ربيع سنة 2002 ـ بعد انقضاء نحو من 16 شهراً على بداية رئاسة بوش ـ بدأ پاول بطلب بعض الوقت الشخصي مع بوش، وقام بذلك من خلال رايس. واشتركت رايس في هذه اللقاءات التي كانت تُقام مرة كل أسبوع تقريباً وتستمر لمدة ما بين 20 و30 دقيقة. وقد بدت اللقاءات وكأنّها تساعد، ولكنّها كانت كتجربة پاول في الشرق الأوسط: دون إحراز أي تقدم باهر.

وخلال الصيف. كان پاول في البيت الأبيض يوماً وعنده وقت زائد قبل بداية اجتماعٍ له مع رايس. فلمحه الرئيس ودعاه إلى المكتب البيضوي. ثم تكلما بمفردهما لمدة 30 دقيقة تقريباً. فتحدّثا واسترخيا. وكان الحديث يتعلّق بكل شيء وبلا شيء.

«أعتقد بأنّنا حقاً نحرز بعض التقدم في علاقتنا»، أخبر پاول آرميتاج فيما بعد. وقد بدا وكأنّ الهوّة كانت تنسدّ. «أعلم أننا ارتبطنا بالفعل».

وفي أوائل أغسطس/آب قام پاول بجولات ديبلوماسية في أندونيسيا والفلبين، وبقي ككلّ مرة على اتصال بالأحداث الجارية في وطنه. وكانت العراق لا تزال فائرة. وكان برينت سكوكروفت ـ مستشار الأمن القومي المعتدل لوالد بوش إبان حرب الخليج ـ كان قد أعلن في برنامج محادثةٍ تلفزيوني صباحي يوم الأحد في 4 أغسطس/آب أنّ هجوماً على العراق قد يحوّل الشرق الأوسط إلى «مِرْجَل، وبذلك يدمّر الحرب على الإرهاب».

وكان هذا كلاماً مباشراً، ولكنّ پاول كان يتفق معه عموماً. ولم يكن قد أوضح تحليله الخاص واستنتاجاته للرئيس، وأدرك أنّ عليه القيام بذلك. وفي الرحلة الطويلة بالطائرة في طريق عودته من نصف المسافة حول العالم تقريباً، قام بتسجيل بعض الملاحظات. لقد كانت جميع المناقشات حول العراق في مجلس الأمن القومي تدور عملياً حول خططٍ للحرب ـ كيفية الهجوم، زمانه، درجة قوته، وسيناريو الضرب العسكري الفلاني، وسيناريو الضرب العكسري

العلاّني. وقد تبيَّن له الآن أنَّ السياق كان بذلك يُفقد، وهو يتعلق بمواقف سائر العالم وآرائهم التي كان يعرفها ويعيش معها. وقد ملأت ملاحظاته ثلاث أو أربع صفحات.

فخلال حرب الخليج. عندما كان پاول رئيسَ هيئة الأركان المشتركة، كان قد لعب دور المحارب النافر، وعرض على الرئيس بوش الأول ـ ربما باعتدال فوق اللازم ـ بأنّ احتواء العراق قد ينجح وبأنّ الحرب قد تكون غير ضرورية. ولكن ـ لكونه المستشارَ العسكري الرئيسي ـ لم يقم بالإصرار على آرائه بشدة كبيرة لأن تلك الآراء سياسية أكثر منها عسكرية. أمّا الآن فإن حسابه ـ كوزيرٍ للخارجية ـ هو السياسة ـ سياسة العالم. وقرّر پاول أنّ عليه أن يتقدّم بصرامة، وأن يصرّح بقناعته واستنتاجاته بحيث لا يكون هناك أيّ شك في موقفه. لقد كان الرئيس يسمع الكثير من تشيني ورامسفيلد، وكأنهما نوع من فريق أ داخل وزارة الحرب. وأراد پاول أن يعرض رأي الفريق ب، الرأي البديل الذي لم يكن قد بُثَّ حسب اعتقاده. إنه مَدِينٌ للرئيس بأكثر من ملخصات تُستعمل فيها المشيرات الإلكترونية.

وفي واشنطن، أخبر پاول رايس أنه يريد رؤية الرئيس. ودعا بوش پاول ورايس إلى المنزل مساء الاثنين الواقع في 5 أغسطس/آب وامتدّ الاجتماع إلى العشاء، ومن ثَمّ انتقل إلى مكتب الرئيس في المنزل.

وقال پاول لبوش إنّه عندما يفكّر في مسألة العراق، فإنّ عليه أن يفكّر في القضايا الأوسع، في جميع عواقب الحرب.

ومع ملاحظاته إلى جانبه ـ وهي على شكل مختصرٍ مكتوبٍ على أوراق حرة تاركاً سطراً بعد كل سطر ـ قال پاول إنّ على الرئيس أن يأخذ بعين الاعتبار ما ستفعله عملية عسكرية ضد العراق في العالم العربي. وكلمة المِرْجَل هي الكلمة الصحيحة. إنه قد تعامل مع القادة ومع وزراء الخارجية في هذه البلدان

بصفته وزيراً للخارجية. وإن من الممكن أن تغدو المنطقة بأجمعها غير مستقرة ـ وقد تتعرض حكومات صديقة في السعودية ومصر والأردن للخطر أو يطاح بها. فالغضب والإحباط من أمريكا كان سائداً. وأنّ الحرب يمكن أن تغيّر كل شيء في الشرق الأوسط.

وقال پاول إن حرباً على العراق ستمتصّ الأوكسجين من كل شيء آخر تقريباً تقوم به الولايات المتحدة، ليس فقط الحرب ضد الإرهاب، ولكن جميع العلاقات الديبلوماسية والدفاعية والمخابراتية. وقد تكون العواقب الاقتصادية مذهلة، وقد ترفع إمدادات النفط وأسعاره باتجاهاتٍ لم نتصورها بعد. وكل ذلك في زمن انحطاطٍ اقتصادي عالمي. وتكلفة احتلال العراق بعد النصر ستكون باهظة. والتأثير الاقتصادي على المنطقة والعالم والولايات المتحدة محلياً يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار.

وبعد النصر ـ وكان پاول يعتقد بأنّهم سينتصرون دون شك ـ كانت عواقب اليوم التالي ضخمة. فسأل: ماذا ستكون صورة جنرالٍ أمريكي يحكم دولةً عربيةً لمدة من الزمن؟ جنرال مثل ماكارثر في بغداد؟ سيكون هذا حدثاً كبيراً في العراق والمنطقة والعالم وما المدة التي سيتسغرقها ذلك؟ ليس من الممكن أن يعرف ذلك أحد. وكيف سيُعَرَّف النصر؟

«من الجميل أن نقول إنّنا نستطيع القيام بهذا الأمر بطريقةٍ أحادية الجانب»، قال پاول للرئيس بصراحة. «ولكنك لا تستطيع». فخطة عسكرية ناجحة ستكون بحاجة إلى استخدام قواعد ومرافق في المنطقة وإلى حقوق للطيران. وسيكونون بحاجة إلى حلفاء. ولن تكون هذه كحرب الخليج، رحلة بسيطة لمدة ساعتين من دولة سعودية متعاونة كلياً إلى مدينة الكويت ـ هدف التحرير ـ على بعد 40 ميلاً فقط. أمّا الآن فالناحية الجغرافية ستكون هائلة. وبغداد تمتدّ مسافة 320 كيلومتراً عبر بلاد الرافدين.

وأن أزمة الشرق الأوسط لا تزال متواجدةً أبداً. وهذه هي المسألة التي

يريد العالم العربي والإسلامي معالجتها. وإن حرباً ضد العراق ستعرّض إسرائيل إلى هجوم من جانب صدام الذي كان قد أطلق صواريخ سكود عليها خلال حرب الخليج.

وإن صدام مجنون ويشكّل تهديداً وخطراً حقيقياً، ولا يمكن التنبؤ به. ولكنه قد احتُوِيَ ورُوِع منذ حرب الخليج. وحرب جديدة قد تطلق العنان بالضبط لما كانوا يحاولون منعه ـ صدام ثائر، ومقاومة أخيرة يائسة، وربما وهو يستعمل أسلحته للدمار الشامل.

وقال پاول إنَّ المسألة هائلة من ناحية المخابرات أيضاً. كما يعلم الرئيس. إنهم لم يستطيعوا العثور على بن لادن أو ملا عمر أو القادة الآخرين للقاعدة والطالبان في أفغانستان. ولا يعرفون مكان وجود صدام. ولصدام أنواع كثيرة من الحيل والخدع. وفي متناوله دولة بأكملها ليختبئ فيها. وهم ليسوا بحاجةٍ إلى مطاردة أخرى قد تغدو فاشلة.

وكان عرض پاول تدفقاً من التحليل والانفعال معاً وشاملاً لخبرته كلها ـ 35 سنة في العسكرية، ومستشارٍ سابق للأمن القومي، والآن ديبلوماسي رئيسي. وكان يبدو أن الرئيس مهتمّ إذ هو يستمع ويطرح الأسئلة، ولكنّه لم يقم بالرد كثيراً.

وقد أدرك پاول أنّ حججه تفترض صحة ما يُطلب إثباته: حسناً، ما العمل؟ لقد كان يعلم أنَّ بوش يهوى ـ وفي الواقع يُصرّ على ـ إيجاد الحلول، وكان يريد أن يأخذ آراءه إلى نهاية المطاف. فقال: «لا يزال بإمكانك محاولة تكوين تحالف أو تنشيط الأمم المتحدة للقيام بما يجب القيام به». ويجب الحصول على دعم دولي. والأمم المتحدة هي إحدى الوسائل فقط. ولكن لا بدّ من إيجاد طريقة ما لتجنيد حلفاء. فحرب ضد العراق قد تكون معقّدة ودامية أكثر من الحرب في أفغانستان، تلك الحرب التي كانت العرض أ لإظهار الحاجة إلى تحالف.

وقال الرئيس إنّه يفضّل تكوين تحالف دولي، وأنّه أحبّ تشكيل تحالف للحرب في أفغانستان.

وأجاب پاول أنّه يعتقد أنّ طرح المسألة أمام المجتمع الدولي لبناء الدعم لا يزال ممكناً.

وسأل الرئيسُ عن رأيه فيما قد تكون حوافز بعض اللاعبين المهمّين وبواعثهم مثل الروس والفرنسيين. ماذا سيفعلون؟

كمسألةٍ ديبلوماسية، قال پاول، إنه يعتقد أن في مقدور الرئيس والإدارة إقناع معظم الدول.

وأحسّ الوزير بأنّ المناقشة توترت عدة مرات عندما كان يضعف في حديثه، ولكن في النهاية اعتقدَ بأنّه لم يترك شيئاً دون التعرّض له.

وشكره الرئيس. وكانت قد مرّت ساعتان ـ أمر لا يُعادل الدرجة الكلينتونية في السهر المتأخر، ولكنه شيء استثنائي لهذا الرئيس ولپاول. وأحسّ پاول بأنّه قد جرّد عرضه إلى العناصر الأساسية. والاجتماع الشخصي مع بوش ورايس فقط قلّل من التشويش من جهات أخرى ـ تشيني ورامسفيلد.

وفكّرتْ رايس بأنّ العنوان الرئيسي كان «پاول يورد الوقائع والحجج لتشكيل تحالف باعتباره الطريقة الوحيدة لتأكيد النجاح».

«كان ذلك رائعاً». قالت رايس في اليوم التالي لپاول في مكالمة هاتفية معه. «علينا أن نقوم بمثل هذا كثيراً».

وتَبيّنَتْ الإشارةُ إلى الأهمية المحتملة للأمسية عندما اتصل كارد بپاول في اليوم التالي وطلب منه الحضور وتقديم نفس العرض له، بما في ذلك الملاحظات وغيرها.

وشعر پاول أنّ العشاء كان ناجحاً نجاحاً كبيراً.

وغادر بوش لقضاء عطلته في كروفورد بعد ظهر اليوم التالي، فيما ظلّ

العراق يسيطر على اهتمام وسائل الإعلام. ولم تكن هناك أخبار كثيرة غير ذلك، فَسَدَّ التخمين حول العراق الفراغ. وكل مستشارٍ سابق على قيد الحياة للأمن القومي وكل وزير خارجية سابق يستطيع رَفْعَ القلم على الورقة كان في الشارع يدلي بآرائه.

ويوم الأربعاء الواقع في 14 أغسطس/آب، اجتمع الرؤساء في واشنطن دون الرئيس. وقال پاول إن عليهم التفكير بتشكيل تحالف للعمل ضد العراق، يكون على الأقل نوعاً من الغطاء الدولي. ولاحظ أنّ البريطانيين معنا ولكنّ دَعْمَهُمْ هشٌ في غياب تحالف دولي أو غطاء معيّن. إنهم بحاجةٍ إلى شيء ما. ونقل پاول أنّ معظم أوروبا كانت في الحالة نفسها، وكذلك شأن الجزيرة العربية بأكملها، وخاصة أصدقاء أمريكا في الخليج الذين سيكونون ذوي أهمية فائقة في الحرب وكذلك تركيا، التي تشارك العراق في حدود يبلغ طولها 160 كيلومتراً.

وأشار پاول إلى أن الفرصة الأولى للرئيس بعد عطلته لمعالجة مسألة العراق رسمياً هي خطابٌ حُدِّد موعد إلقائه سابقاً أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 12 سبتمبر/أيلول. وقد كان هناك بعض الحديث لجعل الخطاب عن القيم الأمريكية أو عن الشرق الأوسط. ولكنّ العراق كان الموضوع الأول. وقال پاول: «لا أستطيع أن أتصوّر ذهابه إلى هناك وعدم التحدّث عن هذا الموضوع».

ووافقت رايس. ففي جوٍّ يستمر فيه نقاش وسائل الإعلام، قد يوحي عدمُ التحدّث عن العراق بأنّ الإدارة ليست جادّة بشأن خطر صدام أو بأنها تعمل في سرِّيَّة كاملة. وكان بوش يحب أن يبيّن للشعب المخطط العام على الأقل لاتجاه سياسته.

وتحادثوا حول كيفية مواجهة عملية لا نهاية لها من النقاش والتسوية والتأخير ما إن يشرعوا في سلوك طريق الأمم المتحدة ـ كلامٌ لا عمل.

ووافق تشيني: «أظن أنّ الخطاب في الأمم المتحدة يجب أن يدور حول العراق. ولكن يجب أن تُجَعَل الأمم المتحدة هي الموضوع. فيجب تحدّيها وانتقادها». اذهب وأخبرهم بأنّ الأمر لا يتعلق بنا. إنه يتعلق بكم. وأنتم لستم مهمّين. إنّ الأمم المتحدة لم تكن تنفجذ قراراتٍ اتخذتح قبل عشر سنين وأكثر تطالب فيها صدام بتدمير أسلحته للدمار الشامل وبالسماح لمفتشي الأسلحة بدخول العراق. إن الأمم المتحدة تتحمّل المخاطرة بأن تصبح دون أهمية، وستكون هي الخاسرة إذا لم تقم بما هو ضروري.

ووافقت رايس. فالأمم المتحدة قد أصبحت تشابه إلى حدٍّ كبير عُصْبَةَ الأمم بعد الحرب العالمية الأولى ـ جمعية للمناظرة دون أسنان.

واتفق الجميع على أنَّ على الرئيس ألاّ يذهب إلى الأمم المتحدة لطلب إعلان الحرب. وأُزيل هذا الموضوع بسرعة من النقاش. واتفق الجميع على أن خطاباً حول العراق أمر معقول. فنظراً لأهمية الموضوع. كان من الواجب التعرّض له. ولكن لم يكن هناك أي اتفاق حول ما كان على الرئيس قوله.

وبعد ذلك بيومين، يوم الجمعة الواقع في 16 أغسطس/آب، اجتمع مجلس الأمن القومي، والرئيس حاضر عبر اتصال أمين بالڤيديو من كروفورد. وكان الغرض الوحيد من الاجتماع هو إفساح المجال لپاول بعرض فكرة الذهاب إلى الأمم المتحدة طلباً للدعم أو لتحالفٍ بشكل من الأشكال. فقال پاول إنّ شنّ الحرب من جانب واحد سيكون صعباً، بل هو يقارب المستحيل. فعلى الأقل يجب عليهم أن يحاولوا بسط أيديهم والطلب من دول أخرى الانضمام إليهم.

وطاف الرئيس حول الطاولة مطالباً بتعليقات. وكان هناك دعم بشكل عام لإعطاء الأمم المتحدة فرصة ـ حتى من جانب تشيني ورامسفيلد.

حسناً، قال الرئيس. ووافق على المنهج المقترح ـ خطاب في الأمم المتحدة حول العراق. وحذّرهم بأنّ الخطاب يجب ألاّ يكون حاداً فوق اللازم.

ولا أن يضع معياراً عالياً بحيث يبدو واضحاً للجميع أنهم ليسوا جادّين. لقد أراد بوش أن يعطي الأمم المتحدة فرصة.

وخرج پاول وهو يشعر بأنّهم قد اتفقوا، ثم ذهب لقضاء إجازة إلى هامبتونز في لونغ آيلاند في نيويورك.

وكان بعد ذلك بأربعة أيام أنْ ذهبتُ إلى كروفورد في تكساس من أجل مقابلتي الأخيرة مع الرئيس بوش في 20 أغسطس/آب سنة 2002. وكان عدد من مساعديه الأقربين قد اقترحوا أن أقوم بالمقابلة معه في كروفورد، وهو المكان الذي يشعر فيه بالارتياح أكثر من أي مكان آخر. وكان ذلك بعد مرور 11 شهراً على الهجمات الإرهابية. وكان بوش وزوجته لورا قد قاما ببناء منزل جميل صغير مؤلف من طابق واحد في زاويةٍ منعزلة من المزرعة التي يملكانها والتي تبلغ مساحتها 1600 فدان. وكان منزلهما يطل على بحيرة اصطناعية. وكانت هذه إجازة الرئيس، فكان يرتدي الجينز وقميصاً بكُمّ قصير وجزمة ثقيلة للعمل من جزم رعاة البقر. وكانت تبدو عليه الراحة والتركيز.

وكانت معظم أسئلتي تتعلق بالحرب في أفغانستان والحرب الأوسع نطاقاً على الإرهاب. وأجوبته تنعكس كلياً في هذا الكتاب. ولكنّه أشار إلى عدة نقاط يجدر التأمل فيها الآن.

سألتُ الرئيسَ إذا كان ما فعله وفعلته البلاد في الحرب على الإرهاب كافياً. إنَّ إمكانية وقوع هجوم كبير آخر كان لا يزال يلوح. ولكن انعدام أي هجوم أدّى إلى تقوية الإحساس بعودة الأمور إلى طبيعتها. فواشنطن ومدينة نيويورك سنة 2002 كانتا بعيدتين، مثل لندن سنة 1940 أو أمريكا بعد 7 ديسمبر/ كانون الأول سنة 1941. فإنه لم يضع البلاد على أهبة الحرب، ولم يطالب بالتضحية من أعداد كبيرة من المواطنين، ولم يتخذ ما قد يُعتبر بالنسبة له إجراءً هائلاً لا يخطر بالبال، ألا وهو رفع الضرائب أو إلغاء خفضه للضرائب لسنة

2001. ألم يكن ممكناً أنه قد عبّأ البلادَ أقلّ من اللازم إذا أُخذ بعين الاعتبار تهديد 11 سبتمبر/ أيلول والدمار الذي أحدثه؟

وسألته: «إذا ضُربنا مرةً أخرى عاجلاً بشكل كبير مذهل ـ فإنّ الناس سينظرون إلى الوراء وسيقولون: لقد فعلنا الكثير ولكن لم نفعل ما فيه الكفاية»؟

فقال بوش: «الجواب على سؤالك هو: أين تُعبّئ؟ فنحن نعبّئ بمعنى أنّنا ننفق». ثم ذكر زياداتٍ كبيرة في ميزانيات مكتب التحقيق الفيديرالي ووكالة المخابرات المركزية والإطفائيين وغيرهم. أي أول المستجيبين للهجمات الإرهابية.

فقلتُ إنّ شخصاً كان قد ذكر لي أنّ هناك نحو 11,000 عامل فقط لدى مكتب التحقيق الفيديرالي فيما كان هناك 180,000 جندي تقريباً في المارينز الأمريكي. ألم يكن ممكناً تعيين بعض هؤلاء الجنود ـ وبعضهم ضباط مخابرات وخبراء أمن ممتازون ـ في المطارات وفي أهداف أخرى محتملة ومعرّضة للهجوم؟ فإنه كان ينفق معظم وقته في مسائل الحرب والأمن القومي. وكانت رايس تنفق 80 بالمئة من وقتها على الأرجح على ذلك أيضاً. فأين بقية الحكومة؟

فأجاب بوش: «هذا سؤال مثير. والجواب هو: إذا ضربونا بشدة، فالجواب هو لا» ـ يعني أنه لم يكن قد فعل ما فيه الكفاية. «وإذا لم يضربونا بشدّة، فالجواب هو قد فعلناها بالطريقة الصحيحة».

وقلتُ إنني كنت قد تحدّثت مع كارل روف الذي قال إنّه الحرب في نهاية المطاف ستُقاس بالنتيجة. «كلّ شيء سيُقاس بالنتائج»، كان روف قد قال. «فالمنتصر هو دائماً على حق. والتاريخ ينسب إلى المنتصر ميزات قد كانت بالفعل موجودة أو هي غير موجودة. ومثل ذلك يُنسب إلى المنهزم».

ووافق بوش، ولكنّه قال إنّ المشكلة هي أنّ الحرب قد تحوّلت إلى نوع

من المطاردة الدولية. فكان يجب مطاردة الإرهابيين واحداً واحداً. ولم يكن ذلك فقط لإشباع ما سمّاه «شهوة الجمهور للدماء». وفي الوقت نفسه كان يُدرك أهميّة القبض على بن لادن ـ «قطع رأس» قيادة القاعدة.

وكان رأيه أنّه لم يكن هناك أي دليل مقنع يشير إلى أنّ بن لادن كان حياً أو ميتاً. وتساءلَ عن انقطاع الاتصالات منه: ولا حتى رسالة مسجّلة واحدة. «كل ما أعرفه هو أنّه امرؤ مصاب بجنون العظمة»، قال بوش. «هل هو منضبط إلى تلك الدرجة بحيث يستطيع أن يبقى ساكناً لمدة تسعة أشهر؟».

وسألتُ: «لماذا لم يضربوا مرة أخرى؟».

فقال بوش: «ربما نحن بارعون في ما نقوم به». ولكن ربما لا. فالمحقّقون قد أثبتوا أن التخطيط لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول استغرق مدة سنتين على الأقل. واقترحَ أنّه من الجائز أن يكون قد استخفّ بالطرف الآخر، وأنّهم ينفقون وقتاً أكبر في جهودهم البعيدة المدى، وأنّ ما قد يحدث الآن للتوّقد كان رهن التخطيط لمدة أطول بكثير.

ثم أثار الرئيس إمكانية أكثر إرهاباً. لقد كان أكبر همٍّ لمكتب التحقيق الفيديرالي هو أن يكون أعضاء في القاعدة ـ وسمّاهم «قتلة ماكرون دون أي عاطفة» ـ قد خبّأوا أنفسهم بعمق في المجتمع الأمريكي وأنهم يقضون وقتهم في شقق بحدائق أو في أمكنة أخرى ينتظرون لحظتهم المقرّرة سلفاً للضرب. وقال: «ربما هناك دورة تخطيط مدتها أربع سنوات».

وأردتُ أن أحاول فهم المنهج العام أو الفلسفة الإجمالية للرئيس بالنسبة للشؤون الخارجية وسياسة الحرب. لقد أُطيح بالطالبان، ولكن هناك احتمال أن يكون بن لادن، ومن غير ريبٍ، والكثير من التابعين لشبكة القاعدة، قد هربوا. وهجمات إرهابية أخرى كانت متوقعة. ولدى الولايات المتحدة الآن نحو 7,000 جندي على أرض أفغانستان، وأفغانستان لا تزال مكاناً خطِراً وغير

مستقر. وكرزي في خطر دائم حتى مع وجود القوات الخاصة الأمريكية كحرسٍ خاص له.

والبيانات النظرية التي أعلنها بوش حول رفض بناء الشعوب قد نُبِذت بالجملة تقريباً مقابل الحاجة إلى إبقاء أفغانستان متماسكة. وكان بوش يتصرّف في بعض الأحيان كمدير الميزانية الأفغانية وجابي الفواتير الأفغاني.

«إذا طُلبت مرة، فقد طلبت 20 مرة. أريد أن أرى تقدير حركة الأموال للحكومة الأفغانية»، قال بوش. «مَن يدين بمال؟ لقد كتبتُ رسالةً منذ بضعة أيام ألحُ فيها على هؤلاء الأشخاص في أوروبا تقديم بعض المال». وكان قد عَلِم بأن جندياً أفغانياً مدرَّباً يُكلِّف 500 دولار في السنة فقط. «فقلتُ إنه ليس هناك أي منطق في تدريب الناس للجيش ومن ثَمّ عدم دفع رواتبهم».

وحتى ذلك اليوم في كووفورد، لم أكن قد سمعت شيئاً عن طموحات بوش الشاملة لرئاسة الولايات المتحدة. معظم الرؤساء لديهم آمال عالية. وبعضهم لديهم رؤية فخمة لما سينجزونه، وكان بوش من هذه الفئة تماماً.

«سأنتهز الفرصة لإنجاز أهداف كبيرة». أخبرني بوش، ونحن جالسان في غرفة واسعة في منزله والنسيم يهب عبر المُنخُل بشكل مريح «ليس هناك شيء أكبر من إنجاز السلام العالمي».

وقال إن أفعالهم لم تكن فقط من أجل أغراضٍ استراتيجية أو أغراضٍ دفاعية. «أترى، إنه كالعراق لم تكن كوندي تريدني أن أتحدّث عن ذلك». وضحك هو ورايس التي كانت تجلس معنا خلال المقابلة. «ولكن انتظر لحظة»، استمر بوش. «فقط كفكرة جانبية، وسنرى ما إذا كان الأمر سيُدعم. فمن الواضح أنه ستكون هناك نتائج استراتيجية لتغيير النظام في العراق، هذا إذا سعينا قُدُماً ولكن هناك شيء تحت ذلك، على ما أرى، وهو أنه سيحدث ألم عظيم».

ونظر بوش إلى رايس. «أو كوريا الشمالية». أضاف بسرعة. «دعني أتكلّم عن كوريا الشمالية». ولكن كان يبدو أنه كان يعني العراق أيضاً. فقد كانت العراق وكوريا الشمالية وإيران تشكّل «محور الشر» الذي كان قد عرّفه في خطابه عن حالة الاتحاد.

وتقدّم الرئيس إلى الأمام على كرسيه وظننتُ أنه سيثب واقفاً، إذ أصبح منفعلاً جداً فيما كان يتحدث عن قائد كوريا الشمالية.

«أنا أمقت كيم جونغ إيل!» صرخ بوش وهو يلوّح بإصبعه في الهواء. «إن لديّ اشمئزازاً غريزياً من هذا الرجل لأنه يجوع شعبه. ولقد رأيت مخابرات عن هذه المعسكرات للسجناء ـ وهي ضخمة ـ التي يستخدمها لتفريق العائلات ولتعذيب الناس ويروّعني...».

وسألت إذا ما كان قد رأى الصور التي أخذتها الأقمار الاصطناعية لمعسكرات السجناء والتي وفّرتها وكالات المخابرات الأمريكية.

«نعم، إنها تروّعني». وتعجّب كيف كان بإمكان العالم المتحضّر الوقوف جانباً ومعاملة رئيس كوريا الشمالية برفق فيما كان يجوع شعبه. «إنه غريزي. ربما هذا بسبب دیانتي، ربما لأنني ـ ولكنني أحس بالانفعال حول ذلك». وقال إنه يدرك أيضاً أن الكوريين الشماليين يملكون قوة عسكرية ضخمة متأهبة لاجتياح جنوب كوريا، حليفة الولايات المتحدة.

«أنا لست أحمقاً». استمر الرئيس. «إنهم يخبرونني بأنه ليس هناك حاجة للتحرك بسرعة، لأن الأعباء المالية على الناس ستكون هائلة جداً بحيث إذا حاولنا أن ـ إذا أُطيح بهذا الرجل فمن سيتولّى رعاية ـ أنا لا أقبل هذا. فإمّا أن تؤمن بالحرية وتريد أن ـ وتقلق على حالة الإنسان، أو لا».

وفي حال أنني لم أستوعب الأمر، أضاف بوش: «وبالمناسبة، أنا أشعر

بنفس الشعور بالنسبة لشعب العراق». وقال إن صدام حسين يجوع شعبه في المناطق الشيعية النائية «هنالك حالة إنسانية علينا أن نقلق بشأنها.

«ونحن نفكّر بأمر العراق. وقد نهاجم وقد لا نهاجم. ليس عندي فكرة بعد. ولكنّها ستكون بهدف جعل العالم أكثر سلاماً»، قال بوش.

وقال: «لقد أردت أن يُنظر إلينا كمحرِّرين» في أفغانستان.

وسألته على وجه التخصيص عن تلك اللحظة في أواخر أكتوبر/ تشرين الأول سنة 2001 عندما أخبر وزارة الحرب بأن التحالف لا يتماسك بالتشاور بقدر ما يتماسك بقيادةٍ أمريكية قوية تُرغم بقية العالم على التكيُّف.

فقال الرئيس: «في الواقع لا تستطيع أن تصل إلى حل مشكلة بالكلام. والولايات المتحدة الآن في وضع استثنائي. فنحن القائد. وعلى القائد أن يجمع بين القدرة على الاستماع للآخرين بالإضافة إلى العمل».

«أنا أؤمن بالنتائج. إذا قلتُها مرة، فأنا أعلم بأن العالم يراقب باهتمام، وسيكون منبهراً بل سينبهر بالنتائج المنجزة. فإنه من عدة نواحٍ ككسب رأس المال. إنها طريقة لنكسب رأس مالٍ في تحالفٍ قد يكون هشّاً. وسبب كونه هشاً هو وجود امتعاض تجاهنا».

«أنت تعلم ما أعنيه هو إذا أردتَ أن تسمع الامتعاض استمع فقط إلى كلمتين (أحادي الجانب). ما أعنيه هو أن هذا امتعاض. فإذا أراد أحدٌ أن يقول شيئاً سيئاً عنا، (بوش أحادي الجانب، أمريكا أحادية الجانب). أنت تعلم، وإني لأجد هذا مسلياً. ولكنني أيضاً ـ لقد كنت في اجتماعاتٍ كان فيها نوعٌ من «لا يجب علينا أن نفعل حتى نكون كلنا على اتفاق».

وقال بوش إنه لا يظن أن الاتفاق هو القضية. ثم فوجئت بشمولية تصريحه التالي.

وأعلن: «حسناً، لن نجمع الكل على الاتفاق حول القوة واستخدام القوة أبداً»، ملمِّحاً إلى أن تحالفاً دولياً أو الأمم المتحدة قد لا تكون طرفاً قابلاً للتطبيق من أجل معالجة مع دول خبيثة خطِرة». ولكن العمل ـ العمل النابع من الثقة الذي يقدم نتائج إيجابية سيقوم بتوفير نوع من المجرى الهوائي الذي تستطيع الدول والقادة المتردِّدون السير خلفه، وبذلك يثبتون لأنفسهم أن هناك قد ـ أنت تعلم، شيئاً إيجابياً قد حدث من أجل السلام».

وقال بوش إن الرئيس يعالج معارك تكتيكية يومية كثيرة حول الميزانيات وقرارات الكونغرس، ولكنه كان يرى أن وظيفته ومسؤولياته أكبر بكثير. وكان والده قد سَخِرَ ببعض الانتظام من مفهوم الرؤية أو «أمر الرؤية» واعتبرها غير نافعة. ولذا فوجئتُ أيضاً عندما قال بوش الأصغر: «إن الوظيفة هي ـ إن أمر الرؤية مهم. وهذا درس آخر قد تعلَّمته».

وكانت رؤيته تتضمَّن بشكل واضح طموح إعادة تنظيم العالم عن طريق العمل العسكري المسبق والأحادي الجانب ـ إذا كان ذلك ضرورياً ـ من أجل تخفيف المعاناة وجلب السلام.

وخلال المقابلة تحدَّث الرئيس اثنتي عشرة مرة عن «غرائزه» أو ردود فعله «الغريزية»، بما في ذلك تصريحه: «أنا لا ألعب حسب النص، أنا لاعبٌ غريزي». فمن الواضح أن دور بوش ـ كسياسي، وكرئيس، وكقائد أعلى للقوات المسلَّحة ـ يدفعه إيمان علماني بغرائزه ـ باستنتاجاته وآرائه الطبيعية والتلقائية. إن غرائزه تكاد تكون دينه الثاني.

وعندما سألت عن إسهامات پاول على وجه التخصيص، قدَّم الرئيس رداً فاتراً. «إن پاول ديبلوماسي». أجاب بوش. «ويجب أن يكون عندك ديبلوماسي. وأنا أتصوَّر نفسي ديبلوماسياً جيداً، ولكن لا أجد غيري يرى هذا. وأنت تعلم، بشكل خاص، ما كنت لأسمي نفسي ديبلوماسياً. ولكن على أي حال فإن پاول شخص ديبلوماسي لديه خبرة في الحرب».

وسألتُ: هل أراد پاول لقاءات خاصة؟

فقال بوش: «إنه لا يمسك الهاتف ويقول: من الضروري أن آتي وأراك». ثم أكّد أنه قد اجتمع بپاول في لقاءات خاصة بحضور رايس. «دعني أفكّر في پاول. وجدتها. لقد كان جيداً جداً مع مشرّف. إنه جلب إلينا مشرّف. وكان جيد جداً في هذا الأمر. لقد رأى فكرة ضرورة تكوين تحالف».

«سأقدّم لك جولة»، اقترح الرئيس بعد ساعتين و25 دقيقة. فسِرْنا إلى الخارج ثم ركب خلف عجلة قيادة شاحنة البيك أب التابعة له، وأومأ إلى مقعد الراكب. وحشدث رايس وعميلةٌ للخدمات السرية نفسيهما في المقعد الخلفي الضيق للركاب. ووضع بارني ـ كلبه الترير الاسكتلندي ـ نفسه بيننا في المقدمة، وسرعان ما صار في حجر سيده.

وانحدرنا قليلاً عبر طريق ملتوٍ من السهول إلى وادٍ صغير حيث كان من الممكن رؤية أشكال صخرية مدهشة على بُعْدٍ يبلغ ارتفاعها على الأرجح من 20 ـ 32 متراً. وأخذ الرئيس كل منعطفٍ من الطريق المغطى بالحصاء ببطء، وهو يستمتع بالامتداد الواسع للأرض. وقدّم تعليقات على الأشجار والأرض ومناطق الغابات الكثيفة والسهول المنبسطة. وأشار إلى الأشجار المسقطة التي كان يجب تقطيعها وإلى رفعٍ من الغابة التي كان يبدو عليها النمو، وإلى الأماكن التي قام بإخلائها بنفسه عن شجر الأرز، وهو شجر غير محلّي يأخذ الماء والنور الثمين من أشجار البلوط والأشجار الأخرى ذات الخشب الصلب القريبة.

وكان يبدو أن في ذهنه مكاناً محدّداً فيما كان يُدخل الشاحنة في ركنٍ مخفي من الأشجار، ثم توقف. فخرجنا، وكنا قد قطعنا أكثر من ثلاثة كيلومترات عبر ممتلكاته.

وقالت رايس إنها لن تخرج لأنها لم تكن ترتدي الحذاء المناسب. ولم

تتبعنا عجلة الخدمات السرية. إذن سرت مع الرئيس وحدي نحو جسرٍ خشبي على بعد 19 مترٍ تقريباً.

وفيما نحن نجتازه لاح فوقنا تشكيلٌ صخري عملاق من حجر الكلس لعلّ عرضه يبلغ 38 متراً، ولونه قريب من الأبيض، وهو على هيئة هلال بجزء ناتىء شديد الانحدار. وبدا وكأنّ صَدَفة بحرية عملاقة قد نَمَتْ في الوادي التكساسي. وكان شلال طبيعي صغير يتدفق من وسط الجزء الناتىء. وكان يبدو على الصخر القِدَم قِدَمَ السراديب الرومانية. وكأنَّ للهواء رائحة عذبة حادة لم أستطع تعيينها. ثم شرع بوش في إلقاء الحجارة على الجزء الناتىء، وانضممت إليه لبرهة.

وفيما نحن عائدان، تطرّق بوش إلى العراق مرة أخرى. فأخبرني بأن مخططه أو نموذجه لأخذ قرار بشأن أي حربٍ ضد العراق يمكن إيجاده في القصة التي كنت أحاول أن أسردها ـ الأشهر الأولى من الحرب في أفغانستان والحرب السرية غير المرئية عموماً لوكالة المخابرات المركزية ضد الإرهاب على النطاق العالمي.

وقال: «عندك القصة». وكان يبدو أنه يقول: انظر بشدة إلى ما بحوزتك. فكل شيء موجود هناك إذا جُمِع معاً ـ كل ما كان قد تعلّمه، وكيفية استقراره في الرئاسة، وتركيزه على الأهداف الكبيرة، وكيفية أخذه القرارات، وسبب تحريضه لوزارة الحرب وضغطه على الناس للتصرف».

وكنتُ أُجهد نفسي لأفهم معنى ذلك. ففي البداية كان تعليقه هذا وما قاله سابقاً يوحيان بأنه كان يميل إلى القيام بهجوم ضد العراق. ولكن في وقت مبكر من المقابلة كان قد قال: «أنا شخص من ذلك النوع الذي يريد أن يتأكد بأن جميع المخاطر، خاصة في الحرب، مخاطر مأخوذةٌ بالنسبة إلى ما يمكن إنجازه» وكان الشيء الذي يريد إنجازه يبدو واضحاً: إنه يريد إخراج صدام.

وقبل رجوعه إلى شاحنته أضاف بوش قطعةً أخرى لأحجية العراق. فقال إنه لم يكن قد وجد بعد خطةً ناجحة للعراق. فكان عليه أن يكون حذراً وصبوراً. ثم أضاف: «إن الرئيس يجب أن تكون لديه خطة عسكرية تُكلّل بالنجاح».

«تشيني يقول إنَّ خطر عراقٍ نووي يسوّغ الهجوم». قرأ پاول في جريدة النيويورك تايمز صباح 27 أغسطس/آب وهو عائد من إجازته. وكان هذا هو المقال الرئيسي. وكان نائب الرئيس قد ألقى خطاباً متشدّداً في اليوم السابق أعلن فيه بأن تفتيش الأسلحة كان بشكل أساسي من غير جدوى. «إنَّ عودة المفتشين لن يعطي أي ضمان أياً كان لإذعانه لقرارات الأمم المتحدة»، كان تشيني قد قال. «بل على العكس، هناك خطر كبير بأن تقدّم عودة تشيني راحةً زائفةً بأن صدام قد (عاد إلى صندوقه) بطريقة ما». ثم عبّر تشيني عن قلقه العميق من أسلحة الدمار الشامل التي سمعت وزارة الحرب عنها مرات كثيرة. ففي أيدي «ديكتاتور قاتل» تشكّل الأسلحة «أكبر تهديد يمكن تصوّره. وإن مخاطر عدم التصرُّف أكبر بكثير من مخاطرة التصرف». وفُسِّر خطاب تشيني على نحوٍ واسع بأنه يمثّل سياسة الإدارة. وكانت اللهجة قاسية وغير مفهومة. وقد ذكرتْ مشاورات مع حلفاء ولكنها لم تدع دُوَلاً أخرى للانضمام إلى تحالف.

وذُهِل پاول. إن كلام تشيني بدا وكأنه هجوم مسبق على ما كان پاول يظن أنه قد اتُفق عليه قبل عشرة أيام ـ إعطاء الأمم المتحدة فرصة. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ التهجم على تفتيش الأسلحة كان مناقضاً لتأكيدات بوش طوال السنة بأن الخطوة التالية يجب أن تكون السماح لمفتشي الأسلحة بالعودة إلى العراق. فهذا ما كان الجميع ـ الأمم المتحدة والولايات المتحدة ـ يتشاجرون عليه مع صدام منذ سنة 1998، عندما طَرَدَ صدام المفتشين.

وفي اليوم التالي لخطاب تشيني، قابل رامسفيلد 3,000 مارينز في كامب بندلتون في ولاية كاليفورنيا. «أنا لا أعلم كم دولة ستشترك إذا قرّر الرئيس أن

مخاطر عدم التصرف أكبر من مخاطر التصرف»، قال رامسفيلد. واستطاع پاول حل الشيفرة: لقد أكّد تشيني أن المخاطر تكمن في عدم التصرف، وكان رامسفيلد قد قال إنه لا يعلم كم دولة ستنضم إذا وافق الرئيس مع تشيني. وقال رامسفيلد بأن عمل الصواب «قد يبدو في بداية الأمر موحشاً» ـ التعبير الجديد للعمل الفردي، وبمعنى آخر: أحادية الجانب.

وما جعل الوضع أسوأ حالاً هو أن البي بي سي بدأت ببثّ مقتطفات من مقابلةٍ مع پاول قد أجراها سابقاً وقال فيها إن استئناف مفتشي الأسلحة سيكون «مفيداً». «إن الرئيس واضح في أنه يعتقد بأن مفتشي الأسلحة لن يعودوا»، كان پاول قد قال: «إن العراق قد انتهكت الكثير من قرارات الأمم المتحدة خلال معظم الـ 11 سنة السابقة أو ما يقاربها. وإذن، فخطوة أولى، لنرَ ما سيجده المفتشون. أرسلوهم إلى هناك مرة أخرى».

وظهرت قصص في الأخبار تقول إن پاول يناقض تشيني، أو أنه يناقضه. وفجأة أدرك پاول أن الانطباع العام لسياسة الإدارة تجاه المفتشين في العراق كان على عكس ما كان يعرفه. واتهم بعض كتّاب صفحة الرأي پاول بعدم الإفلاس. وعدَّ سبع مقالات تطالب باستقالته أو تلمِّح بأن عليه ترك وظيفته. فمن وجهة نظره كانت أبواب الجحيم كلها قد انفتحت. وتعجَّب: كيف يمكن أن أكون غير مخلص عندما أقدِّم الموقف المعلن من قِبَل الرئيس؟

وعندما عاد پاول من إجازته طلب لقاءً آخر مع بوش. وانضمَّت رايس إليهما على الغداء في 2 سبتمبر/أيلول، يوم عيد العمل، فيما أخذ پاول باستعراض فوضى أغسطس/آب. ألم يكن موقف الرئيس بأنه يجب على مفتشي الأسلحة العودة إلى العراق؟

وقال بوش بأن ذلك كان موقفه، ولكنه يشك في نجاحه. ثم أكَّد مرة أخرى بأنه ملتزم بالذهاب إلى الأمم المتحدة لطلب الدعم حول مسألة العراق.

وعملياً كان هذا يعني طلب قرار جديد. وكان پاول راضياً عندما غادر إلى إفريقيا الجنوبية لحضور مؤتمر.

ومساء يوم الجمعة الواقع في 6 سبتمبر/ أيلول، كان پاول قد رجع وانضم إلى الرؤساء في كامب داڤيد من دون الرئيس.

واحتجّ تشيني بأن طلب قرار جديد سيُعيدهم إلى طبخة عملية الأمم المتحدة ـ ميئوس منها، ولا نهاية لها، ومتردِّدة. وكل ما على الرئيس أن يقوله هو أن صدام شرير، وأنه انتهك وتجاهل وداس على قرارات الأمم المتحدة عامداً متعمداً، وأن الولايات المتحدة تحتفظ لنفسها بحقّ التصرُّف الأحادي الجانب.

وردّ پاول بأن هذا ليس طلباً للدعم من الأمم المتحدة. فإن الأمم المتحدة لن تتقلّب بهذه الطريقة وتعلن بأن صدام شرير وتفوِّض إلى الولايات المتحدة ضربه عسكرياً. إن الأمم المتحدة لن تقبل بذلك. وقال پاول إن الفكرة لن تكون رائجة، وإن الرئيس قد قرّر إعطاء الأمم المتحدة فرصة، والطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي طلب قرار.

وكان تشيني مصمِّماً فوق التهوُّر على عمل عسكري ضد صدام، وكأن لا شيء غير ذلك كان في الوجود.

وحاول پاول أن يلخص عواقب التصرف الأحادي الجانب. سيكون عليه إغلاق السفارات الأمريكية في جميع أنحاء العالم إذا تصرَّفوا وحدهم.

وقال تشيني إن تلك لم تكن القضية. إن صدام وتهديده الواضح هما القضية.

وقال پاول إن الأمور قد لا تحدث كما يظن نائب الرئيس، فإنَّ الحرب قد تثير أنواعاً شتى من العواقب غير المتوقعة وغير المقصودة.

ليست هذه هي القضية، قال تشيني.

وانفجرت المناقشة في جدالٍ عنيف يرقص على طرف الكياسة ولكن دون أن تبتعد عن اللياقة الرسمية التي كان تشيني وپاول يظهرانها عادةً تجاه بعضهما البعض.

وفي الصباح التالي عقد الرؤساء اجتماعاً لمجلس الأمن القومي مع الرئيس. فقاموا بإعادة نقاط المناقشة، وبدا أن بوش كان يشعر بالارتياح لطلب قرار من الأمم المتحدة.

وخلال عملية كتابة مسودة الخطاب ظل تشيني ورامسفيلد يضغطان. إنَّ طلب قرار جديد سيعوِّقهم في مستنقع من الجدل والتردد في الأمم المتحدة. وسيفتح الباب لصدام للتفاوض مع الأمم المتحدة، فإنه سيقول كلمات يعرض فيها الإذعان ولكن بعد ذلك سيتجاهل الجميع كعادته.

وهكذا أُزيل طلبُ القرار من الخطاب. واستمرَّت الاجتماعات لكتابة المسودة لعدد من الأيام. وتهجَّم الخطاب على الأمم المتحدة لعدم فرض تفتيش الأسلحة في العراق بالقوة. وبالتحديد في السنين الأربع منذ قام صدام بطرد المفتشين.

«لا يمكنكم أن تقولوا كل ذلك». اعترض پاول، «دون أن تطلبوا منهم فعل شيء ما. ليس هناك فعل في الخطاب».

«إن الخطاب يقول: ها هنا قد أخطأ صدام في فعله، وها هنا ما عليه فعله ليصلح نفسه»، ثم يتوقف الخطاب؟ سأل پاول ببعض التعجب: «عليكم أن تطلبوا شيئاً ما».

وتشاجر الرؤساء عندها حول ماهية الطلب. فكيف كان على «الطلب» أن يبدو؟ وفي النهاية اتفقوا على أن يطلب من الأمم المتحدة التصرف.

ورضي پاول بذلك لأنَّ الطريقة الوحيدة التي تتصرَّف عبرها الأمم

المتحدة هي في واقع الأمر من خلال القرارات. فكان هذا هو التصرف المفهوم ضمناً. وكانت المطالبة بقرار جديد هي التي ستفيد المغزى المطلوب، ولكن المطالبة «بالتصرف» كان كافياً بالنسبة لپاول.

وأخبر طوني بلير بوش سراً بأن عليه أخذ طريق قرار الأمم المتحدة. وأخبر داڤيد مانينغ ـ مستشار الأمن القومي البريطاني ـ رايس الشيء نفسه.

ويومان قبل موعد ذهاب الرئيس إلى الأمم المتحدة، راجع پاول المسودة رقم 21 لنص الخطاب الذي كان البيت الأبيض قد بعثه إليه مختوماً بأكمله بعبارتي «لعينيك فقط» و«عاجل». وفي الصفحة الثامنة وعد بوش بالعمل مع الأمم المتحدة «لمواجهة التحدّي المشترك». ولم يكن هناك أي مطالبة للأمم المتحدة بالتصرف.

وخلال اجتماعٍ للجنة الرؤساء من دون الرئيس قبيل مغادرة بوش لمدينة نيويورك، عبّر تشيني عن معارضته لجعل الرئيس يطلب قرارات جديدة على وجه الخصوص. واحتجَّ نائب الرئيس بأن هذه مسألة تتعلّق بالتكتيك وبمصداقية الرئيس. فلنفترض بأن الرئيس قام بالطلب ثم رفض مجلس الأمن؟ إن صدام سيد الخداعين وهو سيغش ويتراجع ويجد وسيلة لتأخير ما كان متطلباً. فالشيء الضروري هو خلع صدام من سلطته. فإنه إذا هاجم الولايات المتحدة أو أية دولة أخرى بأسلحة الدمار الشامل المتوفرة لديه ـ وخاصة على نطاق واسع ـ فإنَّ العالم لن يغفر لهم أبداً تباطؤهم واستسلامهم لنزوة المشاركة في مناظرات سيمالتيكية لقرارات الأمم المتحدة.

وقال رامسفيلد إنه يجب عليهم الوقوف على أساس المبادئ، ولكنه بعد ذلك عرض سلسلة من الأسئلة البيانية ولم يتعرّض بشدة لمسألة اللغة.

وهجم تشيني وپاول على بعضهما البعض في جدال لاذع. وكانت دولية پاول تقابل أحادية تشيني.

وأخبر پاول آرميتاج لاحقاً: «لا أعلم إذا حصلنا عليها أم لا».

وفي الليلة السابقة للخطاب، تحدَّث بوش مع پاول ورايس. لقد قرَّر أنه سيطلب قرارات جديدة. وفي بادئ الأمر فكَّر أنه سيفوِّض إلى پاول ورايس أن يقولا بعد خطابه بأن الولايات المتحدة ستعمل مع الأمم المتحدة على هذه القرارات. ولكنه توصَّل إلى نتيجة أن بإمكانه أن يقول ذلك بنفسه في الخطاب. لقد كان يحب أن يأتي الخط الرئيسي للسياسة مباشرة من عنده. وأمر بإضافة جملة قريباً في بداية الصفحة الثامنة يقال فيها إنه سيعمل مع مجلس الأمن للأمم المتحدة على اتخاذ «القرارات» الدورية. وقد أُضيفت هذه إلى المسودة التالية والأخيرة رقم 24.

وأخبر پاول آرميتاج: «سوف يضعها هناك».

وعلى المنصة في القاعة المشهورة للجمعية العمومية، وصل بوش إلى ذلك الجزء من خطابه حيث كان سيقول إنه سيسعى إلى قرارات. ولكن الإضافة لم تصل إلى النسخة التي وُضعت في التيليبرمبرتر. ولذا قرأ بوش الجملة القديمة: «أمتي ستعمل مع مجلس الأمن للأمم المتحدة على مواجهة التحدي المشترك.

وكان پاول يتابع القراءة في المسودة رقم 24، مضيفاً إليها بقلم الرصاص كل ارتجالٍ يقوم به الرئيس. فكاد قلبه أن يتوقف. لقد اختفت الجملة عن القرارات! لقد كانت هي الموجز لهم!

ولكن فيما كان بوش يقرأ الجملة، أدرك أن الجزء المتعلق بالقرارات كان ناقصاً. وببعض الارتباك ارتجلها بوش مضيفاً بعدها جملتين: «سنعمل مع مجلس الأمن للأمم المتحدة على القرارات الضرورية».

فتنفس پاول مرة أخرى.

ولقي خطاب الرئيس نجاحاً كبيراً بشكل عام. وأُثني عليه على نطاق

واسع لصرامته ولاستعداده لطلب الدعم الدولي لسياسته حول العراق ولتحدّيه الفعّال للأمم المتحدة لتفرض تنفيذ قراراتها. وكان هذا دعم كبير لپاول الذي تخلّف في نيويورك لحشد الدعم لهذه السياسة، وخاصة من قِبَل روسيا وفرنسا اللتين كان بإمكانهما استخدام الفيتو ضد أي قرار باعتبارهما عضوين دائمين في مجلس الأمن.

وفي اليوم التالي أعلن العراق بأنه سيسمح بالدخول لمفتشي أسلحة جدد. والقليلون آمنوا بصدق الإعلان. أرأيتم، احتجّ نائب الرئيس، إن الولايات المتحدة والأمم المتحدة يُعبث بهما، ويُلعب بهما، كأنهما مغفّلان.

واعتقد بوش أنّ استراتيجية التصرف المسبق قد تكون البديل الوحيد إذا ما كان جاداً حول عدم انتظار الأحداث. فالحقائق في بداية القرن 21 كانت اثنتين: إمكانية حدوث هجوم مفاجئ هائل إرهابي آخر يشبه ما حدث في 11 سبتمبر/ أيلول؛ وانتشار أسلحة الدمار الشامل، البيولوجية والكيميائية والنووية. فإذا كان للاثنين أن يجتمعا في أيدي إرهابيين أو أيدي دولة خبيثة، فإن الولايات المتحدة قد تتعرّض للهجوم وقد يُقتل عشرات الآلاف بل حتى مئات الآلاف من الناس.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الرئيس وفريقه كانوا قد اكتشفوا بأنّ حماية وطن الولايات المتحدة وإغلاقه كان مستحيلاً أساساً. فحتى مع ازدياد الأمن والإنذارات القومية بشأن الإرهاب، كانت البلاد أكثر أمناً بنسبة ضئيلة فقط. وكانت الولايات المتحدة قد استوعبت بيرل هاربور ثم تقدّمت لتنتصر في الحرب العالمية الثانية. وحتى هذه اللحظة كانت البلاد قد استوعبت 11 سبتمبر/ أيلول وتقدّمت لتنتصر في المرحلة الأولى من الحرب في أفغانستان. ولكن ماذا سيحدث إذا حصل هجوم نووي يقتل العشرات من الآلاف أو المئات من الآلاف؟ إنّ دولة حرة قد تصبح دولة بوليسية. وماذا سيظن المواطنون أو التاريخ برئيسٍ لم يكن قد تصرّف بأشد عدوانية ممكنة؟ ومتى يحتاج الدفاع إلى هجوم فعّال؟.

وكانت حلاّلة العُقَد لبوش، كوندي رايس، تشعر بأن للإدارة خيارات قليلة مع صدام «إنَّ الكارثة والكابوس الساحقين والتامين هو أنّه لديك طاغية عدواني سيكون مسلّحاً بعد عامين بأسلحة نووية، مع تاريخه ورغبته واستعداده لاستخدام أسلحة الدمار الشامل»، قالت في مقابلة، «هل أنتم مستعدون لترك هذا الكابوس قائماً؟» وقد قال بعض خبراء المخابرات إنه سينقضي أربع إلى ست سنوات قبل أن يتسنّى له سلاحاً نووياً. «أنا في هذه المهنة منذ زمن طويل، والناس دائماً يبخسون في تقدير الوقت، ونادراً ما يغالون في تقديره. فإذا كنا مخطئين، وكان لدينا أربع أو خمس أو ست سنوات قبل أن يشكِّل صدام تهديداً نووياً، فإننا نكون قد دخلنا مبكِّرين لا غير. وإذا كان من يريد الانتظار مخطئاً، فإننا سنستيقظ بعد سنتين أو ثلاث سنوات وإذا بصدام عنده سلاح نووي وها هو يلوِّح به مهدِّداً في أكثر المناطق انفجاراً في العالم. فأي من هاتين المخاطرتين تودُّون أخذها؟».

وأضافت: «إن درس 11 سبتمبر/أيلول هو: تصدُّوا للأخطار مبكراً».

ولكن الرئيس تقدَّم وكأنه مستعد لإعطاء الأمم المتحدة فرصة، وكانت بياناته العامة، وبدلاً من التحدُّث عن تغيير النظام، قال بأن سياسته هي إرغام العراق على التخلي عن أسلحة الدمار الشامل. «إن الخيار العسكري ليس الخيار الأول»، أخبر بوش الصحافيين في الأول من أكتوبر/تشرين الأول. ولكن نزع السلاح من هذا الرجل هو الخيار الأول».

وفي خطاب للأمة يوم الاثنين الواقع في 7 أكتوبر/تشرين الأول، وهو الذكرى السنوية الأولى لبدء الهجمات العسكرية على أفغانستان، قال الرئيس إن صدام يشكِّل تهديداً مباشراً للولايات المتحدة. وفيما كان الكونغرس يتناقش حول ما إذا سيقر قراره الخاص لتفويض استخدام القوة ضد صدام، قال بوش إن الحرب يمكن تجنبها وإنها ليست وشيكة. وقال: «إني أرجو ألاّ يتطلّب ذلك عملاً عسكرياً».

وكان هذا كله نصراً لپاول. ولكن ربما لوقت وجيز فقط، فالبيانات المخفضة حدّتها كانت تعني أنه كان في مقدور الرئيس أن يقول لتشيني ورامسفيلد، ولكنها لم تكن تعني أن تصميم بوش الشديد قد قلّ. ومثل كل مرة، كان هناك صراع مستمر للفوز بقلب الرئيس وعقله، وهو يحاول أن يوازن بين نزعاته الأحادية وبعض الحقائق الدولية.

* * *

وكان بعض الديمقراطيين والجمهوريين يريدون نقاشاً علنياً حول ما يجب القيام به تجاه صدام والعراق. وقدّم عدد قليل نقداً علنياً قوياً للاندفاع الظاهر نحو الحرب، وأبرزهم نائب الرئيس السابق آل غور والسيناتور كينيدي. فاحتجوا بأن القلق بشأن صدام حقيقي، ولكن صدام لم يكن قد هاجم الولايات المتحدة أو أي دولة أخرى مباشرة. وقالوا إن الدليل على أن صدام يشكّل تهديداً وشيكاً لم يكن مقنعاً. وقالوا أيضاً إن ضربة عسكرية عبر السياسة الجديدة غير المختبرة للهجوم المسبق قد يخِلّ باستقرار دول أخرى في الشرق الأوسط، وقد يُطلق العنان لمزيد من الإرهاب من جانب صدام وغيره. وقد يترك إسرائيل معرّضة للهجوم بشكل أكبر. وقد يقلب العُرف الأمريكي القاضي بعدم الهجوم أولاً بشكل عام.

وحتى أوائل أكتوبر/ تشرين الأول لم تكن الأمم المتحدة قد اتفقت على قرارات جديدة. ولكن في 10 و11 أكتوبر/ تشرين الأول صوّت مجلس النواب ومجلس الشيوخ بشكل ساحق بمنح الرئيس السلطة الكاملة للهجوم على العراق بشكل أحادي الجانب. وكان التصويت في مجلس النواب 296 إلى 133 صوتاً، وفي مجلس الشيوخ 77 إلى 23 صوتاً. وأعطى الكونغرس الإذن الكامل بالانطلاق لاستخدام الجيش «كيفما يقرّر أن يكون ضرورياً وملائماً» من أجل الدفاع ضد تهديد العراق.

ولكنه لم يكن واضحاً ما قد يحدث في النهاية مع العراق، وإذا ما كان بوش متوجهاً إلى النصر أو الكارثة أو شيء فيما بينهما.

ومهما يكن اتجاهه فسيكون متوفراً لديه وكالةُ مخابراتٍ مركزية وآلةٌ عسكرية كلاهما أكثر مقدرةً وأكثر رغبة في العمل العسكري مما يُقدَّر عادة.

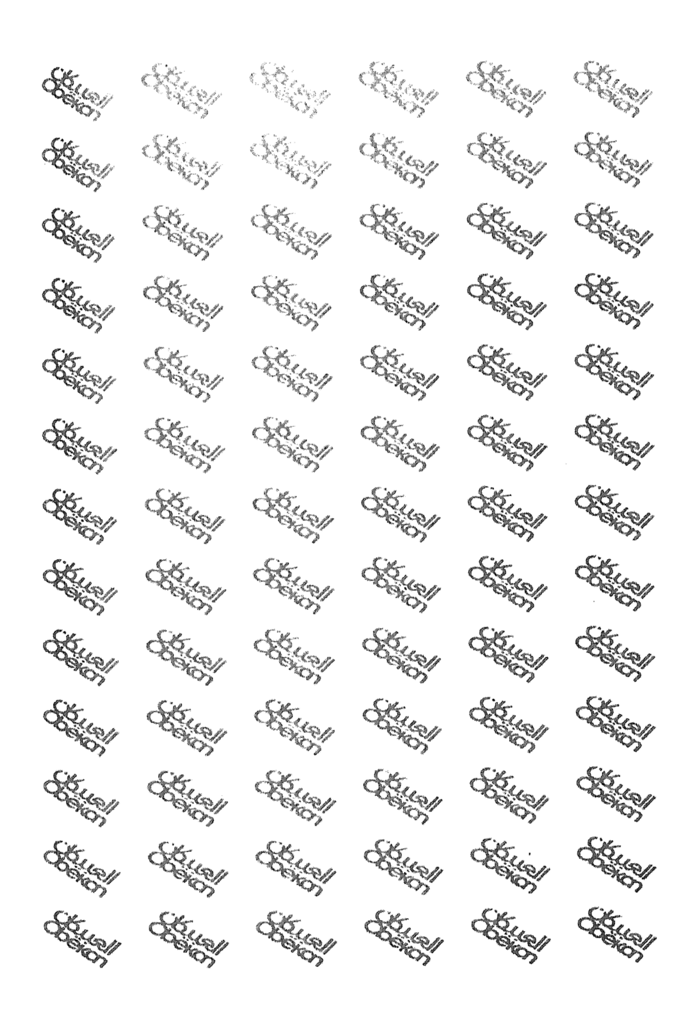
وفي 5 فبراير/ شباط سنة 2002 اجتمع نحو 25 رجلاً يمثلون ثلاث وحدات مختلفة من القوات الخاصة وثلاث فرق شبه عسكرية تابعة لوكالة المخابرات المركزية خارج كوديز في أفغانستان، في الشرق، على بعد نحو 64 كيلومتراً من الحدود الباكستانية. وكان البرد شديداً، وكانوا يكتسون ثياب التخييم والهواء الطلق. ولم يكن أحد في زيّه العسكري. وكثيرون منهم كانوا ملتحين. وكان الرجال واقفين أو جالسين على ركبهم في هذا المكان المقفر أمام طائرة مروحية. وكان علمٌ أمريكي قائماً في الخلفية. وكانت هناك كومة من الصخور مرتبة على شكل قبرٍ فوق قطعة مدفونة من مركز التجارة العالمي الموقر. والتقط شخص ما صورتهم.

وقرأ أحد الرجال صلاةً، ثم قال: «نحن نكرِّس هذه البقعة كنصب تذكاري دائم للأمريكيين الشجعان الذين ماتوا في 11 سبتمبر/ أيلول حتى يعلم كل من يريد السعي لإيذاء أمريكا بأن أمريكا لن تقف إلى جانب وتراقب انتشار الإرهاب».

«نحن سنصدِّر الموت والعنف إلى أركان الأرض الأربعة دفاعاً عن أمتنا العظيمة».

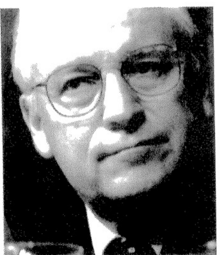








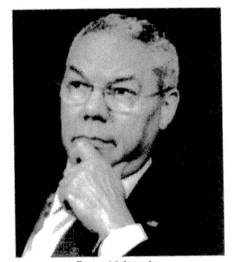
المؤلف: بوب وُدورد، مدير تحرير مساعد في صحيفة واشنطن بوست، قد عَمِلَ محرر تقارير صحفية لأكثر من ثلاثين سنة. لقد ألف أو شارك في تأليف ثمانية كتب كانت أكثر الكتب بيعاً في الولايات المتحدة. منها أربعة كتب عن الرئاسة الأمريكية - كل رجال الرئيس (١٩٧٤)، الأيام الختامية (١٩٧٦)، الأجندة (برنامج العمل) (١٩٩٤)، الظل (١٩٩٩)، وكتب عن المحكمة العليا (الأخوة ١٩٧٩)، ثقافة هوليود المخدَّرة (١٩٨٤)، وكالة الاستخبارات المركزية (١٩٨٧)، والبنتاغون (١٩٩١)، وله أيضاً كتاب عن حملة الانتخابات الرئاسية (الخيار ١٩٩٦)، وكتاب عن رئيس الاحتياط الفدرالي آلن غرينسپان (٢٠٠٠).



نائب الرئيس
دك تشيني



وزير الدفاع
دونالد رامسفيلد



وزير الخارجية
كولن پاول



مستشارة الأمن القومي
كنداليزا رايس



مدير وكالة الاستخبارات المركزية
جورج تنت

ردمك: ٧ - ٣٨٠ - ٤٠ - ٩٩٦٠

